سعد زغلول فؤاد يتذكر

مذكرات فدائي مصري

معارك شعب مصر للتحرر الوطني والديمقراطي



المكتب المصري الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ ومِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ومَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ويُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً (٢٤)

سعد زغلول فؤاد يتذكر

مذكرات فدائي مصري

معارك شعب مصر للتحرر الوطني والديمقراطي

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

الناشر : المكتب المصرى الحديث

البريد الإلكتروني : almaktabalmasry@hotmail.com

القاهرة : ٢ شارع شريف عمارة اللواء ت : ٣٩٣٤١٢٧

الأسكندرية : ٧ شارع نوبار المنشية ت : ٤٨٤٦٦٠٢

المطابع : طريق مصر اسكندرية الزراعي ك ١٠ ت : ٧٤ / ٤٤٤١٠٧٠

سعد زغلول فؤاد يتذكر

مذكرات فدائي مصري

معارك شعب مصر للتحرر الوطني والديمقراطي

تقديم

صلاح الدين حافظ جميل عارف

تعقيب

نبيل زكي إبراهيم شكري

المكتب المصري الحديث

الإهداء

- إلى قـرة عـينى وثروتى العظمى، التى وهبنى الله إياها وأنعم بهـا علىّ، أولادى : خالد – جهاد – طارق، والذين فى اغترابهم هذا الطويل بفرنسا، الذى فرضته أوضاعى السياسية ينبضون بحب مصر وانتمائهم العربى، وهو ما أضفى عليهم اعتزازا ووعيا، بأهمية وقدسية كفاح أبيهم، لنصرة الحرية وحقوق الإنسان.

- إلى زوجتى السيدة يسر حسين على سالم، التى وهبت حياتها لرعاية وخدمة أولادها وزوجها، ووقفت إلى جانبى وساندتنى فى كفاحى من أجل الحرية والحقوق الديمقراطية، ونصرة الشعوب المقهورة، وفى شجاعة وصبر أسطورى، تحاملت على ما أصابنى به السفهاء من الطغاة، خاصة منهم الثعالب الصغيرة فى بطانة السلطان، من محن معيشية متنوعة، وما حل بها من بلاء ومظالم وعقوبات، انتقاما منى فى شخصها، والرضا بشظف العيش وحياة الكفاف، من جراء محاصرتى بالتضييق علىّ فى الرزق.

صحفى هذا أم فدائى؟!

بقلم: صلاح الدين حافظ
الأمين العام لاتحاد الصحفيين العرب
نائب رئيس تحرير الأهرام - رئيس تحرير الأهرام الدولى



سعد زغلول فؤاد...

اسم قد لا تعرفه جيداً الأجيال الجديدة، لكن الأجيال الأكبر يرن الاسم فى أسماعها ببريق خاص ودوى شديد...

صحفى.. أم فدائى...

لا نستطيع أن نحدد بدقة أيهما كان سعد زغلول فؤاد، ففي الحقيقة لم يكن صحفيًا بالمعنى التقليدى، ولم يكن فدائيًا بالمقاييس التقليدية أيضًا..

إنما سعد زغلول يجمع بين صفات كثيرة، صحفى وكاتب مشاغب، فدائي وثائر، وطنى مصرى وقومى عربى، معتدل ومتطرف، مهاجر ومقيم، ثورى الأفكار والسلوك، لكنه لا يزال رغم تقدم العمر يحمل قلب طفل، بكل ما يعنيه هذا من طيبة ووداعة!

حين دخل مرحلة الشباب طالبًا في الجامعة، اصطدم ماديًا ومعنويًا بما اصطدمت به مشاعر جيله... بجنود الاحتلال البريطانى يجوبون شوارع القاهرة، فانخرط على الفور فيما اعتبره بعض زملائه جنونًا وتطرفًا، انخرط فى الحركة الوطنية عبر جناحها الثورى وليس جناحها المفاوض، لذلك كان أقرب إلى فكر منظمات المقاومة السرية، من فكر الأحزاب السياسية.

في الأربعينيات من القرن العشرين، برز اسم هذا الشاب الثورى الجرىء، الذى يحمل القنابل بين طيات ثيابه، ويلقيها على جنود الاحتلال فى الشوارع وفى كل موقع لتجمعهم يستطيع الوصول إليه، منفرداً أو بمساعدة آخرين. .

وكان طبيعيًا أن يخضع للمطاردة، فصار هدفًا مزدوجًا، لقوات الاحتلال البريطانى من ناحية، ولقوات الأمن المصرية من ناحية أخرى. . .

هجر الدراسة كما هجر الحياة العادية ونسى طعم النوم الهادئ فى بيت واحد، احترف الاختفاء والنوم نهاراً والسعى ليلاً يبحث دائمًا عن هدفه الذى لم يغب عن ناظريه.

لذلك دخل السجون والمعتقلات أكثر مما دخل المدارس والجامعات، تعرض للمطاردات والمحاكمات أكثر مما عمل فى الصحف والمجلات، ما يكاد يلتحق بصحيفة أو مجلة، حتى يختلف ويترك المكان، بحثًا عن مكان آخر يحقق فيه طموحه، ذلك الطموح الذى لم يكتف فى يوم من الأيام بالتعبير بالقلم، بل مزجه بالتعبير بالسلاح دفاعًا عن حرية بلده واستقلاله وكرامته.

لذلك قلنا من البداية إنه لم يكن صحفيًا بالمعنى التقليدى، ولم يكن أيضًا فدائيًا بالمعنى التقليدى، بل كان فدائيًا يعمل بالصحافة، أو صحفيًا يعمل فى الحركات السرية الوطنية بمرتبة فدائى، وفى الحالين كان ولا يزال نموذجًا فريداً فى حياتنا نحن الذين عرفنا اسمه ونحن صغاراً، ثم تعرفنا عليه ونحن كباراً فصادقناه وأحببناه، ليس فقط لعمق تضحياته ولكن أيضًا لفرط طيبته وصفاء نفسه رغم كل ما عانى، ورغم أنه لا يملك الآن من الدنيا إلا ما يستره، بينما مرت عليه وأمامه طوابير طويلة، ممن احترفوا الصحافة أو امتهنوا الثورية، فأثروا من هذه وتلك بدرجة مذهلة. . . بقى هو حتى الآن فقيراً!

نعم بقى هو كما هو لا يحمل حسداً أو ضغينة لأحد، حتى للذين ظلموه، وربما أثروا بسبب التمسح باسمه ذات يوم!

■ ■ ■

يقولون فى أدبيات المهنة، إن الصحافة مهنة البحث عن المتاعب. . . ولكن سعد زغلول فؤاد تمكن من أن يصوغ تعبيراً جديداً فى هذه الأدبيات، ذلك أنه لم يكتف

كصحفي بالبحث عن المتاعب، ولكنه احترف صناعة المتاعب لنفسه وللآخرين، فاكتسب صداقات كثيرة، كما اكتسب عداوات كثيرة، أحبه البعض وأعجبوا بهذا المزيج الذى فيه، بين الصحفى حامل القلم والفدائى حامل الرشاش، وشكك فيه البعض الآخر، الذين لم يستطيعوا استيعاب هذا المزيج - الذى قد يبدو متناقضاً بين رقة الكاتب وعنف الثائر...

حين نجحت الحركة الوطنية المصرية، وخصوصًا فى ظل ثورة يوليو ١٩٥٢، فى طرد آخر فلول قوات الاحتلال البريطانى، التى كان سعد زغلول أحد مطارديها فى خط القناة، تصور أصدقاؤه وزملاؤه، أن الصحفى فى داخله سيعود هادئًا آمنًا إلى بيته وصحفه ومهنته الأصلية...

لكن سعدا بحسه القومى الرفيع، تلفت على الخريطة عبر الحدود، فحمل مهنته - الفدائية - مرة أخرى على كتفه ورحل يبحث ليس عن المتاعب، ولكن يشارك فى صنع المتاعب..

ولا نظن أن هناك حركة تحرير عربية واحدة لم تعرف سعد زغلول اسمًا ومعنى ووجوداً حيًا معها فى الخطوط الأمامية... هكذا التحق بالثوار العرب يتنقل بخفة ورشاقة الثائر المقاتل، من أقصى جنوب اليمن إلى أقصى شمال العراق، ومن السودان إلى الجزائر، ومن فلسطين ولبنان إلى المغرب..

وبالتوازى لا نظن أن هناك سجنًا عربيًا واحداً فى معظم البلاد العربية لم يستضف سعد زغلول فؤاد، الذى صار إما مسجونًا وإما مطارداً، لكنه سجل اسمه فى عشرات من السجون العربية!

ربما تكون تجربته الأقسى والأمَرْ، تلك التى خاضها فى السبعينيات والثمانينيات مع بعض فصائل المقاومة الفلسطينية فى الأردن ولبنان بل وفى بعض عملياتها الهجومية فى العواصم الأوربية، حين شارك فى هذه العمليات، بما فيها عمليات خطف أو تدمير الطائرات الإسرائيلية فى المطارات البعيدة.

وإلى وقت قريب كان مطلوبًا فى كل العواصم الأوربية، حتى انكسر الظهر القوى، ليس على أيدى الأعداء، بل على أيدى بعض الأصدقاء بفضل الحسد أو الوشاية، ومنذ ذلك اليوم ألقى الرشاش وعاد يمسك بالقلم فى يد «والعكاز» فى اليد

الأخرى، يهيم بين المحطات، من القاهرة إلى باريس ومن بيروت إلى بغداد، ثم يعود الطائر إلى عشه يسكن فيه بضعة أسابيع، ليعاوده حنين السفر بدون زاد مادى يقيه جوع الغربة، لكنه ظل على الدوام مرفوع الهامة عفيفًا قانعًا إلى حد مذهل.

■ ■ ■

حين أطل وجه سعد زغلول فؤاد ذات يوم قريب عبر شاشة التليفزيون المصرى ربما للمرة الأولى عندما استضافه الصديق اللامع حمدى قنديل فى برنامجه المشهور «رئيس التحرير»، لم يكد يعرفه أحد من الأجيال الصحفية الشابة وسط صخب الحاضر، وحين استضافه الزميل الأستاذ محمود صلاح رئيس تحرير مجلة آخر ساعة ليكتب بعض مذكراته، لم تلفت نظر الكثيرين، ولم تشف غليل آخرين وأنا منهم...

فقصة هذا الصحفى الثائر والفدائى الكاتب والثورى المثقف والوطنى القومى، الذى اتهمته قوات الاحتلال فى كل بلد عربى بل بعض الأجهزة العربية، بأنه رأس من رءوس الإرهاب، قصة تحتاج إلى تجميع وتوثيق أكثر دقة وشمولاً، تكشف بالمعلومات والحقائق هذا المزيج الفريد الذى جمعه سعد زغلول بين الصحفى والفدائى، بين القلم والكلاشينكوف، بين طيبة الطفل الوديع وقلب الثائر المتمرد، بين رقة المفكر المثقف وصخب المندفع الطائش!!

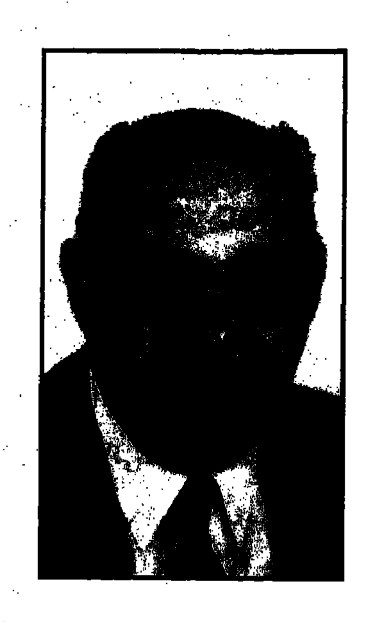
ولذلك فأنا مازلت ألح ألا نكتفى بهذه المذكرات المختصرة التى صاغها سعد زغلول فؤاد بين ضفتى هذا الكتاب، بل أتمنى أن أرى من يتفرغ لإعادة توثيقها وتعميقها... فصلاً فى كتاب الصحافة، بل فى كتاب الحركة الوطنية المصرية، والحركة القومية العربية، يكشف للتاريخ أسرار هذه الحياة الصعبة المتقلبة التى عاشها، بكل ما حفلت به من تجارب ورؤى عريضة وعميقة منسجمة أحيانًا وغامضة أحيانًا أخرى...

ما زلت ألح أن يبوح سعد زغلول فؤاد بما لم يبح به حتى الآن، من أسرار تنقله الدائم بين الصفوف والمعسكرات وميادين القتال والمواجهة، تلك التى كسرت ظهره، لكنها لم تكسر إرادته وعزمه؛ فبقى واقفًا رغم انحناءة الظهر فوق عكاز!

صلاح الدين حافظ

فدائى مصرى لا يتكرر!

بقلم: جميل عارف



عاش سعد زغلول فؤاد منذ أن عرفته مصر فى الأربعينيات، وهو يجرى وراء المتاعب. وكانت مشكلته دائما أنه كان مندفعا إلى أقصى الحدود، وجاء يوم كان زملاؤه والمعجبون بأسلوبه فى التعبير عن وطنيته يتندرون بما كان يقوم به من أعمال فدائية ضد قوات الاحتلال البريطانى فى مصر.

وكانت كل عملية من عملياته الفدائية تكفى فى حالة القبض عليه للحكم عليه بالإعدام رميا بالرصاص.

وكان دائما مشتبهًا فيه، فقد كان أول من يُقبض عليه للتحقيق معه حتى بالنسبة لعمليات لم يكن له علاقة بها، وكان يفرّج عنه عندما يثبت أن لا علاقة له بالعملية.

وعرف سعد زغلول فؤاد كل سجون مصر، وفى مقدمتها سجن الأجانب الذى كان مخصصا لاعتقال السياسيين والوطنيين الخطرين.

وكان مدير هذا السجن، وكل ضباطه والجنود العاملين فيه من أذناب الاستعمار البريطانى.

وكانت قشلاقات الجيش البريطانى فى تلك الأيام تقع إلى يمين الطريق فى المكان الذى أقيم فيه مبنى الجامعة العربية وفندق هيلتون النيل.

وكانت أرض هذه القشلاقات منخفضة عن مستوى الشارع، وكان يحيط بها سور منخفض بحيث يمكن لمن يسير إلى جوارها أن يرى ما كان يجرى فى ساحة تدريب الجنود الإنجليز.. وكان مبنى وزارة الخارجية القديم يقع إلى يسار المتجه ناحية كوبرى قصر النيل.

وكان الإنجليز عندما قبضوا على أحمد عرابى باشا بعد معركة التل الكبير جاءوا به إلى هذه القشلاقات حيث جرت محاكمته التي انتهت بالحكم بنفيه إلى جزيرة سيلان..

كان سعد زغلول يفجر قنابله فى هذه المنطقة وسط الجنود الإنجليز لترتفع الصرخات وبعدها كان يدق جرس داخل قشلاقات الجيش البريطاني، ثم تنطلق صفارات الإنذار لتملأ المنطقة كلها بالرنين.

وكان المارة يشاهدون الجنود الإنجليز وقد أصابهم الرعب والفزع، وهم يجرون فى كل الاتجاهات.. ولكن سعد زغلول فؤاد كان يواصل السير فى هدوء، وكأن شيئًا لم يحدث.

* * *

وكانت مشكلة سعد زغلول فؤاد دائما أنه كان يضع ثقته فى الكثيرين دون أن يتعرف معادن الناس..

وأذكر أنه ذهب ذات ليلة إلى زميل صحفى كان يعيش فى حارة اسمها «حارة قطة» فى حى شبرا ليقضى ليلته عنده.

وللدقة أراد أن يتخذ من هذا الزميل - رحمه الله - شاهداً على أنه كان يقضى الليل عنده فى حالة القبض عليه والتحقيق معه، ورحب الزميل الصحفى الكبير

(ص. أ) به وكان معروفا عن هذا الزميل - الذى أصبح فى يوم من الأيام مديرا لتحرير مجلة أسبوعية عريقة - أنه من أنصار الحزب الوطنى القديم، وكان يوحى للكثيرين بما كان يكتبه بأنه من الوطنيين.

المهم.. بات سعد زغلول فؤاد ليلته فى بيت هذا الزميل الصحفى الله يرحمه، وكانت مفاجأة عندما استأذن صاحب البيت فى النزول إلى الشارع لشراء فول وطعمية ليتناول سعد زغلول إفطاره، ومرت نصف ساعة ليختفى الزميل الصحفى وليعود رجال البوليس بدلاً منه للقبض على سعد زغلول.

وكما عرفنا فيما بعد.. قام الزميل صاحب الشقة بالاتصال بوزارة الداخلية فى التليفون حيث أبلغ أحد الضباط بوجود سعد زغلول فؤاد فى بيته ثم ذهب إلى قهوة مجاورة، وانتظر فيها حتى قام البوليس بمداهمة شقته والقبض على سعد زغلول فؤاد! وطبعا لم يعترف سعد زغلول فؤاد بأن له أى صلة بإلقاء القنابل على الجنود الإنجليز!

* * *

والذى أعرفه أن اسم الولد الشقى - كما كنا نطلق عليه - ولا أريد أن أقول الفدائى أو الارهابى سعد زغلول فؤاد كان مدرجا فى قوائم الانتظار فى غالبية مطارات الدول العربية للقبض عليه بمجرد وصوله إليها.

وبمعنى آخر كان مطلوبا فى هذه الدول العربية للتحقيق معه ومحاكمته فى قضايا وعمليات كانت منسوبة إليه.

ومما يروونه عنه أنه كان مطلوباً القبض عليه فى أيام حكم عبد الكريم قاسم العراق، واضطر سعد زغلول فؤاد أن يلجأ إلى مبنى السفارة المصرية فى بغداد.

واضطر السفير المصرى فى بغداد للتدخل لإنقاذ الفدائى المصرى الذى كان مطلوبا محاكمته أمام محكمة المهداوى التى لم تكن تحكم بغير أحكام الإعدام على كل من مثل أمامها من معارضى حكم عبد الكريم قاسم.

ونفس الشىء وقع فى المغرب عندما قام الجنرال أوفقير بالقبض على سعد زغلول

حيث ألقى به فى السجن، وجرت عملية تعذيب رهيبة له، ثُم قدم إلى محكمة عسكرية كان مفروضا أن تحكم عليه بالإعدام.

ولا يعرف سعد زغلول فؤاد حتى هذه اللحظة كيف أفلت من عملية إعدامه فى المغرب..!

* * *

وأعود إلى عام ١٩٤٧ عندما جرت عملية تفجير سينما مترو تعبيراً عن القوى الوطنية المصرية واحتجاجاً على موقف الرئيس الأمريكى ترومان ودعمه لقيام دولة إسرائيل على أرض فلسطين.

لقد كانت هذه السينما تمثل أحد مظاهر الاستثمارات الأمريكية فى مصر، وقد قامت عناصر من القوى الوطنية بتفجير قنبلة داخلها.

وأذكر أن سعد زغلول فؤاد كان قد اتُهم فى هذا الحادث، وعاش كثيرون واعتقادهم السائد أن سعد زغلول فؤاد هو العقل المدبر لهذا الحادث.

وكان تصورى أن يشير الفدائى المصرى القديم فى مذكراته إلى دوره فى عملية تفجير سينما مترو وكان إعجابى به شديدا عندما قال الحقيقة فى عدة كلمات، وهو أن لا علاقة له من قريب أو بعيد بالحادث.

وكان هذا يعنى.. أنه يرفض أن ينسب إلى نفسه بطولة لا علاقة له بها!

* * *

ولا يسعنى إلا أن أشبه سعد زغلول فؤاد بالأسطورة التى يصعب أن تتكرر أو أن تجد لها مثيلا. وصحيح.. أننى عرفته كزميل قديم، إلا اننى كثيرا ما كنت أشعر بالرثاء له، فقد كان آخر ما أتصوره أن يظل اسمه مدرجا فى القوائم السوداء لترقب الوصول بمطار القاهرة الدولى حتى بعد أن تعدى سنه الخامسة والسبعين.

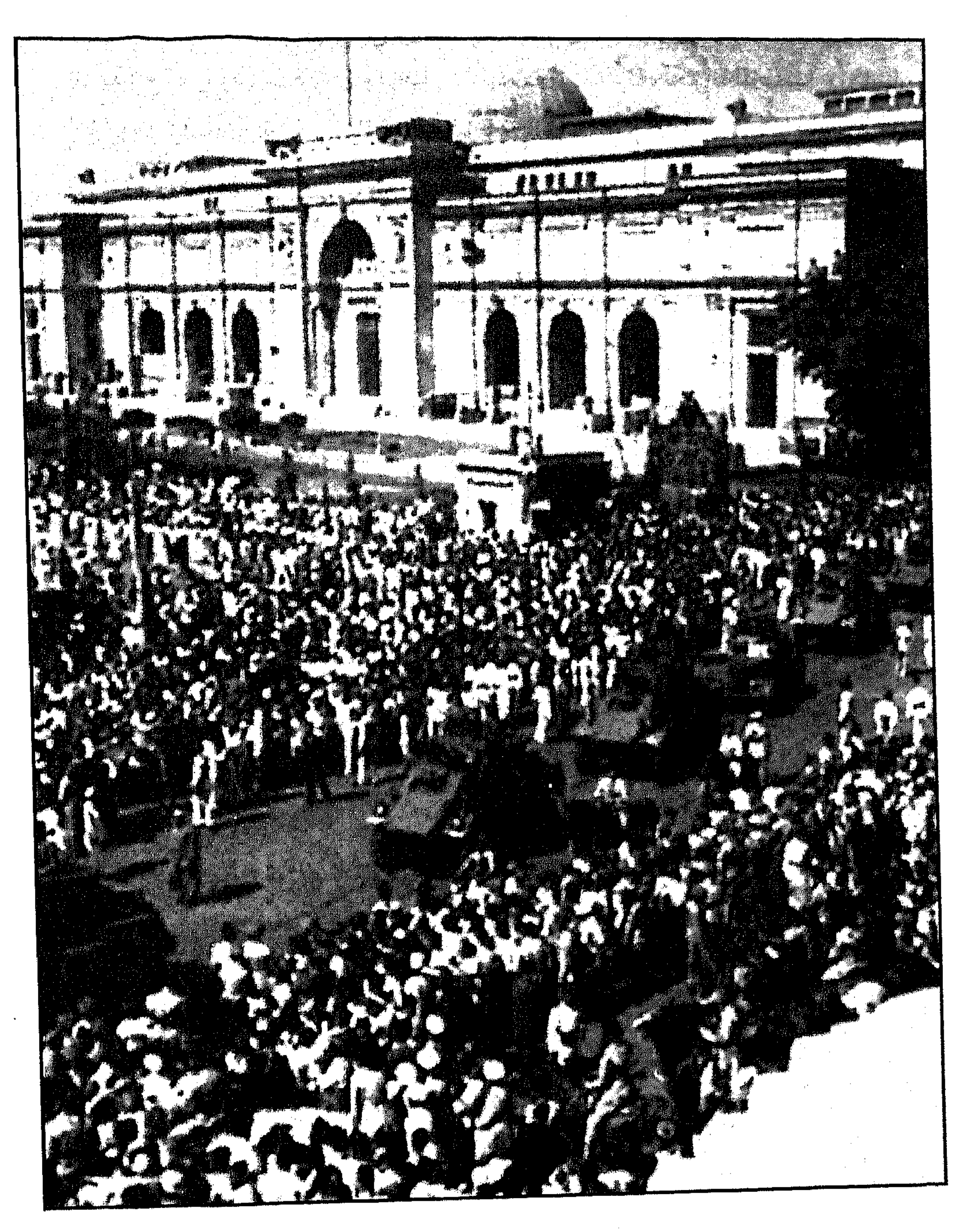
وكما أقول دائماً.. لقد عاش سعد زغلول فؤاد واضعاً حياته فوق كف يده من أجل مصر، وهو لم ينهب أو يسرق.. وكان دائما شريفاً فلم يحصل على رشوة أو يقبل

كسبًا حرامًا. كما أنه لم يصبح من أصحاب الملايين كالكثيرين من زملائه.. وللأسف أنه يدفع ثمن وطنيته وحبه وإخلاصه لبلاده في الغربة، نكرانًا للجميل ورفضًا لتكريمه ومنحه حقه في حياة كريمة شريفة.

وتحاول أن تعرف السبب فلا تجد إلا جوابا واحداً، هو الغيرة منه.. وربما الخوف من محاولة الاقتراب منه..

وأظن.. أنه سيبقى هكذا إلى أن يموت إلا إذا قامت يد كريمة تعرف.. ماذا تعني مصر حقيقة بمحاولة انتشاله أو على الأقل تكريمه..!

جميل عارف



حصار القوات البريطانية لقصر عابدين في يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢

هذا الكتاب:

معارك شعب مصر

للتحرر الوطني والديمقراطي



عندما خرج شعب مصر في مظاهرات عارمة تطالب بالاستقلال وجلاء الإنجليز

ثورة ودماء دفاعًا عن الدستور

- إنذار بريطاني بعقوبات انتقامية رفضته حكومة الشعب، وقبلته واستجابت لمطالبه حكومات أحزاب الأقلية الملكية..
- الشعب أسقط حكومات الانقلاب الدستوري: حكومة «إنقاذ ما يمكن إنقاذه» لأحمد زيور باشا، و«اليد الحديدية» لمحمد محمود باشا، و«الحديد والنار» لإسماعيل صدقي باشا، وأطاح بدستور ٣٠، واستعاد دستور ٢٣

أثمرت ثورة ١٩١٩، عن بعض المكتسبات الشعبية كان أهمها صدور دستور ١٩٢٣، وعودة الحياة النيابية، بعد انقطاعها بالغزو البريطاني في سبتمبر ١٨٨٢، هذا الغزو الذى استدعاه الخديوى توفيق الذى كان نواب الشعب على وشك إصدار قرار بعزله، وعلى ذكر المجلس النيابى فى ذلك الوقت، كان بين أعضائه نواب سودانيون عن المناطق الانتخابية فى السودان، ومن المواقف التاريخية لهذا المجلس، أنه أصر على ضرورة مناقشة وتفحص ميزانية الدولة، وحمل على رئيس الوزراء ذلك الوقت رياض باشا، الذى صرخ فى وجوه الأعضاء قائلا: «أنتم عصاة»، وكان أن أقال المجلس حكومة رياض، واضطر الخديوى إلى الرضوخ لإرادة الشعب، فتشكلت حكومة وطنية برئاسة محمود سامى البارودى تساندها الإرادة الشعبية، من أحمد عرابى وزملائه، والتى تصدت قواتها للغزاة الإنجليز، الذين عجزوا عن دخول مصر من الإسكندرية، ونجحوا فى دخولها من منطقة قناة السويس، وانتصروا بخيانة ضابط يدعى فى التاريخ «على خنفس»، الذى كذب على قائد الجيش أحمد عرابى، بأن أخبره أن القوات الإنجليزية فى حالة استرخاء، وفى الظلام قادها إلى معسكر الجيش المصرى فى بلدة التل الكبير، حيث كان الجنود نياما فى مخيماتهم، فكانت الهزيمة ووقعت القاهرة وبقية أنحاء مصر تحت الاحتلال وحكم الخديوى الخائن توفيق..

وما أن استعاد الشعب أنفاسه حتى واصل كفاحه الوطنى من أجل الاستقلال والحرية بزعامة مصطفى كامل باشا رئيس الحزب الوطنى، وخلفه بعد وفاته محمد فريد، الذى طورد من قبل سلطات الاحتلال وعملائها، وحُكم عليه بالسجن، لكتابته مقدمة لديوان شعر وطنى، لشاعر شاب يدعى على الغاياتى، فنجح كل منهما فى مغادرة مصر إلى وسط وغرب أوروبا، حيث واصلا الكفاح الوطنى والديمقراطى، وأصدر على الغاياتى من سويسرا جريدة «منبر الشرق»، التى كانت من خلال القوى الوطنية من رجال الحزب الوطنى تهرّب إلى مصر وتوزع فى بعض البلدان العربية، إضافة إلى العرب

والمصريين المقيمين والزائرين أوروبا، وقد نجحت العناصر الوطنية القيادية فى مواصلة كفاحهم الوطنى والديمقراطى من الخارج، إبان ذلك الزمن البعيد من أوائل القرن العشرين الماضى، حين كان يشتد إحكام قبضة القهر والقمع على أقلامهم، فأصدروا من باريس ولندن وجنيف صحفهم المعارضة لحكم الخديوى والمناضلة ضد احتلال الإنجليز لمصر.

ومن أبرز هؤلاء الكتاب المصريين الوطنيين: «يعقوب صنوع» و«أديب إسحاق» و«جمال الدين الأفغانى» و«الشيخ محمد عبده».. هذا ومن امتد به العمر من هؤلاء وعاد إلى مصر، التقيت ببعضهم مثل «على الغاياتى» الذى واصل إصدار صحيفة «منبر الشرق» من القاهرة، والدكتور «نور الدين» الذى كان رفيقا للزعيم الكبير محمد فريد فى منفاه الأوروبى الاختيارى، وكان كل من هؤلاء فى شيخوختهم شعلة من الحماس الوطنى، حرصوا على إذكاء روح الكفاح الوطنى والديمقراطى فى شباب مصر، واستمر كفاح الشعب من أجل الحرية والاستقلال، فمن الخصائص المميزة للحركة الوطنية المصرية عبر تاريخها، أن المطالبة بالتحرر الوطنى كانت دائما مقترنة بالحرية والحقوق الديمقراطية، حتى أن مظاهرات شعبية عام ١٩١٠ فى القاهرة، ظلت على مدى ثلاثة أيام، احتجاجا على بعث الحكومة لقانون المطبوعات المقيد لحرية الكلمة، والذى كانت حكومة رياض قد أصدرته.

ما سبق من بين المظاهر العديدة لكفاح الشعب المصرى فى تاريخه المعاصر، والذى تصاعد إلى أن تبلور فى ثورة ١٩١٩، والتى كان بين مكتسباتها صدور دستور ١٩٢٣، والذى بموجبه أجريت الانتخابات النيابية التى فاز فيها حزب الوفد بأغلبية ساحقة، فأُسند إليه الحكم، وأصبح زعيم الثورة رئيس الوفد سعد زغلول باشا رئيسا للحكومة.

وعاشت مصر تحت مظلة من الحريات العامة وممارسة الحقوق الديمقراطية والسيادة الوطنية، وهو ما لم يستمر طويلا، حيث أصيبت البلاد بانتكاسة بغيضة ومريرة، أطاحت بهذه الصحوة من الوطنية والديمقراطية، ووُضعت البلاد فى قبضة أعداء الشعب، الذين يضيقون ولا يطيقون رؤية الجماهير

تمارس حقوقها الديمقراطية، ويمسك ممثلوها ونوابها بأجهزة الإدارة والحكم، وكانوا يطلقون على زعيم الشعب والثورة سعد زغلول «زعيم الرعاع وأصحاب الجلابيب الزرقاء» أى الفلاحين، الذين كانوا يزدرونهم، على حين أنهم الجذور المخصبة والأصول المعطاءة للشعب، والمنتجون على مر الزمن، لكل ما فى مصر من خيرات..

فقد حدث فى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الأربعاء ١٩ نوفمبر ١٩٢٤، أن بادر التنظيم السرى للمقاومة المسلحة ضد قوات الاحتلال البريطانى، باغتيال كبير العسكريين البريطانيين فى مصر، السير «لى ستاك» سردار الجيش المصرى، إذ اعترض سيارته وهو يغادر مقر عمله فى وزارة الحربية، خمسة شبان مسلحين أمطروه بوابل من الرصاص، فقتل على الفور، كما قُتل معه ياوره وسائقه وجميعهم من العسكريين الإنجليز، وشيعت الجنازة فى القاهرة صباح ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤، وفى الساعة الخامسة من نفس اليوم توجه إلى رئاسة مجلس الوزراء فى لاظوغلى «اللورد اللنبى» المندوب السامى البريطانى فى مظاهرة عسكرية إرهابية، يتقدمه ٢٥٠ جنديًا بريطانيًا ومثلهم من خلفه، رافعين رماح أسلحتهم، واستقبله رئيس الوزراء سعد زغلول فى مكتبه، فقدم إليه باسم الحكومة البريطانية إنذارين، وبعد أن تلا عليه نصهما تركهما له وانصرف عائدا إلى مقره فى دار المندوب السامى البريطانى، وكان فى نفس الوقت مجلس النواب مجتمعا، والذى أعلن استنكاره للجريمة، وفيما يلى نص بنود الإنذار، الذى يفصح عما تتسم به القوى الاستعمارية من عنجهية وبطش طاغ جامح:

١- اعتذار رسمى للحكومة المصرية عن الجريمة.

٢- أن تبحث عن الجناة وتقبض عليهم وتنزل بهم أشد العقاب.

٣- أن تقمع بشدة وتمنع أية مظاهرة شعبية سياسية.

٤- أن تدفع للحكومة البريطانية غرامة مقدارها نصف مليون جنيه.

٥- سحب الجيش المصرى من السودان، وتحويل الوحدات العسكرية

السودانية التابعة للجيش المصرى إلى قوة سودانية تكون خاضعة للحاكم الإنجليزى للسودان.

٦- إطلاق يد حكومة السودان فى زيادة مساحة رى أطيان الجزيرة من ٣٠٠ ألف فدان إلى عدد غير محدود.

٧- أن تعدل الحكومة المصرية عن معارضتها لرغبات بريطانيا فيما يتصل بحماية مصالح الأجانب فى مصر.

هذا، وقد وافقت الحكومة المصرية على مطلبين من الإنذار هما: دفع غرامة النصف مليون جنيه - وتعقب الجناة والقبض عليهم ومحاكمتهم، ورفضت بقية الطلبات، وأصر الإنجليز على تنفيذ كافة بنود الإنذار، فاستقالت حكومة سعد يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤.

تشكلت حكومة أحمد باشا زيور تحت شعار «إنقاذ ما يمكن إنقاذه»، وفيها كان إسماعيل صدقى باشا وزيرا للداخلية.

كان قد قبض على الجناة وعددهم تسعة من الشباب، وجرت محاكمتهم حيث صدر الحكم فى ٧ يونيو ١٩٢٥ بالإعدام شنقا على المتهمين الثمانية الأول وبالحبس سنتين على المتهم التاسع، واستبدل حكم السجن المؤبد على عبد الفتاح عنايت بالإعدام، حيث كان شقيقه عبدالحميد عنايت محكوما بإعدامه.

وقد أجريت انتخابات برلمانية عام ١٩٢٥، نجح فيها الوفد بأغلبية ساحقة، واجتمع مجلس النواب وانتخب لرئاسته سعد زغلول، لكن فى نفس ذلك اليوم، أصدر الملك فؤاد قراراً بحله، وتعدد تشكيل الحكومات الواحدة تلو الأخرى برئاسات يحيى باشا إبراهيم، عدلى يكن باشا، وعبد الخالق ثروت باشا، ومات زعيم الشعب رئيس الوفد سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧ وخلفه فى رئاسة الوفد مصطفى باشا النحاس.

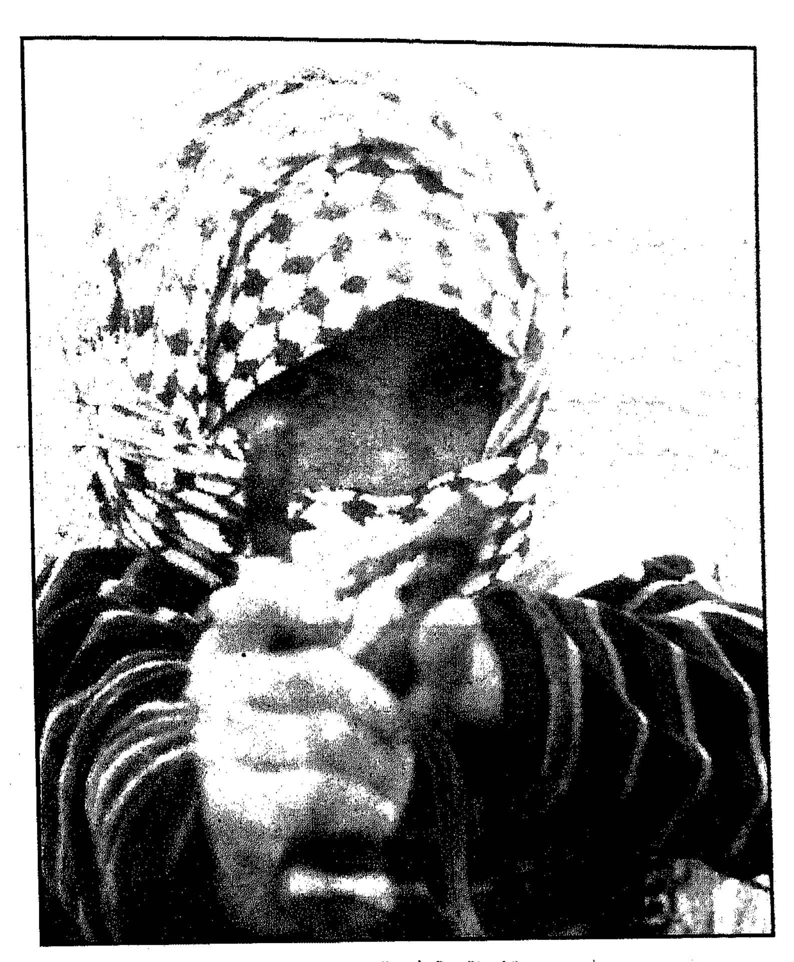
وبدأ عصر الانقلاب الدستورى ومحاولات قمع الشعب، بتشكيل حكومة محمد باشا محمود، الذى أطلق على حكومته «حكومة اليد الحديدية» والذى عطل الدستور ثلاث سنوات قابلة للتجديد، لكنه لم يستطع الصمود

فى مواجهة المقاومة الشعبية، فسقطت حكومته لتخلفها حكومة إسماعيل باشا صدقى، الذى ألغى دستور ١٩٢٣، وأصدر بدلا منه دستور سنة ٣٠ كانت بنوده توسع من سلطات الملك وضيقت من سلطات وحقوق الشعب، وهو ما قاد إلى نشوب معارك دامية وطاحنة بين جماهير الشعب بزعامة النحاس باشا وقوات الحكومة التى حاولت الحكم بالحديد والنار، وانتهى الأمر بانتصار الشعب وسقوط حكومة صدقى ودستوره وعودة دستور ٢٣، وفى الصفحات التالية عرض لإحدى الملاحم البطولية لكفاح الشعب من أجل حريته وحقوقه الديمقراطية.

سعد زغلول فؤاد



مظاهرات طالبات مدرسة السنية أثناء ثورة ١٩١٩



أجيال جديدة فى المقاومة الشعبية المستمرة فى مواجهة الطغيان



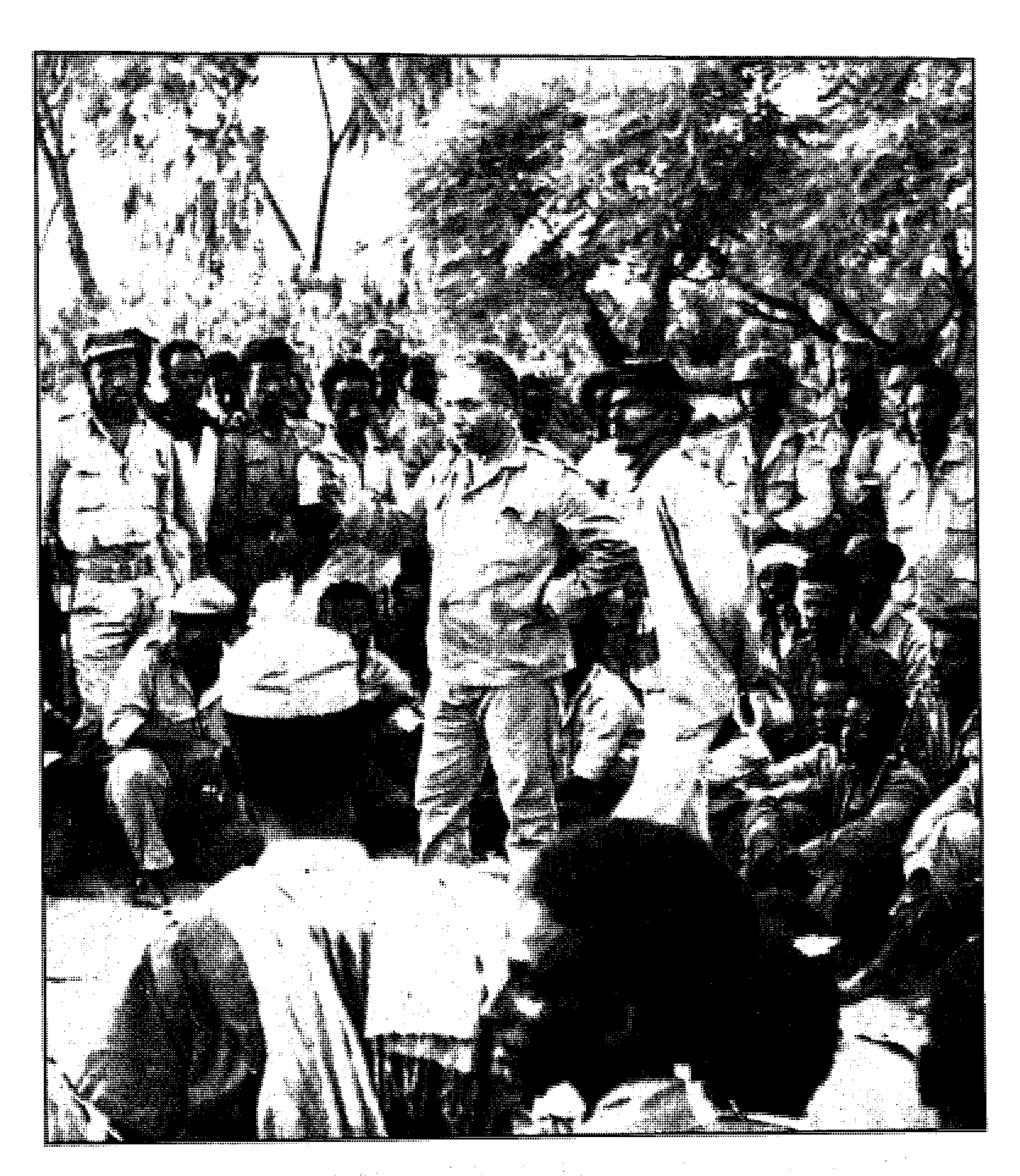
كان سعد زغلول فؤاد دائما على رأس المظاهرات الشعبية التى تطالب بالحرية والاستقلال

الفصل الأول

1 تشبعت طفولتى بوجدان الثورة



- شاهدت الجماهير تفتدى زعيم الأمة
- سينوت حنا يتلقى عن النحاس طعنة مسمومة ويقضى شهيدا
- نقلنى الوزير من مدرستى فى بنى سويف إلى أخرى فى القاهرة
- فصلتنى المدرسة فشكوت للملك فاروق فألحقنى بأخرى
- اغتيال أحمد ماهر لدعوته دخول الحرب إلى جانب بريطانيا
- فُصلت وزميلى من الجامعة لهتافنا «تحيا الثورة»
- رفضنا الاعتذار مقابل إلغاء قرار الفصل فى بيان بعنوان «لن ندنس أيدينا باعتذار»
- كنت لاجئا سياسيا فى الجامعة الأمريكية، التى اتخذت منها قاعدة انطلاق عملياتنا المسلحة ومخزنا للقنابل
- الممارسة السياسية فى المدارس والجامعات أنجبت عظماء الرجال



سعد زغلول فؤاد يعطى دروساً وتوجيهات فى الكفاح لثوار إريتريا وسط أدغال شرق أفريقيا عام ١٩٧٦

عندما خلف مصطفى النحاس سعد زغلول فى رئاسة حزب الوفد، كانت حكومات الانقلاب تعصف بالحياة الدستورية وتهدر الحقوق الديمقراطية للشعب، تنفيذا للمخطط التآمرى للإنجليز والملك فؤاد وبعض عناصر كبار ملاك الأرض، لضرب المكتسبات الشعبية لثورة ١٩١٩ والانتكاس بها، فبادر النحاس بتزعم المقاومة الشعبية وكفاح الجماهير لاستعادة حرياتها وحقوقها، فراح يطوف المدن والأقاليم، يحث الجماهير على الثورة والإطاحة بحكومات القمع وازدراء الجماهير، التى كان رؤساء هذه الحكومات ينعتونها بالرعاع، وكان أشد هذه الحكومات قسوة حكومة إسماعيل صدقى باشا، الذى حكم بالحديد والنار، الأمر الذى جعل سنوات حكمه معارك دامية وضارية بين الشعب وقوات الأمن، انتهت بالإطاحة به وانتصار الشعب.

كان صدقى رئيسا للوزارة ووزيرا للداخلية، وقد ضاق ذرعا بتمكن النحاس من الوصول إلى الجماهير فى مختلف المدن والأقاليم، والتى كانت تشتعل فيها المظاهرات المعادية للحكومة والمطالبة بإسقاط الدستور الملكى دستور ٣٠ وعودة دستور ٢٣، وكان النحاس عندما يصل بالقطار إلى إحدى المدن، يغلق الجنود المحطة ويُمنع الخروج منها والدخول إليها ويظل قابعًا إلى أن يضطر إلى العودة إلى القاهرة، فيبادر إلى التسلل إليها بالسيارة، مثلما فعل فى مدينتى بنى سويف والمنصورة، حيث آثر صدقى أن يحول دون عقد أى اجتماع للنحاس مع أنصاره، وذلك بقمع أى استقبال شعبى له، وإجباره على العودة إلى القاهرة، وأعلن حظر التجمهر ومبادرة قوات الأمن بفضه بالقوة والقبض على المشاركين فيه وتقديمهم للمحاكمة، وفى بنى سويف ما إن وصل إليها النحاس حتى التفت حوله الجماهير، فأمر صدقى قوات الأمن بإطلاق الرصاص على النحاس فى سيارته ليتخلص منه إلى الأبد، لكن الجماهير بعنفوانها أحاطت بزعيمها إحاطة السوار بالمعصم، وراح أفرادها يتلقون عنه طلقات الرصاص ونجا النحاس ولم يصب، بينما كانت المدينة كلها قد أصبحت شعلة متقدة بالوطنية والفداء، وقد أدرك صدقى أن محاولة قتل النحاس بالرصاص فاشلة، فقرر أن يقتله طعنا بحربة مسمومة، وهو ما وقع بالفعل حين زار النحاس المنصورة، حيث هبت الجماهير لتحيته واستقباله، وكان إلى جواره رئيس لجنة الوفد فى المنصورة «سينوت بك حنا»، وبين ضربات الجند للجماهير، تقدم جندى من فرقة الهجانة السودانية

حيث انقض بسونكى (حربة) بندقيته المسموم إلى صدر النحاس، فارتمى سينوت حنا على صدره وتلقى الطعنة عنه ولقى مصرعه ومات شهيدا، وفى الصفحات التالية نعرض ملحمة البطولة والفداء لشعب بنى سويف فى استقباله النحاس.

ثورة دموية في بني سويف

في السادسة من عمرى تفتحت عيناى على ثورة جماهيرية فى مدينتى (بنى سويف) بسبب استقبال مصطفى النحاس الذى كان يقود المقاومة الشعبية ضد دستور الملك فؤاد الذى أصدره صدقى باشا بعد إلغائه دستور ٢٣ الذى كان أحد المكاسب الجزئية لثورة ١٩ .

أتذكر أن قوات الأمن بأوامر من رئيس الوزراء ووزير الداخلية « صدقى باشا » أطلقت الرصاص على جمهور المستقبلين للنحاس باشا الذى تسلل لزيارة مدينتى لحثها على مقاومة الدستور الملكى الجديد، وشاهدت وأنا بعد فى هذه السن المبكرة من شرفة المنزل الجرحى وهم يُنقلون على عربات اليد لمعالجتهم لدى طبيب بجوار مسكنى وهذا الطبيب هو الدكتور عباس حلمى طلعت، كما باشر الدكتور على شافعى المتعافى مدير المستشفى الأميرى معالجة مئات المصابين، وإطلاقهم تباعًا بالأدوية إلى بيوتهم، حتى لا تُتخذ الإصابة دليلاً على اتهامهم بالتجمهر والهتافات العدائية لرئيس الحكومة وكل الجرحى والباعة الذين كانوا ينقلونهم على عرباتهم كانوا يهتفون بحياة مصر ويرددون الشعارات الوطنية الملتهبة والعدائية ضد الإنجليز والحكومة التى ألغت الدستور:

... نموت وتحيا مصر.. يحيا النحاس باشا.. يسقط صدقى عدو الشعب.

لا أنسى أبدا مشهد بائع « السميط » عم حسنين وهو يسقط على الرصيف المقابل لمسكنى ينزف دما ويهتف بمصر وبرمز المقاومة « النحاس » (تحيا مصر.. تحيا مصر) ..

كذلك انتقال مئات من المقبوض عليهم بتهمة التظاهر وانتقالهم من السجن الذى كان يقع على مسافة قصيرة جدا من بيتى إلى النيابة والعكس، والسكان على جانبى الشارع يصفقون لهم وهم يهتفون: (تحيا مصر حرة.. نموت.. نموت وتحيا مصر) وكانوا يهتفون بحياة دستور ٢٣ الملغى، والنحاس زعيم الأمة..

الاستقلال التام أو الموت الزؤام

وأتذكر عندما كنت فى المدرسة الابتدائية الأميرية عام ١٩٣٣ قامت مظاهرات طلبة المدارس الثانوية والصناعية وهم يهتفون (الاستقلال التام.. أو الموت الزؤام) وجنود الأمن يطلقون عليهم الرصاص.. و«مَلش أفندى» مدرس اللغة العربية يطل عليهم من نافذة الفصل ويقول بانفعال (مجرمين.. مجرمين.. يقتلون شباب مصر) ويكرر هذا الهتاف ونحن نشاركه هذه العواطف والدموع تنهمر من عيوننا، وأعطانا درسا هادئا فى الوطنية بأن مستقبل مصر مؤكد فى تحريرها وحريتها.

وفى العام التالى تجددت المظاهرات من جديد لطلبة الثانوى وكانوا يهتفون يسقط «هور» ابن «الطور»، وهو وزير خارجية بريطانيا الذى كان قد أعلن أن مصر لا تستحق الاستقلال لأنها لم تنضج بعد.

سقطت وزارة صدقى وجاء توفيق نسيم رئيسا للوزراء، ولأول مرة يقتحم المتظاهرون مدرستنا الابتدائية لنشاركهم فى المظاهرات التى كانت تردد (نموت.. نموت وتحيا مصر) وبالفعل وجدت هذه الهتافات صداها فقد أعيد دستور ٢٣ وألغى دستور ٣٠ الذى وضعه صدقى وكان بمقتضاه يركز كل السطات فى يد الملك فؤاد!

وعند دخولى المدرسة الثانوية ارتديت البنطلون الطويل بدلا من «الشورت» الذى اعتدته فى المرحلة الابتدائية.. جو دراسى آخر فيه حماس الشباب، فقد شعرنا بالمناخ السياسى يغمر الجو الطلابى، والمناقشات السياسية تدور بين مجموعات الطلاب أثناء «الفسح»، وكنت فى مجموعة تدافع عن الوفد فى مواجهة أخرى تنتمى بحكم الأسر إلى حزب الأحرار الدستوريين.. رغم اختلافنا وارتفاع الأصوات بيننا من خلال تلك المناقشات إلا أننا كنا فى النهاية نتضاحك سويا وندخل إلى الفصول والود قائم بين الجميع.

ويأتى يوم رأيت فيه زعيم المدرسة وكان طالبا فى السنة النهائية طويل القامة يأتى عند شجرة ضخمة قديمة بجوار سور المدرسة ذات الفناء الواسع ومحفور على ساقها «شجرة الإضراب» وتسبقه كلمات عديدة من الطلاب، فلأول مرة أقف بين هذا الجمع وأرتجل كلمة حماسية ضد الإنجليز ختمتها بالشعار التالى: يحيا الإضراب وتحيا مصر.. وكنت أكتب كل أسبوع مقالا قصيرا فى جريدة يومية كانت تصدر فى بنى سويف اسمها السلام تحت عنوان «الوفد والأمة».

أمر وزير المعارف بنقلي جبراً من مدرستي في بني سويف إلى أخرى في القاهرة..!

وعندما وصلت إلى السنة النهائية بالمدرسة انُتخبت رئيسا للجنة التنفيذية للطلبة ومهمتها تنظيم المظاهرات والإضرابات.. وأكثرت من المناسبات التى نقرر فيها هذه الإضرابات ونتظاهر فى شوارع المدينة بما أدى إلى أن اشتكت إدارة المدرسة لوزير المعارف من عدم تحقيق مبادئ الضبط والنظام طالما الطالب سعد زغلول موجوداً بالمدرسة.

فقرر وزير المعارف نقلى إلى مدرسة الخديو إسماعيل الثانوية بالقاهرة التى كانت معروفة بشدة نظامها الصارم.. نفذت فعلا النقل، ولكن بعد أسبوعين وأثناء تجمع الطلاب بطابور الصباح ألقيت كلمة ضد الإنجليز وحكومتهم بمناسبة حصار الدبابات الإنجليزية لقصر عابدين فى ٤ فبراير ١٩٤٢ وإجبارهم الملك على فرض وزارة الوفد فى الحكم، وخرجنا خارج المدرسة والتقينا بطلاب المدارس الثانوية المجاورة (الدواوين والخديوية) وتوجهنا إلى قصر عابدين لنهتف ضد الإنجليز والحكومة التى فُرضت على الملك فرضا.

عندما دخلت السجن لأول مرة اصطحبت معى آلة موسيقية!

وفى الليل فوجئت بالقبض علىّ من داخل منزلى الذى كان يقع بمنطقة «لاظوغلى» وكنت إلى جانب ممارستى للرياضة وتفوقى فيها بكئوس متعددة كنت أهوى الموسيقى، فأخذت «الأكورديون» معى أثناء القبض على وعند دخولى السجن ومعى هذه الآلة الموسيقية أدخلونى لمأمور السجن الذى أبدى دهشته واحتجز الأكورديون.

والغريب أنه عندما تم الإفراج عنى بعد ١٤ يوما فى السجن استدعانى وكيل وزارة الداخلية وأخذ يبدى اندهاشه واستنكاره من ذهابى للسجن ومعى هذه الآلة الموسيقية، فوجدت نفسى مفصولا من المدرسة وأنا فى «التوجيهية» الثانوية العامة.!

وأمام هذا التعسف توجهت إلى قصر عابدين وطلبت مقابلة الملك، فجاء إلىّ إسماعيل تيمور باشا بالديوان الملكى يسألنى عن سر طلبى الغريب، فرددت عليه

بأنهم فصلوني من المدرسة بعد مظاهرة استنكار محاصرة الدبابات الإنجليزية لقصر عابدين، فغاب عني قليلا، ثم عاد وقال لى:

– روح لمدرسة شبرا الثانوية وقابل ناظرها سامى عاشور.

جئت تناشدنا الهدوء ونحن نناشدك الثورة

وبالفعل تم قبولي بهذه المدرسة التى حصلت منها على شهادة التوجيهية (الثانوية العامة) ودخلت كلية الحقوق.

وكانت المفاجأة الأولى على سلم كلية الحقوق: مؤتمر ضد الإنجليز لأنهم أنذروا الحكومة برفض قبول ترشيح السوداني الجنسية «على البرير» عن دائرة عابدين، ورضخت الحكومة ورفضت ترشيحه، وفوجئنا برئيس الوزراء أحمد ماهر باشا يحضر إلينا ويعتلى سلم كلية الحقوق ويخطب فينا قائلا:

– يا أولادى الحالة خطيرة.. أناشدكم الهدوء!

عند سماعى هذه العبارة قفزت فوق كتفى زميلين وصحت بأعلى صوت:

– أنت تناشدنا الهدوء.. ونحن نناشدك الثورة على الإنجليز!

وشارك معى الطلبة الوفديون واليساريون الهتاف، فسبنا رئيس الوزراء قائلا: أنتم مأجورون، فهتف كل المؤتمر بسقوطه واندفع المتظاهرون نحوه منفعلين:

– يسقط ماهر.. ويسقط الإنجليز! وهنا خرج أحمد ماهر من الباب الخلفى إلى خارج الجامعة.

وحدثت معركة وتشابك بالأيدى بين طلبة الحزب السعدى الذى كان يرأسه أحمد ماهر، والطلبة الوفديين.

خطاب لقاتل رئيس الوزراء أحمد ماهر فى كلية الحقوق

– أخذ رئيس الوزراء أحمد ماهر يدعو لدخول مصر الحرب إلى جانب بريطانيا والحلفاء والتى كان الشعب يرفضها مقتًا للإنجليز، وأيدهم فى ذلك الشيخ المراغى (شيخ الأزهر) الذى قال مقولته الشهيرة: (هذه حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل).

حضر محمود العيسوى الذى كان يعد رسالة دكتوراه عن بطلان معاهدة ٣٦ المصرية الإنجليزية إلينا بالكلية والقى خطبة نارية ضد دخول مصر الحرب، وفى المساء كان اجتماع البرلمان بمجلسى (النواب والشيوخ) لإقرار دخول مصر الحرب إلى جانب بريطانيا وعندما أنهى أحمد ماهر خطابه فى مجلس النواب بعد أن حصل على الموافقة على دخول مصر الحرب إلى جانب بريطانيا غادر المجلس متوجهًا عبر البهو الفرعونى إلى مجلس الشيوخ للحصول على الموافقة، ولكنه فوجئ بمن أطلق عليه الرصاص وأنطفأ النور فجأة ثم أُضيء مرة أخرى وإذ برجال الأمن يقبضون على شاب كان بجوار الجثمان – على ما أذكر كان اسمه «عاطف» ويعمل ضابطًا بحريا– على أنه القاتل، ولكن خرج من الزحام «محمود العيسوى» وفى يده مسدسه ويعلن بأعلى صوته: أنا القاتل، وتم إلقاء القبض عليه وحوكم وأُعدم!

واعتُقل بعض الطلبة من قيادات الجامعة عقب الاغتيال بأوامر عسكرية وكان من نصيبى قرار بترحيلى بإقامة جبرية فى منزلى ببنى سويف! وبعد حوالى شهر تم إلغاء قرار الإقامة الجبرية وعدت إلى القاهرة مرة أخرى.

فُصلت من الجامعة لهتافى «تحيا الثورة»

وفى أوائل نوفمبر ٤٥ عقدنا مؤتمرا بالجامعة نظمته مع زميلى مصطفى موسى رئيس الطلبة الوفديين، وفى هذا المؤتمر تلوت بيانًا باسم طلبة الجامعة وكان بمثابة إنذار للحكومة البريطانية بإعلانها جلاء قواتها عن مصر خلال أسبوع تتحمل من بعده حكومة بريطانيا أمام الضمير الإنسانى مسئولية الدماء التى ستراق، وهتفت: (تحيا الثورة)، وشاركنى فيه زميلى مصطفى موسى وطفنا على كل كليات جامعة القاهرة (فؤاد الأول) بهذا الهتاف.

فاجتمع مجلس الجامعة برئاسة الدكتور على باشا إبراهيم، وقرر فصلى مع زميلى نهائيًا من الجامعة.

وثار زملاؤنا فى جامعتى القاهرة والإسكندرية على قرارات الفصل فالتقى محمد حسين هيكل باشا رئيس مجلس الشيوخ ورئيس حزب الأحرار الدستوريين المشارك فى الحكومة بلجنة الطلبة التنفيذية وعرض عليهم استعداد الحكومة لإلغاء قرار الفصل بشرط أن أكتب وزميلى اعتذارا عن هتافنا (تحيا الثورة) فنشرت وزميلى

مصطفى موسى بيانا فى جريدة «البلاغ» بعنوان: «لن ندنس أيدينا باعتذار».

وتوالت الأحداث بعد ذلك عن نشوب مظاهرات يومية ضد الإنجليز وضد الحكومة، وكنت أعتقل كثيرا فى هذا الجو الصاخب والساخن بالمظاهرات المعادية للإنجليز والحكومة - والتى سنتناول تفاصيلها وما تبعها من أحداث خطيرة خاصة ما عرف تاريخيًا باسم يوم الجلاء ٢١ فبراير ١٩٤٦ الذى اتخذه مؤتمر الشباب العالمى عيدا سنويا تقديراً لكفاح شعب مصر من أجل الحرية والاستقلال.

واستمرت مدة الفصل خمس سنوات أُعدت بعدها بقرار من مجلس وزراء حكومة الوفد إلى كلية الحقوق.

ثم لاجئا سياسيًا فى الجامعة الأمريكية

توجهت دون أوراق إلى الجامعة الأمريكية حيث اجتمعت بمديرها «جون بادو» وبعميد كلية الصحافة «هوارد»، وكانت أنباء فصلى من الجامعة وأسبابه وما أعقب ذلك من مظاهرات احتجاج لطلبة جامعتى القاهرة والإسكندرية، يتتابع نشرها فى صحف القاهرة بما فيها تلك الصادرة باللغتين الإنجليزية والفرنسية، وهو ما يسر الاستجابة لطلبى الالتحاق بالجامعة الأمريكية دون تقديم الأوراق اللازمة، حيث بررت لمدير الجامعة أننى لا أعترف بفصلى ولذلك لن أسحب أوراقى من كلية الحقوق، وغادرت مكتب مدير الجامعة الأمريكية بقبولى طالبا بها، كما التحقت بمدرسة الحقوق الفرنسية التى كان مقرها فى حى المنيرة بالقاهرة، وتتبع كلية الحقوق بجامعة السوربون فى باريس، وحضر والدى من بنى سويف، حيث دفع لى المصروفات والرسوم المطلوبة، والتى على ما أذكر كانت ١٧ جنيها فى السنة للجامعة الأمريكية و١٢ جنيها للحقوق الفرنسية.

هذا، وكنت مواظبا فى دراستى الجديدة هذه، نهارا باللغة الإنجليزية ومساء بالفرنسية، طلبة الجامعة الأمريكية كانوا مجموعة ليست كبيرة، من جنسيات أوروبية وعربية، أصحابها كانوا موفدين من الأردن والجزائر وفلسطين، أما المصريون فكانوا فى قسم الصحافة.. والدراسة كانت يوما كاملا وتتطلب التردد طويلا على المكتبة، حيث فى كل محاضرة يملى الأستاذ عناوين الكتب التى يتوجب الرجوع إليها، وكنت على صلة دائمة ومنتظمة بما يجرى من مؤتمرات نضالية وطنية ثورية فى

الجامعة، والتى كانت تقع فى قاعة الاحتفالات الكبرى أو الحرم الجامعى، فكل ما فى الجامعة كان فى خدمة طلابها، وأذكر أن رئيس الوزراء صدقى باشا، كان قد عاد من لندن وفى يده مشروع معاهدة مع بريطانيا عرفت باسم معاهدة صدقى بيفن أنكرتها الأحزاب الوطنية المعارضة، والتى شنت الصحف الموالية للحكومة والقصر الملكى حملة لترويجها، حتى أن مصطفى أمين كتب افتتاحية فى أخبار اليوم بعنوان «نوقعها ونلعنها»، وفى مواجهتها انعقد مؤتمر طلابى حاشد، فى قاعة الاحتفالات الكبرى، كنت بين خطبائه الذين أعلنوا رفض هذه المعاهدة وإدانة صاحبها صدقى باشا رئيس الوزراء، وتكرر الهتاف بسقوطه، وهو ما أدخلنى وكل زملائى الذين قادوا هذا المؤتمر فى السجن، وقد تكاثرت مظاهرات رفض هذه المعاهدة فى جميع مدن مصر، مما أسقط حكومة صدقى ومعاهدته، وغادرت ومئات الطلبة السجن، الذين كانوا متهمين بالتجمهر والهتافات بسقوط رئيس الوزراء إسماعيل صدقى.

عرضت ما سبق، للتعرف على مدى ما كانت الجامعة عليه من استقلال، وحرمة حرية التحركات السياسية لطلابها.

وعلى أن دراستى فى الجامعة الأمريكية، اتخذت اتجاها جديدا كغطاء لأنشطتى فى النضال الوطنى الذى أصبح سريا مسلحا، منذ أن كونت جمعية مقاومة الاحتلال البريطانى بالسلاح، عقب ما كان قد جرى من اعتداءات قوات الاحتلال على مظاهرات يوم الجلاء ٢١ فبراير ١٩٤٦، فقد جعلت من مكتبة الجامعة مقر اجتماعات الجمعية، لدراسة الأهداف العسكرية الإنجليزية المنتقاة لضربها، كما أن كل طالب كانت له خزانة خاصة بملابسه الرياضية، وخزانتى لم يكن بها أية ملابس، وإنما مجموعة من القنابل التى كنت أستخدمها فى التفجيرات التى قمت بها، وقد ظل ذلك إلى أن قُبض علىّ فى شهر مايو ١٩٤٧، ومحاكمتى وزملائى فيما عرف باسم «قضية قنابل ٦ مايو»، ولما وضحت أوضاعى هذه لإدارة الجامعة الأمريكية أعلنت فصلى، ولم يذكر قط فيما أذيع ونُشر عن القضية التى شملت ١٦ متهما كنت المتهم الأول فيها غير إعلان أنى طالب مفصول من كلية الحقوق، وفى الجامعة الأمريكية فتح مديرها «جون بادو» خزانتى الخاصة ليحصل على ملابسى الرياضية

ويسلمها لوالدى، لكنه لم يجد أية ملابس، وإنما ١٧ قنبلة، تكتم على أمرها وألقاها فى النيل.

هذا، وبعد أن أمضيت فى السجن ثلاث سنوات وعاما فى معتقل الهايكستب، أطلق سراحى وجميع المعتقلين بمجيء حكومة الوفد عام ١٩٥٠، وأصدر مجلس الوزراء قرارا بإعادتى وزميلى مصطفى موسى إلى الجامعة، فعدت إلى مقعدى الدراسى فى السنة الثانية بكلية الحقوق، وقصدت إلى الجامعة الأمريكية، حيث دعوت العميد هوارد - وكان المدير جون بادو متغيبا فى أمريكا - والطلبة ومن يرى من أساتذة، إلى حفل استقبال فى كلية الحقوق، كنت قد حصلت على موافقة الكلية التى رأت فى ذلك تعاونا وتقاربا ثقافيا بين الجامعتين، وفى إحدى قاعات المبنى الملحق بكلية الحقوق داخل الحرم الجامعى، حضر المدعوون من طلبة وطالبات الجامعة الأمريكية على رأسهم العميد هوارد، حيث جرت الحفاوة بهم وكان الدكتور توفيق الشاوى أستاذ القانون الجنائى هو الذى أشرف على الحفل وتبناه، والقيت كلمة قصيرة للمجاملة وكان الدكتور الشاوى هو الذى أعلن الحفل مرحبا بالضيوف، كما ألقى العميد هوارد كلمة شكر رقيقة انتهى بها الحفل.

أود أن أشير إلى أن الحصيلة الايجابية لدراستى فى الجامعة الأمريكية، كانت إتقانى اللغة الإنجليزية نطقا وقراءة وكتابة، حتى أنى بعد سنوات انتحلت صفة صحفى أمريكى، أجريت بها أحاديث مع زعماء أحزاب الأقلية الملكية، والتى عارضوا فيها المطلب الشعبى بجلاء قوات الاحتلال عن مصر ووقعوا إقرارات بذلك، إيمانا منهم أنى صحفى أمريكى، وأن أحاديثهم تلك تنشر فى أمريكا، والتى من خلالها تعمل السلطات الأمريكية على توليهم الحكم، لكنهم فوجئوا بنشرها فى صحيفة الجمهور المصرى بالقاهرة.

انتحلت شخصية صحفى أمريكى وحصلت من زعماء أحزاب الأقلية الملكية على تصريحات تعارض جلاء قوات الاحتلال

العام ١٩٥١ ومصر تطالب بجلاء القوات البريطانية، وتنادى بسقوط معاهدة ١٩٣٦ بين القاهرة ولندن، التى تسمح بنودها ببقاء القوات البريطانية فى قواعدها بمنطقة قناة السويس، وهذه المطالبة الملحة شملت الحكومة - حكومة الوفد برئاسة

مصطفى النحاس - وجميع القوى والمنظمات والأحزاب الوطنية، كما بدت مدوية في المظاهرات الشعبية، وفى كتابات الصحف الوطنية، مصر كلها تطالب بجلاء القوات البريطانية عن أرضها، وبإلغاء المعاهدة المصرية البريطانية، وتحقيق الاستقلال الوطنى، وارتفع شعار «الجلاء بالدماء» و«الكفاح المسلح سبيل الجلاء» فى هتافات المظاهرات الشعبية، التى كانت تجتاح القاهرة وكافة مدن وأقاليم مصر، وحدث أن نشرت جريدة «المصرى» لسان حزب الوفد الحاكم، نبأ عن وكالات الأنباء من باريس، خاصًا بتصريح لرئيس حزب الأحرار الدستوريين، الذى كان فى زيارة لباريس، أبدى فيه معارضته الجلاء بدعوى أن الأوضاع الدولية والمحلية لا تدعو لذلك، ونشرت جريدة المصرى ذلك التصريح، فتصدى نائب رئيس الحزب لتكذيب ذلك ونفيه، وحزب الأحرار الدستوريين حزب ملكى ويمثل كبار ملاك الأراضى الزراعية، وهو مع الحزب السعدى، حزب ملكى يشارك دائما فى حكومات أحزاب الأقلية الملكية، حين يقيل الملك حكومة الوفد الشعبية، ويأتى بحكومات تضرب الحركة الوطنية وتقيد الحريات، وفى جميع حكومات الأقلية الملكية، كان نائب رئيس حزب الأحرار الدستوريين يشارك فيها ممثلا لحزبه، حتى أن الصحفى الكبير محمد التابعى أطلق عليه «بنطلون الوزارات»، هذا وأردت أن أعرف الحقيقة، حقيقة موقف أحزاب الأقلية الملكية من قضية جلاء القوات البريطانية عن مصر، المطلب الشعبى والحكومى، فكان أن انتحلت شخصية صحفى أمريكى، وبهذه الشخصية التقيت بهؤلاء الزعماء، وحصلت منهم على تصريحات تعارض الجلاء وتطالب باستمرار تواجد القوات البريطانية ومعها قوات أمريكية على أرض مصر، وفى إيجاز أروى قصتى هذه فيما يلى :

الوقت كان شهر أبريل ١٩٥١، وكنت فى السنة الثالثة بكلية الحقوق، متفرغا للاستذكار استعدادا للامتحان، وكنت أثناء دراستى فى الجامعة الأمريكية، قد أتقنت اللغة الإنجليزية والتحدث باللهجة الأمريكية فى بعض الكلمات، ومن دفتر التليفون حصلت على أرقام تليفونات زعماء أحزاب الأقلية الملكية، ورقم تليفون الأديب الكبير عباس محمود العقاد، الذى كان الكاتب السياسى للحزب السعدى، فى الجريدة التى كان الحزب يصدرها، وعلى ما أذكر كان اسمها «الأساس»، وحصلت تليفونيا على مواعيد مع كل منهم حيث قدمت نفسى باسم «سبنسر

دريل » صحفى أمريكى فى زيارة صحفية قصيرة للقاهرة، لجريدة « اكسبريس ديلى نيوز » التى ليس لها أى وجود، المواعيد كانت مع « الدسوقى باشا أباظة »، نائب رئيس حزب الأحرار الدستوريين، وحيدر باشا فريق بالجيش ووزير الدفاع فى حكومات الأقلية الملكية، وعلى أيوب نائب رئيس الحزب السعدى ورئيس مجلس نواب ذلك الحزب، وعباس محمود العقاد الأديب الفذ العملاق، والسياسى الهامشى غير الموفق لارتباط قلمه السياسى بالحزب السعدى البغيض لدى الشعب، وكان من زملائى فى الكلية، طالب لبنانى هوايته المفضلة التصوير الفوتوغرافى يدعى « ظافر تميم »، عرضت عليه أن يكون هو المصور « الأمريكى » بصحبتى، لكنه فاجأنى أنه لا يعرف اللغة الإنجليزية، لكن يتقن الفرنسية، فقلت له : حسن، انس اللغة العربية ولا تتحدث غير الفرنسية، ومن المؤكد أنك ستنهمك فى التقاط الصور ولا أحد سيتحدث معك، وأنت مصور صحفى فرنسى، ما إن تلتقط الصور لى ومن أجرى معه الحديث، حتى تبادر بالجلوس إلى جانبى.

توجهت وزميلى بالترام إلى قصر الباشا الدسوقى أباظة فى العباسية، فى حديقة المدخل، اصطف كل العاملين بالقصر وفى يد كل منهم عصا غليظة طويلة « نبوت »، واستقبلنا شاب رشيق وجيه هو ثروت أباظة ابن الباشا، ارستقراطى مهذب راح يرحب بنا وتقدمنا وهو يكرر كلمات الترحيب الرقيقة، وما إن أصبحنا فى قاعة الاستقبال الكبرى، حتى وجدت جمعا من أعضاء الحزب، كان الباشا قد دعاهم للحضور، ربما شحذا لانتمائهم الحزبى وهم يرون اهتمام الصحف الأمريكية بحزبهم، وكانت لى مفاجأة صاعقة رهيبة، إذ كان يتوسطهم زميلى فى الكلية رئيس تنظيم الطلبة فى الحزب أحمد الغتورى، والذى بين حين وآخر كنت أستذكر معه بعض المواد الدراسية فى منزله، يا لهول المفاجأة!! لكننى أسرعت أنادى « سعادة الدسوقى باشا أباظة » الذى كان واقفا ومعه أحد رجاله من أقطاب الحزب وكأنى لا أعرفه، فأعلن عن نفسه فتوجهت إليه محييا بانحناءة صغيرة برأسى وقلت له وأنا أصافحه وهو يرحب بى : « أريد التحدث مع سعادتك حديثا مهما للغاية، وأن يجرى الحوار فى هدوء، لذلك أرجو أن يغادر الجميع القاعة »، وأمر الباشا الجميع بمغادرة القاعة وطلب منى أن يستبقى من كان يقف بجانبه ليساعدنى فى الترجمة فهو مدرس أول اللغة الإنجليزية فى مدارس القاهرة الثانوية فوافقت، وشاهدت الغتورى وهو يغادر مع

زملائه القاعة، ورأسه وعيناه مصوبة نحوى وفمه مفتوحا وملامح الدهشة تكسو وجهه، كنت أتحامل على نفسى وأعصابى، فلو كشف الغتورى أمرى لمزقتنى عصى الخدم الذين كانوا فى استقبالنا عند مدخل القصر، لكن الغتورى كان قد توجه إلى منزله وفى يقينه أن الصحفى الأمريكى شديد الشبه بى كما ذكر لى فى اليوم التالى «صحفى أمريكى كان مع الباشا شكلك خالص.. شبيهك قوى.. يخلق من الشبه أربعين»..!

أخذت أجرى الحديث، فبدأت أسأل عما يرى فى المطالبة بجلاء القوات البريطانية عن مصر، فى الوقت الذى تعتزم فيه واشنطن تدعيمها بقوات أمريكية لأهمية المنطقة، فأجاب: أولا أنتم وبريطانيا معا يجب أن تعترفوا بصورة رسمية بسيادة واستقلال مصر، وأية تدخلات فى شئوننا يتوجب الامتناع عنها، وعندما نمارس استقلالنا وسيادتنا يمكن أن نتحدث فى إمكانية تواجد هذه القوات، وسألت فى جدية وحزم: ألا ترون الخطر فى الجلاء؟، فأجاب: إذا اعتقدت ذلك كل دولة، فلتحتل القوات الإنجلو أمريكية العالم.. اعترفوا أولا بصورة رسمية وعملية بسيادتنا واستقلالنا، ومن بعدها يمكن أن نتفاهم..»، وأردت أن أخرجه من تحفظه، فقلت له: «هل أنت شيوعى؟!»، انزعج الباشا والتفت إلى من بجواره الذى يترجم له وهو يسب ويلعن باللغة العربية وهو يقول: أنا شيوعى.. لابد أن الوفديين يزعمون لهم ذلك هناك»، وجاهدت نفسى لأحبس الضحكات التى كانت الكلمات الغاضبة للباشا تهدد بانفجارها، وما راوده من تخوف على مستقبله السياسى، فراح يؤكد فى إلحاح أنه من أكبر أعداء الشيوعية، وأنه وضع مشروع الضمان الاجتماعى عندما كان وزيرا للشئون الاجتماعية، ليدرأ به عن البلاد ذلك الخطر الأحمر، وقبيل أن أختتم الحوار قلت: ماذا تريد أن تقول للشعب الأمريكى، قال فى لهجة عتاب رقيق: «أن تمد أمريكا إلينا يد المساعدة، ولست أفهم لماذا لا تساعدنا أمريكا كما تساعد بلدانا كثيرة».

وأسرعت وزميلى المصور بمغادرة القصر، وفى يقينى أن الدسوقى أباظة باشا رجل وطنى ينبض بالوجدان المصرى، وهو ما أسعدنى وإن لم تفارق ذهنى فكرة أنه يشارك دائما فى حكومات الأقلية الملكية المعادية للحريات العامة، والتى تمتعض من نداء التمسك بالحقوق الديمقراطية للجماهير، تساندها أغلبية برلمانية، وصلت إلى

مقاعدها النيابية فى غالبيتها بالتزوير، وفى هذا الصدد أشير، إلى أن الأوضاع السياسية المصرية فى ظل حكومات القمع تظل فى اضطراب من جراء المواجهات الدموية بين قوى الشعب وقوات الأمن، وامتلاء السجون بالشباب الوطنى، وهو ما كان يحمل الملك على أن يكلف العناصر السياسية المستقلة عن الأحزاب، بتشكيل حكومة تجرى انتخابات برلمانية حرة، تسفر عن أغلبية وفدية يتولى بموجبها حزب الوفد الحكم، والذى لا يلبث أن يصطدم بالملك وبالإنجليز، فيسارع الملك بإقالة الحكومة ليشكل حكومة أحزاب الأقلية، والتى على نحو ما سبق تتابع تشكيلاتها وتفشل فى ضمان الاستقرار، فيضطر الملك إلى تشكيل حكومة تجرى انتخابات تأتى نتائجها بالوفد إلى الحكم، وأود هنا أن أشير إلى أن حزب الوفد تولى الحكم من خلال أغلبية برلمانية وفدية، لكن دائما كانت الأوامر والمراسيم ملكية تبعده عن الحكم، فقد تولى حزب الوفد الحكم تسع مرات، غادر الحكم فيها جميعا بإقالة من الملك..!

* * *

الفريق حيدر باشا، رجل الملك وجنديه المطيع، وصاحب التاريخ الأسود فى ثورة ١٩١٩، حيث كان وهو يقود عمليات قمع المظاهرات، يربط من يقبض عليه من المتظاهرين الوطنيين فى حصانه ويجره سحلا فى الشارع، التقى بى فى شرفة فندق سميراميس معتذرا عن أى حديث صحفى بوصفه أحد كبار العسكر، فلما سألت مستنكرا: لماذا ضرب لى موعده هذا، قال: لتحية الصحافة الأمريكية فى شخصك!

كان موعدى قد أزف مع على أيوب رئيس مجلس نواب الحزب السعدى والنائب لرئيس الحزب، كان هذا الرجل يثير طوال الحديث اشمئزازى، فقد سألته عن رؤيته فى المطالبة المصرية بجلاء القوات البريطانية عن مصر، أجاب فى حزم:

– نحن ضد جلاء القوات البريطانية عن مصر، نحن نطالب باستمرار وجودها فى قواعدها بالقنال ..!، قلت: من أنتم؟ قال: الحزب السعدى الذى وهو فى الحكم كانت العلاقات معكم وبريطانيا فى أزهى صورها، هذا وحين سألته عما إذا كان يوافق على زيادة تعداد القوات البريطانية المحددة بثمانين ألف جندى، أجاب: أوافق وأحبذ مضاعفة تعداد قواتكم فى القنال إلى عشرة أضعاف تعدادها اليوم..!

الجمهور المصرى تضبط "الطابور الخامس" فى حالة تلبس

معامرة صحفية عالمية

على أيوب يطلب زيادة قوات الاحتلال إلى عشرة أضعافها !!

عباس العقاد يرشح عبد الهادى باشا لاستقبال القوات البريطانية الأمريكية

ويعترف بأن السعديين قتلوا الشيخ حسن البنا !!

دسوقى أباظة يزعم أنه صاحب مشروع الضمان الاجتماعى ليشاسه لمكافحة الشيوعية

كان لابد ، فى هذه الايام التى تتاهب فيها البلاد لمقاومة المستعمرين ، أن تقوم « الجمهور المصرى » بعمل شئ لكشف العناصر المنحلة التى تقوم بدور الطابور الخامس فى مصر حتى لا يؤخذ الوطنيون على غرة ، وحتى لا يطعنوا من الخلف وهم يقاتلون أعداء البلاد ... من بعض ابناء البلاد !!

ورأينا ان نضبط « الطابور الخامس » فى حالة تلبس ... وفكرنا فى اعداد « السكمين » اللازم لرجاله ... وعرضت لنا اقتراحات شتى ، قررنا أن نبدأ بواحد منها هو الذى نقدمه فى هذا الاسبوع .

الحقائق الثلاث

ان بعض الساسة المضللين ، يواجهون الشعب بلغة ويواجهون المستعمرين بأخرى ، وهذه هى الحقيقة الاولى !

وهم يتحفظون مع الصحف المصرية لانهم يقدرون أثر تصريحاتهم عند الرأى العام فيحسبون حسابه العسير ... لكنهم مع الصحفى الاجنبى ، لاسيما اذا كان انجليزيا أوامريكيا يفتحون قلوبهم ، ويفاخرون بأنهم من محاسيب الاستعمار ، اذ أنها ستعرض هناك على السادة المستعمرين ، وما ادراك ما هم نفوذا ، وفلوسا ، وسطوة ..

وهذه هى الحقيقة الثانية ! !

وبين أصدقاء «الجمهور المصرى» عشرات الوطنيين المغامرين ، على استعداد دائما لتلبية نداء الوطن وفى استطاعتنا تجنيد بعضهم لمعاونتنا فى الوصول الى مانريد وهذه هى الحقيقة الثالثة !

مستر سبنسر دريل !!

وطلبنا الى الاستاذ سعد زغلول فؤاد أن يحضر لمدة عاجلة ذويتحدث قليلا بالانجليزية

قلنا : اذن .. فهو صحفى فرنسى يزاملك فى رحلتك حول العالم .. انكما تتعاونان !

مفاجأة عند دسوقى باشا

وبعد ساعات ، كان الجامعيان المغامران ، يستقلان « تاكسى » ليلحقا الموعد الذى حدده لهما دسوقى أباظه باشا سكرتير حزب الاحرار الدستوريين !

وعند الباب ، كان مندوب الباشا يستقبلهما ليحييهما فى حرارة ويذهب بهما الى الصالون ... ولا يكاد سعد يحيى الموجودين بلغة انجليزية ولهجة أمريكية حتى تقع عيناه على مفاجأة سيئة ان بين الموجودين شابا يعرفه هو الاستاذ أحمد الفتورى المحامى بقلم قضايا الاوقاف !!

مسألة خاصة ؟

ونترك سعد يروى بقية القصة :

... ولاحظت أن الفتورى بدأ يتاملنى مشدوها ، وخشيت أن يفتضح أمرى قبل أن اظفر بما حضرت له فقلت للناشطة لهجة .. الذى يترجم له اقوالى ، وقال له بالعربية أولاد الكلب ! شيوعى ؟ لابد أن الوفديين يزعمون لهم ذلك هناك !

وجاهدت نفسى لاحبس الضحكات التى كانت تهددنى بالانفجار لكلمات الباشا ، ومابدا عليه اذ ذاك من علامات الفزع على مستقبله السياسى ، حتى راح يؤكد فى الحاح انه أكبر أعداء الشيوعية ، وانه فكر فى مشروع الضمان الاجتماعى ـ كذا ـ عندما كان وزيرا للشئون ليدرأ به عن البلاد ذلك الخطر الاحمر !

يطلب مساعدة امريكا !

قلت له : وماذا تريد ان تقول للشعب الامريكى ؟

قال فى لهجة عتاب رقيق : ان تمد الينا امريكا يد المساعدة ، ولست أفهم لماذا لا تساعدنا أمريكا كما تساعد بلدانا كثيرة لتقضى على الشيوعية !

زوغان الى واشنطون !!

وكنت أجلس مضطربا .. أتوقع أن يكتشف « الفتورى » شخصيتى قبل ان أغادر الدار فاستأذنت ، واعتذرت عن تناول شئ من « الجاتوه » الذى قدم الينا «بسخاء» بحجة اننى اريد ان ألحق الطائرة التى ستعود بى الى واشنطون !

وعندما كنت وصديقى نغلق باب التاكسى كان بعض الخدم يهرولون مسرعين فى طريقهم الينا .. ولكن التاكسى كان أسرع !

لسان العقاد .. سايب

ومرة أخرى وقف بنا التاكسى أمام دار الكاتب السعدى الا عباس محمود العقاد الجديدة .. واستقبلنا « الكبير » بثيابه المنزلية المعر وقال وهو يشد على يد حرارة : اننى جد سعيد بالت الى صحفى أمريكى !

ودار الحديث وقلت له حالة نشوب الحرب بين المعسكر الشرقى والغربى فالى أيهم تفضل أن تنضم مصر ؟

فاجاب بلا تردد : الى المعسكر الغربى .. طبعا !

وسألته : لماذا ؟

فقال : لانهم من الطبيعى يدافعون عن مصر .. والشيوعية تهدد مؤسساتنا واخلاقنا وسياستنا وتقاليدنا ، والمعسكر الغربى على الاقل استعماره مادى ، أما الشيوعية فان استعمارها مادى ومعنوى !

ـ وهل تؤيد الصداقة المصرية البريطانية ؟

ـ اؤيدها بشرط ألا يتدخل الانجليز ويفرضوا النحاس باشا رئيسا للحكومة كما هو الآن !

ـ اذا تم الجلاء عن مصر فمن الذى يحميكم فى الحرب القادمة ؟

ـ فى حالة الحرب يمكن لقواتكم أن ترجع لمصر وتتعاون معنا على الدفاع عن الميدان المصرى

ـ اذن فرأيك أن تحتل القوات الانجلو امريكية مصر فى حالة الحرب لتدافع عنها ؟

ـ نعم ، باذن الحكومة المصرية وهم بذلك يدافعون عن انفسهم كما يدافعون عن مصر !

عبد الهادى يرحب بالمحتلين

وعدت أقول له :

ـ يخشى الانجليز أن يقابلوا بروح عدائية من الشعب اذا عادوا لاحتلال بلادكم فى وقت الحرب ؟

فقال متحمسا : أؤكد لك .. أنه فى حالة الحرب يمكن لقواتكم أن تعود الى بلادنا ، وسوف يقابلون بترحاب من جميع المصريين !

قلت : ومن الذى ترشحه ليكون فى الحكم يومذاك ليضمن هذا الترحيب ويحافظ عليه ؟

قال : ارشح عبد الهادى باشا لانه قوى ويمتاز بالوفاء !

الاخوان .. خطرون!

وهنا سألنى العقاد بدوره : هل تسمعون فى أمريكا عن الاخوان المسلمين ؟

قلت : نعم .. ونسمع أنهم متعصبون ضد الاجانب ..

وسرته هذه الاجابة فانطلق يقول : .. بل خطرون على حياة الاجانب واملاكهم ، وقد حاربهم عبد الهادى باشا وسجنهم وحل جماعتهم وقتل رئيسهم .. وتظاهرت بالاعجاب بعبد الهادى باشا وهممت اكتب ، ولكنه امسك بقلمى وقال : لان لهم فى طلبة البعثات بامريكا أنصارا ربما يعتدون عليك أو على جريدتك !

يحب انجلترا ...

ولا يريد ترومان !!

قلت : هل تعجب بالشعب الانجليزى ؟

قال : بكل ما هو انجليزى .. انظر (وأشار الى مكتبته) ان أغلب كتبى انجليزية

ـ وهل أنت ضد الامريكان ؟

ـ لا .. طبعا !

ـ وهل تريد أن تقول شيئا للشعب الامريكى ؟

ـ أريد أن انصحه بأن يتخلص من ترومان فى أسرع وقت !

رسالة خاصة ..

وقال العقاد وهو يضع توقيعه فوق الحديث : ارجو ان ترسل لى نسخة بالطائرة ... العدد ...

[illegible]

توقيع الوزير السعدى الاستاذ على ايوب

[illegible]

توقيع الكاتب السعدى الاستاذ عباس العقاد

(الكاتب الكبير) عباس محمود العقاد ... يملى حديثه على مستر سبنسر دريل الصحفى الامريكى ... دون ان يخطر بباله أنه قد وقع فريسة سهلة بين يدى الاستاذ سعد زغلول مندوب الجمهور المصرى ! !



الاستاذ على ايوب يطالب بزيادة قوات الاحتلال الى عشرة اضعاف!

ولما سألته : حين يزداد تعدادها وهو فى صالح الاستراتيجية البريطانية والأمريكية، تضيق بهم قواعدها إلى القنال، فهل توافق على عودة الفائض منها إلى القاهرة والإسكندرية؟ ، أجاب فى صفاقة وقحة: عودة هذه القوات لا تكون فقط إلى القاهرة والإسكندرية، ولكن فى أية مدينة أو جهة فى مصر..!، ووقّع على كل هذه الكلمات الدنسة وهو قرير سعيد..! هذا وأثناء الحديث، دق جرس التليفون وإذ بالمتحدثة فتاة جميلة كانت صحفية معروفة خاصة بميولها الأدبية، وراح يغازلها اعتمادا على جهلى وزميلى المصور ظافر باللغة العربية..!، غادرت مكتبه وهو يشدد على أن أبعث إليه بعدة نسخ من الجريدة (الوهمية) حين يُنشر بها حديثه وصوره، فأكدت له أن عدة نسخ ستصله فى أقرب وقت، وبالفعل تسلم حديثه هذا المزرى منشورا ومدعما بالصور، ولكن فى جريدة «الجمهور المصرى» والذى وضعت له عناوين ضخمة فى صدر صفحاتها تقول:

- الجمهور المصرى تضبط الطابور الخامس فى حالة تلبس..
- على أيوب يطالب بزيادة قوات الاحتلال إلى عشرة أضعافها.
- والعقاد يرشح عبدالهادى باشا لاستقبال القوات البريطانية والأمريكية.

وقد أحدث نشر ما سبق ضجة سياسية كبيرة، وطالب النائب البرلمانى الوفدى رفيق الطرازى بمحاكمتهم بتهمة خيانة الثوابت والأهداف الوطنية، ولم يتيسر ذلك لتدافع الأحداث، حيث أعلن مصطفى النحاس رئيس الحكومة إلغاء معاهدة ١٩٣٦ المصرية الإنجليزية، وأصبح الوجود العسكرى البريطانى فى منطقة القنال يفقد الشرعية، وحمل الشعب السلاح ضد قوات الاحتلال بتشجيع ورضاء الحكومة، ونشب القتال بين كتائب التحرير (مجموعات الفدائيين المصريين) وبين قوات الاحتلال، وحين تصاعدت عملياتهم القتالية، أحرق المتآمرون القاهرة ليكون الحريق سندا لإعلان الأحكام العرفية (قانون الطوارئ) وأقيلت حكومة الوفد، وتتابع على الحكم حكومات الأقلية الملكية، على حين اشتعلت مصر بمقدمات ثورة شعبية مظفرة تطيح بالنظام الملكى، وحين أصبحت على وشك الاشتعال، ومصر مهيأة لنظام حكم جمهورى اشتراكى، استولى تنظيم الضباط الأحرار على الحكم، ولعب فى ذلك السفير الأمريكى كافرى الدور الرئيسى المؤثر.

* * *

عباس محمود العقاد

بصدد الأديب الكبير العبقرى الفذ عباس العقاد، يتوجب الفصل بين صفاته الأدبية وتلك السياسية، فعلى مقدار تميزه الهائل فى الأولى نجد فشله وتخبطه وضعفه في الجانب السياسي، والذى يفصح عنه حديثى هذا الذى أجريته معه بشخصيتى المنتحلة « سبنسر دريل » الصحفى الأمريكى المزعوم.. استقبلنا الأديب الكبير فى مسكنه بمصر الجديدة بثيابه المنزلية، وبادرنى وهو يشد على يدىّ قائلا: إننى سعيد بالتحدث إلى صحفى أمريكى، وسألنى عن اسم الصحيفة فقلت: « اكسبريس ديلى نيوز بيبر» غير موجودة على الإطلاق، فأومأ برأسه ممتدحا الجريدة، ولما سألته: هل يحصل عليها؟ أجاب: من بعض مكتبات القاهرة التى تبيع الصحف الأجنبية، وبدأت الحوار فقلت: فى حالة نشوب الحرب بين المعسكرين الشرقى والغربى، إلى أى منهما تفضل أن تنضم مصر؟، أجاب بلا تردد: المعسكر الغربى، قلت: لماذا؟، فقال: لأنهم من الطبيعى سيدافعون عن مصر، والشيوعية تهدد مؤسساتنا وأخلاقنا وتقاليدنا وسياستنا، والاستعمار الغربى على الأقل استعماره مادى، أما الشيوعية فاستعمارها مادى ومعنوى.

* وهل تؤيد الصداقة المصرية البريطانية؟ أؤيدها بشرط ألا يتدخل الإنجليز فى شئوننا ويفرضوا النحاس باشا رئيسا للحكومة كما هو الآن.

– قلت: إذا تم الجلاء عن مصر، فمن الذى سيحميكم فى الحرب القادمة؟

– قال: فى حالة الحرب يمكن لقواتكم أن ترجع لمصر وتتعاون معنا فى الدفاع عن مصر، قلت: إذن فرأيك أن تحتل القوات الأنجلو أمريكية مصر فى حالة الحرب للدفاع عنها.

قال: نعم ولكن بإذن الحكومة المصرية، وهم بذلك يدافعون عن أنفسهم كما يدافعون عن مصر، إنه تواجد عسكرى وليس احتلالاً.

وعدت أقول: يخشى الإنجليز أن يقابَلوا من الشعب بروح عدائية إذا عادوا فى وقت الحرب.

فقال متحمسا: أؤكد لك أنه فى حالة الحرب يمكن لقواتكم أن تعود إلى بلادنا

وسوف يقابلون بترحاب من الجميع.

– قلت: من الذى ترشحه ليكون فى الحكم يومذاك ليضمن هذا الترحيب ويحافظ عليه؟

– قال: أرشح إبراهيم عبد الهادى باشا رئيس الحزب السعدى لأنه قوى ووفى، وهنا سألنى: هل تسمعون فى أمريكا عن الإخوان المسلمين؟

قلت: نعم، ونسمع أنهم متعصبون ضد الأجانب.. وسرته هذه الإجابة فانطلق يقول: بل خطرون على حياة الأجانب وممتلكاتهم، وقد حاربهم عبد الهادى باشا وسجنهم وحل جماعتهم وقتل رئيسهم، وتظاهرت بالإعجاب بعبد الهادى باشا وهممت أن أكتب فأمسك بقلمى وقال: لا تكتب فإن لهم بين طلبة البعثات فى أمريكا أنصارا ربما يعتدون عليك أو على جريدتك..



كان الوجدان الثورى ينبض فى قلب سعد زغلول حتى لما سافر للمغرب فى جامعة محمد الخامس بالرباط بالمغرب

الفصل الثانى

كنت وراء تفجير تجمعات جنود الاحتلال



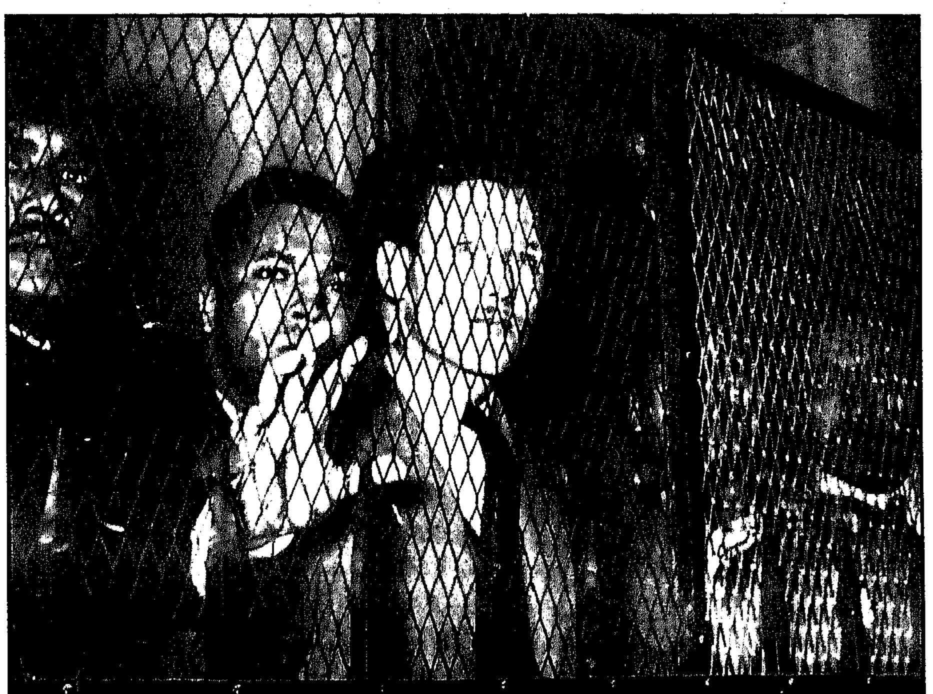
تحقيق بالرسم نشرته إحدى المجلات المصرية عند التحقيق فى قضية التفجيرات والمحاكمة



- عيد جلوس الملك انطفأت فيه الزينات وكثرت التفجيرات.
- سلامة موسى وقنبلة النادى الإمبراطورى البريطانى.
- الطليعة الوفدية فى المقاومة السرية المسلحة.
- أول مسدس فى حياتى كان من الفريق عزيز المصرى باشا.
- عشرة آلاف جنيه لمن يرشد عنى.
- صديقى خاننى وأبلغ عنى مقابل عشرة جنيهات!



فى قفص الاتهام سعد زغلول فؤاد مع الطالب عبد الرؤوف أبو علم ومصطفى موسى وكورت الألمانى أثناء المحاكمة عام ١٩٤٩



سعد زغلول فؤاد فى القفص لحظة النطق بالحكم

كان ٢١ فبراير ١٩٤٦ يومًا مشهودًا فى تاريخ مصر؛ فقد قررت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال أن يكون هذا اليوم هو « يوم الجلاء » . . أى يعلو صوت الشعب فيه بالمطالبة بجلاء القوات البريطانية عن مصر.

وكان صدقى باشا قد أُسندت إليه رئاسة الحكومة مرة ثانية ولعودته قصة لا يمكن نسيانها .

بعد إقالة حكومة الوفد ، كان محمود فهمى النقراشى باشا رئيسا لحكومة ائتلاف أحزاب الأقلية الملكية ومعها حزب الكتلة الوفدية بزعامة مكرم عبيد الذى كان انشق على الوفد ، والذى جرى اعتقاله من حكومة الوفد بسبب تحريضه علانية فى اجتماع جماهيرى حضرته على الثورة وإسقاط الحكومة الوفدية .

وعندما أقيلت وزارة النحاس وقامت حكومة ائتلافية من الحزب السعدى والأحرار الدستوريين، والوطنى القديم والكتلة الوفدية أُخرج من السجن إلى مقعده كوزير للمالية، خرج من السجن إلى مقر رئاسة الحكومة فى لاظوغلى وهناك خطب فى الجماهير قائلا :

(سبحانك ربى فقد كنت إلى الأمس فى إحدى زوايا الأرض سجينا، فإذا بى اليوم على خزائن الأرض أمينا) !

وحدث يوم ١١ فبراير ١٩٤٦ الموافق لعيد ميلاد الملك فاروق أن أعد برنامج حافل للجامعة يحضره الملك لوضع حجر الأساس للمدينة الجامعية فى هذه المناسبة .

لكن عقد فى ذلك اليوم بالجامعة مؤتمر طلابى نددت فيه بالأوضاع المهترئة والمتردية للبلاد والتراخى الحكومى فى المطالبة بالجلاء، وأعلنت مقاطعة الحفل الملكى تعبيرا عن تأكيد تقاعس الحكومة فى المطالبة بالجلاء، وتعالت الهتافات وكنت أول الهاتفين بسقوط الثلاثى : الملك والحكومة والإنجليز.

وتقدمت إلى كوكبة من الزينات واللمبات المتلألئة الملونة ويعلوها تاج كبير موضوع على باب الجامعة المواجه لمكان الاحتفال فحطمت هذه الزينات، وأسرع

رئيس الحرس الجامعى وهو يستصرخنى بالتوقف عن ذلك، فلم أبال بل انضم إلىّ بقية الطلبة وأسرعوا فى تحطيم هذه الزينات، ثم أمسكت وزميلان بخراطيم الحريق ووجهنا مياهها المتدفقة إلى موقع الاحتفال فأغرقت السجاجيد الحمراء والمقاعد الملكية مما أدى إلى تأخير وصول الملك ثلاث ساعات حيث أعادوا ترتيب الموقع من جديد بعد تجفيف المياه.

واستجاب الطلبة وقاطعوا برنامج الحفل كله!

وحضر الملك واتخذ مكانه فى موقعه، وعن يمينه رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى، وعن يساره وزير المالية مكرم عبيد وبقية الوزراء، وأمسك الملك بيده برنامج الحفل فلم يجد شيئا ينفذ، فالتفت إلى النقراشى قائلا:

– (فين الطلبة يا دولة الباشا)؟

– فرد عليه مكرم عبيد: فى السجون والمستشفيات يا مولاى!

– فغادر الملك مكان الاحتفال متوجها إلى قصر عابدين، وتبعه رئيس الوزراء باستقالة حكومته، فكلف الملك صدقى باشا بتشكيل حكومته.

– قررت اللجنة الوطنية للطلبة والعمال أن يكون يوم ٢١ فبراير من ذلك العام ١٩٤٦ يوم الجلاء، إعلان إرادة الشعب فى المطالبة بجلاء القوات البريطانية عن مصر، وأخطرت قرارها هذا لرئيس الوزراء صدقى باشا.

– اتفق صدقى مع القيادة الانجليزية على أن تغلق الثكنات على جنودها طوال هذا اليوم (٢١ فبراير ١٩٤٦)، وأصبحت القاهرة فى إضراب شامل كامل.

فانطلقت المظاهرة التى ضمت أكثر من مليون مواطن من الأزهر إلى ميدان التحرير (الإسماعيلية وقتذاك).. الهتافات كلها تنادى بجلاء قوات الاحتلال وبحرية مصر واستقلالها، وما إن امتلأ الميدان بالجماهير حتى انهمرت طلقات الرصاص من معسكر الطيران البريطانى (مكان مجمع التحرير حاليا) ومن أسوار ثكنات قصر النيل.

كان نتيجة ذلك القذف سقوط أعداد كبيرة من الجرحى والقتلى، وانشغلت فى

حمل بعضهم إلى عيادة طبيب فى الميدان بجوار (عمارة أسترا) وفجأة شعرت بآلام شديدة فى ظهرى وبطنى ولم أفق إلا فى مستشفى قصر العينى حيث أجريت لى جراحة فى الليل بواسطة طبيب نوبتجى مبتدئ ونُقلت إلى عنبر كبير مليء بالجرحى والكثيرون منهم ملقون على الأرض لعدم وجود أسرة كافية.

فى هذا المستشفى كان يزورنى بعض زملائى بكلية الحقوق، فاتفقت معهم على عدم جدوى استمرار المظاهرات السلمية لتحقيق الجلاء، ولابد من اللجوء إلى الكفاح المسلح لطرد قوات الاحتلال.

وما إن غادرت المستشفى حتى توجهت فورا إلى الفريق عزيز باشا المصرى الذى أقرنى بمزيد من الاقتناع.

جمعية سرية للمقاومة المسلحة

أذكر أننى قمت بتشكيل جمعية سرية للكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال، عقب تصديها بإطلاق النار على مظاهرة يوم الجلاء ٢١ فبراير ١٩٤٦ فى ميدان الإسماعيلية (التحرير)، من معسكر السلاح الجوى البريطانى (مكان مجمع التحرير اليوم)، ومن ثكنات قصر النيل (مكان جامعة الدول العربية وفندق هيلتون ومقر الحزب الوطنى اليوم)، وقد أريقت دماء غزيرة وبريئة من المواطنين المشاركين فى المظاهرة السلمية ليوم الجلاء.

وتكونت جمعية المقاومة السرية الوطنية المسلحة من عدد من الأصدقاء الزملاء أذكر منهم: صلاح الدين محمود صالح (طالب بكلية الحقوق جامعة فؤاد الأول (القاهرة اليوم) — عباس حسنى، طالب بكلية الحقوق جامعة فؤاد الأول (القاهرة اليوم)— أحمد بدر الدين عبد الله، طالب بكلية الحقوق جامعة فاروق (الاسكندرية اليوم)— مصطفى موسى، طالب بكلية الهندسة، جامعة فؤاد الأول (القاهرة اليوم) وزعيم الطلبة الوفديين ورئيس الطليعة الوفدية ـ عبد الرؤوف أبو علم، طالب بكلية الزراعة، طليعة وفدية — أمين الكاشف، خريج الجامعة، طليعة وفدية — كمال يعقوب، مهندس مبانى مستقل — كمال منسى، خريج كلية الزراعة جامعة فؤاد الأول (القاهرة اليوم) مستقل — مصطفى كمال، طالب بالمعهد العالى التجارى،

عضو حزب مصر الفتاة - أمين عبد المؤمن ، صحفى بجريدة حزب الكتلة الوفدية وطالب بكلية الحقوق جامعة فؤاد الأول (القاهرة اليوم) - الأسير الضابط الألمانى الهارب «كورت ميتز» - سعد زغلول فؤاد، رئيس الجمعية المسئول أمام الفريق عزيز المصرى باشا، وكنت قد التحقت بحزب مصر الفتاة وانتُخبت رئيسًا لتنظيمها الطلابى، وما إن بدأت المقاومة المسلحة حتى غادرت مصر الفتاة دون استقالة، ومن بعدها لم أنضم لأى حزب حتى اليوم.

وكانت البداية حين طلبت من أحد أعضاء حزب مصر الفتاة، الذى كان بين المصريين العاملين فى معسكر القوات الإنجليزية بالعباسية فى القاهرة، أن يسرق لى إحدى القنابل اليدوية، وبالفعل تسلمتها منه فى اليوم التالى، وفى المساء صحبت معى زميلى مصطفى كمال، حيث ألقيتها داخل ثكنات قصر النيل، التى كانت على ضخامتها مليئة بجنود الاحتلال، لكن القنبلة لم تنفجر، إلا أن العثور عليها كان بين أنباء صحف ذلك الصباح، وعرفت بعد ذلك أن القنبلة كان ينقصها المفجر.

هذا، وكى أبدأ العمل، جلست إلى الفريق عزيز المصرى باشا أتلقى التوجيهات، قال: «قطار حلوان فى الليل يكون مليئا بالعساكر الإنجليز وهم يعودون سكارى إلى معسكراتهم، وما بين عربات القطار يتكدسون، اصطحب معك أحد زملائك، وعليكم التربص بقدومه عند مستشفى أبو الريش على طريق القطار، وتطلقان النار على الهدف، ثم تنصرفان فى هدوء»، وسلمنى مسدسين كبيرين طراز البرابيلو الألمانى، خزانة كل منهما محشوة بطلقات الرصاص، وغادرت منزله إلى حيث التقيت بزميلى مصطفى كمال وفى يده المسدس الخاص به.

كانت هذه أول مرة فى حياتى أرى فيها المسدس ويصبح فى يدى، وقرب منتصف الليل كنت وزميلى فى الموقع، وما إن أصبح القطار فى المرمى، حتى بادرنا بالتصويب عليه، وضغط كل منا على الزناد، لكن لم ينطلق الرصاص، ومضى القطار بركابه سالمين، وقد أصبنا بالإحباط فالمسدسات غير صالحة، وفى الصباح الباكر كنت أجلس إلى الفريق عزيز المصرى غاضبا حيث قلت وأنا أعيد إليه المسدسين «يا

باشا انت اديتنى مسدسات خربانة . . ضغطت وزميلى على الزناد حين أصبح الهدف فى المرمى لكن لم ينطلق الرصاص »، أمسك بالمسدس وتفحصه لوهلة ثم قال: « المسدس مغلق بمسمار الأمان، لازم يتفتح ويصبح جاهزا للعمل، خلاص بلاش تمسك مسدسات، ستكون فى يدك قنابل يدوية ستصلك وستعرف كيفية استخدامها » . وبالفعل أصبح فى يدى العديد من قنابل مايلز اليدوية الإنجليزية، جاء بها الضابط الطيار حسن عزت، والذى تسلمها من الضابط مجدى حسنين، الذى حصل عليها خلسة حين كان مع قوة من جنوده فى واحة سيوة، مع مجموعة من القوات الإنجليزية دفاعا عن مداخل مصر الصحراوية الغربية فى مواجهة وصول قوات القائد الألمانى روميل إلى بلدة العلمين قرب إسكندرية، حيث جرت هزيمته وتراجع وانسحب بسرعة، والذى كان بين ما شكل هزيمة قوات المحور الألمانى النازى والإيطالى الفاشى فى الحرب العالمية الثانية.

أخذت على عاتقى مع زملائى مهام انتقاء مراكز تجمع جنود الاحتلال ودراسة الكيفية التى تضرب بها والانسحاب فى أمان، وكانت منطقة كوبرى قصر النيل أول هذه الأهداف، ففيها فندق سميراميس الذى كانت تحتله قيادة قوات الاحتلال فى تلك المنطقة، وفى مواجهته على الرصيف المقابل على شاطئ النيل؛ أكشاك خاصة بالمكاتب العسكرية الإنجليزية، وعلى يمين الكوبرى ثكنات قصر النيل المليئة بقوات الاحتلال، وفى نهاية الكوبرى، كانت الحديقة الكبيرة قد أصبحت معسكرا للإنجليز، والرصيف الأيسر للكوبرى كان دائما عامرا ليلا بمجموعات الجنود الإنجليز فى عودتهم إلى معسكرهم للمبيت، وقررت أن تكون أول قنبلة تلقى، وبها يكون افتتاح عمليات تفجير مراكز تجمعات قوات الغزو، فوق هذا الكوبرى وفى يوم له تاريخ، يوم ١١ يوليو ١٩٤٦، ذكرى ضرب الأسطول الإنجليزى للإسكندرية عام ١٩٨٢.

وفى حجرة الاستقبال لمنزل زميلى فى كلية الحقوق صلاح الدين محمود صالح ومعه زميلى فى نفس الكلية عباس حسنى، شرحت الخطة بأنى بالقنبلة فى جيبى سأقف على يسار تمثال الأسد القائم على مدخل الكوبرى، أطل على النيل وأرقب

الجنود المارة فى عودتهم على الرصيف الأيسر للكوبرى إلى معسكرهم الكبير فى الحديقة، وألقى القنبلة عليهم، على حين يتخذ صلاح موقعه من خلفى مستندا إلى قصر قوت القلوب الدمرداشية (وزارة الخارجية من بعد)، وعباس حسنى عند تمثال الأسد القائم على المدخل الأيمن للكوبرى، وفور تفجير القنبلة بإلقائها نلتقى وننصرف معا وكأننا كنا فى نزهة، وكنا جميعا بلا سلاح، حتى إذا ما حدث لسبب أو لآخر، اشتباه فينا نصرّ على أننا كنا فى نزهة وفوجئنا بانفجار قنبلة فوق الكوبرى، ألقيت نظرة خلفى لأجد ثلاثة جنود قادمين نحو رصيف الكوبرى، فأعطيت إشارة بيدى أخطرت بها صلاح وعباس أنى سألقى القنبلة، ونزعت مسمار الأمان وألقيته فى النيل، حتى لا يُعرف من أين أُلقيت القنبلة، وحين أصبح الهدف فى المرمى وهممت بإلقاء القنبلة، شاهدت على الرصيف الأيمن للكوبرى، مصريا معمما كان بعصاه يتمشى متنزها، فأعدت القنبلة إلى جيبى وأنا أضغط على ذراعها بإصبعى، ومضى الجنود الثلاثة فى طريقهم سالمين، وإذ بكل من صلاح وعباس قد أصبحا معا فى مكانى وبادرانى بسؤال: لماذا لم تضرب القنبلة؟ أجبت: كان فيه شيخ مصرى على الرصيف المقابل كان لا بد أن تصيبه الشظايا، القنبلة فى يدى جاهزة للتفجر وبإصابعى أضغط على ذراع التفجير، ليبقى كل منكما فى مكانه لحين إلقائها دون إصابة أى مصرى، خلال ذلك حضر على رصيف الكوبرى سبعة جنود سكارى يتصايحون بأغنيات، وفور وجودهم فى المرمى قذفتهم بالقنبلة، التى أحدثت دويا هائلا مرعبا، فانسحبت لأجد عسكرى المرور فى موقعه قبيل مدخل الكوبرى وفى يده فانوس زجاجه مدهون باللون الأزرق، فقد كانت القاهرة ليلا فى إظلام فرضته ضرورات الحرب الدفاعية، راح جندى المرور هذا يصرخ «عربية سودة رمت قنبلة على الإنجليز»، وجدت حوله ثلاثة بوابين من القصر بجلابيبهم البيضاء ووجوههم السمراء، وهم يهدئون من روعه، ومعهم زميلاى صلاح وعباس، فقلت لهما «هيا بسرعة نجيب الإسعاف» وبذلك أسرعنا فى مغادرة المكان، والذى أصبح مليئا بالجنود الإنجليز الذى كانوا عائدين إلى معسكرهم والذين كانوا يعملون فى مكاتبهم، ووصلنا إلى كافيتريا «أسترا» حيث شربنا زجاجات البيبسى كولا، واتخذنا طريقنا إلى بيوتنا التى كانت متقاربة، وفى الصباح شغلت أنباء الحادث عناوين الصحف

وكلها تردد مقولة رجل المرور فى موقع الحادث، أن القنبلة ألقيت من عربة سوداء قرب منتصف الليل..!

تمكنت من الحصول على عدة قنابل متنوعة من بينها ناسفة، وأخرى إيطالية يدوية حارقة، إضافة إلى فتيل إشعال طويل، من عز الدين عبد القادر الذى كان قد قضى فى سجن ليمان طرة عشر سنوات، لإطلاقه الرصاص على سيارة النحاس باشا، احتجاجا على توقيعه معاهدة ١٩٣٦ المصرية الإنجليزية، فقد كان عضوا فى حزب مصر الفتاة، الذى كان قد أعلن رفضه لهذه المعاهدة، وكنت قد اكتشفت فى شارع إسماعيل أباظة على مقربة من ضريح سعد، بيتا من طابقين ناديا للجنود والضباط الإنجليز، وصعدت وصلاح وعباس إلى سطح هذا المبنى، ووضعت فوق سطح القاعة التى كان الجنود والمجندات الإنجليز يرقصون فيها قنبلة ناسفة بفتيل إشعال طويل مدته ربع ساعة للانفجار بعدها، وأسرعنا إلى الشارع فى انتظار الانفجار الذى لم يقع، وبعثت عباس لشراء قطن طبى وزجاجة كحول، ومرة أخرى صعدنا إلى السطح حيث القنبلة، ولففتها بالقطن الطبى المبلل بالكحول وبفتيل إشعال جديد، وعدنا للانتظار فى الشارع، لكن لم يقع أى انفجار، فأسرعنا برفع القنبلة وصحبتها معى لألقى بها فى إحدى المزابل، وتطلب الأمر أن يكون فى الجمعية خبير فى القنابل، واخترت من بين الأسرى الألمان الهاربين الضابط «كورت ميتز»، الذى أصبح عضوا فى الجمعية وشاركنا من بعد السجن حين قُبض علينا وجرت محاكمتنا فيما عرف باسم «قضية قنابل ٦ مايو»، توالت التفجيرات هنا وهناك فى العديد من مراكز تجمعات جنود بريطانيا، وكنت قد اكتشفت ما كان يسمى «النادى الإمبراطورى البريطانى» وكان يشمل سينما صيفية خاصة بالعسكريين الإنجليز بجوار مبنى سينما ستديو مصر من الشارع الخلفى لشارع عماد الدين، وشرحت هذا الهدف الدسم الثمين لعز الدين عبد القادر وأنا أتسلم منه القنابل اللازمة لهذا الهدف، واستمهلنى أسبوعا لأفاجأ أنه ذهب مع شقيقه عبد القادر وآخرين قيل إنه كان بينهم خالد محى الدين وأحد زعماء الحزب الوطنى، حيث ألقوا على جنود بريطانيا وهم يشاهدون عرض أحد الأفلام أربع قنابل، انسحبوا من بعدها بسلام، وبعد أسبوع من ذلك أو

أكثر قليلا، كنت فى زيارة المفكر المصرى الكبير سلامة موسى فى مقره بقاعة مكتبة جمعية الشبان المسيحيين، والذى بين كبار مفكرى مصر كنت أتردد عليه للحوار فى القضايا الفكرية لمصر، وكنت دائما أحتفظ فى جيب الجاكتة الداخلى بقنبلة مايلز الإنجليزية اليدوية، وما إن استقبلنى مرحبا كعادته، حتى سألته عن موقع التواليت (المرحاض) حيث أردت التبول، فأشار إلى مكانه خارج قاعة المكتبة، فلما أصبحت داخله وجدت به نافذة، أطللت منها فوجدتها تطل على السينما الصيفية للنادى الإمبراطورى البريطانى، نفس الهدف الذى سبق ضربه، وكان مليئا بجنود بريطانيا يتابعون مشاهدة عرض أحد الأفلام، وفى لحظات أخرجت القنبلة ونزعت مسمار الأمان وألقيتها عليهم، فأحدثت دويا هائلا، وأسرعت بمغادرة التواليت وهبطت الدرج إلى الخارج، بينما كان سلامة موسى قد أصبح على باب المكتبة الذى هرع إليه حين سماع دوى الانفجار، وشاهدنى أهبط الدرج مسرعا ولم يناد علىّ، فقد كان الأمر واضحا، وهكذا ضُرب هذا الهدف مرتين فى أقل من شهر.

قنابل عيد جلوس الملك!

وأصبح قادة الطليعة الوفدية، أعضاء فاعلين فى مجموعة المقاومة السرية المسلحة، ووضعوا كل إمكانياتهم فى خدمة عمليات هذه المجموعة، حتى آخر عملياتنا التفجيرية التى كنا نقوم بها على الأقدام، أصبحت تجرى بسيارة صحيفة «رابطة الشباب» التى كانت تصدرها الطليعة الوفدية، صحيفة أسبوعية كانت تصدر على شكل وفى حجم صحيفة أخبار اليوم، أيام أن كان من حق المصريين إصدار الصحف، وليس من إجراء يُتخذ، غير مجرد إخطار السلطة باسم ومقر الصحيفة، وهو الجارى اليوم فى فرنسا وغيرها من البلدان المتقدمة.

هذا، وقد حدث عندما كثرت التفجيرات، وتساقط جنود الاحتلال ما بين قتيل وجريح، أن وقف تشرشل فى مجلس العموم يوجه اللوم لحكومة أتلى العمالية، ويتساءل عما يدعو لاستمرار وجود القوات البريطانية فى القاهرة والإسكندرية، وتظل هدفا «للإرهابيين» المصريين، وأن ما يهم بريطانيا هو قناة السويس، التى يجب أن تتواجد فيها قوات الإمبراطورية، لتأمين وحماية الطريق إلى الهند، فاستجابت لندن وانتقلت قواتها إلى منطقة القنال، وخلت القاهرة والإسكندرية من القوات

البريطانية، والتى كان لها فى القاهرة وزارتان بريطانيتان إحداهما للأغذية كانت خاصة بتوفيرالغذاء والمواد التموينية للجيش البريطانى فى مصر خلال الحرب العالمية الثانية واستمرت من بعدها، وأخرى خاصة بشئون الاستعلامات ومن بينها جمع المعلومات ومن خلال التجسس وغيرها، وكل وزارة كان على رأسها وزير، وأذكر أن الأغذية كان وزيرها لورداً يدعى ليتلتون.

نشرت مقالا قصيرا تحذيريا فى رابطة الشباب، أشرت فيه إلى أنه تم جلاء قوات الاحتلال عن القاهرة، ولكن ظل وكران للغزاة قائمين، أحدهما فى شارع ضريح سعد، مبنى وزارة الأغذية الإنجليزية، والثانى فى شارع المتحف مقر وزارة الاستعلامات البريطانية، واختتمت المقال بأننا ننتظر الإجابة بقرار رحيلهما، وأنه فى حالة الصمت، ستكون الأجابة إجبارية مدوية ومصورة، وبالفعل وقع ذلك فلم يعد لأيهما من وجود بعد أن فجّرت فى كل منهما قنبلة على نحو ما أرويه فيما يلى :

عقدت اجتماعا قصيرا فى مكتبة الجامعة الأمريكية حضره كورت الألمانى، قسّمت فيه العمل على النحو التالى :

بدأته بمقدمة أن الغد ٦ مايو ١٩٤٧ عيد جلوس الملك، سيكون الليل مليئا بمظاهر الابتهاج والفرح، والذى زرعت معالمه فيما تناثر من زينات ولمبات كهربائية ملونة وعلى أشكال مختلفة، علينا أن نطفئ كافة معالم الفرح، وبتفجيراتنا نريد أن يشعر الملك وبطانته وحكومته، أن فى مصر مصيبة جاثمة على صدورنا هى الاحتلال البريطانى الذى يتوجب رحيله عن البلاد، وأن هناك شهداء بذلوا الدماء والأرواح فداء لحرية مصر، وكانت دماء شهيد الجامعة الطالب السودانى محمد على، الذى استشهد فى مظاهرة طلابية أمام أبواب الجامعة (جامعة القاهرة) كانت تطالب بجلاء قوات الاحتلال، كانت دماؤه تستصرخ ضمائرنا . . قلت :

* المجموعة الضاربة الأولى تتكون من : سعد زغلول فؤاد، صلاح الدين محمود صالح، عباس حسنى، أحمد بدر الدين عبد الله، مهمتها تفجير قنبلة فى مبنى وزارة الأغذية البريطانية، وأخرى فى مبنى وزارة الاستعلامات البريطانية، وذلك فى الحادية عشرة مساء ٦ مايو ١٩٤٧، وقبيل ذلك إطفاء جميع زينات ميدان الإسماعيلية (التحرير) بنسف المصدر الكهربائى المقام فى الأرض الفضاء التى كانت للسلاح الجوى البريطانى، المقام عليها اليوم مجمع التحرير.

* المجموعة الضاربة الثانية تتكون من: كمال يعقوب، كمال منسى، كورت الألمانى، ومهمتها فى الوقت المناسب بعد الغروب من ذلك اليوم ٦ مايو ١٩٤٧، ضرب السفارة البريطانية بقنبلة يدوية تلقى عبر أسوارها فى داخلها، المقصود بها الاحتجاج وليس الإصابة.

* بدأت العمل بنسف المصدر الكهربائى لزينات ميدان الإسماعيلية (التحرير) فانطفأت الأنوار، وتوجهت إلى خلف المتحف حيث وضعت على نافذة الطابق الأرضى قنبلة صغيرة بفتيل إشعال قصير، حين انفجرت اقتصرت آثارها على النافذة وقضبانها الحديدية، وعدت حيث توقفت السيارة بزملائى، ودخلت مقر صحيفة رابطة الشباب، كان مقرها فى ميدان الإسماعيلية (التحرير) بجوار مقهى إيزافيتش ذلك الوقت، حيث فوجئت بأنباء انفجار قنبلة فى سينما مترو أثناء عرض فيلم «ولس سبيرى»، وخلّف الانفجار قتلى وجرحى مصريين من الذين كانوا يشاهدون العرض، غادرت رابطة الشباب مكتئبا ومغيظا وحائرا فى: لماذا ومَن فجّر قنبلة فى مشاهدى عرض سينما مترو..؟!، قلت لزميلى أحمد بدر الدين الذى كان يقود السيارة «توجه إلى السفارة البريطانية»، كى أرى إذا ما كانت مجموعة كمال يعقوب قد نفذت التزامها وضربت السفارة، وحين أصبحنا أمامها، وجدناها على حالها لم يمسها سوء، وتحت حراسة بوليسية مصرية شديدة، فتوجهنا إلى هدفنا مبنى وزارة الأغذية البريطانية بشارع ضريح سعد، أمام بابها وأسوارها الحديدية توقفنا، وأعطيت عباس حسنى قنبلة إيطالية ينزع أمانها بجلدة فى أعلاها تنفجر فور ذلك بثوان فيتوجب إلقاؤها بسرعة، وألقى القنبلة وعاد إلى مكانه فى السيارة التى انطلق بها بدر الدين بسرعة إلى شارع قصر العينى، لكن لم نسمع أى صوت لانفجار، وسألت عباس: هل نزعت مسمار الأمان قبيل إلقائها؟ فأجاب بالنفى، فطلبت من بدر الدين العودة بالسيارة إلى مبنى وزارة الأغذية ورحت أتطلع من بين قضبان باب الفناء الصغير لمدخلها، فوجدت القنبلة على حالها على الأرض، أسرعت بتسلق السور الحديدى وأمسكت بالقنبلة وعدت بها إلى الشارع، حيث نزعت مسمار الأمان وهو من قطعة جلد سميكة، نزعته وفى نفس اللحظة قذفتها داخل المبنى فى الفناء فأحدثت دويا هائلا رهيبا، وأسرعت ومعى عباس - الذى كنت قد طلبت منه أن يكون بجوارى ليتعلم كيف يلقى هذا النوع من القنابل - إلى السيارة

التى بدأ بدر فى التحرك بها للفرار من موقع الحادث، وكنت قد فتحت باب السيارة الخلفى ليدخل عباس، لكنه أمسك بنافذة المقعد الأمامى وألقى بنفسه من نافذته على المقعد الأمامى والسيارة تجرى مسرعة بنا فى شارع قصر العينى فى اتجاه ميدان الإسماعيلية (التحرير) ومن خلفنا كانت تتبعنا سيارة رولزرويس لأحد أمراء العائلة الملكية، والتى توقفت عن متابعتنا فى ميدان العتبة عند مدخل الموسكى، وعاد كل منا إلى منزله، بينما قد أودع بدر الدين السيارة لدى جراج ميكانيكى لإصلاحها.

وفى الصباح اجتمعت مع كمال يعقوب الذى نفى أن يكون هو أو كورت قد قام بتفجير قنبلة سينما مترو، وكان فى رأيه أنهم الصهيونيون من أعضاء نادى مكابى اليهودى، وقال: علينا أن نثأر فنقتل خمسة رءوس يهودية مقابل كل رأس مصرى قُتل فى السينما، لكننى اعترضت قائلا: المسألة موش كلام، لابد من التأكد بالدليل القاطع أن مفجر سينما مترو يهودى وليس مصريا، وكانت شكوكى كلها تتجه إلى كمال يعقوب وزميليه كورت ومنسى وكان كورت قد حاول تجنيد أسير المانى هارب يدعى هاينز كانت له صديقة مصرية تدعى زينب، أبلغت البوليس أنه يعرف مفجر القنابل، فقبض عليه واعترف بكل شىء، وعن طريقه قبض على صلاح الدين محمود صالح وعلى عباس حسنى، وجاءنى فى مكتبة الجامعة الأمريكية حليم الفولى وهو من أم ألمانية وأب مصرى، ومعه كنت قد تعرفت على كورت، وكنت قد أوصيته أن يقدم لنا من الأسرى الألمان الضباط الهاربين من المعتقل ممن يرى فيهم فى وجوده معنا، حضر إلىّ وطلب أن أروى له ما حدث حيث قبض على صديقه كورت فرويت له ما حدث ليلة ٦ مايو هذه، وقد تبين فيما بعد، أنه كان موفدا من قبل أحد رجال البوليس السياسى، ما حسم الأمر كان المرحوم أمين عبد المؤمن، الذى كان يعمل صحفيا نشيطا فى جريدة الكتلة، فى مكتبه بالجريدة أفادنى أن جميع المقبوض عليهم يلقون مسئولية التفجيرات على شخصى وقد اعتقدوا أنى قد هربت خارج مصر، حيث كنت أحيانا أردد أن علينا فى حالة اكتشافنا أن نبادر بالهرب خارج مصر، فكان علىّ المبادرة الفورية بالهروب فغادرت إلى الإسكندرية، حيث التجأت إلى الصديق المحامى إبراهيم طلعت الذى أحسن إخفائى، وراح يرتب لى مغادرة مصر إلى فرنسا، وكانت وزارة الداخلية قد أعلنت مكافأة عشرة آلاف جنيه لمن يرشد عنى ويقبض علىّ بناء على ذلك، وراحت هذه المكافأة تتردد فى الإذاعة

ويتكرر نشرها في الصحف، وحدث أن اجتمعت في مكتب إبراهيم طلعت بربان من أهالي الإسكندرية يعمل في البحر ما بين شواطئ أوروبا الجنوبية والإسكندرية، كان يدعى الريس سيوة، قال الرجل وهو يرد على إبراهيم طلعت: إنني أنقذ رقبة مصري وطني بتهريبي، كل الوطنيين المجاهدين في عيني وفوق رأسي، سأنقله إلى مرسيليا وهناك يحصل على اللجوء السياسي، فقط أحتاج إلى خمسين جنيها لتوزيعها على زملائي من البحارة»، وكان إبراهيم طلعت بعد محاميًا شابًا في بداية ممارسته مهنته، وهنا سألني إذا ما كان لديّ أصدقاء على جانب من الثراء في القاهرة كي أحصل من أحدهم على هذا المبلغ فأجبته: نعم، وبالفعل استمهلنا الريس سيوة لحين عودتي بالمبلغ المطلوب اللازم لتهريبي بحرا إلى فرنسا.. وهكذا غادرت الإسكندرية ليلا إلى القاهرة حيث وصلت فجرا، وبالطبع تحاشيت مغادرة المحطة من أبواب الخروج حيث بداهة يتربص بي المخبرون، فقفزت عبر سور المحطة لأهبط في أول شارع شبرا، وكان صديقي صبري أبو المجد يسكن في حارة قطة المتفرعة من شارع شبرا على مقربة من بدايته، كان يسكن في حجرة صغيرة عند مدخل العمارة بجوار مطلع الدرج، طرقت الباب فاستيقظ وفتح الباب وما إن رآني حتى أصيب بالفزع، فاشرت إليه أطمئنه بأني فقط سأظل لديه لحين انتهاء الفجر وشروق الشمس لأرحل عن مسكنه ليكون الصباح، فوافق وارتميت على مقعد من قماش خاص بالبلاج، وكنت في أقصى درجات الإرهاق، وتفحصني صبري بنظرة طويلة قبيل أن يقول: طبعا جعان، قلت: جدا، قال: سأخرج لأحضر لك فولاً وعيشًا.. وغادر الحجرة وأغلق بابها، بينما كنت قد رحت بطريقة غير إرادية في نوم عميق، لأستيقظ فجأة على صرخات وفوهة مسدس في رأسي من رجال البوليس السياسي، الذين صحبوني إلى الحارة لأجدها معسكرا حربيا مليئًا بالجنود المسلحين.. وفي سيارة الشرطة الخاصة صحبوني إلى مقر النيابة العامة في ميدان باب الخلق، حيث كان في انتظاري النائب العام محمود منصور باشا، ولم يلبث أن حضر رئيس الوزراء محمود فهمي النقراشي باشا.

لقد خانني صديقي (ص. أ)، وأبلغ عني البوليس طمعا في تقاضي مكافأة العشرة آلاف جنيه، لكنه لم يحصل من هذه المكافأة على أكثر من عشرة جنيهات فقط!

الفصل الثالث

قلت للنقراشى باشا رئيس الوزراء: نعم كنت سأقتلك فى شارع الهرم.. فدعانى لنزهة فيه وعشاء فاخر..!



محمود فهمى النقراشى باشا



الفريق عزيز المصري باشا



مصطفى النحاس باشا

3

- وثيقة رسمية فى يدى تبطل اعترافاتى وتدين رئيس الوزراء..
- تنحية رئيس النيابة من التحقيق لإخلاله بوظيفته
- لماذا اغتيل الخازندار عقب جلسة محاكمتى؟
- قاضى التحقيق يمنعنى من الاعتراف بالتفجيرات القاتلة
- بعد أن استجوبت المحكمة والمحامون رئيس الوزراء، أُغتيل في وزارة الداخلية!



١٩٥٠ سعد زغلول فؤاد.. ثائراً.. مهموماً بهم الوطن

النائب العام بدأ استجوابي

فوجئت وأنا بمكتب النائب العام محمود منصور باشا بحضور رئيس الوزراء النقراشي باشا استجوابي بنفسه، أنكرت كل التهم التي وجهت لي، وعندما انصرف رئيس الوزراء واصلت الإنكار وتمت إحالتي إلى رئيس نيابة القاهرة كامل الجاويش الذي وجه لي اتهاما خطيرا بأني الذي فجرت قاعة سينما «مترو» التي قتل فيها سبعة مصريين كانوا يشاهدون فيلم «ولس سبيرى»، وقد ملأني الرعب تماما لأني طوال عامين من عمليات التفجير حرصت إلى أقصى درجات الحرص على ألا أصيب أي مصري، حتى ولا أي مدني إنجليزي!

أنكرت محتجا وبشدة، وأخذ الجاويش (المحقق) يضغط على أعصابي فجاء ببعض المصابين الجرحى فعرضني عليهم (وكان من بينهم بعض السيدات)، وكرر العرض عدة مرات فلم يتعرف أحد منهم عليّ.. واستمر المحقق باتهامه لي في جريمة سينما مترو وشدد عليّ حصار الأسئلة.

واستمر ذلك التحقيق معي يوميا حتى ساعات الفجر من كل يوم ورجال البوليس السياسي يؤازرونه في التحقيق، خاصة أنه رفض السماح لأي محام بالحضور معي بدعوى سرية التحقيق، ولم يتخذ معي أية إجراءات عنف من رجال البوليس السياسي، فلم يكن التعذيب قد عُرف بعد في مصر، وإنما ركزوا للحصول على الاعترافات على الضغوط النفسية من نقطتين: الأولى التلويح بإلصاق جريمة قنبلة سينما مترو بي، والثانية أنهم صحبوني يوما بعد منتصف الليل إلى إحدى زنازين سجن المحافظة، حيث فوجئت، بل صدمت برؤية والدي بملابسه وطربوشه جالسا على الأرض، وقال لي اللواء أحمد طلعت: «ارحم والدك واسمع كلامنا» لكن والدي لوح لي بيده وهو يقول بانفعال وصوت جهوري: «أبوك راجل.. وجدك راجل.. فكن رجلا..» فأسرعوا بسحبي وإعادتي إلى حجرة المحقق.. وعلمت فيما بعد أنهم أطلقوا سراح والدي، وهذه الواقعة أدانت بها المحكمة البوليس السياسي، ويكفي أنهم حين استدعوا الواحد تلو الآخر إلى المحكمة، قد نالهم بأعمالهم

كلماتى الحادة والقاسية والتى كان بعضها يثير سخرية وضحكات الحضور فى قاعة المحكمة، من ذلك مثلا قلت للضابط محمود طلعت: انت اللى كنت تصلى بى إماما وتحضنى لوجه الله على الاعتراف.. وللضابط محمد على صالح قلت: انت اللى كنت مختصا بالقسم بالطلاق...»إلخ

لكن كان التلويح لى بإعدامى بتهمة قنبلة سينما مترو.. هو الرعب الذى كان يغمرنى وانا برىء منها تماما .. وهنا وجدت أننى ستتم إدانتى بجريمة بشعة أستنكرها من أعماقى فقررت أن أعترف بالقنابل التى ألقيتها على وزارتى الأغذية والاستعلامات، وعندها طلب منى المحقق كامل جاويش أن ألتقى بزملائى الذين كانوا قد سبقونى فى الاعتقال وكانوا منكرين كل ما وُجه إليهم من اتهامات، واجتمعت بكل منهم على انفراد وأقنعتهم بالاعتراف ليعرف شباب مصر أننا قمنا بهذه التفجيرات دفاعا عن حرية مصر، ونرحب بأية عقوبة تضحية للوطن..

وجها لوجه مع رئيس الوزراء

وعندما واصلوا معى التحقيق مرة أخرى طلب منى (الجاويش) أن أعترف بكل القنابل التى ألقيتها على تجمعات الاحتلال فسردت له عديدا من تفاصيل هذه العمليات، وقلت له: إن كل هؤلاء الجنود البريطانيين قد قُتلوا وأصيبوا، فلو أنى الذى فجرت قنبلة سينما مترو لا يؤذينى أن تكون ضمن الاعتراف بالتفجيرات لأن العقوبة واحدة، وكان هذا سببا فى استمرار إيداعى بسجن الأجانب الذى كان تابعا للبوليس السياسى..

وكان بعض المسئولين عن حراسة هذا السجن من الضباط والكونوستبلات يأتون لى برسائل شفهية من محامين وفديين، وكان أهمها العدول عن الاعترافات وأنه بذلك سيطلق سراحى ولن يتم إعدامى..

وبدأت أعلن لحراسى المرافقين من ضباط البوليس السياسى رغبتى فى الحضور إلى النيابة لإعلان عدولى عن الاعترافات السابقة، ولم يستجب أحد لذلك، وفجأة حضر لى فى السجن فى غروب أحد الأيام اللواء أحمد طلعت المسئول الأول عن

البوليس السياسى الذى صحبنى فى سيارته إلى رئاسة الوزراء وهو يقول لى فى الطريق: دولة الرئيس النقراشي باشا يطلبك.

وبالفعل استقبلنى رئيس الوزراء فى مكتبه برئاسة مجلس الوزراء بلاظوغلى، فأمر اللواء أحمد طلعت بالبقاء خارج المكتب وأصبحنا على انفراد وأنا جالس فى مواجهته على مكتبه..

بعد أن طلب لى عصير الليمون جرى الحديث التالى بيننا.. سألنى رئيس الوزراء:

* **صحيح انت كنت عاوز تقتلنى.. وليه.. وفين.. وإزاى؟**

- قررت قتلك بعد مذبحة كوبرى عباس التى فتح فيها البوليس الكوبرى وأصبح المتظاهرون محاصرين بين نهر النيل وقوات الأمن التى قمعت بوحشية الطلبة المتظاهرين المنادين بحريات مصر وحريتها..

وأجبته أيضا: كنت تخرج من رئاسة الوزراء بعد الغروب وتتريض على قدميك فى شارع الهرم ومعك حارسك الضابط «حياتى».. كنت سأقتلك بالرشاش أنت وحارسك، فإذا لم نجدك نتوجه إلى منزلك فى مصر الجديدة ليلا حيث يكون بحراستك ثلاثة حراس، كنت وزملائى سنقتلهم ونقتحم مسكنك لقتلك..

احمر وجه النقراشي وسألنى بدهشة:

* **وذنبهم إيه الحراس تقتلهم؟**

- لأنهم عائق يجب سحقه!

وانتقل بعد ذلك يقول:

* **لماذا تريد العدول عن اعترافاتك؟**

- أولا حتى لا يتم إعدامى، وكل ما قمت به هو دفاع عن حرية وطنى.. وأنت نفسك سبق أن شاركت فى قتل العسكريين الإنجليز وحوكمت وبجهود المحامين بُرئت ساحتك ولم تعترف فى التحقيقات التى أجريت معك - فلماذا تريد أن

ألف حبل المشنقة على رقبتى باعترافاتى؟!

وهنا قال بتؤدة وهو يضبط على الألفاظ:

* **إذا لم تعدل عن اعترافاتك وأصررت عليها سأستخرج لك بعد الحكم عفوا ملكيا.. فما رأيك؟**

عظيم.. موافق تماما..

* على بركة الله..

وهمّ باستدعاء اللواء أحمد طلعت لإنهاء المقابلة فاستوقفته قائلا: دولتك فى رئاسة الحكومة لست مخلدا، فماذا سيكون الموقف إذا سقطت حكومتك وجاءت حكومة أخرى برئاسة غيرك؟!

* **يعنى إيه؟**

- يعنى دولتك تكتب لى ورقة رسمية بما وعدت به تسرى على اى حكومة بعدك!

الورقة الوثيقة فى جيبى

فأخرج ورقة رسمية مطبوعًا اعلاها مكتب رئيس الوزراء وكتب هذا الوعد والشهادة بخط يده ووقعه وأطلعنى عليها فتلوتها بصوت عال كما قال، وقال لى:

* مبسوط يا سعد؟

- شكرا يا باشا..

هنا دسست الورقة فى جيب الجاكتة الداخلى ودق رئيس الوزراء الجرس وطلب اللواء أحمد طلعت وقال له: (خذ سعد زغلول وفسحه فى شارع الهرم مكان ما كان عايز يقتلنى فيه، وبعدين اعزمه «على حسابى» على عشاء من مطعم اسبيت فير)..

فور مغادرتى المكتب طلبت التوجه إلى «التواليت» فأشار اللواء أحمد طلعت إلى حراسى بالموافقة، وفى «التواليت» أخرجت ورقة رئيس الوزراء وطويتها بعناية بشكل دائرى وخلعت الجاكتة التى كانت فى ذلك الزمن «كاروهات» ذات أكتاف

عريضة، وقمت بعمل «فتحة» صغيرة داخل الكتف القطنى ودسست هذه الورقة التى كانت لى بمثابة حياة أو موت، وخرجت من التواليت..

الحقيقة نفذ احمد طلعت وصية رئيس الوزراء بالنسبة للفسحة والعشاء، ثم عدت إلى السجن، وطلب منى اللواء احمد طلعت الاطلاع على وعد رئيس الوزراء الكتابى قائلا: فرحنى.. هات اقرأ الوعد بالعفو حتى تثبت علىّ اعترافاتك ويتم الإفراج عنك!

وضعت يدى فى جيب جاكتتى وتظاهرت بالفزع وأنا أفتش فى الجيوب بحثا عنها وأصرخ مستغربا: أين الورقة.. أين راحت؟

وقام أحمد طلعت بتفتيش جميع جيوب بدلتى بنفسه وبعناية مدربة.. وسألنى عندما لم يجدها:

* هل كنت تقرأ فيها أثناء وجودك «بالتواليت»؟

- نعم.. وكنت فرحان.. لكن كنت دايخ وتعبان شوية.. وأنت ناديت علىّ واستعجلتنى بالخروج، ونفذت كلامك بسرعة.. وأكيد وقعت منى الورقة فى الحمام!

فأسرع مع أحد الضباط إلى رئاسة الوزارة للبحث عن الورقة وعاد يقول لبقية الضباط فى غرفة مأمور السجن: الفراش مسح ونظف.. ثم عاد لبيته.. راحت الورقة!

وقمت بعمل تمثيلية أمامهم.. إذ انفعلت لضياع الورقة، فوعدنى بأنه سيحضر غيرها!

- وعقب على كلامه:

- حتى من غير ورقة.. كلمة النقراشى باشا قانون.. ووعده صادق فاطمئن!

وعندما بدأت المحاكمة كانت هذه الورقة فى يد مكرم باشا عبيد أحد المحامين عنى وحصل عليها من خلال والدى الذى كان قد تسلمها منى على انفراد فى زيارة خاصة بالسجن..

القاضى الوطنى هو المحقق

كان الجاويش قد استطاع أن يحصل منى على اعترافات بكل القنابل التى فجرتها خلال عامى ٤٦ و٤٧، وكان يحول بينى وبين الاجتماع بأى محام يتقدم للدفاع عنى، فاتخذ المحامون دفعا قانونيا لإبعاد الجاويش عن التحقيق وطلبوا من رئيس محكمة الاستئناف انتداب قاض للتحقيق ضمانا للنزاهة والعدل..

فكتب عبدالحميد الوشاحى رئيس محكمة الاستئناف: فانتدبنا أنفسنا.. واستدعانى من السجن للتحقيق الذى بدأه قائلا: كل التحقيقات السابقة أصبحت باطلة ونبدأ التحقيق معك من جديد..

*** قل لى عن القنابل التى ضربتها؟**

– فلما بدأت أسرد كعادتى مع المحقق السابق عن التفجيرات التى قمت بها قاطعنى: اسكت.. تعال معى وصحبنى إلى «الكنبة» الموجودة فى وسط مكتبه وربت بيده على كتفى وقال:

– انت طالب فى كلية الحقوق؟

– نعم..

*** فى سنة إيه؟**

– ثانية..

*** أنت تعرف إن الحاجات دى فيها إعدام؟**

– أيوه..

*** طيب وليه تتعدم وأمامك فرصة بعدم توجيه عقوبة الإعدام لك – وأضاف: أنت لا تأتى بأى سيرة أو كلمة عن كل هذه التفجيرات، والأمر يقتصر فقط على قنبلتى وزارتى الاستعلامات والتموين الانجليزية، حيث لم تقع أية إصابات وتكون العقوبة حينئذ خفيفة؟!**

وفعلا التزمت بهذه النصيحة الأبوية والإنسانية والوطنية وأصبحت القضية تسمى قضية قنابل ٦ مايو..

رئيس الوزراء فى المحكمة

وفى المحكمة استدعى المحامون رئيس الوزراء محمود النقراشى للشهادة واستجابت المحكمة وحضر بالفعل حيث مثل أمام القضاة..

سأله رئيس المحكمة وفى يده الرسالة التى كان قد كتبها لى بخط يده: الرسالة دى بخطك؟

– فأجاب: نعم..

فامسك بكتفه المحامون مكرم عبيد وعبدالمجيد نافع وبقية المحامين وهم يصرخون فى وجهه: كيف تجرؤ على استدعاء سجين من محبسه وتحضه على التمسك باعترافاته الكاذبة بوعد تكتبه رسميا بيدك أن تستخرج له عفوا ملكيا فتضلل بذلك العدالة وأنت رئيس وزراء مصر؟

تصبب عرقا واستأذن من المحكمة أن يستريح ورفعت الجلسة ربع ساعة للراحة.

واصل بعدها المحامون استجوابه والهجوم عليه..

وخرجت الصحف فى اليوم التالى بعناوين ضخمة عن فضيحة رئيس الوزراء..

والغريب بعد نحو يومين أو ثلاثة، وأثناء مرافعة فتحى رضوان وعبدالمجيد نافع جاء الخبر باغتيال النقراشى باشا فى مصعد وزارة الداخلية، إذ دخل عليه الطالب عبدالحميد حسن وهو من الإخوان المسلمين مرتديا زى ضابط شرطة برتبة نقيب حيث أدى له التحية العسكرية ودخل معه «الأسانسير» ليطلق الرصاص عليه فيرديه قتيلا!



الفصل الرابع

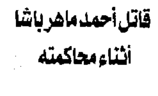
أحداث مثيرة فى جلسات المحاكمة



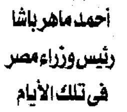
قبلة تهنئة براءة بكورت الألمانى ولصدور حكم قضيناه بالحبس الاحتياطي



- اغتيال رئيس الوزراء ورئيس المحكمة أثناء المحاكمة.
- القاضى الذى أطلق سراحى كان محكوما بإعدامه فى ثورة ١٩١٩.
- تنحية رئيس النيابة لانتزاعه الاعترافات بالبوليس السياسى.
- لماذا أُغتيل القاضي الخازندار عقب جلسة محاكمتي..؟
- حكومة الوفد تلغى قرار الفصل وتعيدنى إلى الجامعة.



قاتل أحمد ماهر باشا أثناء محاكمته



أحمد ماهر باشا رئيس وزراء مصر فى تلك الأيام

اغتيال رئيس الحكومة داخل مبنى البرلمان!

كان أحمد ماهر باشا يدعو لمشاركة مصر فى الحرب العالمية إلى جانب بريطانيا والحلفاء، وكان الشعب المصرى يرفض ذلك وقام محمود العيسوى -الذى كان يعد رسالة دكتوراه فى الجامعة عن بطلان معاهدة ١٩٣٦- باغتيال رئيس الوزراء فى البهو الفرعونى فى مبنى البرلمان، ولم يهرب القاتل وأخذ يصيح: أنا القاتل، ولم يمنع ذلك البوليس السياسى من القبض على مجموعات من الطلبة، أما سعد زغلول فؤاد فقد حُددت إقامته فى بنى سويف!

كانت حجرة مكتب رئيس النيابة المحقق كامل جاويش مليئة بكبار رجال الأمن والبوليس السياسى، كل يمارس ضغوطه لانتزاع اعترافات منى وزملائى، وكان مدير الأمن العام عبدالرحمن عمار، يتوعدنى بالمشنقة ويردد «هنجيب لكم الخازندار عشان يحكم عليكم بالإعدام» وكان القاضى الخازندار مشهورا بقسوة أحكامه على من يمثل أمامه من وطنيين.

وكنت وزملائى فى سجن الأجانب التابع لوزارة الداخلية ويديره البوليس السياسى والضباط المختصون بالمحبوسين احتياطيا من الأجانب، وكانت تتوافد عليه مجموعات من الأسرى الألمان الهاربين لحين إعادتهم إلى معسكراتهم، وكان مخصصا لحراستى على باب زنزانتى كونستابل (كانت رتبة فى الشرطة أدنى من الضابط وهم أصلا مختصون بشئون المرور) يرافقنى بسلاحه إلى دورة المياه ومنها، وفى الفترة المحددة للتجول فى فناء السجن، وهذا الحارس انتزعت منه مسدسه وكاد يقبّل يدى لأعيده إليه فعقوبته حبسه وفصله فأعدته إليه، وكان احد كبار ضباط البوليس السياسى مختصا بى ويدعى محمود طلعت وهو شقيق اللواء أحمد طلعت رئيس القسم المخصوص التابع له البوليس السياسى، وكان رجلا متدينا يؤدى الصلوات فى مواقيتها وجبهته تعلوها «زبيبة» الصلاة من كثرة السجود وإطالته، أختير هذا الرجل ليكون مختصا بى فى السجن وفى النيابة أثناء التحقيق معى.. كان يحرض على أن يصلى بى إماما فى زنزانتى، ونجح بذلك فى كسب ثقتى حتى إنى كنت استمع إلى نصائحه فى التحقيق، وكان أحد أهم العوامل التى دفعتنى إلى الاعتراف بجميع ما قمت به من تفجيرات، وبواسطته جعلنى أقنع زميلى صلاح بالاعتراف.. وهو الذى علمنى التدخين، وأدخل فى يقينى تقبل مصيرى فى الإعدام راضيا وقد قتلت الكثيرين من جنود الاحتلال بتفجيرى القنابل فى مراكز تجمعاتهم فى القاهرة.. وكانت الركيزة التى أقنعنى على أساسها بالإدلاء باعترافاتى، أنه كما كان يردد فى سمعى، أن تهمة نسف سينما مترو التى قتل فيها سبعة مصريين كان من بينهم «عريس وعروسته» ثابتة علىّ وهو متأكد من براءتى منها، وليس أمامى غير أن أعترف بكل التفجيرات التى قمت بها وكلها خاصة بالجنود الإنجليز..

وكانت التحقيقات كلها تدور حول جريمة سينما مترو.. حتى أنه جرى عرضى عدة مرات على بعض المصابين الجرحى الذين كانوا فى تلك السينما حين انفجرت فيها القنبلة أو العبوة الناسفة لا أدرى، إنما كان التحقيق كله يدور حول اتهامى بهذه الجريمة البشعة، والتى انتهت التحقيقات بشأنها أن قيدت ضد مجهول، وأصبحت المتهم الأول - وكنا ١٦ متهما - بكل ما وقع من تفجيرات فى القاهرة، وأحيلت القضية إلى محكمة الجنايات برئاسة القاضى الشهير بقسوته الخازندار، وكان مدير الأمن العام أثناء التحقيقات يتوعدنى به، وانقطعت زيارات الضابط محمود طلعت، الذى ترك أمرا بتزويدى يوميا بأفخر أنواع السجائر الإنجليزية فى «علب» صناديق معدنية بألوان جميلة فى كل علبة مائة سيجارة، وبمرور الأيام أصبح منها فى زنزانتى الكثير..

وخلال ذلك حاولت الهرب من السجن عدة مرات، إحداها أن أسيراً ألمانياً (من المحبوسين لحين رده إلى معتقله فى الصحراء الذى هرب منه)، نجح خلال عدة أيام فى نشر القضبان الحديدية لدورة المياه، التى كانت تطل على حديقة السجن على حافة شارع الملكة نازلى (رمسيس الآن) وعدلت عن الهروب عبر هذه النافذة حين نجحت فى الانتقال إلى مستشفى الحميات فى امبابة، حيث كانت نافذة الحجرة التى خصصت لى تطل على ممر طويل فى نهايته سور قصير من بعده الشارع، وحدث وقد أصبحت على أهبة الهرب، أن شاهدت عبر النافذة، وكانت حجرتى هذه بالطابق الأرضى، أن وجدت أحد زملائى بكلية الحقوق فى زيارة لأحد المرضى فناديت عليه وسألته أن يتوجه إلى آخر السور فى الممر ويعود ليخبرنى عن ارتفاعه وسألنى: لماذا؟ أجبت: سأهرب فتظاهر بالقبول، لكنه بادر بالإبلاغ عنى فأُعدت فور ذلك إلى السجن..

وعدت أتفحص قضبان دورة المياه المنشورة والتى بالضغط عليها تتفكك، لكننى وجدتها من الصلابة بمكان كبير، غير ما فى الحديقة من حراس مسلحين، وأخبرت الأسير الألمانى بصعوبة كسر القضبان المنشور بعضها، وقررت أن أنتحر قبيل أن أشنق، وأفصحت عن رغبتى هذه للأسير الألمانى، فأجاب أنه سيعد لى سما قاتلا يستخرجه من أعقاب السجائر التى تجمعت لديه ووضعها لمدة أربعة أيام فى الماء بعلبة سردين فارغة كبيرة وجاءنى بها لأشرب، وحاولت عبثا أن أتجرعها فقد أسرعت

بالقيء وبعض من نقيعها في فمي وفشلت هذه المحاولة، وكانت هذه المحاولات قد تسربت أنباؤها إلى زملائي في الخارج، فبعثوا إليّ برسالة شفاهية بألا أحاول الهرب أو الانتحار، فقط حين أتوجه إلى المحكمة في جلسة المعارضة في حبسي أن أعلن عدولي عن الاعترافات.. وفي كل موعد للمعارضة كنت اظل محتجزا ولا أغادر السجن بينما زملائي كانوا يقصدون إلى المحكمة وتُرفض معارضاتهم في أوامر حبسهم ويعودون إلى زنازينهم في سجن الأجانب..

هذا، وقد وصلتني رسالة شفهية من المحامين تخطرني أن موعد النظر في معارضة حبسي الاحتياطي في الغد صباحا مع بقية زملائي، وأن عليّ أن أصر على الخروج إلى المحكمة، وبالفعل في الصباح كنت مرتديا ملابسي وفي يدي اليمنى رجل كرسي وفي يدي اليسرى كيس ورقي به مجموعة من علب السجائر الفارغة، وصحت في مأمور السجن «هروح المحكمة لجلسة معارضتي أو هقتل واتقتل من أي حد يحاول يمنعني والمحامين في المحكمة في انتظاري وراح يعلنوا إنك مانعني من الحضور في المحكمة»، فتقدم ضابط البوليس الخاص بالترحيلات وصحبني في سيارة الشرطة إلى المحكمة، حيث اتخذت مكاني بين زملائي في قفص الاتهام.

وبدأت الجلسة برئاسة الخازندار، وحين وقفت طالبا الإذن لي بالتحدث، نهرني رئيس المحكمة الخازندار وأمرني بالصمت أو طردي خارج قاعة المحكمة»..

هنا صحت بأعلى صوتي: «كل موعد حقي في المعارضة يمنعوني من مغادرة السجن.. ولما حضرت تمنعني من الكلام اللي عاوز أقوله في المحكمة».. وأضفت بأعلى صوت: «انت جايبينك مخصوص عشان تحكم علينا بالإعدام، وكل الأقوال والاعترافات المكتوبة في الملف قدامك كلها كذب في كذب.. كلمات مملاة من البوليس السياسي وأجبرت على توقيعها والبوليس السياسي طوال مدة حبسي يغرقني باغراءات ومنها علب السجائر الفاخرة يمدني بها كل يوم.. وغيرها وغيرها» وألقيت بعلب السجائر المعدنية الفاخرة على منصة المحكمة».

ثارت ضجة كبيرة في القاعة التي كانت ممتلئة بالمحامين والصحفيين وبأهالينا وأصدقائنا.. رفع الخازندار جلسة المحكمة في استراحة قصيرة، وعاود انعقاد الجلسة، حيث أمر بالإفراج المؤقت عن بعض زملائي من الطلبة الوفديين، وعدت إلى زنزانتي

فى سجن الأجانب حيث تعرضت إلى تحرش المأمور والحراس بإجراءات عقابية، فلما أمر أن تغلق علىّ زنزانتى ولم يكن ذلك يحدث من قبل، رفضت وقاومت بأن وقع اشتباك أمر به المأمور، وتحت ضربات حراس السجن لى بقيادة المأمور قفزت نحوه وألحقت بوجهه عدة لكمات، ثم وُضعت عنوة فى زنزانتى..

وفى الصباح خرجت الصحف الوفدية بعنوان: اعتداء وحشى على المتهم الأول سعد زغلول فؤاد فى السجن عقب عدوله فى المحكمة عن اعترافاته، وفوجئت بالنائب العام وبصحبته أحد رؤساء النيابة، حيث جرى التحقيق معى ومع المأمور عن واقعة الضرب التى كان شهودى فيها زملائى فى القضية، وكان قد حضر أحد المحامين مبكرا للدفاع عنى، واختتم التحقيق بطلبى وزملائى النقل الفورى إلى سجن مصر وهو كبقية السجون تابع لوزارة العدل، ونقلنا جميعا إلى سجن « قرة ميدان » الشهير باسم « سجن مصر » والذى لا يدخله رجال البوليس السياسى.

بعد أيام قليلة من إقامتى فى سجنى الجديد الذى نُقلت وزملائى إليه، طالعت فى الصحف نبأ اغتيال القاضى الخازندار، وكانت المفاجأة أن القاتل « محمود سعيد زينهم » زميلى فى مدرسة بنى سويف الثانوية ووالده أستاذى فى اللغة العربية، وكان زينهم هذا وزميله فى اغتيال الخازندار من شباب جماعة الإخوان المسلمين، والتى كانت تمارس أنشطتها الدينية والسياسية بصورة شرعية ولها صحفها ونشراتها وكتبها وندواتها واجتماعاتها، ولم يلبث محمود سعيد زينهم أن جىء به محبوسا فى زنزانة مجاورة لى فى سجن مصر، وقد حُكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، وأفرجت عنه ثورة ٢٣ يوليو..

أصبحت المحكمة التى أُسند إليها إجراء محاكمتى وزملائى برئاسة قاضٍ عُرف بعدالته وتراحمه مع من يمثل بين يديه من وطنيين وهو حسن فهمى بسيونى رئيس محكمة استئناف مصر.

ظلت جلسات المحاكمة أكثر من شهر فى جلسات يومية متتابعة وملف القضية كان أربعة آلاف صفحة، ومثل أمامها بعض مشاهير السياسة فى مصر وفى مقدمتهم كان رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى باشا ومحمد حسين هيكل باشا.. الخ الذين استدعاهم الدفاع كشهود، هذا وقد وقع حادث بينى وأحد المحامين، ففى

مرافعة الادعاء قال: أقدم إليكم المتهم الأول سعد زغلول فؤاد لا من عندياتى وإنما من عنديات التحقيق إذ شهد أحد المحامين عنه فى هذه القضية أنه شيوعى فوضوى، فنهضت وطلبت من رئيس المحكمة أن يذكر اسم هذا المحامى فقال: الأستاذ أحمد حسين، وفى مواجهته طلبت شطبه من قائمة المحامين عنى.. والأستاذ أحمد حسين هو مؤسس وزعيم حزب مصر الفتاة، بما أثار الاستياء لدى أعضاء الحزب وأحاطوا بى يلحون أن أسحب طلب تنحيته عن الدفاع عنى، وبالفعل طلبت من رئيس المحكمة فى الجلسة التالية أن يظل محاميا عنى فأقر رئيس المحكمة طلبى هذا وهو يبتسم..

كان المحامون قد طعنوا فى صلاحية رئيس النيابة لاستمراره فى التحقيق، لدأبه على إجراء التحقيق بحضور ضباط البوليس السياسى، و بين حين وآخر – إضافة إلى هؤلاء – كان مدير الأمن العام عبدالرحمن عمار يحضر التحقيق ويشارك فى استجوابى وبعض زملائى، فتقرر تنحيته واستبعاده من التحقيق وطالبوا ضمانا لنزاهة التحقيق انتداب قاض لإجرائه، فأُسند الى القاضى النزيه عبدالحميد الوشاحى، فكانت هذه المبادرة القضائية نقطة تحول حاسمة فى القضية.. فقد أهدر آلاف الصفحات من الاعترافات بالتفجيرات القاتلة، ونبهنى وشدد على أن أنسى كل شيء عنها، وأن أتحدث فقط عما قمت به فى مساء ٦ مايو ١٩٤٧ عيد جلوس الملك، حيث ألقيت فى ساعة متأخرة من الليل، قنبلة فى مبنييّ وزارتى الأغذية والاستعلامات البريطانية، فى شارعى ضريح سعد والمتحف، ولم يكن فى أى منهما أحد، وكل من القنبلتين خاصة بالإصابات البشرية، فلم ينتج عنهما أية خسائر بشرية ولا أية أضرار بالمبنى لكل من الوزارتين.. وعلى ما سبق اقتصر ملف القضية على هاتين القنبلتين، وأصبحت القضية تسمى «قضية قنابل ٦ مايو» والتى يمكن أن تكون عقوبتها الجنائية جسيمة، متى توفر شرط تعريض حياة الناس للخطر..، ومن هذا المحتوى والمضمون لملف القضية جرت مرافعات الدفاع.

ركز المحامون على سرد جرائم قوات الاحتلال ضد جماهير الشعب المصرى، والتى اعتُبرت استفزازا لمشاعر المواطنين، خاصة نحن المتهمين الشباب، وقد وزع المحامون أنفسهم للدفاع أولا عن جميع المتهمين الستة عشر ثم الترافع عن المتهم الذى وكل للدفاع عنه، وكان من نصيبى المحامى الكبير عبدالمجيد نافع، أحد القيادات التاريخية

للحزب الوطنى، وكان يلقب «ميرابو» مصر خطيب الثورة الفرنسية، استغرقت مرافعته عنى ستة أيام، كان خطيبا سياسيا فى مرافعته وهو يسرد جرائم اعتداءات الانجليز على المواطنين المصريين وكان فى غمرة حماسه الوطنى يتوجه نحو جمهور القاعة فينبهه رئيس المحكمة ليعود متوجها الى منصة القضاة المستشارين الثلاثة. بنى دفاعه على استفزاز الاعتداءات البريطانية لمشاعرنا الوطنية، كما قدم للمحكمة نسخة من كتابى «الظلم فى مصر» أول كتاب لى أصدرته فى أواخر عام ١٩٤٦.. هذا وأذكر هنا أنه فى مرافعته السياسية المطولة، شرع فى التحدث عن جرائم قوات الاحتلال في السودان، فنبهه رئيس المحكمة أن مصر هى محل القضية.. عبدالمجيد نافع كان بين أفضل الكتاب الوطنيين، وبين أفضل كتبه «السلام الاجتماعى».

أما مكرم باشا عبيد فقد استغرقت مرافعته تسعة أيام، وكان معروفًا ببلاغته وكلمات السجع غير المصطنع، واختتم مرافعته بجملة لاتزال حية فى رأسى.. قال: «يا حضرات المستشارين، إذا كنا لا نُعاقَب إذا ما أُطلقت الأعيرة النارية فى الأفراح ابتهاجا، فكيف نعاقب عليها إذا ما أطلقت احتجاجا؟!».

عدت وزملائى المقبوض عليهم إلى السجن والمفرج عنهم إلى بيوتهم و تحدد يوم جلسة النطق بالحكم، وفى الموعد كنت وزملائى فى قفص الاتهام، وامتلأت رأسى بما يمكن أن ينطق به، فمن دراستى القانونية عقوبة المادة الخاصة بتعريض حياة الناس للخطر، مثل تفجير قنابل فى أحياء سكنية الأشغال الشاقة ١٥ سنة.. كما أنى متهم بالاتفاق الجنائى على قتل بعض ساسة الحكم، هواجس.. هواجس وتخوفات.. القانون هو القانون.. والعقوبات هى العقوبات، انعقدت المحكمة ونهضت وزملائى .. ضربات القلب تتصاعد.. الأعصاب مشدودة.. فتلك لحظة النطق بالحكم.. أمسك رئيس المحكمة بأوراق منطوق الحكم وقال: «وضعت المحكمة فى اعتبارها صغر سن المتهمين واستفزاز اعتداءات جنود الحليفة العظمى لمشاعرهم، فأخطأوا الطريق... وبناء عليه استخدمنا حقنا فى الرأفة وفق المادة ١٧، فرأينا أن ننزل بالعقوبة إلى حدها الأدنى: الحبس سنتين لكل من المتهم الأول سعد زغلول فؤاد، والمتهم الثانى صلاح الدين محمود صالح، والمتهم الرابع كمال يعقوب والمتهم الخامس كمال منسى، وبراءة بقية المتهمين».

ضجت القاعة بالتصفيق والهتاف «يحيا العدل».. وفي تصريح لرئيس المحكمة حسن فهمي بسيوني قال: «لو استطعت أن أحكم بالبراءة لحكمت بها».. وكنت قد قضيت في الحبس الاحتياطي ٣ سنوات فأطلق سراحي من باب السجن، حيث كان ضباط البوليس السياسي في انتظاري، فصحبوني إلى حيث أودعوني في معتقل هايكستب، الذي مكثت به عاما، أطلق من بعده سراحي وبقية المعتقلين، بتولي الوفد برئاسة النحاس باشا الحكم، وأعادني وزميلي مصطفى موسى إلى الجامعة.

وكانت المفاجأة أن رئيس المحكمة حسن فهمي بسيوني شارك و هو طالب في مدرسة الحقوق العليا بفاعلية في ثورة ١٩١٩ وصدر عليه حكم المحكمة العسكرية البريطانية بالإعدام.

إضراب إلغاء المعاهدة

وحين عدت بقرار مجلس الوزراء إلى الكلية ألقيت فيها محاضرة عن السجون في مصر، وكان في مقدمة الحاضرين حسن فهمي بسيوني رئيس المحكمة التي نظرت قضيتي وأطلقت سراحي!

وتوالت الأحداث وارتفعت المطالبة بإلغاء معاهدة ٣٦ وشاع شعار (الكفاح المسلح سبيل الجلاء) في كل المظاهرات التي كانت شبه يومية، ولما كانت المظاهرات موسمية في أوقات الدراسة الجامعية والثانوية لتوليد مظاهرات في العطلة الصيفية.. تشكلت مجموعة من الشبان الوطنيين الصحفيين وأنا بينهم، كما كانت من بين هذه المجموعة الصحفية سعاد منسي وكذلك أحد الفلاحين، واحتللنا نادي الكتلة الوفدية بموقعه بشارع عبدالخالق ثروت مضربين عن الطعام لإلغاء المعاهدة، وكانت جموع المواطنين يفدون إلينا ويخرجون متظاهرين بسقوط المعاهدة، وتبنت الصحف كلها (حكومية ومعارضة) إضرابنا، وأنهينا هذا الاضراب بوعد من ممثلي الحكومة أنها ستلغي هذه المعاهدة..

وبالفعل في اجتماع البرلمان بمجلسيه في ٨ أكتوبر ٥١ خطب رئيس الحكومة مصطفى النحاس: (من أجل مصر وقعت معاهدة ٣٦ - ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغائها).

مقابلة مصطفى النحاس

وألغيت بالفعل المعاهدة – وقصدت محطة سكة حديد القاهرة حيث كان النحاس يغادرها إلى الإسكندرية – وسألته كصحفى فى الجمهور المصرى (والذى كنت أعمل به منذ عام ١٩٥٠ مع دراستى الجامعية) :

*** ما هي الخطوة القادمة؟**

– فأجاب : الكلمة الآن للشعب . .

وقصدت بيت أستاذى فى الشريعة الإسلامية الشيخ محمد أبو زهرة فى اليوم التالى وسألته عن فتوى تجاه مقاومة جنود الاحتلال؟

فأفتى : قتل جنود الاحتلال فرض عين على كل مسلم . . ، وهو ما نشر عنوانًا رئيسيًا باللون الأحمر فى الصفحة الأولى فى جريدة الجمهور المصرى . .

الفصل الخامس

معارك الفدائيين


عبد الفتاح حسن


فؤاد سراج الدين


وجيه أباظة



- أحرق المجرمون القاهرة لضرب العمل الفدائى وإقالة حكومة الكفاح الشعبى المسلح وفرض الأحكام العرفية!



مصطفى النحاس.. مع جموع الشعب.. من أجل الكفاح والحرية

الفدائيون المصريون وقوات الاحتلال

« الكلمة الآن للشعب »، كانت هذه الكلمات لزعيم الأمة رئيس حكومة الوفد مصطفى النحاس، عقب إعلانه فى البرلمان إلغاء معاهدة ١٩٣٦ المصرية الإنجليزية، التى كانت تسمح بوجود قواعد عسكرية للقوات الإنجليزية فى منطقة قناة السويس، وقد أصبح تواجد هذه القواعد يفتقد الشرعية، ونشطت القوى الشعبية فى الإعداد لاقتلاع هذه القواعد وطرد رجالها خارج مصر وإجبارهم على الرحيل إلى بلادهم.

تكونت لجان شعبية للكفاح المسلح فى كافة مدن وأقاليم مصر، مهامها إعداد كتائب التحرير من الشباب المتطوعين للقتال ضد قوات الاحتلال لإجبارها على الرحيل، وتتولى هذه اللجان تزويد الفدائيين المتطوعين فى مقراتهم القتالية بمنطقة القنال، بالسلاح والذخيرة والمواد الغذائية.. وجرى افتتاح معسكرات التدريب على القتال.. وإرسال مجموعات المقاتلين إلى الميدان..

وكانت هذه اللجان تضم كافة ممثلى فئات المجتمع المصرى، ويقوم تمويلها على تبرعات المواطنين، الذين أقبلوا بحماس وإيمان على ذلك، وفى قرية أبو كبير بالشرقية على سبيل المثال، شاهدت النساء القرويات يتبرعن بمصاغهن من حلى وأساور ذهبية، وفى البحيرة كانت لجنة الكفاح الشعبى المسلح قد جمعت فى أيام قليلة ٨٤ ألف جنيه.. على حين كانت لجنة القاهرة قد أصبح لديها أكثر من مائة ألف جنيه، كما تبرعت نقابة السائقين بسيارة وسائقها.. كانت لجنة القاهرة تضم صحفيين، أحمد أبو الفتح وإحسان عبد القدوس، ومحامين ورجال دين مسلمين ومسيحيين، وفنانين كان يمثلهم الموسيقار الشهير مدحت عاصم.. وعلى ما سبق انتشرت كتائب التحرير فى جميع مراكز منطقة القنال وراحت تباشر مهامها القتالية ضد قوات الاحتلال..

هذا وكانت قد تكونت لجنة قومية لرئاسة العمل الفدائى ضد قوات الاحتلال بالقنال برئاسة الفريق عزيز المصرى وعضوية ممثلى كل فئات الشعب، كان منهم صحفيون.. أحمد أبو الفتح وإحسان عبدالقدوس، ومن الفنانين مدحت عاصم، ومن الفلاحين جمال عزام.

وفى أول اجتماع جماهيرى لإعلان بدء العمل الفدائى الوطنى خطب عزيز المصرى، وبعده ألقيت كلمة باسم طلبة الجامعة، وتكونت فرقة من طلبة جامعتى القاهرة والاسكندرية باسم كتيبة خالد بن الوليد، عيننى الفريق عزيز المصرى قائدا لها، وجعل القائد الميدانى المباشر لى قائد الجناح وجيه أباظة..

هذا وكان موقع كتيبة خالد بن الوليد التى اختارنى القائد الأعلى الفريق عزيز المصرى قائداً لها، كان ميدان القتال لهذه الكتيبة يمتد من بلدة التل الكبير إلى بلدة المحسمة على مشارف مدينة الإسماعيلية، وتصاعدت العمليات القتالية للفدائيين ضد قوات الاحتلال حتى أصبحت تجرى نهاراً، بعد أن كانت تجرى فى ظلام الليل، وقد أصبحت ساحة القواعد العسكرية البريطانية ميدان قتال ليل نهار.. وأضرب للقراء إحدى هذه المعارك النهارية التى خضتها وزملائى، لإفساد احتفالات أعياد الميلاد ورأس السنة لقوات الاحتلال، تحدياً للجنرال قائد هذه القوات الذى كان قد أعلن لجنوده وهو يهنئهم بالأعياد «قضينا على الإرهابيين وستقضون أعياد الميلاد ورأس السنة سعداء»!

معركة أبو صوير المحسمة

توجهنا إلى بلدة أبى صوير مساء ٨ يناير ١٩٥١ حيث نزلنا بمركز قيادة فدائيى البلدة، منزل الأستاذ عبد الحميد صادق، وفى الواحدة صباحًا اقمنا كمينًا لاقتناص قوافل معسكرات أبى صوير – القصاصين – الإسماعيلية، قوافل لم يكن يتوقف سيرها، وحين مرت القافلة وتعرضت لنيراننا، أمطرنا رجالها بما فى جعبتنا من نيران، وشد من أزرهم ما حضر لنجدتهم من دوريات وفرق لواء المظلات، وأسرعنا بالانسحاب إلى بيت عبد الحميد فى الثالثة صباحًا بعد أن أطلق الإنجليز علينا آلاف الطلقات، وقد أوقفت قوات الإمبراطورية نيرانها التى استمرت ساعتين ظلوا بعدها صامتين فى مراكزهم، وأردنا أن نتسلى بفزع جنود بريطانيا، فكنا نرسل أحدنا ليطلق من بندقيته طلقة واحدة فى اتجاههم، طلقة واحدة فقط يعود بعدها إلينا وقد جن الإنجليز فأخذوا يطلقون نيرانهم بكثرة جنونية تستمر ساعة كاملة يتوقفون بعدها عن الضرب، فيعود صاحبنا إلى قذفهم بطلقة أخرى تثير حمى رعبهم فيطلقون

نيرانهم من جديد وفى كل جهة وبكثرة غريبة تنم عن شدة ما كان ينتابهم من رعب وفزع، وكانت هذه الطلقات البريطانية تسيل ضحكاتنا وتسيل أيضاً ذخائرهم. وفى صباح اليوم التالى ٩ يناير، كانت الخطة التى حضرنا إلى أبى صوير من أجلها معدة للنفاذ، الخطة التى قام بتنفيذها فلاحو أبى صوير وطلبة جامعتى القاهرة والإسكندرية جنباً إلى جنب، خطة أضخم معارك القنال، قاتل فيها الفلاحون والطلاب والعمال صفاً واحداً ضد قوات الاحتلال، وجاءت نتائجها بارعة رائعة للفدائيين، ومخيفة مفزعة لقوات بريطانيا.

بدأ العمل فى السابعة صباحاً بأن اندمجنا وفلاحى أبى صوير وكنا بذلك ستة وثلاثين مقاتلاً: ثمانية عشر من فريقنا ومثلهم من فريق أبى صوير، وهم جميعاً خلاصة مقاتلى الفريقين وقسمنا الفريق إلى فريقين، كل فريق من اثنى عشر مقاتلاً، ستة منا وستة من الفلاحين وتوجهت فرقة غرب أبى صوير ناحية القصاصين بقيادة ملازم أول شرطة متطوع مصطفى أبو دومة، بينما توجهت الأخرى شرقى أبى صوير بقيادة ملازم أول شرطة بهاء خالد، وكنت من الفريق الأخير وكذا كان الشهيد عباس الأعسر، وزودنا جميعاً بالبنادق الألمانى واللى أنفيلد الإنجليزية وبذخيرة وفيرة، وفى جسر ترعة الإسماعيلية حفر كل مقاتل لنفسه حفرة صغيرة ليكمن فيها ولتحميه من النيران، وكذلك فعل زملاؤنا بالمحسمة، وعلى بعد مائة متر على جانبى كل كمين، كمن اثنى عشر مقاتلاً آخرون، ثلاثة فى جانب لمناوشة وتعطيل فرق النجدة التى كانت تسارع بالحضور إلى حيث المعركة لنجدة جنود القوافل التى تقع فى الكمين، وفى تمام الثامنة والنصف وكل فى كمينه وقد اتجهت حواسه وتثبت نظره وتجمعت أعصابه نحو طريق المعاهدة الذى لم يكن يفصله عنا سوى خمسة أمتار عرض ترعة الإسماعيلية، ومرت قافلة ولكننا لم نضربها بل توارينا داخل الحفر حتى إذا ما مرت برزت رءوسنا من الرمال لنرقب الطريق من جديد، فقد كان الصيد المطلوب ثميناً، صيداً من ضباط معسكر طيران أبى صوير الذين كانوا يتنقلون بعرباتهم الزرقاء الفاخرة، وفى التاسعة صباحاً حضر الصيد: خمس عربات تقل ضباط الطيران وتتقدمها عربة جيب للبوليس الحربى بأجهزته اللاسلكية تتقدمها عربة مصفحة ثم تتبع العربات الخمس دبابة تشرمان، وما إن توسطت هذه العربات

الكمين حتى صببنا على رجالها نيراننا المتلاحقة فتعطلت جميع العربات وقد أصيب من كان بها، وحين حاولت إحدى هذه العربات الزرقاء أن تفلت من الكمين بمضاعفة سرعتها، كان الرصاص قد أصاب سائقها فاختلت عجلة القيادة واصطدمت بإحدى أشجار الطريق التى حمتها من الغرق فى مياه الإسماعيلية، وقد لقى ركابها حتفهم وهم يحاولون مبارحتها فقد صرعتهم مئات الطلقات التى كانت تنهمر على الصيد من الكمين، حدث كل ذلك فى دقائق سريعة بينما راحت العربة المصفحة والدبابة التشرمان تقذفان نيرانهما علينا والتى كان يستحيل أن تصيب واحداً منا لأنها من مدافع بعيدة المرمى وتضرب على مستوى مرتفع، فمرت جميع نيرانها من فوق رءوسنا ولم نشأ أن ننسحب بعد أن تعطلت عربات الضباط، فقد واصلنا ضربها حتى إذا كان بها أحد الأعداء حيًا أصابته طلقاتنا، وحضرت خلال ذلك فرق من جنود المظلات أخذت تتوالى قواتها على ميدان المعركة وانتشر رجالها على طول خط النار وأخذوا يوجهون إلينا طلقاتهم ونحن نبادلهم بالمثل وحين كثرت إصابات جنودهم الذين كنا نسمع صرخاتهم ونشاهد مصرعهم.. حضرت قوات مدرعة حتى أصبح الطريق مكدساً بدبابات السنتريون والتشرمان والعربات المصفحة، بينما انتشر على الأرض جنود المدفعية الثقيلة والخفيفة وأخذت كل هذه الفرق وكل هذه الأسلحة تصب علينا نيرانها، وفى نفس الوقت كان زملاؤنا بالمحسمة فى نفس الحال ويخوضون مثلنا قتالاً مريراً مروعًا، وكانوا قد شاهدوا ضابطًا يطل رأسه من برج إحدى الدبابات وعلى فمه وأذنيه جهاز اللاسلكى يدير منه المعركة فأحكم أبو دومة رصاصة نحوه فأصابه فى رأسه وصرعه فى الحال، وقد اتضح بعد ذلك أن هذا الضابط لم يكن سوى «البريجادير متشر» القائد العام لسلاح الطيران البريطانى فى الشرق الأوسط حينذاك.

وفى فريقنا صوب «عواد» أحد الفلاحين رصاصة نحو فوهة مدفع دبابة، وانطلقت رصاصته إلى حيث التقت بقذيفة الدبابة داخل المدفع فانفجر وطار برج الدبابة وتناثرت أجزاؤها العليا بينما صُرع جميع رجالها وتطايرت أشلاؤهم فى الهواء.

قصة استشهاد الأعسر

وخلال وطيس المعركة كان الشهيد عباس الأعسر يترك حفرته أو دشمته الرملية الصغيرة ويزحف إلى الأمام حتى يلامس وجهه صفحة مياه الترعة وتقترب المسافة بينه وبين الأعداء مواصلاً إطلاق نيرانه عليهم، وكانت هذه مغامرة تعنى إصابته، إلا أن الحظ حالفه فأخطأته آلاف الطلقات المجنونة وكان ذلك نتيجة سليمة من الوجهة الفنية، فقد كان يضرب تحت ستار من نيراننا ونيران الأعداء ولم يكن ليصاب إلا إذا ما تنبه إليه أحد جنود الأعداء وأمسك سلاحه بهدوء وأحكم التصويب نحوه . . . ولكن الحال في المعركة لا يحتمل تباطؤاً وتصويبًا في هدوء إنما سرعة في الضرب وتلاحق في الطلقات وتحتاج لمهارة كبرى للمقاتل كي يصيب من كان في وضع عباس.. ولكن أنى للأيدى البريطانية المرتعشة أن تطلق النيران في هدوء وإحكام؟! لقد كانوا دائمًا يطلقون نيرانهم في جنون ورعب وكان ذلك سببًا لعدم إصابة عباس في مغامرته تلك التى تحتاج إلى جراة وثبات.. ولم يكن يعود إلى حيث دشمته الرملية إلا بعد أن يشتد عليه صراخنا.. ثم لم يكن يلبث بها سوى دقائق يعود من بعدها إلى حيث كان، وقد استمرت المعركة طوال النهار ولم تتوقف النيران إلا في الخامسة بعد الظهر، وحدث أن نفدت ذخيرتنا في نحو الساعة الرابعة ولم يستطع أحد منا أن يسمع زميله أمام شدة أصوات رصاص وقذائف ومتفجرات نيران الإنجليز، فقد كانوا يطلقون نيران مدافع البرن والقكرز والهاون والميدان ومدافع الدبابات والمورتر وبنادق اللى أنفلد والإستن، كلها كانت تضرب معًا وتطلق نيرانها في وقت واحد، ويمكن تصور حالة المعركة وأى منظر ذاك الذى كان وقد أمسكت أيدى ما يقرب من المائتى جندى وضابط بريطانى كل هذه الأسلحة لتجعل من بلدة أبى صوير الصغيرة أتونا مستعراً من النيران..

وليدرك القارئ كيف كانت معركة أبى صوير هذه معركة حربية كاملة، أقول إننى لم أستطع أن أطل برأسى من حفرتي... فالشظايا والطلقات تتطاير من فوقها وحولها ولم أستطع أن أسمع صيحات زميلى بالحفرة المجاورة، كما لم يستطع أن يسمع صيحاتي أحد عما إذا كنا ننسحب أم لا، فقد أصم آذاننا صوت هدير الجحيم الذى انفتح علينا، وأصبح الجو صارخًا عاويًا بأصوات طلقات قذائف الأسلحة الجهنمية، ولما اشتدت طلقات قذائف مدافع الميدان وتلاحقت، أدركت مصيرى إذا

ما بقيت هكذا داخل حفرتي، فإن إطلاق هذا النوع من الأسلحة وبمثل هذه الشدة، لا يعنى إلا تغطية زحف مقبل، سيما وكنت قد شاهدت ضمن معداتهم قوارب من المطاط وكوبرى متحرك، وكان أمامى أحد أمرين لا ثالث لهما: إما الاستمرار متقوقعًا فى الحفرة حتى يحضر الأعداء ويأسرونى، وإما المجازفة والانسحاب بين تلك السحب من النيران، وأسرعت بالخروج ملتصقًا برمال الجسر كما يخرج الثعبان من جحره، وفى ثوان كنت محتميًا بسفحه وسرت نحو الغرب فإذا بى أجد «عم إبراهيم» –ذلك الفلاح الذى تعدى الأربعين ومع ذلك تطوع لمقاتلة الإنجليز– ببندقيته الألمانى، حائرًا لا يعرف أين يتجه نحو الشرق أم الغرب، وأخيرًا أشار إلى أن ننسحب شرقًا وأسرعنا بالمسير، وبينما نحن كذلك التقينا بإسماعيل رضا طالب الهندسة، عثرنا عليه وقد جلس بين كثبان الرمال محتميًا بها من الشظايا والطلقات المتطايرة، وقد وضع بندقيته على ركبتيه ولم يكن يعرف كذلك أين يتجه فى الانسحاب، فقد انسحب زملاؤنا ولم نعرف أى طريق اتخذوا، وبعد مداولة قصيرة اتفقنا على أن يتجه إسماعيل شرقًا فإن عثر على رفاقنا يعود ليصحبنا معه، وانطلق يركض ما بين الزحف والسير من شدة النيران، وفوجئنا باقتراب الطلقات منا، ونظرت غربًا فوجدت بيتًا صغيرًا فوق الجسر، فهتفت لصاحبى أن نختبئ به من الشظايا المتناثرة والطلقات المتدفقة، وأخذنا نصعد سفح الجسر زحفًا، وفجأة أصابت المنزل قذيفة مدفع ميدان غاصت به فى باطن الأرض لحظة ثم قذفت به فى السماء عاليًا على نحو ما تفعل البراكين الثائرة، وكان ذلك كافيًا لأن يردنا إلى حيث كنا، وحين هممنا بالانسحاب فى إثر زميلنا، فوجئنا بدفعات من طلقات البرن تصوب نحونا من الخلف.. من الغرب، فقد عبرت إحدى فرق الأعداء الترعة وكمنت خلف أحد المصارف، وبمجرد سماعى تلك الطلقات كنت قد ارتميت على الأرض ووجدتنى أزحف بلا وعى نحو الجنوب عبر الحقول، كانت قذائف الهاون تحلق فى السماء وتزرع الحقول بالموت والدمار، كنت أسمع صوت انطلاقها من المدفع، ثم أراها قادمة محلقة فوق رأسى ويهز ريحها شعرى فأغمض عينى لأستقبل الموت، فتسقط بجوارى أو بعيدًا عنى بخطوات قليلة ويردمنى ترابها لأواصل بعد ذلك الزحف وتتوالى قذائف الهاون والاستعداد للموت، وكنت أزحف وفوق رأسى بعدة سنتيمرات ستارًا كثيفًا من رصاص المرتر – الفكرز – البرن، واضطررت أن أترك بندقيتى حين صادفتنى قناة

صغيرة زحفت فيها نحو كيلو مترين حتى بلغت مصرفًا كبيراً يقطع المنطقة من الشرق إلى الغرب ومن خلفه سرت فى سلام إلى حيث كان زملائى فى انتظار المتخلفين فى الانسحاب وكنت آخر من وصل منهم ولم يبق متغيبًا سوى عباس الأعسر، وقد عرفت أن بهاء كان قد أمره خلال اشتداد الضرب بأن يتجه غربًا مائة متر ويطلق نيرانه على الإنجليز ليشغلهم قليلاً بمناوشته لهم، وذهب عباس وأطلق نيرانه فتحولت نيران الإنجليز نحوه، وأمكن بالتالى لسائر زملائه أن ينسحبوا فى سلام، بينما بقى هو حتى تلك الساعة عاجزاً عن العودة إلى قاعدته، واعتقدنا أنه قد استُشهد، وسالت دموعنا لرفيق شجاع ألقى بنفسه فى التهلكة كى ينجو زملاؤه، بينما كنا غارقين فى أحزاننا، إذ بعباس يأتى إلينا بوجهه الباسم، فاحتضناه مهنئين.

وبعد الغروب بقليل أوقف الإنجليز نيرانهم وكان الأهالى قد خرجوا من مخابئهم التى كانوا قد أقاموها خلف بيوتهم، وهى عبارة عن فجوات ضخمة فى باطن الأرض غطوا أسقفها بأكياس ممتلئة بالرمال كى يحتموا داخل هذه الفجوات أو المخابئ من الشظايا والطلقات، ولما توقفت النيران خرجت كل أسرة من مخبئها لترى ما يكون قد أصاب بيتها من خسائر، وأسرع شقيقان إلى منزلهما الذى كان قد أصبح أنقاضًا وأحجاراً، أسرعا إليه كى يلتقطا بعض ما قد يكون نافعًا، وبينما هما سائرين فى إحدى القنوات الصغيرة فتح الإنجليز عليهما النيران فأردوهما قتيلين وقد أصاب كل منهما أربعون طلقة مزقت جسميهما فى وحشية كاسرة، وحين أنبأتنا نقط المراقبة بتمام انسحاب الإنجليز، تقدم عم إبراهيم الذى كان قد سلك طريق الانسحاب شرقًا لإحضار بندقيتى فقصد إلى حيث كنت أزحف فى الحقول فوجدها تبرق ماسورتها فى ضوء القمر وعاد بها إلينا وعلى فمه ابتسامة الفلاح الساذج والوطنى القوى، ابتسامة تعنى أنه ما كان ليجوز أن أترك بندقيتى مهما كانت الأحوال، وهذا قول حق فالسلاح فى عرف الفدائيين أثمن من الرجل، لأن الرجال كثيرون والسلاح قليل.

وصافحنا رفاقنا من فلاحى أبى صوير مودعين، وفى الصحراء انطلقنا بعربات الجيب عائدين إلى التل وأيدى الفدائيين الفلاحين تلوح لنا، أيدى إبراهيم، عواد، سويلم والحاج قاسم، وسائر إخوانهم الصناديد الأبطال.

وبصحراء المحسمة كانت طلقات الرصاص يطن أزيزها وتدوى أصواتها فى آذاننا، وكان ذلك يعنى أن رفاقنا ما زالوا يقاتلون وتوقفنا عن المسير وتداولنا فيما إذا كانت حالتنا تسمح بالاشتراك معهم أم لا وانتهى الامر بأن من يجد فى قوته بقية تعينه على مؤازرتهم فليذهب إليهم، وتركنا خمسة رفاق قصدوا إلى حيث اشتركوا فى معركة المحسمة التى استمرت حتى السابعة صباحًا، خمسة من المرهقين الذين ظلوا طوال النهار وليلة أمس يقاتلون، وكان على رأس هؤلاء الخمسة الشهيد عباس الأعسر وكأنه يودع الحياة ويتزود بالقتال ويشبع رغبات شعب متعطش لمقاتلة أعدائه، وكان عباس فى اندفاعه نحو معركة المحسمة وكتفاه لم ينفضا بعد غبار معركة أبى صوير، كان فى ذلك مودعًا الحياة التى فارقها بعد ساعات، وقد سطّر بدماه قصة البطولة والفداء، قصة الاستبسال والإقدام، والتضحية والإيجابية فى الوطنية. لقد كان عباس وشقيقه محسن يقاتلان الإنجليز جنبًا إلى جنب. متسابقين على التضحية والاستشهاد، كانا فرسى رهان فى ميدان الموت من أجل التحرر، الموت الذى كان قد ائتمر بحياة عباس أكثر من مرة ونصب له شباكه فى كل معركة خاضها.. فى التل، القصاصين، أبى صوير، المحسمة، ولكنه كان يقدم على القتال وهو يرى شباك الموت من حوله ويفلت من خيوطها بأعجوبة، إلى أن تكاثرت الشباك وأصر الموت على أن يظفر به وكأنه قد ساءه كثرة التحدى، فاختطفه من الميدان.. فى غير ما خطر.. وغير ما صعوبة.. فانقض عليه فى غفلة منه ومن سائر زملائه الذين كانوا يفدونه بأرواحهم جميعًا، انقض عليه ورماه بطلقات ثلاث شاء لها أن تسكن عنقه فأردته فى الحال وقد خضبت دماؤه رمال القنال، فاختلطت بدماء أجداده التى سالت على نفس الأرض خلال معاركهم ضد نفس العدو منذ سبعين عامًا، لقد كان عباس مثالاً رفيعًا للمواطن المصرى، حبه لمواطنيه ملك عليه نفسه فلم يعد يرى فى دنياه شيئًا سواهم.. ولم يكن يعمل إلا لهم، وعاش ومات من أجلهم، وهو من قبل ذلك وبعده، الفدائى بكل ما تحتوى هذه الكلمة من معانٍ رفيعة وقيم عليا.. والمقاتل الماهر فى قتاله.. والذى كان دائمًا يتقدم صفوف زملائه خلال المعركة ليدنو من الأعداء، فينشر بينهم الرعب ويوزع عليهم الموت.. حقًا لقد كان استشهاد عباس خسارة موجعة فاجعة للفدائيين جميعًا.. فبكته مصر وخلده شعبها ضمن من خلد من أعلام الحركة الوطنية، وبين أبطاله البواسل الذين استشهدوا أثناء كفاحهم

من أجل حرية مصر ورفاهية أبنائها.. وفى صباح ١١ يناير شيع أهالى الشرقية جنازة الشهيد بين هتافات الجماهير وحماسهم.. وبينما كان عمال المقابر يهيلون التراب على جسد الشهيد، أمسك بنا شقيقه محسن قائلاً: «والآن إلى الميدان هيا نغير على الإنجليز وننتقم لشقيقى»، وركب معنا العربة لنعود إلى التل ونواصل القتال.. إلا أن الحالة العصبية التى كانت تعترى محسن كشقيق فقد شقيقه.. ما كانت لتسمح له أن يخوض غمار معركة، فإن ذلك يعنى استشهاده هو الآخر ولم تجف بعد دماء أخيه.. كان على محسن أن يستعيد هدوءه أولاً ثم يقاتل بعد ذلك.. وفى الغروب وصلنا إلى التل لنترك بعض زملائنا فى حراسة قاعدتنا أو بيتنا ويسافر الباقى إلى الإسكندرية، وقبيل السفر وجدت الشهيد أحمد المنيسى يبحث عنا طالبًا تزويده ببعض المفجرات الكهربائية التى كانت قد وصلتنا فى الأسابيع الأخيرة وذلك للاستعانة بها فى المعركة التى كان فريقه قد أعد العدة لخوضها صباح اليوم التالى، وبعد أن تسلم نحو ثلاث مفجرات غادرنا التل إلى الإسكندرية التى وصلناها فى الصباح وبعد نحو ساعة من وصولنا، كانت جماهير طلبة الجامعة قد تجمعت حول مبنى كلية التجارة التى كان الشهيد ضمن طلابها، وكذا أقبل آلاف المواطنين للاشتراك فى تشييع جنازة صامتة للشهيد. وسار الموكب يقل أهالى الثغر، وبينما كنا نسير فى جنازة الشهيد، كانت تدور على أرض التل الكبير أضخم معارك القنال وأقواها، فحين انتهى موكب الجنازة الصامت بعد الظهر بقليل، قفلنا عائدين إلى التل التى وصلناها فى الغروب.

هذا وقبيل هذه المعركة النهارية الكبيرة، جرت فى التل الكبير على أبواب المعسكر فيما كان يسمى مركز نقطة المحجر أول معاركنا النهارية التى جرت فى الساعة السابعة صباحًا، وفيما يلى عرض لمجرياتها:

أول المعارك النهارية

جاءنى قائد جناح وجيه أباظه بملابسه العسكرية، ومعه بيان تفصيلى عن مركز نقطة المحجر العسكرية، قبيل مدخل معسكر التل الكبير، وهى لمراقبة التحركات على الطريق وحماية بوابته، عدد جنوده وأسلحتهم، مواعيد وردياتهم، ومنها أن جنوده يتبدلون فى تمام السابعة صباحًا من كل يوم، حيث يستقل المغادرون شاحنة نقل

للجنود مكشوفة غير مغطاة، وأن علينا فور اكتمال تواجدهم بالشاحنة أن نطلق عليهم النار ونشرع بالانسحاب... وفى الوقت المحدد من الصباح قمنا بالهجوم فأصيب منهم من أصيب، بينما هبط الباقون وراحوا يطلقون علينا نيران بنادقهم ونحن نبادلهم النيران وهم فى مواقعهم المرتفعة فوق طريق المعاهدة، طريق الإسماعيلية - بورسعيد الذى أقيم بمقتضى معاهدة ١٩٣٦ المصرية الإنجليزية، بينما مواقعنا فى أرض منخفضة، حقل صغير جاف.. وتمكنا من الانسحاب قبيل وصول إمدادات من المعسكر.. وتوقفت نيران الإنجليز وقد أصبحت الساحة خالية تماماً من الفدائيين، لكنى اكتشفت تغيب زميلنا الطالب بكلية الهندسة محمد مأمون، فتطوع «عم عبده» الإسكافى بالبلدة للبحث عنه وإحضاره، ونجح فى ذلك حين وجده فى غفوة شبه إغماءة فى مجرى قناة جافة فأحضره إلينا سالماً، وهنا ضممت عم عبده هذا إلى فرقتنا بناء على طلبه وإلحاحه... وكان المتبع أن يجرى انسحابنا إلى مركز بوليس التل الكبير، حيث كان عساكر المركز يتناولون أسلحتنا بتنظيفها وتزييتها.. وما إن وصلنا إلى باب مركز البوليس، حتى وجدت خالد محيى الدين بملابسه المدنية فى انتظارنا، وقد شاهد المعركة، وحين سألته عن سبب تواجده، أجاب أنه جاء للبحث عن شقيقه عمرو محيى الدين لإعادته إلى القاهرة لرغبة والديه، فأرشدته إلى مكانه فى معسكر الحزب الاشتراكى فى بلدة أبو حماد فانصرف بابتسامته التقليدية المشرقة.. كان ذلك فى أواخر عام ١٩٥١، وحين أصبح الضباط الأحرار فى السلطة وخالد محيى الدين عضواً فى مجلس قيادة الثورة، أجريت معه حديثاً صحفياً فى أواخر عام ١٩٥٢ أو أوائل عام ١٩٥٣ لا أذكر على وجه الدقة، تحدث فيه عن ضرورة توافر الحريات العامة والحقوق الديمقراطية، أجريته معه فى مكتبه بسلاح الفرسان بجوار مكتب حسين الشافعى زميله فى سلاح الفرسان وعضو مجلس قيادة الثورة، وكى أضفى قوة وثقلاً عليه وهو الصوت الديمقراطى بين زملائه أعضاء المجلس، ذكرت فى المقدمة تفصيلات عملية مركز نقطة المحجر، والتى اختتمتها «ولم يدر الإنجليز أن الذى قاد هذه العملية هو «الصاغ» -رائد - خالد محيى الدين..!، وكانت تلك العملية أول هُجوم لنا نهاراً».. (الحديث نشر فى مجلة روزاليوسف، وهو أول ما نشر له).

كتائب التحرير ومأزق الإنجليز

كانت قد تكونت كتائب التحرير فى كافة مدن وأقاليم مصر ومارست مهامها فى منطقة القنال، وكانت تمول جماهيريا بالسلاح والذخيرة والمواد الغذائية، وتحولت عملياتها من ليلية إلى نهارية إضافة إلى استمرار الهجمات الليلية.

وفى إحدى هذه العمليات قتل قائد قوات سلاح الطيران فى الشرق الأوسط البرجاديل ميتشر أثناء مواجهته لنا فى «أبو صوير» عبر ترعة الاسماعيلية بينما لم يصب منا أى فرد على نحو ما سبق وعرضت معركة أبو صوير – المحسمة.

وما إن كنا نجتمع لأى مواجهة قتالية مع الإنجليز حتى كان من يحمل سلاحا من الفلاحين يشاركنا وينضم إلينا، وكذلك ضباط بوليس منطقة القنال..

ووسط هذا التصاعد من العمل الفدائى كانت مظاهرات الجامعة تجتاح شوارع وميادين القاهرة وهى تهتف بسقوط الملك وطلب حافظ باشا عفيفى رئيس الديوان الملكى من وزير الداخلية فؤاد سراج الدين إطلاق الرصاص على مظاهرات الهتاف بسقوط الملك فرفض وزير الداخلية قائلا: أنا لا أقتل مستقبل مصر..

بل كان وزير الداخلية يزودنا بالأسلحة الميرية الرسمية، كما بعث باثنين من اكفأ ضباطه هما (للتاريخ) الملازمان الأولان.. بهاء الدين عمر خالد، ومصطفى أبو دومة.. وإلى ما سبق من معارك هجمات الفدائيين أحكمت مقاطعة التموين بالمواد الغذائية وناشدت الحكومة والقيادات الشعبية العمال والموظفين المصريين الذين كانوا يعملون فى القواعد العسكرية البريطانية مغادرة وظائفهم وأعمالهم، فاستجابوا وألحقتهم الحكومة بوظائف وأعمال فى الإدارات والمؤسسات الحكومية وكان تعدادهم ٨٠,٠٠٠ عامل.

المؤامرة المنكرة!

كانت مصر عام ١٩٥١ ويناير ١٩٥٢ تغلى بالثورة ضد الاستعمار وضد الملك فاروق الذى لم يعد له من سلطان تجاه ممارسة حكومة الوفد الشعبية لحقوقها الدستورية، والتى ألغت المعاهدة المصرية الإنجليزية – معاهدة ١٩٣٦ – وتبنت

الكفاح الشعبى المسلح، والتى رفضت التصدى للمظاهرات الشعبية شبه اليومية التى كانت تهتف بسقوط الملك، وتناديه بالمغادرة إلى أصوله فى تركيا «إلى أنقرة يا ابن. . . »، وبذلك كانت الأوضاع السياسية تفصح بوضوح شديد عن تفكك النظام الملكي وأصبح على وشك الانهيار وإطاحة الجماهير وحكومة الوفد به، والتى كانت فى نفس الوقت تعد الإجراءات اللازمة لقطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا . . . فى الوقت الذى كانت فيه جماهير الشعب تنطوى تحت قيادة لجان الكفاح الشعبى المسلح، والمنظمات والأحزاب اليسارية، وفى تحرك وطنى ديمقراطى ثورى يومى . . وكانت حكومة الوفد تبارك وتدعم هذه التحركات المعادية للملك والإنجليز. . . واكتسبت تأييداً شعبيًا كاسحًا . . وفى كلمة أصبحت الإطاحة بالملك وشيكة، وإعلان النظام الجمهورى الذى كانت شعاراته تدوى فى سماء القاهرة والإسكندرية وسائر مدن وأقاليم مصر. . ولم يكن بوسع الملك أن يقدم على إقالة حكومة الشعب كما سبق واعتاد، فالجماهير وقوات الفدائيين المنتظمة فى كتائب التحرير تساند الحكومة التى تبنتهم وأمدتهم بالسلاح والذخيرة وبسطت عليهم حمايتها، وفى هذا الصدد أذكر أننى وزملائى الفدائيين فوجئنا بمدير مديرية الشرقية (كانت مديرية قبيل أن تصبح فى عهد ثورة ٢٣ يوليو محافظة، وعاصمتها فى العهدين مدينة الزقازيق) «صادق بك الملأ» بصحبته مدير الأمن، يأمرنا بتسليم أسلحتنا إلى مركز البوليس والمغادرة إلى القاهرة، وتصديت ومعى زميلان بأسلحتنا وأشهرناها نحوهما، وقلت فى حزم «الأوامر نتلقاها من الفريق عزيز المصرى وليس من أحد سواه، وسأطلق النار عليكما إذا لم تغادرا فوراً التل الكبير»، فاستجابا وأسرعا بالمغادرة، وقصدت إلى مركز التليفون حيث طلبت وزير الداخلية بصفتى قائد كتيبة خالد بن الوليد، فاستجاب ورويت له ما حدث من مدير الشرقية، فقال لى : «لن يأتى إليكم ولا أحد يتعرض لكم وشد حيلك وزملاؤك» . .

على ما سبق، كانت مصر تقفز عدواً لتصبح جمهورية ديمقراطية شعبية اشتراكية، وهو ما أثار رعب ساسة واشنطن ولندن معًا، إضافة إلى ما انتاب القصر الملكى من فزع، ولم يكن بوسع الملك والإنجليز الإقدام على إقالة حكومة إلغاء المعاهدة مع بريطانيا وإعلان الكفاح الشعبى المسلح ودعمه وتبنيه، فاستقر المتآمرون على إحراق القاهرة، ليكون الحريق مبرراً ومسوغًا لإعلان الأحكام العرفية، والتمكن

من إقالة حكومة الوفد، وتولى حكومة القصر الملكى الموالية للإنجليز، فتبادر بضرب العمل الفدائى المصرى وتصفيته..!

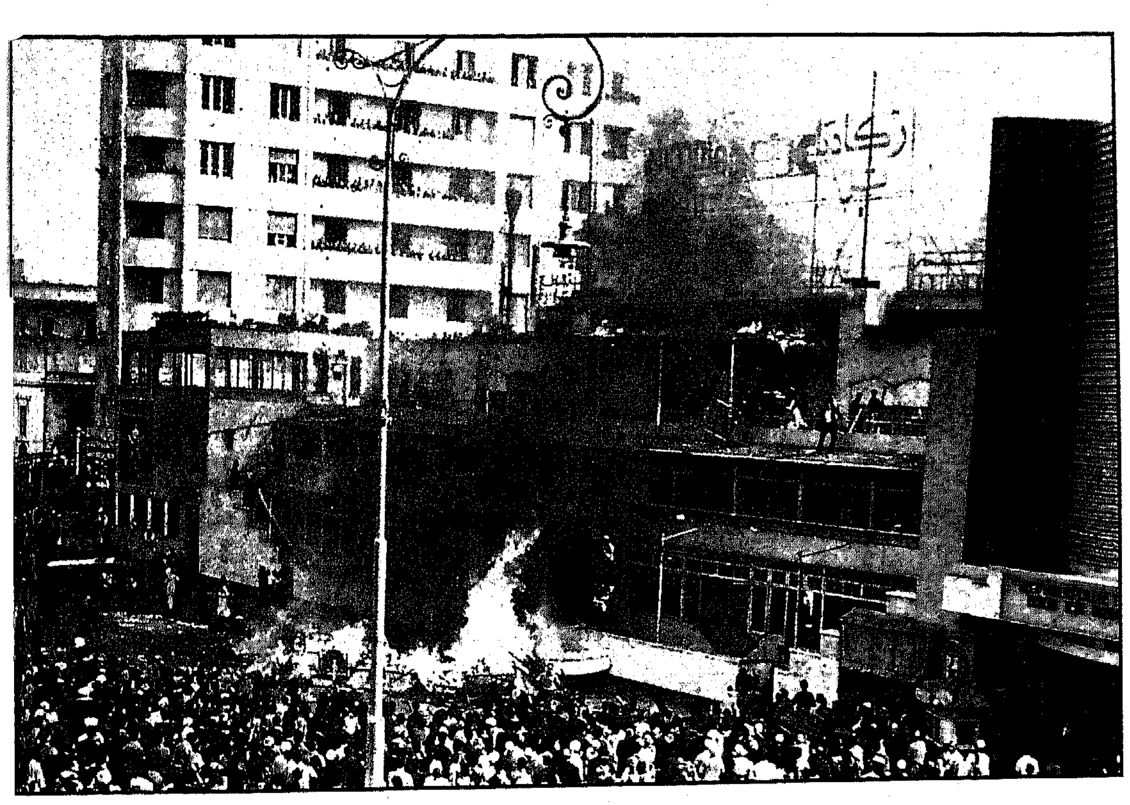
لم يجد المجرمون المتآمرون: الإنجليز والأمريكيون والقصر الملكى.. الإنجليز لتورطهم فى منطقة القنال والملك فى الشارع المصرى والأمريكان لتخوفهم من شبح الشيوعية والشيوعيين، من سبيل للتخلص من حكومة الكفاح الشعبى المسلح، غير إحراق القاهرة، فكان الحريق الإجرامى الرهيب للقاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢، والذى حرص فيه الملك على أن يدعو كافة الرتب العسكرية فى الجيش والبوليس إلى مأدبة غداء ملكى احتفالاً بسبوع وليده ولى عهده أحمد فؤاد، واشتعل الحريق وكافة قيادات قوى الأمن محتجزة فى المائدة الملكية فى قصر عابدين.

وكانت مذبحة الإسماعيلية فى اليوم السابق (٢٥ يناير) التى استشهد فيها عدد كبير من قوات الأمن فى مبنى محافظة الإسماعيلية، مما أدى إلى نشوب مظاهرات شعبية ساخطة تساندها قوات الأمن المركزى.

وبينما كان الوزير عبدالفتاح حسن يخطب فى الجماهير ذلك اليوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ مؤكدا إقدام الحكومة على قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا كان الملك يطلب من النحاس باشا إعلان الأحكام العرفية لإعادة الأمن..

وما إن أعلنْ هذه الأحكام حتى كان الملك قد أعلن قراره بإقالة الحكومة وتولية على ماهر رئيسا للحكومة الجديدة، حيث جرى اعتقال الفدائيين والكتاب والصحفيين والسياسيين الوطنيين الذين كانوا يحتضنونْ العمل الفدائى المصرى - وكنت على رأس هؤلاء المعتقلين من الفدائيين..

وبعد شهور قليلة قامت ثورة ٢٣ يوليو وطُرد الملك وتم الإفراج عنا، ولعب السفير الأمريكى كافرى دوراً رئيسيًا فى استيلاء تنظيم الضباط الأحرار على الحكم، وصادف ذلك تأييداً كاسحًا من الشعب، لكن لم يلبث أن ألغى الحكم الجديد الأحزاب السياسية وفرض الرقابة على الصحف وألغى الدستور، وفتحت المعتقلات والسجون.. لقد ضربت الحرية باسم الحرية، وهذا موضوع آخر ليست صفحات هذا الكتاب محلاً له..



أحرق المجرمون القاهـرة .. لإعلان الأحكـام العرفيـة
ولضرب العمل الفدائي الوطني المسلح ولإقالة حكومة الوفد

الفصل السادس

الصحفي موسى صبرى يترافع عن متهمين.. والحكم.. كان الإعدام!



موسى صبرى ترافع عن المتهمين فى كفر الدوار فكان الحكم الإعدام



- دنشواى جديدة فى كفر الدوار
- أمر عسكرى لصحفى بالترافع عن زعيمى عمال النسيج فى كفر الدوار فحكم بإعدامهما...!
- أحمد أنور مدير البوليس الحربى كان يضرب بنفسه المعتقلين السياسيين!

وثيقة التنازل عن العرش

أمر ملكي رقم ٦٥ لسنة ١٩٥٢

نحن فاروق الأول ملك مصر والسودان

لما كنا نتطلب الخير دائماً لأمتنا ونبتغي سعادتها ورقيها

ولما كنا نرغب رغبة أكيدة في تجنيب البلاد المصاعب التي تواجهها في هذه الظروف الدقيقة

ونزولاً على إرادة الشعب

قررنا النزول عن العرش لولي عهدنا الأمير أحمد فؤاد، وأصدرنا أمرنا بهذا إلى حضرة صاحب

المقام الرفيع علي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء للعمل بمقتضاه.

صدر بقصر رأس التين في ٤ ذي القعدة سنة ١٣٧١ (٢٦ يوليه ١٩٥٢).

فاروق

كانت محاكمات كفر الدوار بعد أيام من تنازل الملك فاروق الأول عن العرش وخروجه من مصر.. الصورة لوثيقة تنازل الملك لابنه أحمد فؤاد الثانى

قامت الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وتم الافراج عنى مع باقى المواطنين المعتقلين.

خرجت من معتقل «الهايكستب» إلى مجلس قيادة الثورة وكنت قد بعثت مبكرا ببرقية تأييد باسم الفدائيين للثورة.

كان من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة من كنت أعرفهم سابقا: أنور السادات وخالد محيى الدين ووجيه أباظة الذى كان المتحدث الرسمى باسم الثورة، وكان القائد المباشر لى فى قيادتى للعمل الفدائى لكتيبة خالد بن الوليد فى القتال التى كان ميدان عملياتها ضد القواعد العسكرية البريطانية ما بين بلدة التل الكبير والمحسمة على مشارف مدينة الإسماعيلية.

أيدت الثورة بكل طاقتى الصحفية فى صحيفتى الجمهور المصرى ومجلة «روزاليوسف» اللتين كنت أعمل فيهما معا، وبطاقة مكانى فى القيادة الطلابية.

إلى أن وقع إضراب عمال مصانع النسيج فى كفر الدوار ومبادرة الثورة بقمع هذا الإضراب، حيث نصبت محكمة عسكرية فى المصنع، وكنت حاضرا كصحفى واستأت للغاية مما رأيت.. حيث كان الوف العمال قد اصطفوا فى طابور طويل «قرفصاء» على الأرض وهم محاطون بجنود الشرطة العسكرية برشاشات جنودها. وفى إحدى القاعات نصبت المحكمة.

وكان على رأس المتهمين بقيادة الإضراب العاملان «خميس» و«البقرى».. قال خميس ردا على اتهام رئيس المحكمة الضابط عبدالمنعم أمين:

«إحنا من أول ساعة أيدنا الثورة.. إحنا بس كنا بنهتف «يحيا العمال ويسقط الجمال.. مدير المصنع» لأنه رفض الاستجابة لمطالبنا بالنسبة للأجور وساعات العمل والرعاية الصحية».

وسأله رئيس المحكمة عما إذا كان معه وزميله المتهم محام فأجاب بالنفى فطلب من الصحفيين الحاضرين أن يتولى الدفاع عنهما أحد الحاصلين على ليسانس الحقوق، فبادر بالدفاع عنهما الزميل الراحل موسى صبرى، ثم أُعلن انتهاء الجلسة وصدر الحكم بالإعدام حيث جرى التنفيذ فور ذلك فى القاهرة، وقد عدت منها

ممتعضاً ساخطا على الثورة إذ ذكّرتنى هذه المحاكمة المهينة بمذبحة « دنشواى ».

* * *

فوجئت بعد ذلك باعتقال الثورة أكثر من ١٠٠ طالب فعقدت مؤتمرا طلابيا فى حرم الجامعة. وهاجمت لأول مرة رجال الثورة وقلت على ما أذكر:

«عندما سارت قوات الجيش لمحاصرة قصور الملك السابق كانت تسير فى طرقات مهدناها نحن طلبة الجامعة بدماء شهدائنا وحريات سجنائنا، ونحن الذين أسقطنا بالفعل الملك فاروق نستطيع أن نسقط الطغمة العسكرية ما لم تفرج عن زملائنا المعتقلين».

وقررنا الاعتصام فى حرم الجامعة واستدعانى رئيس الجامعة لمحادثة تليفونية مع الرئيس محمد نجيب وقتها الذى طلب منى فض الاعتصام ووعد بإطلاق سراح كل الطلبة المعتقلين.

وفعلا فضضنا الاعتصام، وفى الليل اعتقلتنى الثورة حيث أصبحت مع بقية الزملاء من الطلبة الذين كنت أطالب بالإفراج عنهم.

وبعد حوالى شهرين تم الإفراج عنا جميعا حيث بدأ الصراع بين نجيب وعبدالناصر.. أو بين الاتجاه الديمقراطى والديكتاتورى!

وحدث أن تم اعتقال ثلاثة من الزعماء فى السجن الحربى هم: أحمد حسين وعمر التلمسانى وطاهر الخشاب، واعتدى عليهم بالضرب رئيس البوليس الحربى فى ذلك الوقت أحمد أنور.. وتجاه شدة المظاهرات الجامعية اضطرت الثورة لأن تتراجع عن قرارها بإبعاد نجيب والوعد بإجراء انتخابات برلمانية حرة، ورفعت الرقابة عن الصحف وذلك على إثر ثورة سلاح الفرسان فى صف محمد نجيب، والذى ذهب لتهدئتهم عبدالناصر عارضا تعيين خالد محيى الدين رئيسا للوزارة. لكن خالد اعتذر وبرر لى شخصيا أن قبوله كان يعنى التدخل الأمريكى المضاد ولا يمكن السماح ليسارى أن يحكم مصر.

عدة أيام يتيمة لم تتجاوز أصابع اليد الواحدة كانت الصحافة بلا رقابة بقرارات ٢٥ مارس ١٩٥٤ التى أعادت نجيب رئيسا للجمهورية بعد سبق إقالته.

هنا كتبت فى الجمهور المصرى مقالا عنيفا مهاجما رئيس البوليس الحربى أحمد أنور الذى كان أول من ابتدع ضرب المعتقلين السياسيين ووضعت صورته فى الصفحة الأولى بكرشه الضخم ومسدسه الكبير على جانبه، وتحتها تعليق: الرجل الرهيب الذى تتحدث عنه صحف العالم!

وفى نفس الوقت كان الضابطان طعيمة والطحاوى اللذان كانا يقودان هيئة التحرير قد دفعا ٤٠٠٠ جنيه لمظاهرات عمالية فى الشاحنات هتفت: تسقط الحرية.. يسقط المثقفون.

وانبأنى بهذا الخبر أحد الضباط الأحرار أبو الفضل الجيزاوى، فنشرته فى «الجمهور المصرى» بعناوين ضخمة ، كما نشر رئيس التحرير أبو الخير نجيب مقالا عنيفا بعنوان «يا رجال الانقلاب» يدعوهم فيه للعودة إلى الثكنات!

وجاءت الانتكاسة بالقبض على محمد نجيب وبقية القيادات الطلابية والجامعية والمحامين الذين كانوا يطالبون بعودة الجيش إلى الثكنات وكنت أنا طبعا بين الذين تم اعتقالهم.

وفى محبسى بمعتقل القلعة زارنى اللواء عبدالفتاح فؤاد حاملا إلىّ نبأ اختيار الرئيس جمال عبدالناصر لى مسئولا عن الشباب بدرجة وزير فرفضت وبأعلى صوت فى وجهه صرخت:

- أنتم سرقتم الثورة .. أنتم فاشست !

وبعد نحو ساعتين على هذا الموقف تم ترحيلى إلى سجن أسيوط.. وتصادف أن كان مرحلا معى الكاتب محمد عودة..

أُفرج عنى بعد عدة شهور ثم أعيد اعتقالى فى السجن الحربى لنشاطى فى معارضة رجال الثورة، وتدخل وجيه أباظة وصحبنى إلى وزير الداخلية زكريا محيى الدين حيث تعهدت بعدم الانشغال بالسياسة، ووقع وجيه أباظة بالضمان، وصحبنى فى سيارته إلى نادى الضباط بالزمالك وتناولنا معا الغداء.. ثم أوصلنى إلى مشارف الجامعة..

وعندما دخلت حرم الجامعة وجدت مؤتمرا لليساريين والشيوعيين على سلم كلية

الحقوق فاعتليت المنصة خطيبا وأذكر أننى بدأت خطبتى بأننى خارج لتوى من السجن الحربى ثم هاجمت الثورة، فتم اعتقالى مساء ليل نفس يوم خروجى من السجن.

دخلت سجن أسيوط حيث كان كل نزلائه شيوعيين ويمثلون فريقين: الحزب الشيوعى المصرى، ومنظمة « حدتو » ، ولم يكن هناك انسجام أو توافق بين الفريقين السجناء..

مجلة حائط فى السجن !

فأصدرت وأنا فى السجن « مجلة حائط » باسم « الشاكوش » وكنت أستقى الأخبار من الصحف التى كانت ممنوعة عنا وكنت أطالعها خفية عند طبيب السجن كل صباح، وكانت تقوم على شئون المعتقلين لجنة منتخبة منهم.

تصادف أن وجدت محاميا « إسكندرانيا » يبكى فى زنزانته، فلما استوضحته الأمر عن سبب بكائه علمت أن قيادته فصلته من الحزب « الشيوعى المصرى » وأعلنت ذلك بل وشهرت به فى نشراتها الخارجية، ولما استوضحت الأمر من زعمائه المسجونين قالوا إنه ثرى ويرفض دفع التزاماته للحزب، فنشرت هجوما عنيفا على قيادته فى مجلة الحائط بالسجن « الشاكوش » . وفوجئت برئيس اللجنة ينتزع المجلة من على الحائط ويمزقها وهو يقول: قررت اللجنة مصادرتها.

فسخرت منهم وأصدرت مجلة ثانية باسم « الكرباج » نعيت فيها قرار اللجنة بالمصادرة وتساءلت: كيف سيكون حال الصحافة عند وصول هؤلاء إلى الحكم؟ .

وبعد ذلك نُقلت مع باقى السجناء إلى معتقل سجن « أبو زعبل » وهو من أبشع سجون مصر وقتها، فعندما تريد السلطات تأديب سجين فى « طرة » يلقونه فى هذا السجن.

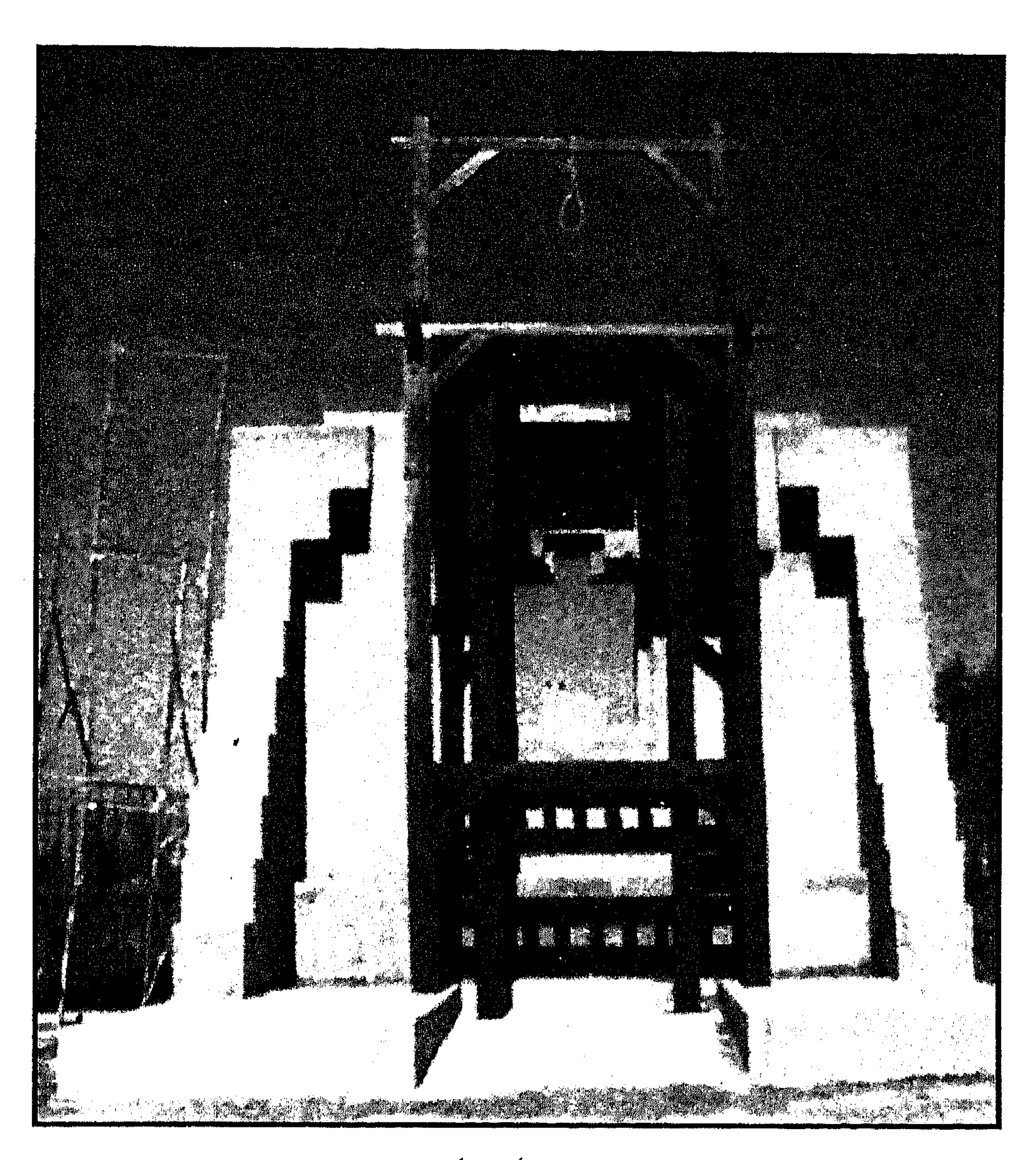
كنت دائما صديقا لأطباء السجون الذين يعرفوننى من كثرة ما ألقيت من خطب فى مؤتمرات كلية الطب، وبالتالى كما ذكرت أستقى الأخبار من صحفهم اليومية وأنشرها فى جريدة المعتقل الأسبوعية.

وكان طاقم تحريرها من بعض الزملاء الصحفيين المسجونين ومن بينهم

عبدالرحمن الخميسى، وكانت تتداول بين عنابر المعتقل، إلى أن ضبطها أحد ضباط السجن، وفوجئت بمجلس عسكرى رسمي يحاكمنى لأن سجن أبو زعبل يقع فى منطقة عسكرية!

عقدت المحكمة وأمرنى رئيسها بأن أختار أحداً للدفاع عنى فاخترت عبدالرحمن الخميسى، وبعد أن ألقى ممثل الادعاء مرافعته بطلب الحكم عليَّ بأقصى عقوبة، انبرى الخميسى للدفاع عنى فى جملة واحدة قلبت الأمور رأسا على عقب - إذ قال: إن الذى كتب هذه الجريدة بخطه هو ممثل الادعاء «ضابط السجن»، وطلب استكتابه أمام الطب الشرعى!

وهنا انفعل رئيس المحكمة ومزق المحضر وألغى المحاكمة، وأعادونا إلى العنبر بضربات خفيفة من العصى وهم يضحكون!



مشنقة دنشواى .. ستظل جرحاً عميقاً فى وجدان الشعب المصري
ورمزا لكل عصور الطغيان

الفصل السابع

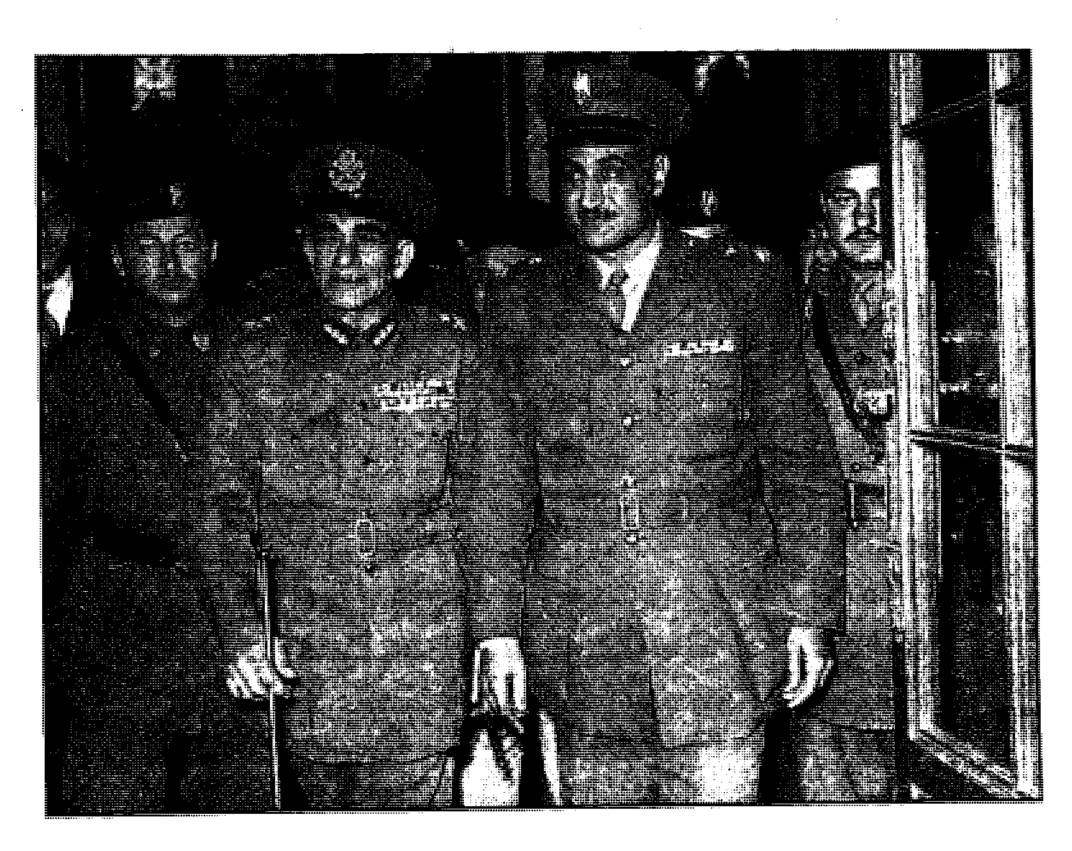
كيف خطفت ريجدن من أمام قيادة الجيش البريطانى ثم هرّبته إلى القاهرة؟



انتونى ريجدن



- ❑ ٣٠٠ مصرى أسرى فى معسكرات الجيش البريطانى
- ❑ استجواب الضابط البريطانى تحت حراسة الجيش المصرى
- ❑ نجحت فى تهريب الأسير الإنجليزى إلى القاهرة ثم نشرت تفاصيل قصة اختطافى له فى مجلة صباح الخير.
- ❑ الحكومة البريطانية توجه إنذارًا للحكومة المصرية لإعادة الجندى الإنجليزى ومصر ترفض الإنذار.
- ❑ كيف نقلت السلطات المصرية الأسير الإنجليزى إلى باريس ليُعثر عليه نائمًا على الرصيف!



طوارئ في مجلس قيادة الثورة بسبب إنذار بريطانيا للحكومة المصرية بضرورة إعادة ريجدن

كان شهر يوليو ١٩٥٣، شهراً عصيبًا على جنود القوات البريطانية فى مراكزهم بمنطقة قناة السويس، فقد اشتدت خلاله عمليات الفدائيين ضدهم، التى كانت تدبرها عناصر من مجلس قيادة الثورة، للضغط على المفاوض البريطانى، فى مفاوضات الجلاء التى كانت متعثرة، والتى كانت مميزة فريدة فى تاريخ المفاوضات المصرية مع بريطانيا، فبينما كان الطرفان يتباحثان فى هدوء، كانت هجمات الفدائيين المصريين على كافة قواعد قوات الاحتلال، تنشر فى صفوف جنودها الرعب والاضطراب، وكانت حكومة لندن تعرف جيداً، ان أصابع رجال العهد الجديد فى القاهرة، هى التى تحرك قتال الفدائيين.

هذا، وقد انتاب القيادة البريطانية القلق، من الأنشطة المنظمة والمتقنة الضاربة للفدائيين، وضاعف من قلقها هذا عجز جنودها عن صد هذه الهجمات أو التخفيف من حدتها، فبادر رجال المخابرات البريطانية لقوات الاحتلال بالعمل، فشنوا حملة واسعة من الاعتقالات بين اهالى منطقة القنال، وتناولوهم بالتحقيقات حول تحركات وأخبار الفدائيين، دون أن يحصلوا على ما يمكن أن يفيدهم فى القبض على الفدائيين، فالقوهم فى سجون معسكراتهم بالصحراء، وتحديداً فى معسكر «القرش» بمدينة الإسماعيلية..

وفى منطقة القنال حيث قواعد قوات الاحتلال، كانت تجرى حرب مستعرة خفية بين المخابرات المصرية والبريطانية، فبينما كان الإنجليز يعتقلون الوطنيين، كانت السلطات المصرية تعتقل أعوان وعيون الإنجليز، وفى سبيل ذلك خاض ضباط مخابرات القنال المصريون مغامرات عديدة، كان اهمها وأخطرها انتزاع الخائن «كينج صبرى»، من أيدى إحدى القوافل الحربية البريطانية بطريق السويس الإسماعيلية.

بداية القصة

أخبرنى مدير أمن الإسماعيلية، أن تعداد المختطفين المصريين المودعين فى معسكر القرش بالقاعدة البريطانية فى مدينة الإسماعيلية ثلاثمائة مصرى، وأنه طالب القيادة البريطانية بإطلاق سراحهم وتسليمهم إلى السلطات المصرية، لكن دون جدوى، وأضاف «ليس لدىّ دبابة أقتحم بها المعسكر وأتسلمهم عنوة.. إن ذلك يشكل

اعتداءً بريطانيا صريحًا على السيادة المصرية.. لكن ما باليد حيلة»..!

عدت إلى القاهرة ونشرت في صحيفتي روز اليوسف حصيلة زيارتي لمدينة الإسماعيلية وقضية الثلاثمائة مصري المسجونين في معسكر القرش بالقاعدة البريطانية في صحراء الإسماعيلية.. وصحت عزيمتي بوصفي قائد كتيبة خالد بن الوليد إباحة الكفاح الشعبي المسلح ضد قوات الاحتلال عقب إلغاء مصر معاهدة ١٩٣٦ المصرية البريطانية، أن تستعيد الكتيبة عافيتها وتواصل أنشطتها القتالية بعد أن توقفت بحريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢، على أن تقتصر عملياتها على التمكن من أسر أكبر عدد ممكن من الجنود البريطانيين، ومبادلتهم بالأسرى المعتقلين المصريين في معسكر القرش، وكان عليّ أن أدرس وأخطط جيداً، لأطرح الأمر على زملائي من بعد، خاصة أن اقتراحي هذا قوبل بإقرار حماسي منهم، واقترح زميلي أحمد حلمي أن يتخذ من ضيعة لوالده في صحراء الفيوم مقراً لمن سنظفر بهم من رهائن عسكريين بريطانيين، وأيضًا كان حاضراً اختيار ضيعة والد زميلي وسيم خالد في صحراء الفيوم..

مهمة صحفية تتحول لمهمة حربية!

صباح الخميس ٩ يوليو ١٩٥٣، اقترحت على رئيس التحرير إحسان عبد القدوس، التوجه إلى مدينة الإسماعيلية، لإجراء تحقيق صحفي عن جرائم العدوان البريطاني المتزايد على الأهالي فوافق في الحال، وحين أصبحت في المدينة، كان عليّ أن أنجز واجبي الصحفي، وفي نفس الوقت أستكشف على الطبيعة إمكانية اختطاف جنود بريطانيين.

وقبيل الغروب بقليل، وبأحد مقاهي شارع الثلاثين بالإسماعيلية، كنت أجلس مع اثنين من معارفي «سمير مينا وشوقي فارس»، اللذين كانا يعملان داخل المعسكرات البريطانية، وكانا أهم مصادري الصحفية، لأنباء ما خلف أسلاك المعسكرات.. وبعد أن ألقيا ما كان في جعبتهما من أنباء، كان أخطرها صدور أمر لنقاط التفتيش بالقبض عليّ، وأن الأمر صادر من مخابرات قوات الاحتلال، وحين سألتهما عما إذا كان ممكنا أن أرى وجوه بعض رجال هذه المخابرات، في الأماكن التي يقضون فيها أوقات راحتهم.. رحبا بذلك وصحباني على الفور إليها سيراً على الأقدام.. وإلى هنا كان كل تفكيري، ينحصر في مجرد إجراء المعاينة والاستكشاف

لإمكانية اختطاف جنود بريطانيا .. خاصة إذا كانوا من رجال المخابرات ..

جوار قلعة الاستعمار

وصلنا فندق «رويال»، وهو صورة صغيرة لطراز فندق سمير اميس (القديم) بالقاهرة، وقد ساءني موقعه بجوار مبنى القيادة البريطانية لقوات كافة القواعد العسكرية البريطانية فى منطقة قناة السويس، بعمارة «أنا ليو» بميدان شامبليون ذلك الوقت، وحيث كانت توجد قيادة البوليس الحربى الإنجليزى أيضًا، وكانت الاستحكامات والمتاريس تحيط بجميع جوانب المبنى، ومن بين هذه المتاريس من أجولة الرمال، كانت تطل فوهة مدفع فكرز مصوبة نحو باب فندق رويال ..!

دخلنا الفندق لأجد شرفته الفسيحة غاصة بالضباط والجنود البريطانيين ومنها إلى قاعة خاصة بالشراب (البار)، وفيها كانت لى مفاجأة: زميل دراستى الثانوية النقيب صلاح الدين حمدى، ضابط الجوازات والجنسية بمدينة الإسماعيلية بملابسه الرسمية يحتسى الشراب وحيداً على إحدى الموائد، وكان لقاءً حاراً، اتخذت مكانى على مائدته، بينما اتخذ رفيقاى سمير وشوقى مجلسهما على مائدة جانبية .. والمفاجأة الثانية كانت فى حضور «صبرى السروجى» مقاول ومتعهد توريد المواد الغذائية للقاعدة الإنجليزية فى الإسماعيلية، والذى سبق أن هاجمته فى أحد تحقيقاتى الصحفية عن منطقة القنال، اتهمته فيها أنه بين عيون قوات الاحتلال .. والذى بادرنى بمظاهر وكلمات الترحيب، بما أحرجنى فى مشاعرى، أن يرحب بى من نشرت عنه منذ شهور هجومًا اتهمته فيه بالعمالة لقوات الاحتلال .. ووجه السروجى إلى سمعى دفاعًا طويلاً متدفقًا عن وطنيته، وكان ثملا لم يفقد الاتزان بعد، لكنه راح يؤكد أنه مع كل مقاومة وطنية ضد الاحتلال شأن كل المصريين، وقطع الحديث فجأة سمير مينا، وهو يسرّ فى أذنى، بأن الجنود الإنجليز الثلاثة الذين جلسوا أمام مائدة الحانة (اللونج بار) من رجال المخابرات .. ثم عاد أدراجه إلى حيث كان يجلس زميله شوقى .. واختلست النظر أتفحصهم .. كانوا ثلاثة يرتدون الملابس المدنية ..

نهضت لتوى إلى حيث اتخذت مكانى على أحد المقاعد الخشبية العالية على المائدة الكبيرة المستطيلة للحانة، بجوار مقعد أحدهم الذى كان يجلس بعيداً قليلاً

عن زميليه، وأمكنني بسهولة أن أتحدث إليه، ثم طلبت له شرابًا من البيرة تحية لمعرفة جديدة.. ثم بادرت بدعوته للجلوس معنا على المائدة.. فاستجاب بلا تردد، وما إن اتخذ مكانه حتى بادر ضابط الجوازات والجنسية النقيب صلاح بالمغادرة إلى منزله.. وبقيت وصبرى السروجي والجندى البريطاني حول المائدة الصغيرة للحانة.. والذى سألنى عن اسمي ووظيفتي، فقدمت نفسي باسم غير اسمي وبوظيفة مدرس بإحدى مدارس الإسماعيلية، أما صبرى فقدم نفسه باسمه الحقيقي وبمهنته كمقاول، وأخرج من جيبه حفنة من أوراق البنكنوت الكبيرة تدليلاً على شخصيته وثرائه، وسألته بدورى عن اسمه فقال: «أنتونى ريجدن» فقهقه صبرى عاليًا وهو يقول بالعربية: «قطعًا اسم مزيف.. إنه من المخابرات ولا يمكن أن يفصح عن اسمه الحقيقي»..، وكان الجنديان الآخران على اللونج بار قد غادرا الحانة، ولم يعد بها سوى ثلاثتنا حول مائدة، وعلى جانب رفيقاى سمير وشوقي.. إلى هنا ولم يخطر لى على بال أية فكرة للاختطاف، كان الأمر لدىّ مجرد استكشاف ودراسة ومعاينة..

لكن مضى السروجي وهو يحتسى البيرة كوبًا بعد آخر، فى التدليل على وطنيته وترحيبه المشاركة فى أى عمل فدائى يُطلب منه، أثار فى رأسى اختطاف هذا الذى يجلس بجانبى سألته: عندك سيارة؟ أجاب: نعم، أين هى الآن؟، أجاب: على باب الفندق، وسألت: هل أنت بالفعل على استعداد للمشاركة فى عمل فدائى؟، أجاب: نعم وبكل روحى.. قلت: إذن سأخطف هذا الجندى الجالس معنا، هيا انهض وادفع الحساب لدى جورج الجالس على «الكيس»، وفى نفس الوقت سأنهض به وأضعه معى فى سيارتك لتحضر عاجلاً إلى السيارة لتقودها.. أما إذا فشلت وقبض علىّ من هؤلاء الجنود والضباط المزدحمة بهم شرفة الفندق، فأنت لا تعرفنى وإنما كأحد الشاربين بالحانة مصرى تبادلت معى أطراف حديث سكارى الحانة.. فنهض بالفعل إلى حيث انشغل جورج بتقاضى قائمة حساب المشروبات.. وهنا بادرت بالآتى:

- أحكمت رباط «زراير» جاكتتى الكاروهات، وأدخلت يدى اليسرى من تحت سترتها، وأبرزت إصبع كفى الأيسر كأنه فوهة مسدس، وفاجأته بتأبط ذراعه الأيسر بقوة، وفوهة مسدس (إصبعى) تضغط على عظام جانبه الأيسر، ورفعته بقوة إلى

أعلى ورحت أهمس فى أذنه: «فدائى مصرى.. الزم الصمت تسلم وإلا أفرغت مسدسى فى صدرك.. الفندق ملىء بالفدائيين المصريين.. فى كل ركن وخلف كل مقعد فدائى مسلح.. الزم الصمت وأطعنى تسلم.. أية كلمة منك سأفرغ مسدسى فى قلبك من جانبك الأيسر هذا..»، شحب لون وجهه واستسلم تمامًا وأنا أصحبه خارج الحانة وأجتاز به الشرفة المليئة بالجنود والضباط السكارى والمثيرين لصخب الكلمات والضحكات.. كان كل من يرانا يعتقد أننا صديقان أحدهما ثمل أثقلت الخمر رأسه وصديقه يصطحبه إلى الخارج فى سلام.. طوال المسيرة القصيرة ظللت أهمس فى أذنه بالتهديدات بالقتل وبالسلامة بطاعتى، حتى وصلنا إلى سيارة السروجى بالباب فجلسنا معا فى المقعد الخلفى وإصبعى من تحت سترتى يضغط على عظام صدره الأيسر بوصفه فوهة المسدس.. ثم حضر السروجى وجلس على مقعد القيادة، وما إن شرع فى قيادة السيارة حتى نادى عليه أحد معارفه الأرمن من المزدحمين فى مقاعدهم بالشرفة، كى يوصله إلى فندقه، وبالفعل اتخذ هذا الأرمنى مكانه بجوار السروجى فى المقعد الامامى.. حيث غادر إلى فندقه بجوار محطة السكة الحديد.. وكان قد سأل السروجى عن هذا الإنجليزى فى السيارة، فأجابه السروجى «خطفناه»..!

السيارة كانت «سبور» مكشوفة مرفوع عنها سقفها كبيرة ووجيهة، مما مكن سمير وشوقى من القفز داخلها دون استئذان، وقد فوجئا بعملية الاختطاف فى البار وكأنهما يشاهدان فيلمًا سينمائيا مثيرًا..، كل هذا والجندى البريطانى صامت تمامًا وكأنه فقد النطق مع شحوب فى لون وجهه.. ولايزال مسدسى، أى إصبعى، يضغط على عظام صدره الأيسر، ومن بين المتاريس والاستحكامات البريطانية، مضت العربة مسرعة فقد كانت معروفة لدى مراكز الحراسة هذه، حيث كانت كل ليلة تتخذ طريقها من الفندق إلى بيت صاحبها، ثم أصبحت فى «عرايشة مصر» الحى الخالى من الإنجليز، بعيدًا عن الحى الأوروبى الملىء بالمنشآت والثكنات والمراكز العسكرية البريطانية، حيث توقفنا بمنزل صبرى السروجى، وجلسنا جميعًا فى غرفة المكتب.. يتوسطنا أنتونى ريجدن..

بدأ ريجدن يجرب معنا حيلة ساذجة للهرب.. فسأل كل منا إذا ما كان كاثوليكيا..، ولما تظاهرنا بذلك؛ أقسم إنه إذا ما أطلقنا سراحه، فإنه سوف ينتظرنا

داخل المعسكر الليلة التالية، وعلينا أن نتسلل إليه حيث يحملنا بكثير من الأسلحة يسرقها لنا من مخازن المعسكر..، وكانت تلك حيلة ساذجة، مبعثها أنه كان حتى تلك اللحظة، معتقداً أنه سيقتل بأيدينا..!

فأدخلنا على قلبه بعض الاطمئنان، وقدمنا إليه بعض الفاكهة، وخلال ذلك انتحى بى صبرى جانبا على حدة ليقول: «ما الذى سنفعله الآن بهذا الإنجليزى». قلت: «نأخذه إلى القاهرة»، قال بفزع: «تلك جناية نسجن بها مؤبداً»..، قلت: «من هذه الناحية اطمئن».

انتزع التليفون من المكتب وذهب به إلى غرفة مجاورة، حيث اتصل بقائد مركز صغير للجيش المصرى بمدينة الإسماعيلية النقيب عبد الفتاح أبو الفضل، وقص عليه كل شيء بتفاصيله، فأسرع الضابط الشاب بطلب حضورى وصبرى والجندى البريطانى على الفور.. وصرخت بالغضب فى وجه صبرى، إذ اعتقدت أن الضابط المصرى (الحكومى) سيقوم بتسليمه إلى القوات البريطانية.. وكان سمير وشوقى يستمعان لحديثنا هذا.. وحين تركنا صبرى لإعداد سيارته، حذرنى هذان الشابان من صحبة صبرى، ذلك أنهما اعتقدا أنه اتصل بالمخابرات البريطانية، وأنه سيصحبنى ليسلمنى إلى رجالها ويعيد ريجدن إلى قاعدته، وحين عاد صبرى بعد أن أعد عربته، قال لى: «علينا أن نتخلص من هذين الرجلين فإنى أعرفهما يعملان فى المخابرات البريطانية بالمعسكر..»!. وانتابتنى بلبلة من جراء هذه الشكوك والاتهامات المتبادلة.. وغادرنا البيت إلى حيث العربة، فطلب صبرى من سائقه أن يوصل «البكوات» سمير وشوقى إلى منزلهما، وطلب منى أن أصحبه والجندى البريطانى إلى الضابط المصرى، فرفضت وآثرت أن أنتظره فى سكنه، ليعود به بعد استجوابه إن كان صادقًا..، وقبيل انطلاق العربة بصديقيّ قلت لهما:

«إذا لم أعد إليكما حتى السادسة صباحًا، يكون صبرى قد سلمنى للإنجليز، وعليكما الاتصال بإحسان عبد القدوس لإخطاره بذلك»..

وكان صبرى قد توجه إلى مركز تواجد قوة رمزية للجيش المصرى، بقيادة الضابط الشاب النقيب عبد الفتاح أبو الفضل بصحبة ريجدن، حيث كان يغلب عليّ الشك فى صحة مقصده، بينما توجهت العربة الأخرى بمن أردنا التخلص منهما إلى

مسكنهما، وظللت وحدى فى المكتب.. ورحت فى غفوة خفيفة تيقظت منها على صوت مقدم سيارة، حيث أسرعت بمغادرة الموقع والاختفاء فى ظلام زقاق مجاور، حتى لا تقع الكارثة التى كنت أتوقعها، وهى أن يحضر البوليس الحربى البريطانى للقبض علىّ.. ولشدة ما كانت المفاجأة، أن وصلت عربتان توقفتا أمام المكتب. عربة صبرى التى غادرها وهو ينادى علىّ باسمى، وعربة «جيب» للجيش المصرى يقودها جندى مصرى، وغادرت مخبأى والتقينا، وكان ريجدن فى عربة الجيب فخرج منها، وغادر الجنود المصريون المكان عائدين إلى موقعهم..

الساعة كانت الثالثة صباحًا، ولم يعد بالمكتب سواى وصبرى وريجدن، فبادرنا بتبديل المكان على وجه السرعة، خشية أن يبلغ سمير وشوقى عن الحادث، فيدهمنا الإنجليز فى مكاننا ويفتكون بنا، فانتقلنا إلى مسكن بعيد فى نهاية الحى الشعبى الكبير، وتركنى صبرى مع ريجدن، لكى يحضر بعض رجاله ممن اختصوا بالسطو على معسكرات الإنجليز ليكونوا فى حراسة المسكن، وأجريت تفتيش ريجدن للتأكد من شخصيته، لكنه كان خاليا تمامًا من أية أوراق.. ومن أية نقود، مما زاد من يقينى أنه من رجال المخابرات.. قال: «اسمى أنتونى ريجدن.. جاويش طيار بسلاح الإشارة بمعسكر فايد.. أمى إيطالية ووالدى إنجليزى.. جُندت إجباريًا، وبالأمر رحلت للخدمة العسكرية فى مصر، وحكومتنا تجبرنا على احتلال بلادكم رغم إرادتكم وإرادتنا نحن الجنود البريطانيين».

هذا، وكانت أحوال ريجدن النفسية عقب زيارته للضابط المصرى الوطنى أفضل كثيراً مما كانت عليه قبيل أن يجلس إليه، فقد اطمأن إلى أن حياته ليست مهددة.. لقد غادر مكتب الضابط المصرى بمعنويات عالية، فلم تعد تراوده تخوفات اغتياله قط.

وأمليت عليه كتابة وثيقة تفيد أنه التقى بى مصادفة فى مدينة الإسماعيلية، وطلب منى مساعدته فى الوصول إلى القاهرة، وأننى استجبت مشكوراً إلى رجائه هذا.. واستأذنت صبرى لبعض الوقت، حيث توجهت إلى مسكن سمير وشوقى، وطمأنتهما، ولكن للتضليل، أننا سنطلق سراح الجندى المختطف ليعود إلى قاعدته، لخطورة عواقب هذه المغامرة، فعقوبة الاختطاف السجن الطويل مع الأشغال الشاقة، وعدت إلى حيث كان فى انتظارى صبرى وريجدن.

وفى السادسة صباحًا غادر صبرى بصحبة ريجدن الإسماعيلية إلى القاهرة، فى البداية فى عربة جيب، تعبر بهما عبارة صغيرة ترعة الإسماعيلية إلى حيث طريق بلبيس القاهرة، تجنبا لنقاط التفتيش البريطانية على طريق بورسعيد القاهرة، وتواعدنا أن نلتقى فى فندق «كنجز» فى شارع إبراهيم (الجمهورية اليوم) بالقاهرة، وشغلت بالعمل فى التحقيق الصحفى لروز اليوسف.. وأسرعت به إلى القاهرة، وفى روز اليوسف أفضيت بنبأ حصيلتى الصحفية من الإسماعيلية، ومعى أحد جنود بريطانيا يدعى ريجدن، سأحتفظ به رهينة وسأقوم وزملائى باختطاف آخرين ليكونوا رهائن لتبادلهم بالمعتقلين المصريين فى معسكر القرش الإنجليزى بالإسماعيلية..، وهكذا عرف زملائى فى روز اليوسف: إحسان عبد القدوس، أحمد بهاء الدين، صلاح حافظ ومحمد عودة.. وآخرون باختطاف الجندى البريطانى.. وكنت حين سألنى رئيس التحرير إحسان عبد القدوس عن حصيلة رحلتى إلى الإسماعيلية، أجبت مبتسمًا، معى الريبورتاج المطلوب ومعه جندى بريطانى..!

إنذار بريطانى!

ما سبق كان ظهر الجمعة ١٠ يوليو ١٩٥٣، اتصلت تليفونيا بصبرى السروجى فى فندق كنجز، واطمأننت على ريجدن وتبادلت معه التحية تليفونيا، وأكدت على صبرى أن يلزم وريجدن الفندق، ولا يبرحانه حتى أحضر إليهما فى اليوم التالى لأتسلم ريجدن، وأكون قد أعددت سيارة لنقله إلى الفيوم حيث يكون زميلى طالب الطب أحمد حلمى قد أعد مكان إقامته.. ونمت ليلتى تلك مرهقًا حيث استيقظت متأخرًا، وأعطيت لنفسى عطلة طوال نهار السبت ١١ يوليو، وفى المساء رحت أشاهد عرضا سينمائيا فى سينما ستراند ذلك الوقت فى عرض التاسعة والنصف مساءً، وبعد منتصف الليل عدت إلى مسكنى فى لاظوغلى، حيث فوجئت ببعض أهالى الحى متجمعين حول راديو الحلاق، وقد علت وجوههم علامات الغضب، وبمجرد أن رأونى راحوا يسألوننى عن حقيقة ما يجرى، فالصحفى يكون ملمًا بالأحداث وخلفياتها، لكنهم اكتشفوا جهلى بالنبأ الخطير الذى وقع فى نفسى وقع الصاعقة: إنذار بريطانى شديد اللهجة، قدمه إلى الحكومة المصرية الجنرال «فيستنج» قائد القوات البريطانية فى القنال، بيد القائم بأعمال السفارة البريطانية فى القاهرة المستر «هانكى»، كان الإنذار يقول: «إذا لم يعد الجاويش الطيار أنتونى

ريجدن إلى قاعدته فى القنال خلال ٤٨ ساعة، تكون الحكومة المصرية مسئولة عما سيتعرض له أهالى مدينة الإسماعيلية من أعمال عسكرية عقابية وانتقامية.. وفهمت من البيانات التى تتابعت إذاعتها باسم المسئولين المصريين خاصة صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الإرشاد القومى (الإعلام) أن الحكومة المصرية رفضت هذا الإنذار، وجابهت التحدى العسكرى والدبلوماسى البريطانى بتحدٍ أقوى منه، ذلك أن الرئيس جمال عبد الناصر حين تسلم الإنذار، سأل زكريا محيى الدين مدير المخابرات العامة ووزير الداخلية عما إذا كانت أجهزته قد اختطفت هذا الجندى، فنفى ذلك وأكد النفى، فاعتبر الجميع من المسئولين، أن الأمر أكذوبة يفتريها هانكى وفيستنتج تحرشا بمصر، فأصدر الرئيس عبد الناصر أمراً بتوجه فرق من الجيش المصرى إلى مدينة الإسماعيلية لحماية سكانها، وراح صلاح سالم يردد فى الراديو حملة شديدة ضد «هانكى» القائم بأعمال السفارة البريطانية فى القاهرة ويتهمه بالكذب ويكرر تساؤله لهانكى «أين هذا الجندى المزعوم..؟»، ويناشد أهالى الإسماعيلية الصمود، وأن الجيش المصرى فى طريقه إلى مدينتهم لحمايتهم.. وبين كل نداء وآخر يذيع الراديو موسيقى وأغانى وطنية..

هذا وفى هذه الساعة المتأخرة من الليل، توجهت إلى مجمع التحرير حيث مكتب الرقيب العام على الصحف أمين حماد، الذى وجدته فى جدل مع الصحفيين حول ما ينشر وما لا ينشر حول الإنذار البريطانى، وحين لمحنى همست فى أذنه «الجندى المخطوف عندى، أنا اللى خطفته وأسلمه لكم وأنا متحمل المسئولية.. افعلوا بى ما ترون..»، نهض وأمسك بيدى إلى حجرة مجاورة حيث أخبر تليفونيا صلاح سالم بما أفضيت به، وسألنى صلاح سالم عن مكانه، فذكرت له فى فندق كنجز بشارع إبراهيم فى يد صبرى عبد العال السروجى، مقاول من أهالى الإسماعيلية، تطوع بنقله بسيارته إلى القاهرة، وأنهى المحادثة أن طلب منى أن أمثل صباحًا أمام زكريا محيى الدين فى مكتبه بالمخابرات العامة..

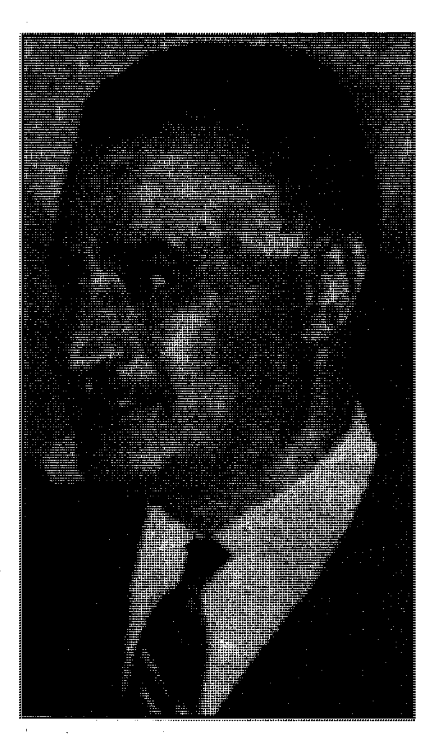
وفى الصباح كنت بين يدى زكريا محيى الدين، وهو رجل وطنى وذو مصداقية وعقلانية، رويت له القصة بأكملها، وحددت دوافعها فى العمل على إجبار الإنجليز على إطلاق سراح الثلاثمائة مصرى من أهالى الإسماعيلية، الذين يعانون السجن بلا جريمة غير وطنيتهم فى معسكر القرش، وقبيل الانصراف، أكد علىَّ أن أتكتم الأمر،

فضباط الثورة قرروا الاحتفاظ لديهم بالجندى المختطف، لاستخراج ما فى بطنه من معلومات عسكرية بريطانية، تفيد مصر فى كفاحها من أجل جلاء القوات البريطانية عن أراضى منطقة القنال، وانسحابها إلى لندن.. وقد تبين من استجوابه أهمية ما يختزن من معلومات عسكرية للقاعدة البريطانية فى القنال، والمخططات العدوانية التى تمضى عليها وتنفذها.. غادرت مكتبه إلى مجلة روز اليوسف، حيث أفضيت لإحسان عبد القدوس بكل ما جرى بينى وبين زكريا محيى الدين.. على حين مضت أجهزة الإعلام المصرية، فى حملتها ضد « هانكى » و« فيستنج »، من منطلق ادعائهما « كذبًا » بأن المدعو « ريجدن » قد اختُطف، وأنه ليس أكثر من اسم منتحل لشخصية وهمية، أريد بها إثارة المتاعب للحكومة المصرية..!

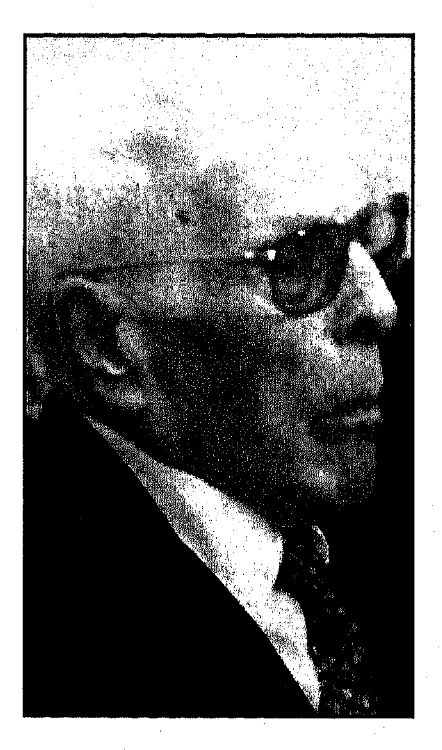
لكنى رحت أروى لكل من سألنى من زملائى الصحفيين عن قصة ريجدن بأنى بالفعل خطفته وأنه أصبح فى يد المخابرات المصرية، فاستدعانى زكريا محيى الدين غاضبًا لأنى لم أتكتم الأمر ورحت أروى القصة لكل من سألنى، وشدد علىَّ أن أتكتم الأمر وإلا سيضطر إلى اعتقالى.. لكن حدث أن طلب منى إحسان عبد القدوس الإسراع بالهرب من القاهرة والاختفاء بعيداً، لأن إسرائيل أذاعت النبأ، وأن المخابرات قررت قتل ريجدن وقتلى، للتخلص من أى دليل على صحة القصة، وقد ملأنى الرعب، فرحت كلما التقيت بصديق أقول له إن المخابرات ستقتلنى وتقتل ريجدن لإخفاء أى دليل على واقعة الاختطاف.. وما إن وصلت إلى مقهى ريش وجلست بعض الوقت، حتى كان البوليس الحربى قد قبض علىَّ، وأودعت معتقلاً أعلى قسم شرطة روض الفرج بالقاهرة، حيث أُفرج عنى بعد نحو ثلاثة أشهر، كانت المخابرات المصرية قد نقلت ريجدن مخدراً إلى باريس، حيث ألقى به الملحق العسكرى بسفارة مصر فى فرنسا عبد المنعم النجار على أحد أرصفة شوارع العاصمة الفرنسية لتصدر الصحف المصرية بعناوين رئيسية تقول: « العثور على ريجدن فى باريس »، وعندما تم الجلاء البريطانى عن مصر عام ١٩٥٦، نشرتُ فى مجلة صباح الخير مقالاً مطولاً بعنوان « كيف خطفت ريجدن.. وضعت المسدس فى جانبه وقلت له تحرك »، ولم أشأ أن أذكر أنى وضعت إصبعى.. فللصحافة لغتها فى مخاطبة القراء، حيث المهم صدق الجوهر والتزام الحقيقة والصدق.

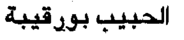
الفصل الثامن

أنا والرئيس جمال عبد الناصر
صراع السلطة فى مصر
بين الديمقراطية والديكتاتورية..



الرئيس عبد الناصر

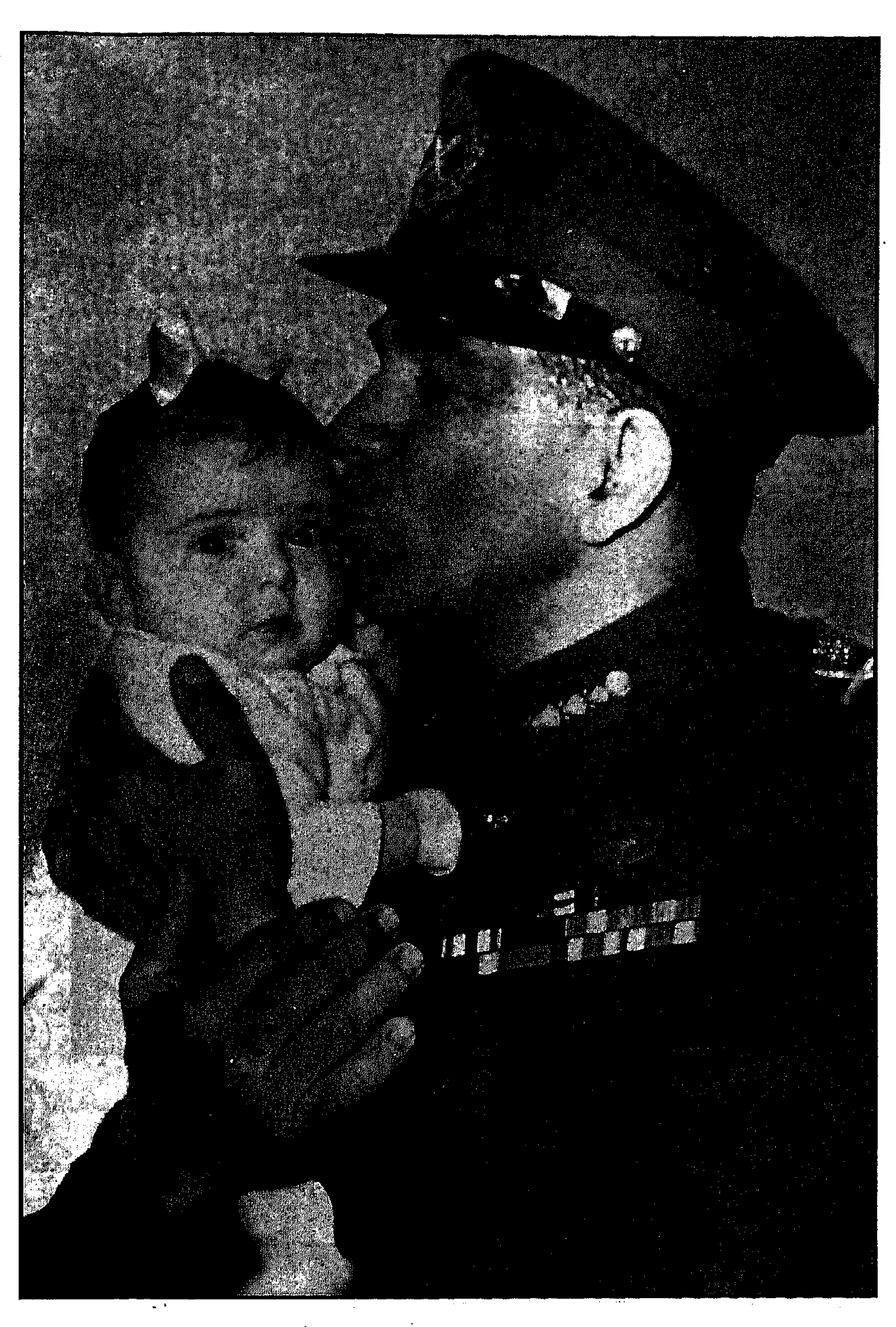




الحبيب بورقيبة

8

- عبد الناصر يطيح بنجيب ويعتقله فى بيت عتيق مهجور...!
- كنت فى صالون عبد الناصر فى دمشق ولم أستطع أن أشكو له
- كنت سببًا فى أزمة سياسية بين عبد الناصر وبورقيبة



عندما قاموا بتحديد إقامة محمد نجيب

حرموا أجيال الشعب حريته واغتصبوا كرامته

كان شهر مارس ١٩٥٤ نقطة تحول حاسمة فى التاريخ السياسى المصرى المعاصر، وكان صراعًا حادًا بين أنصار الديمقراطية والديكتاتورية، انتصر فيه الذين كانوا يرون أن الديكتاتورية هى الأصلح لحكم مصر فى تلك الفترة، التى كانت مسرحًا لغليان المعتقدات السياسية المتعارضة، وتسابقها للفوز بمقاعد الحكم، وكان فى المقدمة الوفديون واليساريون بشقيهم الشيوعى والاشتراكى والإخوان، وكان أصحاب نزعة الديكتاتورية من أعضاء مجلس قيادة الثورة يرون أن إنقاذ مصر يكمن فى تجنبها هذه الصراعات، وأن يسودها الاستقرار والتفرغ لإنجاز عمليات التنمية، وتحقيق العدالة الاجتماعية، واستكمال الاستقلال الوطنى بجلاء القوات البريطانية عن قواعدها فى منطقة قناة السويس.

بين أنصار الديمقراطية والديكتاتورية

هذا وقد تزعم أنصار الديمقراطية محمد نجيب رئيس الجمهورية، بينما تزعم الاتجاه الآخر جمال عبد الناصر وزملاؤه أعضاء مجلس قيادة الثورة، عدا خالد محيى الدين ويوسف صديق، اللذين غادرا تباعًا إلى سويسرا، وسط دوى هتافات بعض العمال من أتباع الضابطين «طعيمة والطحاوى» اللذين كانا يديران أول تنظيم سياسى للثورة «هيئة التحرير»..: «تسقط الحرية – يسقط البرلمان لا للأحزاب».

وانحزت صحفيًا وجامعيًا إلى محمد نجيب، الذى أعلن مجلس قيادة الثورة إقالته، ولم يلبث أن رجع فى قراره بضغوط المظاهرات التى وقفت إلى جانبه، لكن لم يلبث أن أقيل وحددت إقامته، كما جرت حملة واسعة من الاعتقالات لجميع من كانوا من القيادات السياسية مع عودة الأحزاب ورجوع الجيش إلى ثكناته .. وكان على رأس المعتقلين «أحمد حسين» زعيم الحزب الاشتراكى، الذى كان قد بعث برقية إلى محمد نجيب ومجلس قيادة الثورة قال فيها «ليست مصر ضيعة تتخاصمون وتتصالحون على حسابها.. عودوا إلى ثكناتكم»!.

خلال أحداث ما سبق، كان «حسن شعراوى» – أحد زعماء الحركة الوطنية لطلبة الجامعة، والذى انحاز بحماس وإيمان إلى مجلس قيادة الثورة ضد نجيب – قد طلب منى مرتين مصاحبته للقاء جمال عبد الناصر ورفضت، وعند ضرب محمد

نجيب وتحديد إقامته، قبض عليّ وأودعت معتقل القلعة، وذات صباح فوجئت باللواء عبد الفتاح فؤاد (من المقربين لعبد الناصر) يزورني، ويخطرني بأن الرئيس جمال عبد الناصر اختارني مسئولاً عن الشباب في التنظيم السياسي للثورة بدرجة وزير، فرفضت وعنفت بل وثرت، فكان أن رحلت إلى سجن أسيوط، ووقع الاختيار بدلاً مني على الدكتور عبد الحميد حسن، الذي كان بين زعماء طلبة الطب المؤيدين لقرارات مجلس قيادة الثورة في النزاع مع نجيب..

اختطاف البريطاني ريجدن

كانت أول إشارة طيبة كريمة للرئيس جمال عبد الناصر لي، تلك التي أبلغني بها زميله في تنظيم الضباط الأحرار وجيه أباظة، والذي كان المتحدث الرسمي باسم مجلس قيادة الثورة، في الشهور الأولى لممارسته الحكم، وذلك عندما نجحت - كما سبق أن أشرت في الفصل السابع من الكتاب - في اختطاف أحد العسكريين الانجليز من أمام القيادة العليا للقوات البريطانية في القنال وهو «أنتوني ريجدن» الذي كان من مهامه مطاردة الفدائيين المصريين ومؤازريهم من المواطنين في منطقة القنال، وأحضرته إلى القاهرة للاحتفاظ به رهينة، للضغط على القوات البريطانية للإفراج عمن في قبضتها من معتقلين مصريين .. وحدث أن أعلن الجنرال فيستنج قائد هذه القوات، إنذاراً شديد اللهجة للحكومة المصرية جاء فيه: «إذا لم يسلم المختطف البريطاني ريجدن إلى القيادة البريطانية حتى التاسعة من صباح الغد، تكون الحكومة المصرية مسئولة عما سيحدث من عمليات تاديبية لأهالي مدينة الإسماعيلية»، وحين سأل عبد الناصر زكريا محيي الدين - المسئول ذلك الوقت عن جهاز المخابرات المصرية - عما إذا ما كان قد اختطف بالفعل هذا الجندي، فأجاب بالنفي، فاعتبر عبد الناصر أن الأمر استفزاز وتحرش بريطاني، فأعلن رفض مصر للإنذار، وشنت أجهزة الإعلام برئاسة صلاح سالم حملة ضد مزاعم القائد البريطاني وضد «هانكي» القائم بأعمال السفارة البريطانية واتهمته بالافتراء والكذب، وعندما أعلنت للمسئولين الحقائق كلها ورويت القصة بتفاصيلها لزكريا محيي الدين، وكان وهو يستمع لي يفيض وطنية وعقلانية وحكمة، وحين أصبح ريجدن بين أيدي سلطات الثورة، احتفظت به للاستفادة مما في صدره من معلومات، ولم تطلق سراحه

إلا بعد شهور، حيث صحبه عبد المنعم النجار عندما كان ملحقًا عسكريا فى سفارتنا بفرنسا مخدراً إلى باريس، وأنزله برصيف أحد الشوارع الكبرى، ليعلن فى الصحف العثور على ريجدن فى باريس.. كما سبق وذكرت فى قصة اختطافه.

توتر بين ناصر وبورقيبة

حادث ثان فى علاقتى بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر، موقعه كان فى تونس حيث كنت السبب فى قوع أزمة وتوتر فى العلاقات بين عبد الناصر وبورقيبة وقائعها فيما يلى:

كنت مع ثوار الجزائر بولاية سوق أهراس شرقى الجزائر، على الحدود التونسية الجزائرية، والتى من خلالها كان يجرى تهريب الذخيرة والسلاح إلى الثوار .. وذات ليلة مقمرة كنت و« سى عمارة بوجليس» قائد ثوار تلك المنطقة، نتجاذب الحديث من فوق قمة الجبل وسط أشجار كثيفة، ومن تحت هذه القمة المرتفعة كان أحد مراكز القوات الفرنسية الضاربة، التى كان مهامها القتالية الإغارة وقصف مواقع الثوار، فجأة أمسك القائد الجزائرى بكتفى وهو يقول: «لو عندى مدافع هاون كافية لسحقت من موقعى هذا، تلك القاعدة العسكرية للعدو الفرنسى ولن يكون لها وجود .. آه .. فقط لو عندى هذه المدافع، و« سى .ع.م» المسئول عن توزيع الأسلحة التى ترد إلينا من مصر، يرسل إلىَّ أقل القليل منها ودون أى « مورتر» (الهاون) والتى يبعث بما يرد منها إلى مناطق الغرب والوسط ولا يضع منطقتى فى الاعتبار»، وأضاف يقول: « سى سعد، ليش ما تروح للملحق العسكرى المصرى فى طرابلس، وهو الذى يتسلم السلاح الوارد من القاهرة ويبعث به إلى مسئول جيش التحرير الذى يوزعه علينا، أريد أن يعمل على تسليمك عدد ٦ مدافع هاون، ونستلمها منك دون أن يعرف ع.م».. وبالفعل فى عربة جيش التحرير توجهت بصحبة ثلاثة من الثوار إلى طرابس، ورويت بالتفاصيل القصة للملحق العسكرى المصرى إسماعيل صادق، واقتنع من الوجهة القتالية، فكتب على ورقة رسمية لمكتب الملحق العسكرى للسفارة المصرية فى طرابلس، رسالة بخط يده إلى مسئول تسلم الأسلحة فى تونس، مندوب جيش التحرير الجزائرى ع.م بتسليمى المدافع الستة، وقع عليها وختمها بخاتم المكتب العسكرى للسفارة المصرية فى ليبيا .. وعدت إلى تونس متوجهًا إلى السفارة المصرية، حيث التقيت بزميلى فى كلية الحقوق « عصمت همام» الذى كان

يعمل في السفارة المصرية ويشغل بها موقعًا مهمًا، وأفضيت إليه بالتفاصيل، وطلبت منه أن أنقل الأسلحة إليه في السفارة، ومنها يتسلمها ثوار الجزائر دون أن يعرف مندوب جيش التحرير الذي يتسلم ويوزع الأسلحة الواردة من القاهرة فوافق على الفور .. وما إن وصلت الأسلحة في إحدى عربات الشحن الخاصة بالجيش التونسي، حتى كنت أجلس إلى «ع.م» مندوب جيش التحرير، في مكتبه الخاص بمقر الحزب الدستوري التونسي الحاكم، والذي أنشأه وتزعمه الرئيس الحبيب بورقيبة، كان السلاح الجديد الوراد مكدسًا في حجرة مجاورة، وحين أعطته رسالة الملحق العسكري المصري، راح يطالعها وقد تزايد الاحمرار على معالم وجهه، ودار بيننا الحديث التالي، فسألني بغضب:

● ليش تريد هذه الأسلحة الخاصة بمناطق الثورة؟

– لغرض خاص لا شأن لك ولا للثورة به!

● إيش يكون هذا الغرض وأنت صحفي؟

– لم أرد فلم أعرف ماذا أقول ولذت بالصمت فكرر السؤال:

● على إيش تريد هذه الأسلحة التي يأمرني الملحق العسكري المصري بتسليمها إليك؟

– نريد ثورة تونسية لإسقاط الحبيب بورقيبة، لذلك سأسلم هذه الأسلحة لأنصار الزعيم التونسي المعارض اللاجئ في القاهرة «صالح بن يوسف» ليحضر إلى تونس ويتولى رئاستها ويمضي بها على طريق الكفاح العربي ضد قوى الاستعمار.

● هل السفارة المصرية هنا على علم بذلك؟

– نعم وسأودع الأسلحة في السفارة ..

● إذن أنقلها بنفسي إلى السفارة وأسلمها لك هناك وبحضور أحد رجال السفارة..

– نعم وسيكون المستشار الأول للسفارة في استقبالك وتسلم الأسلحة..

بادر «ع.م» بوضع المدافع الستة في حقيبة سيارته المرسيدس وجلست إلى جواره متوجهًا إلى السفارة على أن تفتح أبواب السفارة المصرية، التي كانت أوامر صديقي وزميل دراسة القانون مستشار السفارة لتدخل منها عربة مندوب جيش التحرير

الجزائرى، وأغلق عليها الباب الكبير لدخول وخروج سيارات السفارة، وكان صديقى مستشار السفارة فى استقبال ع.م الذى أفرغ فى جراج السفارة المدافع الستة ثم انصرف .. وعلى الفور دخلت عربة جيش التحرير لثوار سوق أهراس جراج السفارة وتم نقل الأسلحة إليها، وركبت معهم إلى بلدة « سوق الأربعاء » على الحدود الجنوبية التونسية الجزائرية، ومنها وصلت إلى يد قائد ثوار سوق أهراس، الذى لم يتمهل وبادر فجر اليوم التالى بقصف المركز العسكرى الفرنسى، والذى أصبح أنقاضًا وقد فر من لم يصب من جنوده بعيداً، ولم يعد إليه أى جندى فرنسى ..

هذا وقد فوجئنا بالرئيس بورقيبة يذيع بيانًا هاجم فيه الرئيس عبد الناصر هجومًا عنيفًا، واتهمه بالعمل على إحداث فتنة واضطراب فى تونس، وناشد من أطلق عليهم عملاء المؤامرة التوقف عن إثارة الفتنة، وتوعد من يضبط بسلاح بعقاب شديد، والضرب بيد من حديد على مثيرى الفتنة .. وكان ترجمة ما أذاعه بورقيبة، أنه قد أحيط علمًا بكل ما جرى، وكان محقًا فى ثورته، فقد أسرع ع.م إليه وسلمه رسالة الملحق العسكرى المصرى، وأنه نفذ أوامره، والأسلحة جرى تسليمها فى السفارة المصرية، وباعتراف الصحفى المصرى أن هذه الأسلحة لتوزيعها على أنصار المعارض العنيد والخصم اللدود لبورقيبة صالح بن يوسف. وأدرك قائد ثوار سوق أهراس الأمر، وأن ع.م. أبلغ بورقيبة بالتفاصيل مدعمة برسالة الملحق العسكرى، وكان أن رأيت وسط ظلام الليل (ع.م) مقيداً ومغمى العينين ومساقًا إلى قيادة ثوار سوق أهراس لمحاكمته وإعدامه، فأذاع بورقيبة بيانًا خطيراً يتهم فيه ثوار الجزائر بالاعتداء على السيادة التونسية باعتقالها ع.م. من مقره فى الحزب الدستورى التونسى فى مدينة تونس..

لكننى قمت بتسوية هذه الأزمة حين أسرعت إلى السفير المصرى فى تونس (على فهمى كامل) ورويت له القصة، وأنى كذبت على مندوب الجيش بزعم أننى سأوزع السلاح على أنصار بن يوسف حتى لا يعرف أن السلاح ليد ثوار سوق أهراس!

سفيرنا يشرح الحقيقة

وبادر السفير بطلب مقابلة عاجلة مع الرئيس بورقيبة وصحبنى معه حيث رويت القصة كاملة للرئيس التونسى، وأنى كذبت على (ع.م) حتى لا يعرف أن الأسلحة

للثوار الجزائريين، فضحك بورقيبة وهو يربت على كتفى، وبادر بالاعتذار للرئيس عبد الناصر الذى كان السفير على فهمى كامل قد أبرق إليه بكل التفاصيل، والتى كما عرفت أنه تلقاها ضاحكًا..

وهكذا كنت سببًا فى وقوع أزمة حادة بين الرئيسين عبد الناصر وبورقيبة عام ١٩٥٧..

* * *

بعد ذلك عدت إلى القاهرة لأصطدم بعملاء المخابرات المصرية من بعض زملائى الصحفيين الذين كانوا يستفزوننى فيما أنعت به النظام من أوصاف القهر الديكتاتورى والزج بالأبرياء فى المعتقلات، فتكاثرت تقارير الجواسيس ضدى، واشتد حصارى بأوجه القمع والاضطهاد حتى أن إحسان عبد القدوس أخبرنى بأن الأوامر تقضى بإبعادى من مجلة « روزاليوسف »..

وفوجئت رغم صدور قرار من خالد محيى الدين بتعيينى فى (جريدة المساء) باعتراض وزير الداخلية فى ذلك الوقت على عملى بها، فذهبت إليها من خلال صداقة شقيقى الأكبر برئيس مجلس إدارة شركة « كيما »، لكن فى اليوم التالى اعتذر عن ذلك التعيين لاعتراض الأمن بوزارة الداخلية!

وأردت مغادرة مصر، فرفضت وزارة الداخلية منحى تأشيرة خروج، فوجدت نفسى ممنوعًا من العمل ومن مغادرة مصر، فكتبت مشروع مذكرة لعبد الناصر أتنازل فيها عن الجنسية المصرية، لكن زميلى محمد عودة أخذنى إلى مستشار الرئيس فى ذلك الوقت محمد السيد فى مسكنه بجوار فندق « شبرد »، ولما اطلع على مذكرتى مزقها، وأخبرنى أن ذلك سيؤدى إلى سجنى والمعاملة بأقسى ما تكون!

أطلقت لحيتى ورحت أجلس فى مقهى « ريش » والتقى بالصحفيين الأجانب وزملائى فى المهنة من المصريين وبعض السياسيين المقربين من جمال عبد الناصر، إلا أننى فوجئت بصدور قرار شفوى من زكريا محيى الدين وزير الداخلية بتعيينى فى مجلة البوليس التى كان يدير تحريرها سعد الدين وهبة، والذى نجح بعد ذلك فى تهريبى إلى سوريا بعد صدور أمر باعتقالى فى أوائل عام ١٩٥٩، فقد صدرت أوامر بحملة اعتقالات كنت فى مقدمتها، ومن بين المطلوب تصفيتهم، وهو ما حمل سعد الدين وهبة على تهريبى إيمانًا منه بعدالة قضيتى..

عبد الناصر فى دمشق

ومع إطلالة العام الثانى للوحدة بين مصر وسوريا، كنت وصلت دمشق، هاربًا من أمر باعتقالى فى القاهرة، وكان الرئيس الراحل عبد الناصر، قد أودع الشيوعيين فى المعتقلات، مع الخيوط الأولى لفجر أول عام ١٩٥٩، بعد أن انتهوا من احتفالات ليلة رأس السنة، ومن تبادل الأنخاب بالعام الجديد، وكنت فى مقدمة الذين صدرت الأوامر باعتقالهم، بحكم المكانة « الرفيعة » التى كان يحتلها اسمى فى كشوف القوائم السوداء، وهو ما جعلنى قاسما مشتركا، لكل حملات اعتقال، على اختلاف ألوان واتجاهات ضحاياها، ابتداء من الإخوان المسلمين والوفديين، وانتهاء بالشيوعيين والاشتراكيين.. ففى كل معتقل وسجن أودع به سياسيون، كانت الأجهزة تزج بى معهم، حتى أنه لم يفتح معتقل فى مصر، إلا وكنت بين نزلائه، سواء فى ظل الاحتلال والعهد الملكى، أو الاستقلال والعهد الجمهورى، والغريب أنى لم أكن منضمًا إلى أية فئة أو حزب أو جماعة، من تلك التى شاركت أعضاءها معتقلاتهم ومحن سجونهم، وإنما كنت وما زلت، مستقلاً معارضًا لكل الحكومات التى تعاقبت على حكم مصر، منذ أول سجن سياسى لى عام ١٩٤٢، وحتى منفاىّ الاختيارى الراهن، من عام ١٩٨٠ فى باريس حتى الآن... حيث ما زلت أحلم بمجيء الحكومة، التى يمكن أن تجتذبنى، إلى صفوف أنصارها ومؤيديها..

وفى دمشق قدمنى الصحفى الزميل أحمد بهاء الدين إلى الدكتور جمال الأتاسى السياسى القومى المعروف، والذى كان على وشك إصدار جريدة « الجماهير »، لتكون لسانًا لقوى الثورة العربية، فى دولة الوحدة المصرية السورية، فعملت فى تلك الصحيفة التى جمعت أسرة تحريرها، بين الصحفيين المصريين والسوريين، تشكل أحد مظاهر العمل الوحدوى العربى.. كما تعرفت إلى عبد الحميد السراج وزير الداخلية، والمقدم رسلان شطا مدير الأمن العام، ومن المسئولين المصريين فى دمشق، المقدم حسنى عبد المجيد مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر، الزعيم الركن عبد المحسن أبو النور مساعد القائد العام لقوات الاقليم الشمالى (سوريا)، وعدلى حشاد المشرف العام على أجهزة الإعلام فى سوريا.. هذا وقد أعلمت الجميع - كلاً على حدة - أن فى القاهرة أمراً باعتقالى، ضمن حملة الاعتقالات للشيوعيين، ولم أكن يومًا شيوعيًا، وأن اعتقالى يجرى دائمًا فى كل حملة اعتقالات، بموجب وجود

اسمى بين قوائم السياسيين الخطرين، وهى قوائم ورثتها الثورة عن العصر الملكى.. وقد تفهموا قضيتى هذه، والمسئولون منهم عن الأمن مثل السراج وشطا، قالا إنهما لا يعلمان شيئًا عن ذلك، ولم تصل إلى دمشق أية أوامر باعتقال أى مصرى.. كما علمت أن هناك لجنة من ضباط المباحث المصرية، تحضر إلى دمشق مرة كل شهر، وفى يدها قائمة بأسماء المصريين الهاربين من الاعتقال، ليجرى اعتقالهم وترحيلهم إلى القاهرة بمعرفتها، وكانت المباحث المصرية تحتفظ لنفسها بهذا الحق، ولم ترغب يومًا فى الاستعانة بالشرطة السورية.. وعلى ذلك فكلما كانت هذه اللجنة تحضر إلى دمشق، كان مدير مكتب المشير وعدلى حشاد المدير الإعلامى للإقليم الشمالى، يخطرانى للاختفاء، حيث كنت أسارع بالاختفاء لدى أحد الأصدقاء فى حماة، ولا أعود إلى دمشق إلا بعد أن يخطرانى بعودتها إلى القاهرة.

هذا وحدث فى أول زيارة لعبد الناصر إلى دمشق منذ وصولى إليها، وكان ذلك على ما أذكر فى أوائل فبراير – شباط – ١٩٥٩، حيث كان الشعب لا يغادر ساحة القصر الجمهورى ليل نهار، وهتافاته بحياة ناصر والوحدة العربية تغطى سماء دمشق، وبين حين وآخر، كان عبد الناصر يخرج إلى الشرفة تحية للجماهير، خاصة كلما ارتفع نداؤهم «طل علينا يا جمال»..، فكان يسارع إلى الإطلال عليهم، وحدث أن كنت فى مكتب عدلى حشاد، حين توجه إلى القصر الجمهورى، ليكون بين المسئولين حول عبد الناصر، وصحبنى معه وقد اقتنع بأن تكون تلك فرصتى، لأشكو لعبد الناصر أمر اعتقالى هذا، والذى دائمًا يتكرر فى كل حملة اعتقالات.. وبالفعل دخلت إلى القصر الجمهورى، ومن القاعة شاهدت عبد الناصر وبجواره السراج، وهو يستقبل الشخصيات والوفود، ومعه كان الصحفيان محمد حسنين هيكل وأحمد بهاء الدين، كما كان مصور الرئاسة الخاص، يلتقط صورًا للاستقبالات.. ودخلت إلى الصالون، حيث أخذت مكانى إلى جوار بهاء الدين، وكان من بعده هيكل وعبد الناصر، وعن يساره كان السراج، وثلاثة أو أربعة أشخاص آخرين، من ضباط المخابرات والحرس الخاص المصريين، وظللت على ذلك النحو أكثر من نصف ساعة، أتابع الاستقبالات التى كانت تجرى بالأحضان ومختلف عبارات التأييد والفداء وآيات الولاء لعبد الناصر ودولة الوحدة، وهمست فى أذن بهاء، بأنى سأتقدم إلى عبد الناصر، وأشكو له مشكلة أمر اعتقالى، لكن بهاء أمسك بيدى وهمس فى أذنى محذرًا، وهو يقول «ما إن تخطو أولى خطواتك

نحوه، حتى ينقض عليك الذين يواجهونك، ولم تغادر أنظارهم لحظة، وسيظهرونك بأنك قادم لاغتياله، وأنهم أنقذوه منك، وربما أخرجوا من جيوبهم مسدسًا سيزعمون أنهم اغتصبوه منك .. حذار .. حذار .. هذا غير ما سيقع عليك من لكمات وضربات.. »، ولما حاولت أن أعترض بأن ذلك مستحيل أن يحدث فى محضر عبد الناصر، عاد بهاء فقال «لن يحدث هنا أى شىء.. مع أول خطوة لك، سترى نفسك فى لحظات قد حُملت حملاً إلى خارج الصالون، ليضعوك فى حجرة جانبية، وفيها يمكن أن يجرى أى شىء يظهرهم بمظهر المنقذين.. بينما عبد الناصر معبود الجماهير لا يحتاج إلى أية حماية .. لكنها الأجهزة التى أنت فى يقينها رجل خطر، ودخولك قصر الرئاسة ووصولك إلى هنا، أثار تساؤلاتهم لدى المسئولين السوريين عن الأمن، وعدلى حشاد هو الذى أعلن أنه صحبك إلى هنا، وأنك صحفى مصرى على مسئوليته، مثلى لأنى هنا عن طريقه، فهو المسئول عن الصحفيين عامة، خاصة المصريين منهم.. »، وعدلت بالطبع عن التقدم نحو عبد الناصر، والذى لم يكن يفصلنى عنه غير شخصين فقط، بهاء وهيكل، وقنعت بموقعى صحفيًا، يرقب استقبالات زعيم القومية العربية، للوفود والشخصيات القيادية فى سوريا ولبنان، وبعد أن توقفت الاستقبالات لبعض الوقت ليستريح الرئيس، غادرت الصالون مع بهاء الدين، وفى القاعة الكبرى التى تتوسط الطابق الأرضى لقصر الرئاسة، كان عدلى حشاد مع بعض كبار المسئولين المصريين، فانتحى بى جانبًا ليسألنى عما فعلت فى شكواىّ، فلما أفضيت له بتحذيرات بهاء التى حملتنى عن العدول عن محاولتى الشكوى للرئيس، سكت برهة مقطب الجبين، ثم كعادته انفرج ضاحكًا وهو يقول «فعلاً .. يعملوها .. ومين عارف .. يمكن كان يشبكونى فيها لأنى أنا اللى جبتك معى.. »، وغادرت قصر الرئاسة، إلى مقهى هافانا، حيث كان ما وقع لى من إحجام وعدول عن الشكوى لعبد الناصر، وهو على قيد خطوتين منى، حديث زملائى من الصحفيين المصريين، فى مقهى «هافانا» الذى كان ملتقى المثقفين السوريين، وساحة للثرثرة السياسية لرواده..، ولما سألنى أحدهم لماذا لا أبعث بريديًا بشكواىّ، أجبت بأن نفس هؤلاء الذين حذرنى منهم بهاء، هم الذين يتسلمون الشكوى ويمزقونها ولا يوصلونها!

ضرب وحشي في مكتب المحافظ!

تزوجت عام ١٩٦٦ وأقمت في شقة أهل زوجتي المكونة من ثلاث حجرات وصالة صغيرة في حي شبرا، يشغلها خمسة أفراد انحشرت وزوجتي معهم ليصبح التعداد سبعة أفراد، فقد كان الحصول على شقة يتطلب مبالغ هائلة بما كان يسمى «خلو».. وبعد وقوع الهزيمة في يونيو ١٩٦٧، وتطوعي في المقاومة الشعبية والعودة من سيناء إلى القاهرة، توجهت إلى المحافظة لطلب مسكن يبرره أني متزوج وليس لي مسكن ومهنتي صحفي، وعندما أصبحت أمام المختص بالإسكان اللواء «ح»، كانت زوجة أحد زملائي الصحفيين وهي أوروبية، تجلس على مقعد أمام مكتب اللواء المذكور طالبة مسكنًا لها ولزوجها، أمر لي بشقة في المساكن الشعبية في شمالي حي شبرا وروض الفرج، بينما منح زميلي وزوجته الأوروبية مسكنا في حي الزمالك، وحين تفحصت الشقة التي خصصها لي، وجدتها من حجرتين صغيرتين والعفونة المتصاعدة من القاذورات المتراكمة تصيبني بالغثيان، وطفح المجاري محيط بمباني هذه المساكن، فرفضت تسلمها وأعدت مفاتيحها إلى المحافظة.

وفي اليوم التالي، اتصلت تليفونيا من مكتبي في مجلة المصور بمحافظ القاهرة في ذلك الوقت سعد زايد، أحد ضباط ثورة يوليو، وقدمت له نفسي ومهنتي الصحفية، فضرب لي موعدا للقائه في مكتبه بالمحافظة الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي، وفي الموعد المحدد كنت في مكتب سكرتيره الخاص، كانت المقاعد مليئة ببعض أصحاب الحاجات من المواطنين، ولسوء حظي كان المحافظ قد غادر مكتبه إلى خارج المحافظة لأمر ما، ومع سكرتيره الخاص دار الحديث والحادث التالي:

* قلت: لديّ موعد الآن الحادية عشرة صباحا مع سيادة المحافظ.

- قال: وعايزه في إيه؟

* مسألة خاصة.

- لازم أعرفها.

* لا، ليس مفروضا أن تعرف، وهو الذي حدد لي هذا الموعد تليفونيا.

- انت هتعلمني شغلي..!، قالها بعنجهية واستفزازية.

* أجبت منفعلا: أعلمك الأصول.

- انتصب واقفا وهو يسألني: سيادتك بتشتغل إيه..؟

* قلت: صحفي.

- الله.. الله.. طب أنا هوريك يا صحفي..

وأشار لبعض المخبرين الحراس لمكتب المحافظ، فانقضوا عليّ باللكمات حتى فقدت الوعي وأفاقوني بصب الماء البارد على رأسي، وهنا خاطبني السكرتير قائلا: وهسجنك كمان..!

واستدعى بوليس قسم عابدين فحضر ضابط برتبة نقيب ومعه شرطيان، صحبوني إلى مركز الشرطة، وفي سيارة أخرى كان سكرتير المحافظ ورجلان مسحوقان من أصحاب الحاجات الذين كانوا في مكتبه، بدأ ضابط الشرطة يكتب محضرا ضدي يتهمني فيه أنني سببت شخص رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر ومحافظ القاهرة سعد زايد بأعلى صوت في مكتبه، بأن قلت: اليهود يوميا يهتكون عرض الحكومة من أول جمال عبد الناصر إلى سعد زايد، وحين استنكرت هذا الاتهام وكذبته، أمر السكرتير أحد من جاء بهما كشهود فأكد هذا الاتهام، فلما طالبته بأن يقسم على المصحف، أخرج من جيبه مجلدا صغيرا باعتباره المصحف وراح يردد «وحق هذا الكتاب إنه قال هذه الشتائم وبأعلى صوت»، عندئذ تأكدت أن السكرتير مع ضابط الشرطة قد أتقنا التلفيق، وكان على باب الحجز جاويش على ذراعه أربعة أشرطة وكان متقدما في العمر، استأذنت من الضابط الذهاب إلى دورة المياه لمغص في بطني، فأمر الجاويش بصحبتي وغادرت الحجرة، وقلت: «يا شاويش وملامحك بتقول إنك راجل طيب وتتقي الله.. انت شايف التلفيق وفي المحافظة ضربوني، اعمل معروف أتكلم في التليفون أطلب المحامي يبقى لك ثواب عند الله»، كان رجلا صالحا حيث صحبني إلى دكان عصير القصب المواجه لمركز الشرطة، حيث اتصلت تليفونيا بصديقي المحامي عادل أمين وبمدير تحرير مجلة المصور مرسي

الشافعى، حيث رويت ما وقع علىّ من اعتداء فى المحافظة وما يجرى من تلفيق فى مركز بوليس عابدين، وكل هذا وقع لى فور معرفة سكرتير المحافظ أنى صحفى، وقبيل العودة إلى مركز الشرطة، قدم لى هذا الجاويش الطيب كوبا من عصير القصب وهو يدعو لى بالنجاة، وعلى حين راح الضابط ينشط فى استكمال محضر التلفيق مستجيبا لكل ما كان السكرتير يمليه عليه، امتلأت حجرة الضابط المحقق بزملائى الصحفيين من دار الهلال والمحامى عادل أمين، والذى راح يطالب الضابط بإثبات الإصابات فى وجهى وعرضها على الطبيب الشرعى، بينما كانت أصوات الاحتجاج تعلو وتملأ أرجاء مركز الشرطة، وفجأة دق جرس التليفون ليستقبله الضابط المحقق رئيس قسم بوليس عابدين ويقول « تمام يا أفندم .. حاضر يا أفندم » ثم راح يخاطب الحاضرين أن المحضر سيمزقه فتلك أوامر « السيد الوزير المحافظ » ورفض الجميع طالبين الاستمرار فى كتابة المحضر مع إثبات الإصابات، كان أحمد بهاء الدين رئيس تحرير المصور قد اتصل بوزير الداخلية شعراوى جمعة محتجا على ما حدث لى فى المحافظة وما يجرى من تلفيق فى مركز الشرطة، وأصررت وزملائى على الاستمرار فى المحضر واتهام سكرتير المحافظ بالاعتداء على شخصى وإحداث العديد من الإصابات فى وجهى وجسمى، واتصل الضابط بالمحافظ حيث أخطره بإصرار الصحفيين والمحامى على الاستمرار فى القضية، ومرة أخرى دق جرس التليفون فما إن تلقى الضابط المكالمة، حتى طلبنى وهو يقول: « سعادة المحافظ يطلب التحدث معك »، أمسكت بالتليفون حيث قال لى المحافظ:

– يا أستاذ سعد امسح اللى حصل لك فى دقنى، وانه الموضوع حتى لا تسمع به إسرائيل وتذيعه تشنيعا بمصر.. وسأرسل لك سيارتى لتحضر إلىّ فى مكتبى.. »، وصلت سيارة المحافظ فوافقت وزملائى والمحامى الصديق عادل أمين على إنهاء الموضوع وذهابى إلى المحافظ، وفى مكتب المحافظ استقبلنى معتذرا، وفوجئت بطابور من ثمانية رجال هم حرس مكتبه الذين فى غيبته أوسعونى ضربا، وراح يأمر كل واحد منهم بتقبيل رأسى، وبعد أن شربت كوبا من عصير الليمون، وانتهى هو من تأدية صلاة العصر، اعتدل على كرسى مكتبه وهو يسألنى: « انت كنت عايزنى فى إيه؟ »، فأجبت: لا، أبدا، كنت عاوز أجرى معك حديثا صحفيا.. مفيش نصيب..

فرصة تانية».. وغادرت مكتبه ولم أشأ أن أذكر له أنى كنت فى طلب شقة أسكنها وزوجتى، لم تطاوعنى نفسى بعد كل ما جرى معى أن أطلب منه مسكنا من تلك التى توزعها المحافظة من شقق الحراسة حيث توجهت بكل مشاعرى إلى الله تعالى أن يهب لى المسكن اللائق، وبالفعل فى اليوم التالى حين كنت فى مكتبى بمجلة المصور، إذ بزميل من العاملين فى الشئون الإدارية بدار الهلال، يهرع إلىّ ليزف لى خبرا سعيدا، فقد طلب منى التوجه إلى معرض سيارات فى باب اللوق لألتقى بصاحبه لديه شقة فى عمارة له فى شارع الهرم جاهزة لى، وبالفعل استقبلنى الرجل بترحاب وهو يقول: سمعت بكل اللى جرى لك فى المحافظة وانت رايح تطلب شقة.. ناس جبابرة وظالمين.. وأنا متابع كتاباتك خاصة تلك التى كانت فى جريدة الجمهور المصرى اللى ألغاها الظالمون، وأضاف: أنا أصلى كنت ساكن فى الدور الأرضى فى عمارتى اللى فى الهرم، ونقلت إلى عمارتى الجديدة فى الزمالك، خد مفاتيح الشقة ومفيش خلو ووقع العقد، وأصبحت فى هذه الشقة الفسيحة وتحيطها حديقة خاصة بها، فقد استجاب الله تعالى لدعائى، هذا وأود هنا أن أشير إلى أن أخى الأكبر كان المراقب المالى لمحافظة القاهرة، وصديقًا شخصيًا للمحافظ سعد زايد، وقد عاتبنى على عدم الاستعانة به للحصول على مسكن، وحدث أن أخلت مصلحة الضرائب عمارة كانت تشغلها فى مواجهة دار الهلال بشارع المبتديان، وأردت أن أحصل على شقة فيها بدلا من شقة الهرم التى إضافة إلى ابتعادها عن مقر عملى فايجارها الشهرى ١٨ جنيها ومرتبى ٤٠ جنيها، لكن توزيع شقق هذه العمارة مُنح للسيدة نوال عامر عضوة حزب الدولة - الحزب الواحد الاتحاد الاشتراكى- ونائبة السيدة زينب، وفى مركز الاتحاد الاشتراكى للقاهرة الذى كان يديره عبد المجيد فريد، حين استنكرت رفضها منحى شقة فى تلك العمارة وأن بعض من منحتهم مساكن فى تلك العمارة يشغلون مساكن أخرى، صرخت فى وجهى وهى تقول وتمسك بخصلات من شعر رأسها «أنا بنت المشير عامر» كان ذلك قبيل هزيمة ١٩٦٧، وبعد الهزيمة واعتقال المشير عامر وتحديد إقامته، كانت أعلى أصوات شتم المشير..!

وبصدد المساكن التى ظفر بها بعض أصدقائى من الدولة، أحدهم تسلم فيلا بطابقين وحديقة فى المهندسين بايجار شهرى تسعة جنيهات، وآخر شقة فى الزمالك

تطل على نادى الجزيرة بنفس الإيجار، وفى عهد زميلى فى السجن الرئيس أنور السادات، منح زميل صحفى لى خلال لقاء له معه، شقة ملاصقة لمحلات لابس، وكان لديه مسكن في الدقى، وحين أصبح زميلى فى الكفاح المسلح وصديقى وجيه أباظة محافظا للقاهرة، لم أشأ أن أطالبه بمسكن، بل امتنعت عن زيارته طوال ما كان يشغل هذا الموقع..

هذا وأود أن أشير هنا إلى أن المحافظ سعد زايد كان فى مكتبه بالمحافظة يحتفظ بفلقة يمد بها التجار المخالفين للتسعيرة..!

* * *

نوعية المعتقلات قبيل وبعد ثورة ٢٣ يوليو

استضافنى العديد من سجون ومعتقلات مصر، من جراء مشاركتى فى كفاح التحرر الوطنى والحقوق الديمقراطية، وكنت وأنا بعد فى العشرين من عمرى، فى السنة الأولى بكلية الحقوق قد انضممت إلى عضوية حزب مصر الفتاة، والتى دامت نحو عامين، حيث ما إن بدأت فى ممارسة عمليات المقاومة السرية المسلحة ضد الاحتلال البريطانى، حتى ابتعدت عن مصر الفتاة دون استقالة، رغم أنى كنت بالانتخاب رئيسًا للتنظيم الطلابى بها، وقد آمنت بمقولة للثورى الكبير أحمد حسين مؤسس وزعيم الحزب، «السجن هو المكان الطبيعى لشاب حر فى أمة مضطهدة»، ومن هنا تبددت المخاوف من السجون، طالما أن دخولها من أجل تحقق الاستقلال الوطنى والحقوق الديمقراطية، تلك كانت من أبرز خصوصيات الحركة الوطنية المصرية: الربط دائمًا بين الاستقلال والحرية، الاستقلال والدستور.. أقول: استضافنى جميع ما فُتح من معتقلات فى مصر، عدا معتقل الواحات عام ١٩٥٩، الذى هربنى منه سعد الدين وهبة على ما سبق وذكرت..

دخلت معتقلات العهد الملكى: هايكستب عام ١٩٤٩ حتى العام ١٩٥٠، ومعتقل الماظة عقب مؤامرة حريق القاهرة أوائل عام ١٩٥٢.. ومعتقل القلعة وسجن أسيوط وسجن ليمان أبو زعبل من عام ١٩٥٤ إلى العام ١٩٥٦..

كانت معتقلات العهد الملكى فى قصور منيفة، وفى هايكستب الذى كان ثكنة

للقوات الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية.. كانت سبل الإقامة المريحة والنظيفة والطعام الجيد ومطالعة الصحف والاستماع إلى الإذاعة المحلية والخارجية، وزيارات الأهل مفتوحة، فحين كنت فى إحدى حجرات معتقل الهايكستب، كنت أفاجأ بوالدى يزورنى ويوقظنى من النوم.. أسرّة جيدة نظيفة، ويكون المعتقل خاصة فى يومى الخميس والجمعة من كل أسبوع مليئًا بالزوار من الأهل والأصدقاء.. هذا إضافة إلى صرف أجور ورواتب العمال والموظفين كل شهر..

أما معتقلات « ثورة » ٢٣ يوليو، حيث استضافنى لمدة عامين معتقل سجن أسيوط، ومنه إلى ليمان سجن « أبو زعبل »، وهذا السجن كان مخصصًا لعتاة المجرمين المحكوم عليهم بالسجن مع الأشغال الشاقة، ويرتكبون مخالفات فى سجنهم بليمان طرة، فيعاقبون بنقلهم إلى ليمان أبو زعبل هذا الرهيب.. وقد حشد وزير الداخلية فيه جميع المعتقلين السياسيين، الذين كانوا فى سجون بنى سويف والفيوم وأسيوط، وأصبح بعنابره الموحشة مقرًا لجميع المعتقلين السياسيين..

كانت المعاملة الحكومية فيه للمعتقلين انتهاكًا ليس فقط لحقوق الإنسان، وإنما للوائح ونظم السجون، حيث كانت الحقوق الخاصة بنزلائه المساجين محرومًا منها المعتقلون السياسيون.. وكان هذا المعتقل يخلو من الأسرّة، فنوم المعتقلين على الأسفلت فوق مراتب من القش.. والأبواب مغلقة فى محابسهم، لا تفتح إلا نصف ساعة من الصباح ومثلها بعد الظهر، فيما يسمى طابور الشمس.. الزيارات والكتب والصحف والراديو من الممنوعات، الطعام غاية فى السوء من متعهد لا يفى بالرشوة بالأوصاف المدونة لنوع وكمية ومحتويات الطعام.. لا تصرف للمعتقل أية أجور أو مرتبات كان يتقاضاها من عمله قبيل اعتقاله، ومحظور على أى قريب أو جار أو رجل خير، أن يمد زوجة وأولاد الزوج والأب المعتقل بأية معونات مالية، وكثيرًا ما اعتُقل وعُذب من كان يقدم على ذلك!..

هذا وليت الأمر كان قاصرًا على ما سبق بيانه من أوجه المحرمات، وإنما كانت هناك دورات تأديبية للمعتقلين، فبين حين وآخر، كان جو معتقل سجن أبو زعبل، يتحول إلى إجراءات عسكرية قمعية شديدة، حيث كان يهبط على المعتقل ضابط برتبة « عميد » نسر وثلاثة نجوم على كتفيه بزيه العسكرية يدعى « همّت »، يباغت

السجن على رأس قوة من مائتى جندى مسلحين بالعصى والهراوات الغليظة، كان يدخل العنبر وينادى فى المعتقلين « أنا الأميرلاى همت، أنا. . . . »، ويأمر جنوده بالهجوم، فينهالون ضرباً بعصيهم الغليظة على المعتقلين، ويستولون على ممتلكاتهم من ملابس وأحذية وأدوية، ومن بعد يُجبَر المعتقلون المضروبون وبعضهم قد سالت دماؤهم على الاصطفاف فى طابور ذليل، وأمامهم نُصبت المجلدة المعروفة فى السجون باسم « العروسة »، ويجلد دائماً خمسون من المعتقلين، ولم تعف الساق المبتورة لأستاذ الرياضيات البحتة سعد زهران من العقوبة فجُلد بقسوة كان يوصى بها ويحث عليها هذا السفاح المدعو « همَّت »، وكان اسمى بين قائمة المقرر من المباحث جلدهم، ولكن الطبيب الذى كان يجلس بجوار المجلدة، والذى يكشف على قلب كل معتقل ليقرر صلاحيته أن يجلد . . أمر بإعفائى من الجلد بدعوى أنى صحياً لا أتحمل الجلد . . لكن أمر بنقلى فوراً إلى مستشفى السجن، بعد أن نبهنى هامساً أن « أنهج » وأتظاهر بدوار فى رأسى. وفى مستشفى السجن جاء الكيميائى النابه « جمال غالى » مكسور الذراع مشوه الوجه مثخناً بالجراح . . مجزرة دورية كانت تجرى بانتظام يقودها هذا السفاح المدعو همت . . وفى إحدى هذه الدورات العقابية قتل سحلاً بعد التعذيب والضرب بالهراوات والجلد المناضل الشهيد شهدى عطية، والذى كان الأول على دفعته فى إحدى جامعات لندن فى الأدب الإنجليزى، وكان أول مفتش مصرى للغة الإنجليزية فى وزارة التعليم، قتله تعذيباً وسحلاً بسيارته الجيب فى فناء معتقل سجن أبو زعبل، كما استشهد الدكتور فريد حداد تحت ضربات الهراوات، فحين وقع على الأرض مغشياً عليه من ثقل الضربات، راح الجنود يواصلون ضربه وهم يصيحون « اقف يا مسجون » . . لكنه كان قدمات! هذا وكان الشهيد شهدى عطية، أحد قادة الحركة الشيوعية فى مصر، وتمكنت منظمات حقوق الإنسان الأوربية، من نشر قصة استشهاده سحلاً فى فناء سجن أبو زعبل وبعد تعذيبه وجلده ومعه أيضاً بيان بالكيفية التى لقى فيها الدكتور فريد حداد مصرعه، وكان عبد الناصر فى زيارة للرئيس اليوغوسلافى تيتو، الذى أنبأه بمصرع شهدى وحداد على يد السفاح همت، فأمر بإقالته وفصله من وظيفته، ولم يستوعب الضابط السفاح معاقبته هذه وكان بمفهومه الدموى يتوقع مكافأته، فلم يلبث أن مات كمداً ودُفن ملعوناً فى الدنيا والآخرة . .

ما سبق عرض لما أصاب المعتقلين الشيوعيين ومن اعتُبر ذا ميول شيوعية، أما ما حل بالمعتقلين من الإخوان المسلمين فى محابسهم بالسجن الحربى، فمرعب مخيف لا معقول.. كان الزبانية برئاسة سيئ الصيت الضابط شمس بدران، والمجرم حمزة البسيونى يتفننون فى أنواع التعذيب، ومن بين ذلك كانوا ينفخون بطن المعتقل المثخن جراحًا من الضرب بالهراوات والسياط حتى مات بعضهم ودفن فى رمال صحراء السجن الحربى.. كما أن التعذيب والقتل شنقًا، شمل فى محاكمات عسكرية صورية، أبرياء من خيرة عباد الله الصالحين، أذكر منهم الشهداء: عبد القادر عودة، الشيخ فرغلى ويوسف طلعت، ستة من قادة الإخوان المسلمون سيقوا ظلمًا إلى أعواد المشانق...، ونشير هنا إلى الشهيد سيد قطب الذى حُمل حملاً إلى المشنقة بعد أن تهشم بالتعذيب عموده الفقرى، وبسبب الإعدام كتابه «معالم على الطريق» عودة إلى محاكم التفتيش المنكرة فى ظلمات العصور الوسطى فى أوربا..

ما سبق عرض موجز لمعتقلات العهد الملكى، وتلك الخاصة بعسكر ثورة ٢٣ يوليو.. ولا يفوتنى هنا أن أشير وأنوه، بالقبض على رئيس المخابرات سيئ الصيت صلاح نصر بأمر عبد الناصر، على أثر تواطؤه مع المشير عبد الحكيم عامر ضد عبد الناصر، والذى حكم عليه بالسجن عشر سنوات مدانا بتعذيب الصحفى مصطفى أمين، كما أدين فى قضية انحرافات المخابرات العامة، ومات غير مأسوف عليه..، وفى هذا الصدد أشير إلى أنه حين قُبض على المدعو عباس رضوان من رجال المشير عامر، عثروا لديه على حقيبة بها أربعة آلاف جنيه ذهبية، أقر فى التحقيق أنه تسلمها منحة من صلاح نصر، والذى أقر للمحقق أنه منحها له هدية، وأن هذا التصرف فى أموال الدولة وفى رصيدها الذهبى، بين مطلق صلاحياته!!..

وبعد، تظل كلمة فى هذا الصدد، فالرئيس الراحل جمال عبد الناصر، كان وطنيًا مصريًا وفى نفس الوقت كان قوميًا عربيًا، وكان يحلم بتحقيق وحدة الأمة العربية فى دولة واحدة.. وتصدى بعمق لمكافحة الاستعمار، وساعد كافة حركات التحرر الوطنى فى البلدان العربية وأفريقيا، إنه زعيم شعبى فى مصر والوطن العربى، من جراء تصديه بقوة لمقاومة الاستعمار وبعض النظم الإقليمية التى كانت تدين بالولاء للغرب الاستعمارى.. لكن خطيئته الكبرى، ما كان عليه من نزعة الحكم الفردى الديكتاتورى، وفى ظل هذه النزعة جمحت مخابرات صلاح نصر فى البطش وأعمال

العسف بالمواطنين بدعوى « حماية الثورة » .. كما توسعت بصورة هائلة سلطات وزرائه المختصين بالأمن، حتى أنه حين تمرد بعض المسجونين السياسيين فى سجن ليمان طرة، مطالبين بحقوقهم الخاصة بالمسجونين العاديين من المجرمين، قمع تمردهم بالحديد والنار، وأصدر وزير الداخلية زكريا محيى الدين بلاغًا رسميًا ذكر فيه أن بضعة وعشرين سجينًا سياسيًا فى سجن ليمان طرة من الإخوان المسلمين، قد لقوا مصرعهم على أيدى قوات الأمن، التى أطلقت الرصاص عليهم داخل زنازينهم!..

هذه السلبية فى الحكم الناصرى، الذى كان يشتد فى الحرص على سيادة الرأى الواحد وتجريم الرأى الآخر، تجُب كل ما حقق من إنشاءات وإنجازات على رأسها السد العالى، فإهدار حرية المواطنين وتعذيب غير الموالين والفتك بالمعارضين، تجب وتهدر أية مشروعات وإنشاءات، واحترام إنسانية الإنسان، أقدس مقدسات الحكم الديمقراطى، ومن أولويات ما تأمر به الشريعة الإسلامية، والتى جوهرها احترام الإنسان، الذى كرّمه الله تعالى حين أمر الملائكة بالسجود لآدم احترامًا له وتبجيلاً.. ولن يفيد ما يزعمه الناصريون من أن كل هذه السلبيات لم تكن بعلم عبد الناصر، يُعد ذلك خطيئة، فعمر بن الخطاب قال: لو عثرت بغلة فى بغداد لسألنى الله لماذا لم تسوى لها الطريق.. هذا ونشير هنا إلى أنه ليس من تواجد لما يسمى « ناصرية »، فالرجل قضى دون أن يترك إرثًا من المفاهيم والمبادئ السياسية، وكما ذكر كاتبه المفضل والأثير لديه محمد حسنين هيكل « ليس هناك ما يسمى ناصرية »، هناك مثلاً ماركسية لكارل ماركس، ولينينية للينين، وأخرى لجورباتشوف، وحتى ابنته ذكرت هذا..

وكلمة أخيرة دامية ودامعة، ذلك الذى وقع لمحمد نجيب، الذى قاد التمرد العسكرى ضد الملك فاروق، ولو كان الملك قد حارب وانتصر لأعدم محمد نجيب، ورغم أنه الذى قاد علانية التمرد والثورة على الملك فاروق ورجاله، فقد اعتقله عبد الناصر وظل حبيسًا فى بيت مهجور عتيق فى ضاحية المرج لمدى خمسة عشر عامًا، ومنع من المشاركة فى تشييع جنازة أحد أولاده، وبعد وفاته عمل ابنه « يوسف » سائق تاكسى، والذى بعد وفاته جاءت زوجته وأولاده، ونشرت صورتها معهم فى جريدة الوفد، وعاشوا فى ضنك وفقر شديدين..!

الفصل التاسع

أثرت أزمات دبلوماسية مع ثلاث دول أوروبية



هجرة اليهود إلى فلسطين خنجر فى قلب الأمة العربية



- سببت القنصل الأمريكي يوم جلاء القوات البريطانية
- ضربت «شاويش مصري» منعني من مقابلة القنصل السوفيتي
- محافظ بورسعيد اتهمني بإثارة الشغب ضد أمريكا وبريطانيا وروسيا بعد تلقيه احتجاجات رسمية



بالقتال والكفاح استردت مصر كرامتها وحررت أراضيها.
وفي الصورة الضابط المصرى يستلم أسرى العدو الإسرائيلى

كان يوم رحيل قوات الاحتلال البريطانية من مصر فى شهر أغسطس ١٩٥٦ يوماً خالداً مجيداً، وقد جرى هذا الرحيل وفق المعاهدة المصرية البريطانية التى وقعها جمال عبد الناصر عام ١٩٥٤، ووفق معاهدة ١٩٣٦ التى كان قد وقعها مصطفى النحاس، والتى أعلن إلغاؤها عام ١٩٥١، حيث كانت تقضى بقاء قوات الاحتلال فى قواعدها بمنطقة قناة السويس لمدة عشرين عامًا (من ١٩٣٦ - ١٩٥٦) وبعدها يحق للحكومة المصرية طلب جلاء هذه القوات البريطانية..

وكنت قد حضرت مبكراً إلى بورسعيد، مندوبا عن مجلة روز اليوسف التى كنت أعمل بها، وأردت أن تكتمل رسالتى الصحفية، فتضمن رؤية كل من القنصل البريطانى وزميله الأمريكى فى بورسعيد، وأدركت أنهما من المؤكد لن يسمحا بلقاء أى صحفى، ولما كانت قنصليات بعض الدول الأوروبية قائمة فى بورسعيد، ولقضاء المهام التجارية من تصدير واستيراد، لذلك اتصلت تليفونياً بكل منهما، منتحلاً صفة تاجر من القاهرة، ولدىّ مشكلة فى الميناء حول بضائع واردة إلىّ من بلاده، وبالفعل ضرب لى كل منهما موعداً فى مكتبه، ما إن مثلت أمام كل منهما وكشفت عن شخصيتى الصحفية وأريد تصريحاً برؤية كل منهما حول مجريات جلاء القوات البريطانية، لم يجب أى منهما وإنما انفعلاً بعصبية فكان انفعالى أشد وأمطرت كلاً منهما بوابل من الشتائم القاسية لحكومتيهما..، وحين كان القنصل الأمريكى يدفعنى وهو ورجاله إلى باب الخروج قذفت بصقة وأنا أغادر منفعلاً وأرميه وحكومته بشتائم عديدة، وكانت حصيلتى الصحفية مما سبق ناجحة، فهى ناطقة بوضوح شديد عن عمق ما كانت تفيض به نفوس رجال حكومتى لندن وواشنطن من حنق وغيظ مما كان يجرى من رحيل قوات الاحتلال..

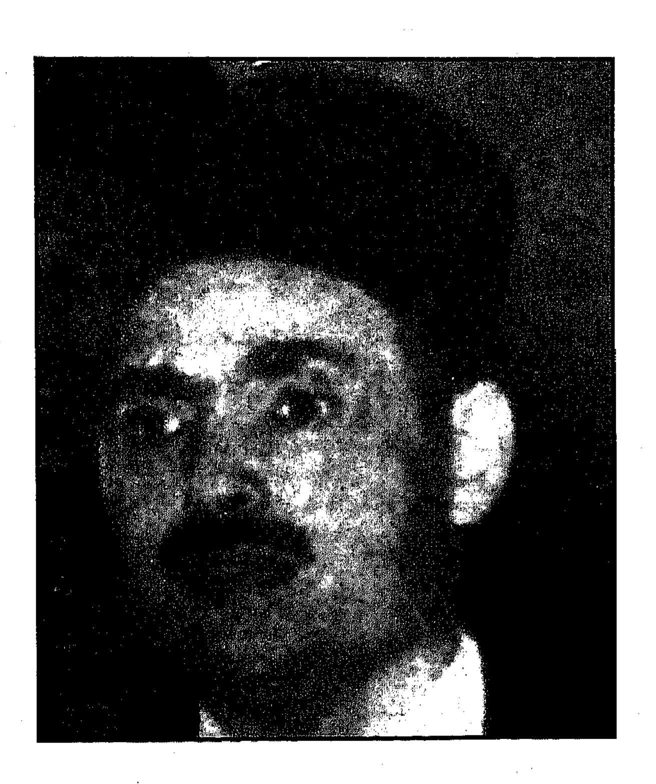
هذا، وكان الاتحاد السوفيتى يقف مع مصر ويناصر سياستها ضد الاستعمار، فأسرعت متوجها إلى القنصلية الروسية كى أحصل على كلمة طيبة من القنصل حول ما كان يجرى من رحيل قوات الاحتلال، وما إن تقدمت إلى باب القنصلية، حتى اعترضنى مخبر من البوليس المصرى وهو يردد « ممنوع الدخول » فاشتعل غضبى

ورحت أوجه لوجهه لكمات وهو يحاول أن يدفعها بعيداً وهو يصرخ عاليا وقد أمسك بتلابيبى «على القسم (مركز الشرطة)»، وهنا أطل القنصل الروسى من نافذة القنصلية يسألنى بالإنجليزية ما هذه المشاجرة على باب القنصلية، فأخبرته أنى صحفي وجئت للقائك فاعترضنى بحجة أني ممنوع من الدخول، وكان قد بعث برجلين من القنصلية فرحبا بى ودخلت معهما القنصلية حيث حصلت على التصريحات الصحفية المطلوبة، وعدت إلى فندقى حيث اتصلت تليفونياً بمحافظ بورسعيد محمد فريد طولان لأشكو له محتجاً وضع مخبر على باب القنصلية الروسية التى يقف شعبها وحكومتها إلى جانب مصر ليمنع دخول المصريين، على حين أبواب قنصليتى أمريكا وبريطانيا ليس من مخبر عليها ومفتوحة لاستقبال المصريين.. لكننى فوجئت بردود انفعالية من المحافظ، تتهمنى بما نعته «بالشغب» الذى أحدثته فى قنصليات أمريكا وبريطانيا وروسيا.. وقد علمت من المحافظ أنه تلقى ثلاثة احتجاجات رسمية من القنصليات الثلاث.. وفى روزاليوسف نشرت التحقيق الخاص عن مجريات ذلك اليوم المجيد فى بورسعيد.. خلال ذلك كان عبد الناصر قد كلف خالد محيى الدين بإصدار جريدة المساء، وقد وضع اسمى بين الصحفيين المعينين بها، لكننى فوجئت باعتراض زكريا محيى الدين وزير الداخلية على عملى هذا الجديد بمرتب جيد فى المساء، وقال لى إنه سيعرض أمرى ومن اعترض على إلحاقهم بالمساء على الرئيس عبد الناصر، أثناء سفره إلى الإسكندرية فى القطار مع الرئيس، حيث سيعلن تأميم قناة السويس.. وبعد عودة خالد محيى الدين إلى القاهرة علمت أنه عرض الأمر على الرئيس فى حضور زكريا محيى الدين، فتم رفع الاعتراض وقبول الالتحاق بالمساء لكل من لطفى الخولى وعلى الشلقانى، بينما أقر استمرار الاعتراض على اسمى وزميلنا الكبير محمود عبد المنعم مراد، وبرر وزير الداخلية اعتراضه على التحاقى بالمساء، بأنى من خلال عملى الصحفى أثير مشاكل محرجة للدولة وأتسبب فى نشوب أزمات دبلوماسية، وروى قصتى يوم الجلاء فى بورسعيد واحتجاجات الدول الثلاث التى وُجهت إلى مصر، وبهذه الدعوى منعت من العمل بالصحافة، وظللت عاطلا عن العمل قرابة عام، وقد أصبحت أوضاعى هذه من التعطل بسبب موقفى يوم الجلاء فى بورسعيد قضية

مثيرة، حازت وقوف الأوساط الصحفية والسياسية فى التنظيم السياسى إلى جانبى، فقرر وزير الداخلية عودتى للعمل الصحفى، ولكن فى مجلة « البوليس » التى كان يصدرها نادى ضباط البوليس، ويرأس تحريرها (رمزيا) صلاح الدسوقى محافظ القاهرة، ويدير تحريرها الكاتب الصحفى والمسرحى سعد الدين وهبة ضابط البوليس السابق، الذى توطدت علاقتى به وثقته فى، خاصة وقد تزايدت أنشطتى الصحفية المتميزة، وكان بين أهم أعمالى الصحفية، أنى تسللت إلى ثورة لبنان عام ١٩٥٨ ضد رئيسها شمعون الذى كان قد حاول تنفيذ المشروع الأمريكى المعروف باسم سياسة « سد الفراغ »، أى أن تشغل الهيمنة والسياسة الأمريكية الفراغ الذى خلفه جلاء القوات البريطانية عن مصر، وتلاشى النفوذ البريطانى عن المنطقة، وساعدتنى مشاركتى الثوار اللبنانيين كفاحهم فى تغطية صحفية مصورة كاملة عن معارك الثورة، ولم أعد إلى القاهرة إلا بعد أن انتصرت الثورة بسقوط شمعون وتولى شهاب رئاسة لبنان، وسقط مشروع ايزنهاور لسد الفراغ فى الشرق الأوسط، كما سقط حلف بغداد وقد أطاحت ثورة العراق بحكم العملاء وبالنظام الملكى، وإن كان ذلك قد جرى على النسج الموروث فى الثورات العراقية، من إعدام العائلة الملكية وعلى رأسها الملك فيصل داخل القصر الملكى، على حين أنه حين عصف الضباط الأحرار فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ بالنظام الملكى وطرد الملك فاروق إلى خارج مصر، وُدع فى رحيله بكافة الإجراءات والطقوس الخاصة بتوديع واستقبال الملوك..

هذا وحدث أن قررت الحكومة شن حملة من الاعتقالات الواسعة، تتسم بإجراءات عقابية تنكيلية لضحاياها، والتى رسم فيها تصفية بعض الشخصيات بتعذيبهم حتى الموت، والتى كان من ضحاياها المفكر اليسارى اللامع شهدى عطيه والدكتور فريد حداد، اللذان قضيا تحت سياط التعذيب.. وقد اكتشف سعد الدين وهبة أمر هذه الحملة المنكرة قبيل وقوعها بنحو اسبوع، فقد كان محدداً لها ليلة رأس السنة من عام ١٩٥٩، ولمح اسمى بين المطلوب تصفيتهم فى المعتقل، وهو يعرف جيداً أنى غير شيوعى، فقام بتهريبى إلى سوريا، ومنها إلى بيروت وألمانيا فالمغرب.. الغريب أنه بعد إطلاق سراح الشيوعيين عام ١٩٦٥ بمناسبة زيارة رئيس الاتحاد السوفيتى خروشوف للاشتراك فى وضع حجر الأساس للسد العالى الذى أخذ السوفيت على عاتقهم بناءه، وعدت إلى مصر حيث قُبض علىّ فى المطار، متهما

بالتآمر على قلب نظام الحكم، والتى أثبتت نيابة أمن الدولة زيفها وأطلقت سراحى، كان رجال المباحث يصرون على أن الذى هربنى من مصر هو أنور السادات، الذى رغم مواقعه الرسمية العليا إلى جانب الرئيس عبد الناصر، لم يكن محل رضاء شعراوى جمعة وعلى صبرى رئيس الوزراء..، وبالطبع لم أفصح باسم الذى قام بتهريبى خارج مصر، كنت ألوذ بالصمت وهم يصرون على اتهام أنور السادات..!، ومعروف أنه فى الضربة التى قام بها السادات فى ١٥ مايو ١٩٧٠ التى اعتقل فيها خصومه السياسيين من رجال عبد الناصر، وألقى بهم فى السجن بأحكام محكمة صورية، كان على رأسهم على صبرى وشعراوى جمعه.



أحمد حسين.. كان زعيمًا لقوي الثورة في مصر!

الفصل العاشر

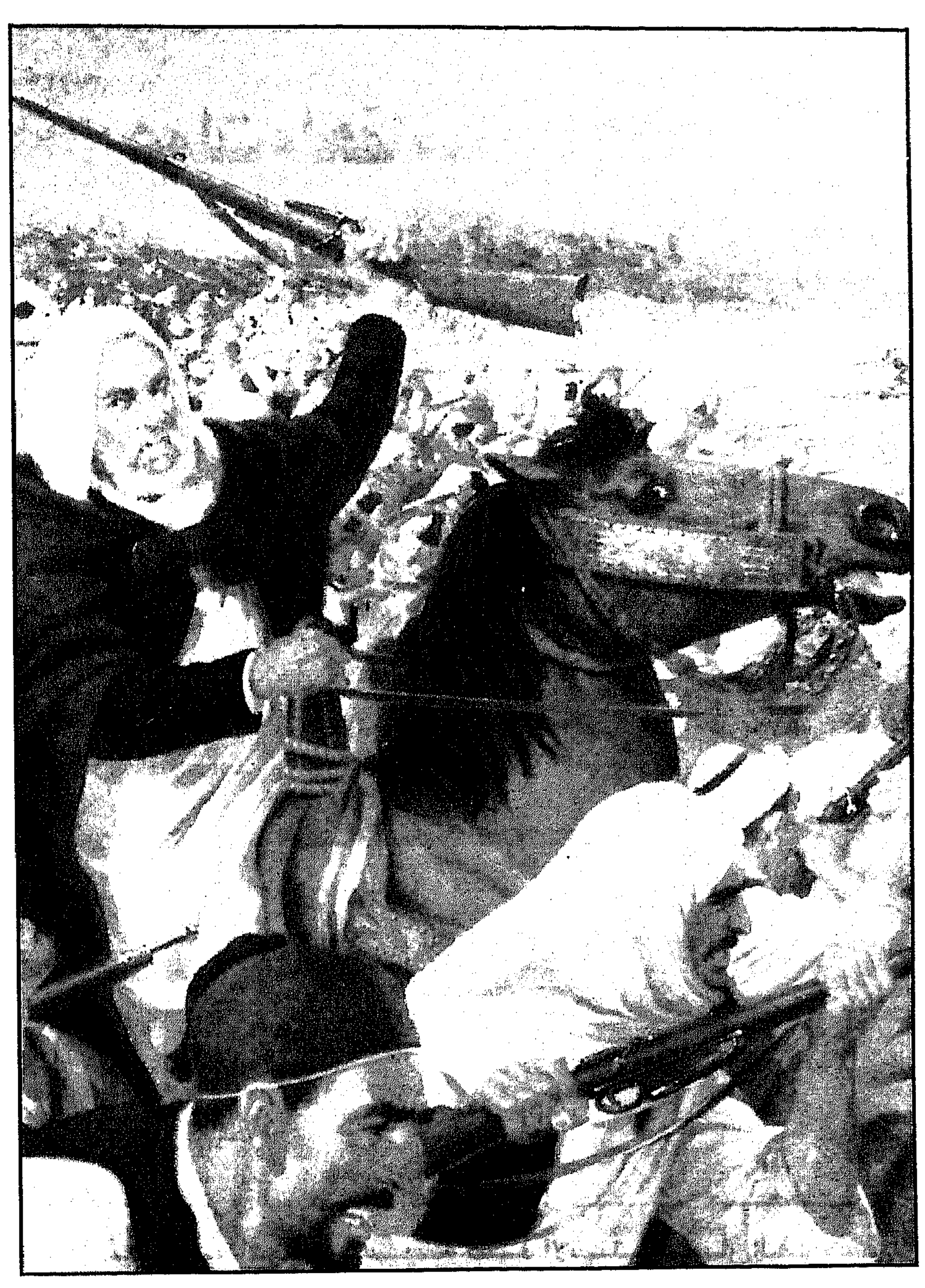
عملت ملحقا صحفيا ١٢ ساعة
ثم بحث البوليس عنى!



على فهمي كامل سفير مصر فى تونس..
عام ١٩٥٦ استدعاني من الجزائر على عجل



- اشتروا لى ملابس بـ ٦٠٠ جنيه مصرى
- أشعلت مظاهرة تونسية ضد الاستعمار الفرنسى
- وفى مصر استدعيت لرئاسة الجمهورية للتحقيق!!



عمر المختار .. سيظل رمزاً للكفاح ضد قوى الاستعمار يجب علينا تعليم سيرته للأجيال

كنت فى صيف عام ١٩٥٦، مع ثوار الجزائر، فى منطقة الأوراس على الحدود التونسية الجزائرية، وذات يوم فوجئت بالسفير المصرى فى تونس على فهمى كامل يستدعينى على عجل، وقبيل الفجر كنت قد عبرت الحدود، وفى نحو العاشرة صباحا، كنت أجلس إليه فى مكتبه، حيث أخطرنى بمحتويات برقية من رئاسة الجمهورية بالقاهرة، تقول إنى عُينت ملحقا صحفيًا، فى سفارة مصر فى تونس، وكان ذلك مفاجأة لى، فلم أكن قد طلبت يوما العمل فى أية وظيفة حكومية، لكننى تفهمت الكيفية التى صدر بها هذا القرار، من خلال التفسيرات التى راح يوضحها لى السفير، كانت تونس بعد، فى ظل بقية للنفوذ الفرنسى، فلم يكن قد مضى على استقلالها غير شهور، وكانت مصر فى نزاع مع فرنسا وبريطانيا على أثر قيامها بتأميم شركة قناة السويس، وهو النزاع الذى انتهى بالعدوان الثلاثى المسلح على مصر، وفى تونس كانت قد تكاثرت، المقالات والأنباء الصحفية المعادية لمصر، خاصة فى صحف كانت ملكا لغلاة اليمين الفرنسى، أو فى تلك التى كانت تصدر بتمويل فرنسى، وتجاه ما كانت القاهرة تتلقى، من أنباء هذه الحملات الصحفية المعادية، وضعف ردود الصحافة التونسية الوطنية، وعلم سلطات القاهرة بوجودى على مقربة من الحدود التونسية الجزائرية، وترددى من حين لآخر على السفارة المصرية فى تونس العاصمة، لإرسال رسائلى الصحفية، عبر الحقيبة الدبلوماسية، إلى مجلتى روز اليوسف وصباح الخير فى القاهرة، حتى لا تحول الأيدى الخفية لفرنسا دون وصولها، وما كانت قد أحدثته رسائلى تلك من إثارة لدى القراء فى مصر، فقد كانت أول كتابات ميدانية عن الثورة الجزائرية وكانت القاهرة منهمكة فى مواجهة ردود فعل العواصم الغربية لتأميم القنال، وكانت الحملة الصحفية المعادية فى تونس، تتطلب مواجهتها من صحفى محترف، وليس من موظفى مصلحة الاستعلامات، خاصة وقد كانت فى مستهل عهدها، والتى ما يزال الملحقون الصحفيون بالسفارات، يعينون من بين موظفيها، ولم يكن فى وسعى إلا أن أقبل الوظيفة التى أبرقت القاهرة بتكليفى بها.

وكان السفير المصرى ذلك الوقت - سبتمبر ١٩٥٦- هو على فهمى كامل، وهو رجل دبلوماسى كفء محنك قديم، وقد عمل بعد تقاعده أستاذا فى المعهد الدبلوماسى بالقاهرة، وأذكر أنه أخذ ينظر إلىّ متفحصا، فلم ترقه ملابسى، إذ كنت أرتدى الثياب التى كنت أرتديها مع الثوار فى الجبل «سويتر سميك عتيق، وبنطلون خشن قديم، كنت أرتديها فى صحوى ونومى» ولم يكن منه إلا أن نادى على أحد مرؤوسيه، من موظفى السفارة، وأمره أن يصحبنى إلى خياطه الخاص، حتى يقوم بتفصيل أربع بدلات فخيمات رفيعات لى، وأن يشترى لى ١٢ قميصا و٦ أربطة عنق وحذاءين جديدين.. ومجموعة من الجوارب والملابس الداخلية، وقد عدت من بعدها إلى السفارة، لأتسلم ما أمر به لى السفير وكان ما يعادل مبلغ ٦٠٠ جنيه مصرى (٦٠٠ ألف فرنك فرنسى قديم) فلم تكن تونس قد أصدرت نقداً خاصًا بها بعد الاستقلال وكذلك صندوق من سجائر الكرافن الإنجليزية، وآخر من الويسكى، قال إنها «لزوم» الاتصالات والهدايا و«عدة» الشغل، وغادرت السفارة ظهرا، حيث توجهت إلى أصدقائى الجزائريين، فى مكتب جبهة التحرير الجزائرية، حيث أخطرتهم بعملى الجديد، ووعدتهم أن أوفق بين عملى الصحفى فى السفارة ومجلة روز اليوسف، وذلك بزيارتهم فى الميدان عبر الحدود من حين إلى آخر.

بعد ظهر ذلك اليوم، جلست بمكتبى الجديد فى السفارة، أدرس عملى وأرسم خطوط تحركى، وكانت البداية موعدا، ضربه لى السفير المصرى مع وزير الإعلام التونسى، بعد أن أخطرته السفارة بالملحق الصحفى الجديد، خاصة أن السفارة لم يكن بها تلك الوظيفة، فكنت أول من عُين فى ذلك المنصب فى سفارتنا بتونس واتصلت هاتفيا بالخياط ليعد لى بدلة بصورة عاجلة، وعدنى بتسليمها إلى، فى تمام الحادية عشرة من صباح اليوم التالى، أى قبيل موعدى مع الوزير التونسى بساعة واحدة، لكن الوزير لم يستقبلنى، فلم أستطع التوجه إليه، لا فى الموعد الذى حدده لاستقبالى، ولا من بعد ذلك.. وحتى اليوم..!

ذلك أنى فوجئت بزيارة ستة من جنود جيش التحرير الجزائرى لى فى مكتبى، كانوا يقضون عطلة قصيرة فى العاصمة التونسية، وعندما اكتملت الساعة السادسة

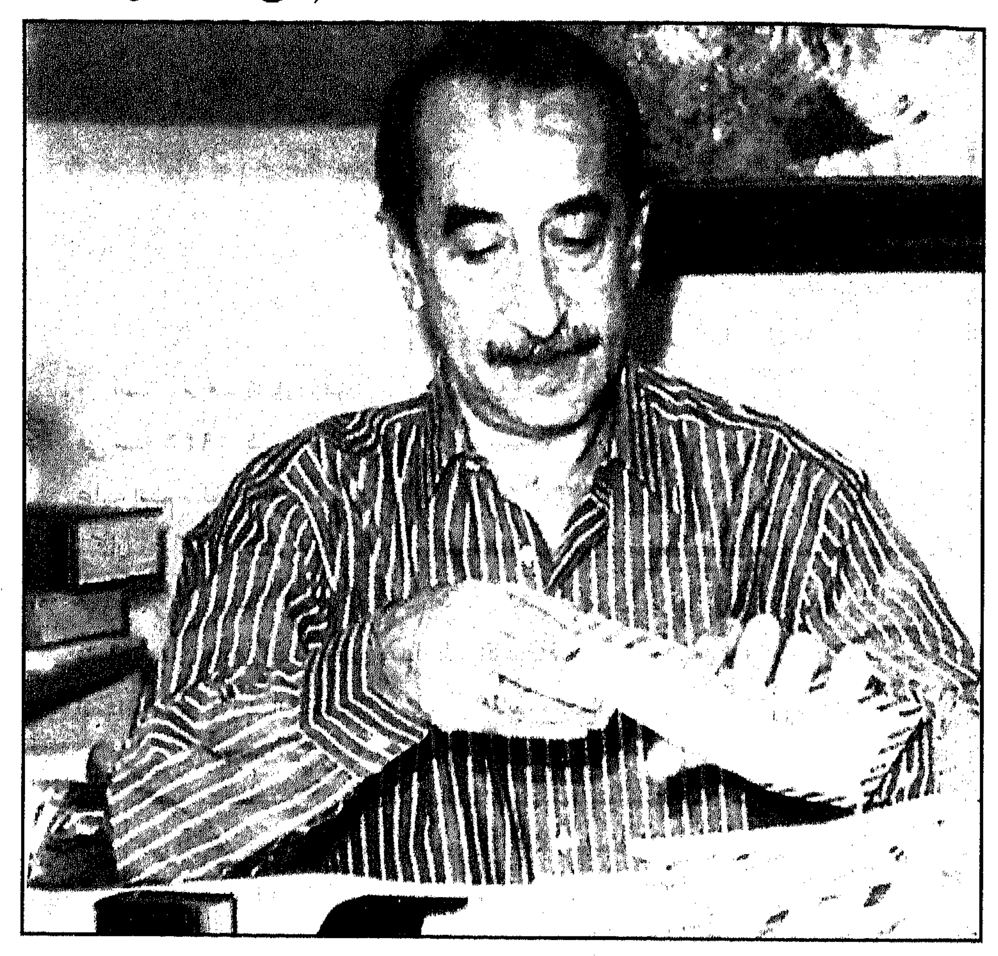
مساء، غادرت معهم مبنى السفارة، إلى الساحة الرئيسية للمدينة، وكانت تدعى «بور دى فرانس»، وهناك كانت مجموعة من المواطنين التونسيين، يطالعون أنباء تطورات النزاع المصرى الأوروبى، حول تأميم قناة السويس، كانت الأنباء تذاع على واجهة صحيفة فرنسية، فى لوحة زجاجية كبيرة بأضواء النيون، وكانت أنباء ملتهبة بالعدوان على مصر، مليئة بالأكاذيب والهجوم على مؤمم القناة عبد الناصر، بما أثارنى وأثار أصدقائى الجزائريين الستة، والتهبت مشاعرى بالغضب، فحملنى منهم اثنان، ورحت أخطب فى الأشقاء التونسيين، حاملا على فرنسا، وعلى صحفها الاستعمارية الكاذبة، واشتعل الأشقاء عرب تونس بالغضب والحماس، فراحوا يهتفون ضد فرنسا وبحياة عبد الناصر، وقذفوا الصحيفة الفرنسية بالأحجار، فتحطمت واجهتها الإخبارية، وانطفأت أضواؤها، وتوقف ما كانت تذيع من أنباء، وسرعان ما تضخمت مظاهرة الغضب، بمن أقبل عليها وانضم إليها، ممن كانت تزخر بهم تلك الساحة فى سويعات ما بعد الغروب، وبالطبع كنت واصدقائى الجزائريون الستة، نشارك فى المظاهرة، حتي إذا ما حضرت إحدى وحدات قوات الأمن، وأعملت عصيها فى رؤوس المتظاهرين لتفرقتهم، لمحنا البعض من ضباط الأمن يبحثون عن «هذا المصرى»، الذى أشعل هذه المظاهرة، فأسرع بى اثنان من زملائى الجزائريين فى سيارتهم، منطلقين بها نحو الحدود، إلى حيث توقفنا فى بلدة «سوق الأربعاء»، إحدى النقاط الحدودية لثوار الجزائر، ومنها فى الليلة التالية عبرت الحدود إلى جبال الأوراس حيث ظللت خمسة شهور مع الثوار، عدت من بعدها إلى صحيفتى فى القاهرة وقد نسيت تماما، أنى كنت قد عُينت ملحقا صحفيا فى تونس، إلى أن استدعيت إلى رئاسة الجمهورية، حيث حقق معى مسئول الشئون العربية فى ذلك الوقت فتحى الديب، وكان السؤال الوحيد الذى وجهه إلىّ: «كيف نعينك ملحقا صحفيا فى تونس، فتقود مظاهرات.. وتكسر واجهات الصحف بالطوب.. وتسبب لنا أزمات ومشكلات سياسية.. كيف؟!»، وكانت إجابتى، أننى لم أطلب تلك الوظيفة، وانها جاءت من جانبكم، دون استشارتى مسبقا، ولما طالبنى بدفع ما سبق أن تقاضيت، من حساب مرتبى.. ونفقات البدلات وبقية الثياب، رجوته أن أدفع للدولة من مرتبى، خمسة جنيهات كل شهر، أى أسدد الـ

٦٠٠ جنيه على ١٢٠ شهرا، وذلك وفق القانون المدنى، باعتبار نسبة قسط الدين إلى المرتب، ضحك الرجل وصرفنى وهو مغرق فى الضحك، وقد أعفانى من سداد دين، لم أسع إليه ولم أطلبه، أما «البدلتان» والقمصان، وبقية الملابس والدخان، فقد علمت أنها وزعت، على صغار موظفى السفارة..

وهكذا، عملت ملحقا صحفيا ١٢ ساعة، وبعدها أخذ البوليس التونسى يفتش عنى!.

الفصل الحادى عشر

أيام فى سوريا ولبنان.. ثم هربت إلى ألمانيا حتى لا يشحنونى فى صندوق إلى القاهرة



حمدى قنديل شاهد على أحداث سوريا!

- هل كانت دمائى وراء إغلاق جريدة الجماهير السورية؟
- مع حمدى قنديل من دمشق إلى نجم فى التليفزيون المصرى
- غادرت بيروت إلى ألمانيا تجنبًا لترحيلي إلى المعتقل في القاهرة
- وأنا هارب في لبنان تسلمت جواز سفري في رسالة من رئاسة الجمهورية

سعد زغلول فؤاد

الظلم في مصر

الجزء الأول

١٩٤٦

أصدر سعد زغلول فؤاد في سنة ١٩٤٦ كتاباً أطلق عليه اسم «الظلم في مصر» وكان قد كتبه أثناء اعتقاله في سجن الأجانب وكان الكتاب أشبه بمنشور ثورى مرفوع كما قال إلى الملك فاروق ملك وادى النيل وقد أهداه إلى الأستاذ احمد حسين زعيم حزب مصر الفتاة وموجهاً إلى القادة والزعماء والكتاب والنواب وكل من يدين بحب مصر ويتغنى بمجدها.

— ٢ —

هذا الكتاب :

مرفوع الى :

صاحب الجلالة فاروق الأول ملك وادى النيل

ومهدى الى :

الأستاذ أحمد حسين زعيم الجيل الجديد

وموجه الى :

القادة والزعماء والكتاب والنواب وكل من يدين بحب مصر ويتغنى بمجدها

وكتب فى :

السجن ، موئل الاحرار ، ومبعث الافكار . .

— ٣ —

بسم الله الرحمن الرحيم

« إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » .

الانسان الشقى هو الذى يصاب بالظلم ، مظلوما كان او ظالما ، محكوما كان أو حاكما ، كلاهما فى الشقاء سواء . الأول مغلوب على أمره من غيره ، مهضوم حقه معذب حسه ، والثانى غالب على أمره ، ظالم لنفسه ، إذ هو فى حيرة من أمره وبلبلة من عمله ، وقلقلة من ظلمه وحذر من خصمه ، يغط فى بحر من اللعنة ، لعنة شعبه فوق لعنة ربه ، فضلا عن لعنة ضميره . . ولا تحسبن الحاكم إذ يحكم فيظلم يكون هو الظالم وحده ، كلا ، فالمحكوم مظلوم ظالم متى ارتضى الظلم بخنوعه وخضوعه إذ يكون

كان أحمد بهاء الدين فى زيارة لدمشق، وهو الصديق المقرب لقيادة القوميين العرب وحزب البعث فى سوريا، وكان عبد الناصر قد ألغى الأحزاب السياسية السورية مع قيام الوحدة بين مصر وسوريا، وسمح للبعثيين بالتعبير عن آرائهم فى جريدة أصدروها باسم «الجماهير»، ألحقنى بهاء بها، حيث كانت أسرة التحرير من كتاب بعثيين ويرأس تحريرها القومى العربى الدكتور جمال الأتاسى، وكان من الصحفيين المصريين العاملين فيها الزملاء رجاء النقاش - حمدى قنديل الذى كان سكرتيراً للتحرير - وأحمد عبد المعطى حجازى.. وحدث أن انتُدبت لكتابة تحقيق صحفى مصور، عن أول انتخابات تجرى فى سوريا عقب قيام الوحدة للمجلس التشريعى للإقليم الشمالى الذى هو سوريا، وأديت مهمتى هذه فى لجان الانتخاب فى كافة أنحاء دمشق، وكان بصحبتى مصور الجريدة، أرمنى سورى كان يدعى سركيس، وركزت فى حضور وتصوير شكرى القوتلى الذى تنازل عن موقعه فى رئاسة سوريا مع قيام الوحدة، فأطلق عليه المواطن العربى الأول.. وفى المساء كنت قد كتبت تحقيقًا صحفيًا عن هذه الانتخابات، وما شاهدته من نزاهة فى عمليات التصويت والفرز، وأرفقت بكتابتى هذه الصور الفوتوغرافية اللازمة، وفى مقدمتها صورة شكرى القوتلى وهو يدلى بصوته.. كان مدير التحرير شابًا بعثيًا يدعى إميل شوير، اعترض على كتابتى ورفض نشر الموضوع، فحملت أوراقى وصورها وقصدت بها أشكو لرئيس التحرير، حيث بادر إميل شوير هذا بمواجهتى فى عنف كلماته، وحين أبرزت صورة المواطن العربى الأول الرئيس السابق لسوريا شكرى القوتلى وهو يدلى بصوته، اختطفها منى ومزقها، وراح يصيح مردداً «الانتخابات مزورة»، ولما نفيت ذلك اتهمنى بالتزوير والكذب فى كتابتى هذه، وما كاد ينطق بعصبية وتحدى اتهاماته هذه، حتى صفعته بشدة على وجهه، فنشبت معركة بينى وبينه، بينما راح د. جمال الأتاسى وحمدى قنديل يعملان على فك الاشتباك بيننا، فغادرت إلى مكتبى حيث فوجئت بعد دقائق بمجموعة من عمال المطبعة البعثيين يشبعوننى ضربًا حتى سال دمى من وجهى.. وأسرعت إلى المشرف على إعلام الإقليم الشمالى مبعوث وزارة الإعلام فى القاهرة عدلى حشاد، الذى صحبنى إلى اللواء عبد المحسن

أبو النور، الذى كان مساعد قائد جيش الإقليم الشمالى، والذى أرسلنى بدوره إلى وزير داخلية سوريا عبد الحميد السراج.. وانتهى الأمر بعد أيام قليلة بإغلاق هذه الجريدة، والاكتفاء بصحيفتى الوحدة والأيام اليوميتين، إلى جانب ما كان يرد إلى دمشق من الصحف المصرية.. وقررت التوجه إلى بيروت للإقامة والعمل فى صحفها، وأن أصطحب معى زميلى حمدى قنديل، الذى فاجأنى أنه لا يستطيع مغادرة دمشق حتى إلى مصر، حيث لم يكن معه جواز سفر ولا بطاقة تحقيق الشخصية، ذلك أنه كان قد شرع فى ترشيح نفسه فى الانتخابات عن إحدى دوائر دمشق، لكن السلطات المصرية التى كانت فى مكتب المشير عامر، الذى كان يقيم فى دمشق ممثلاً للرئيس جمال عبد الناصر على رأس أجهزة الحكم فى سوريا، كان رجالها قد جردوه من أوراقه واحتجزوها فى مكاتبهم، لمنعه من ترشيح نفسه خشية سقوطه فى الانتخابات، وهو ما يشيع انطباعات سلبية لدى الشارع المصرى السورى..!

شددت على يده وقلت: ستدخل بيروت وستقيم بها معى وبدون أية أوراق.. ونسافر الآن فى سيارتى تلك العتيقة موديل ١٩٢٤.. وبالفعل فى الصباح الباكر غادرنا دمشق إلى بيروت عبر الطرق الخلفية الجبلية، التى كنت أعرفها منذ تسللت عبرها إلى ثورة لبنان.. وبالطبع كان الطريق الجبلى مقفراً ويخلو من أية معالم لأية حياة..، وبعد نحو خمس ساعات اقتربنا من مرتفع صخرى، وامتلأ الجو بأزيز طلقات الرصاص، وانتاب الخوف صديقى فى مقعده المجاور لى فى السيارة وهو يطلب منى التوقف، بينما كنت أضحك وقلت له: هذه الطلقات هى تحية لقدومنا، فنحن الآن فى أرض لبنانية يقيم بها الدروز التابعون لشيخهم «شبلى أغا العريان» وهو ورجاله أصدقائى منذ ثورة لبنان.. ومن هذه المنطقة واصلنا المسير إلى قلب بيروت فى فندق متواضع صغير.. ولم يرق لحمدى العمل فى صحف بيروت، فالكبرى منها تابعة لدول غربية معادية لمصر، وتلك التى تقف مع القاهرة فقيرة ومغلقة على أصحابها ورجالهم.. ظل معى نحو عشرة أيام عجاف كان طعامنا الطعمية والفول على «نوتة» بوفيه جريدة السياسة التى كنت قد التحقت بها على نحو ما سيرد من صفحات إقامتى فى بيروت.. وحين أراد العودة إلى دمشق، اتصلت

بنائب مدينة صيدا زعيم ثورتها ضد الرئيس شمعون معروف سعد، الذى أمر رجاله بنقله إلى دمشق من خلف نقاط الحدود اللبنانية السورية، وما إن أصبح فى دمشق حيث التقى فى مكتب عدلى حشاد بالإعلاميين سعد لبيب وزملائه وهم يؤسسون التليفزيون المصرى، فرحبوا به واحتضنوه لعلمهم جيداً بمهارته الإعلامية، وبالفعل كان أول وأكفأ مذيعى التليفزيون المصرى، ولم يلبث حتى أصبح نجمه المفضل لدى المشاهدين..

بعد رحيل عبد الناصر وتولى السادات رئاسة الدولة، جرت حركة تبدلات فى مواقع العمل بالتليفزيون، لم ترق لحمدى قنديل الذى غادر إلى باريس، حيث شغل موقع مدير الجهاز الإعلامى لليونسكو، كان يعمل تحت إمرته مجموعة كبيرة من الإعلاميين الأوروبيين..، ومن بعد عمل فى إحدى القنوات الفضائية العربية، حيث دأب فى برنامجه الأسبوعى على مهاجمة الانحياز الأمريكى لإسرائيل، وراح يحث المشاهدين على مقاطعة السلع الأمريكية، وهو ما لم يتقبله أصحاب هذه القناة فغادرها، وعاد إلى أرضه وموطنه الأصلى التليفزيون المصرى، حيث يقدم برنامجه الناجح «رئيس التحرير» والذى يحظى بشعبية كبيرة..

الهروب إلى بيروت

غادرت دمشق إلى بيروت، حيث عملت فى جريدة «السياسة» التى كان يصدرها عبد الله اليافى، أحد رؤساء حكومة لبنان، وبين زعماء الثورة ضد سياسة رئيس الجمهورية كميل شمعون، الذى كان يعمل على تبنى السياسة الإمبريالية الأمريكية الخاصة بمشروع «سد الفراغ» بأن تحل الهيمنة الأمريكية مكان انهيار النفوذ البريطانى فى الشرق الأوسط، وأحبط هذا المشروع بسقوط شمعون وانتصار الثورة، وكانت جريدة السياسة لسان الثورة، وتقع فى وسط الأحياء الثائرة، وكان رئيس التحرير «أسعد المقدم» والمحررون وعمال المطبعة، يحملون الأسلحة سريعة الطلقات أثناء عملهم، وصفحاتها مشتعلة بالأنباء والمقالات المعادية لرئيس الجمهورية والحكومة الأمريكية، والثورة اللبنانية كانت فى حقيقتها حرباً أهلية، طرفاها أصحاب النزعة العربية والاستقلال الوطنى، فى مواجهة المعادين لكل ما هو عربى،

الممثلين في الجيش اللبناني وميليشيات حزب الكتائب.. وخلال معارك الثورة كنت دائم التردد على جريدة السياسة، ومن هنا حين وصلت بيروت التحقت بالعمل فيها، وكان ذلك عام ١٩٦١.

باشرت عملي الصحفي في جريدة السياسة والتي كانت طبعاتها تلقى رواجًا كبيرًا لدى القراء، وتمارس أقلامها في حرية كاملة، حتى أني نشرت مقالاً نددت فيه بسياسة كل من رئيس العراق وتونس، أذكر كان عنوانه «بين أكبر تونس وأوحد بغداد»، حيث كان لقب بورقيبة «المجاهد الأكبر»، وعبد الكريم قاسم «الزعيم الأوحد» حيث كان الشعار «ماكو زعيم إلا كريم»..!

هذا، ولم يكن أحد في بيروت يعلم أنه مطلوب اعتقالي في القاهرة، والذى هربني وأنقذني مما كان يتربصني به، المواطن المصرى الحر ذو النزعة العربية، والشهير بدعوته إلى عدم التطبيع مع إسرائيل، المرحوم سعد الدين وهبة، والذى سبق أن ذكرت تفاصيل تهريبه لي إلى سوريا، وأشير هنا إلى أني فوجئت بأحد زملائي في معتقل أبو زعبل «على عبد الوهاب» زعيم «كونسطبلات» مصر، والذى كان قبيل ثورة يوليو، قد نظم وقاد إضراب الكونسطبلات عن العمل، والذى تبعه إضراب ضباط الشرطة، فوجئت بوجوده لاجئًا سياسيًا في بيروت، بعد أن نجح في الهروب من المعتقل.. («الكونسطبل» رتبة عسكرية في الشرطة المصرية، أقل من رتبة الضابط، والتي يرقون إليها بعد عدة سنوات من الخدمة، وتنحصر مهام الكونسطبلات في ضبط وتنظيم المرور، ولكل منهم دراجة نارية (موتوسيكل) يتابع بها انتظام حركة المرور، كما يشارك في أعمال بوليسية أخرى في مراكز الشرطة، وقد ألغى شعراوى جمعة حين كان وزيرا للداخلية هذا النظام واستبدل به أمناء الشرطة السارى اليوم).

كان صديقي هذا يسكن في فندق ملاصق لمبنى إدارة الأمن العام اللبناني، قال لي إنه اختاره خصيصا ليكون في حماية الأمن اللبناني وهو في لبنان لاجئ سياسي بصفة رسمية، ومن منطلق إنساني، اعتدت زيارته في فندقه من حين لآخر، وكان يكثر من عقد مؤتمرات صحفية يندد فيها بسياسة عبد الناصر الداخلية والطريقة التي

كانت أجهزة القمع تتعامل بها مع من كانوا يسمون أعداء الثورة من المعارضين، وهي معارضة كانت تتردد في المجالس الخاصة بالمقاهي والنوادي ومكاتب الصحف والمؤسسات، حيث كانت الصحف في قبضة الدولة، والتي أخذت بنظام الحكم الشمولي والحزب الواحد، وذات يوم حين زرته لم أجده، وأخبرتني إدارة الفندق أن البوليس اللبناني قبض عليه ولم يعد..!

هذا، وكان الملحق الصحفي المصري في لبنان «أنور الجمل»، يعتقد أنني من الموالين للنظام في مصر، خاصة أن السفر من مصر إلى الخارج للمصريين، كان يتم من خلال موافقة المخابرات العامة، وبالنسبة للصحفيين كان إضافة إلى ذلك يتطلب قراراً يصدر من رئيس الوزراء، وآخر من وزير المالية بالمبلغ النقدي الأجنبي المصرح له بالخروج به، ومن هنا كان اعتقاده يقينيا أني من أنصار النظام الحاكم في مصر، فاتصلت به تليفونيا أسأله عن سر اختفاء هذا الذي دأب على مهاجمة النظام المصري في الصحف اللبنانية المعادية والمدعو على عبد الوهاب، فرد عليّ قائلا: «استأجرنا ضابطي شرطة لبنانيين، اقتحما عليه غرفته بالفندق وقبضا عليه وأحضراه إلينا، فشحناه في صندوق إلى مصر على الباخرة سوريا»، فتخوفت أن يكتشف أمري فيجري عليّ ما جرى له، ولذلك بادرت بسرعة العمل على مغادرة لبنان إلى ألمانيا الغربية، والتي كانت ذلك الوقت تسمح لدخول المصريين بدون تأشيرات.

لكن برزت عقبة لم تكن على البال، ذلك أن جواز سفري كان في مسكني بالقاهرة، لأني دخلت سوريا ببطاقتي الشخصية، ولبنان دخلتها بلا بطاقة عبر الجبال من وراء منطقة الحدود، الطريق الخلفي لتهريب السلاح من سوريا إلى لبنان، وكان عبد المجيد فريد الأمين العام لرئاسة الجمهورية في القاهرة، يحمل لي ودا واحتراما كبيرين، وكان كلما زار الرئيس عبد الناصر دمشق، يكون برفقته، فأسارع بزيارته في دمشق ليسعى لدى عبد الناصر لإلغاء أمر اعتقالي، وفي هذه المرة طلبت منه فور عودته إلى القاهرة، أن يبعث إلى مسكني في لاظوغلي، بمن يحضر جواز سفري من مكتبي في حجرة نومي، وقد أخبرته أنني قررت السفر إلى ألمانيا، حتى لا يُكتشف أمري في بيروت، ويجري ترحيلي في صندوق إلى القاهرة، على نحو ما جرى لزعيم

الكونسطبلات، ورجوت أن يصلنى جواز سفرى، عن طريق الملحق الصحفى المصرى فى بيروت، فى مظروف مغلق دون أن يعرف محتوياته.

كان عبد المجيد فريد أحد ألمع ضباط الصف الثانى لثورة يوليو، خاصة حين وضعه عبد الناصر على رأس التنظيم السياسى الخاص بالقاهرة، وكان مؤمنا بأنى ضحية أمر ظالم باعتقالى، وقد عرفنى على حقيقتى، حين كنت فى بغداد وقد نجح فى تهريبى إلى الكويت فرارا من حكم بإعدامى وهو قرار بين مئات الأوامر التى صدرت بإعدام من كانوا يسمون «أعداء الثورة»، الذين كانوا يهزأون ويسخرون بشعار الشيوعيين العراقيين أنصار عبد الكريم قاسم «ماكو زعيم إلا كريم»، وقد أعدم المئات سحلا فى الشوارع من القوميين فى بغداد والموصل، الذين كانت أحكام الإعدام تصدر من محاكم بالرصيف، هذا إضافة إلى بعض الضباط القوميين الذين أعدمتهم محكمة المهداوى فى محاكمات عسكرية صورية شهيرة.

هذا، بعد عدة أيام من عودة عبد المجيد فريد إلى القاهرة، فوجئت بتليفون لى فى جريدة السياسة، من الملحق الصحفى أنور الجمل، يخبرنى أن رسالة مهمة للغاية باسمى من رئاسة الجمهورية بالقاهرة فى انتظارى، فبادرت بتسلمها وفتحتها خارج السفارة وكان بها جواز سفرى، فأسرعت بشراء تذكرة طائرة إلى مدينة «دوسلدورف» فى ألمانيا، لكن برزت عقبة تحول دون مغادرتى لبنان، فلم يكن فى جواز سفرى أية تأشيرة دخول لبنان، فتوجهت إلى مدير الأمن العام العماد جلبوط، فأخبرنى أنه المفروض القبض علىّ لدخولى لبنان بطريقة غير قانونية، ونصحنى بالعودة إلى الحدود السورية اللبنانية لختم جواز السفر بتأشيرة دخول، وأنه سيوصى رجاله بإنجاز ذلك، فغادرت مكتبه شاكرا.

كان ذلك يتطلب سفرى إلى منطقة الحدود مع سوريا، ولم يكن لدىّ الوقت لذلك، فتوجهت إلى منزل رئيس الوزراء ذلك الوقت «صائب سلام» حيث وجدته على مائدة الغذاء، فما إن عرضت عليه مشكلتى، حتى أمر مدير الأمن بختم جواز سفرى، وبذلك تمكنت من مغادرة لبنان إلى ألمانيا، ومنها كنت أبعث برسائلى الصحفية إلى جريدة السياسة فى بيروت، وحدث حين كنت فى مطار مدينة

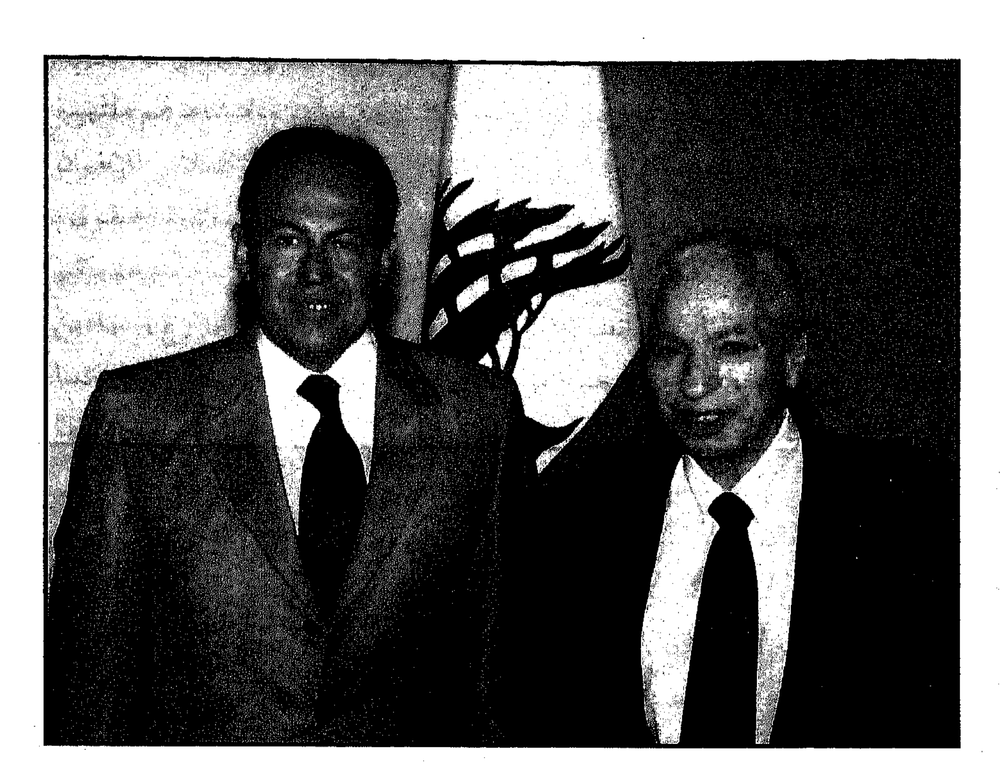
همبورج لأبعث برسالة صحفية إلى جريدتى فى بيروت، أن شاهدت أستاذى فى القانون الجنائى الدكتور توفيق الشاوى وفى يده حقيبة كبيرة حملتها عنه حيث كان متوجها إلى الرباط، وعرفت منه أنه عين أستاذا للقانون الجنائى فى كلية الحقوق بجامعة الرباط، وأن المواد الدراسية بها، هى ذاتها فى كلية الحقوق جامعة القاهرة، فبادرت بالسفر إلى الرباط والتحقت بها، وحصلت منها فى نفس العام على الليسانس فى القانون والعلوم السياسية وبدرجة جيد.



صائب سلام رئيس وزراء لبنان أمر بختم جواز سفري لمغادرة لبنان إلي ألمانيا فوراً

الفصل الثاني عشر

أنا والرئيس إميل لحود



12

- أصدرت كتاباً عن ثورة لبنان.. أعدمه وزير الإعلام عبد القادر حاتم حتى لا يسيء للعلاقات مع لبنان
- بعد لقائي بالرئيس إميل لحود والاستماع إلى برنامجه في الحكم.. تيقنت أن لبنان فى يد رئيس وطنى أصيل



عندما تركت بيروت كان الداخل الفلسطيني فوق بركان متوقع انفجاره

مكانة حب وتعاطف وأخوة للبنان فى ضمير الشعب المصرى، تلك مشاعر متوارثة عبر العصور والأجيال، وأذكر فى أواخر الأربعينيات، حين بطش الاستعمار الفرنسى بالحركة الوطنية اللبنانية، واعتقل الزعماء الوطنيين، أن اجتاحت مظاهرات الاحتجاج شوارع وميادين القاهرة عام ١٩٤٣، وفى مقدمتها مظاهرات طلابية حاشدة، ومازلت أذكر حشود طلبة الجامعة وكنت من بينهم، ومشاعرهم ملتهبة وهم يستمعون لخطاب زميلهم «سعيد رمضان» أحد قادة التنظيم الطلابى للإخوان المسلمين، وهو يردد «لبنان الشهيد»، وكنت فى بداية التحاقى بكلية الحقوق، وخرجنا نحن طلبة الجامعة ومعنا طلبة المدارس الثانوية الذين كانت جموعهم قد توافدت على حرم الجامعة، انطلقت هذه المظاهرات الحاشدة فى شوارع وميادين القاهرة، ترج هتافاتها الأجواء بحياة لبنان الحر وسقوط فرنسا الاستعمارية.. كما نجحت الأحزاب السياسية والنقابات العمالية والمهنية فى إعلان احتجاجها وإدانتها للعدوان الفرنسى الاستعمارى على الشعب اللبنانى، وكانت هذه المظاهرات تجرى نهاراً وليلاً، وتصب لعناتها فى نهاية مسيراتها على مقر السفارة الفرنسية.. وحين أجبر المستعمرون الفرنسيون على التراجع وإطلاق سراح الزعماء اللبنانيين، حيث كان لبنان مشتعلاً بالثورة، وانتهى الأمر بإعلان الاستقلال الوطنى للبنان، وأذكر مؤتمرات طلبة الجامعة ابتهاجاً بجلاء قوات الاحتلال الفرنسى عن سوريا ولبنان، مؤتمرات أذكر أنها كانت تعقد فى شهر أبريل من كل عام فى أواخر الأربعينيات.. إضافة إلى ما سبق، أنى شاركت بالقلم والسلاح ثورة لبنان عام ١٩٥٨ ضد مشروع الرئيس الأمريكى إيزنهاور «سد الفراغ» بعد أن رحلت قوات الاحتلال الفرنسى البريطانى عن المنطقة، ونزلت القوات الأمريكية فى سواحل بيروت، فردتها الثورة اللبنانية على أعقابها، وانتصرت فسقط الرئيس شمعون وتولى الرئاسة قائد الجيش اللواء شهاب، وتدعمت رئاسته باجتماعه بالرئيس عبد الناصر عند الحدود السورية اللبنانية.. وفى هذا الصدد أذكر أنى عقب عودتى إلى القاهرة أصدرت كتاباً عن ثورة لبنان هذه، لكن صادره وزير إعلام ذلك الوقت عبد القادر حاتم بدعوى عدم إساءة العلاقات مع لبنان، حيث كنت قد تناولت حزب الكتائب وزعيمه بيير الجميل وكان حاتم يجهد فى استرضائه، ولم يكتف بمصادرة الكتاب، وإنما أمر

بإحراق جميع ما طُبع منه، الأمر الذى ترتب عليه خسائر فادحة للناشر «حسن الإيرانى» والذى بادر بتصفية مؤسسته ورحل عن مصر..

كنت فى مؤتمر للمثقفين العرب فى بيروت، على ما أذكر عام ١٩٩٩، وطلبت لقاء الرئيس إميل لحود، الذى استجاب لطلبى مشكوراً، وفى الموعد المحدد كنت أجلس إليه فى مقر رئاسة الجمهورية، وكان فى مستهل عهده بالرئاسة، وحين سألت عن برنامجه فى حكم البلاد وإدارة شئونها قال:

– المحافظة على استقلال لبنان وانتمائه العربى، ونؤيد المقاومة اللبنانية، ضد الاحتلال الإسرائيلى، للشريط الحدودى جنوب لبنان، ونؤيد الشعب الفلسطينى فى المطالبة بحقوقه المشروعة، وإقامة دولته المستقلة على أرضه الوطنية، وندعم التضامن العربى، ونحرص على حسن علاقاتنا مع جميع الدول..

– وأضاف يقول: على الصعيد اللبنانى لا طائفية ولا حزبية، بمعنى أن التعيين فى الوظائف العامة معياره الصلاحية والكفاءة، وليس الانتماء الطائفى أو الحزبى، وسيادة الشفافية وضرب أية شبهة فساد، والحرص على كفالة الحريات العامة والحقوق الديمقراطية واستعادة عافية الاقتصاد اللبنانى، وإنجاز كافة المشروعات الخاصة بإعادة تعمير لبنان.

– واختتم حديثه هذا الخاص وليس للنشر بأن وجه إلى شخصى كلمات تحية وتقدير لجهاد الحرية، والاسترشاد بتجارب الأجيال السابقة المناضلة، من خلال تواصل الأجيال.. ووجدتنى أحتضنه وأنا أصافحه مودعًا، وغادرت قصر الرئاسة بوجدان منتعش طروب، بأن لبنان يدخل الألفية الزمنية الثالثة، بمفاهيم تقدمية صائبة، وبرئيس لبنانى أصيل، عميق فى وطنيته مستنير فى قوميته..

* * *

رفضت فرنسا منحى تأشيرة لچيبوتى فدخلتها عضوا دبلوماسيا في لجنة تقصى الحقائق الدولية!

كان الزعيم الشعبى حسن جوليد ورفيق جهاده أحمد دينى يقودان المقاومة الشعبية ضد الاحتلال وصنيعته الحكومة المحلية، والتى كان رئيسها الچيبوتى يفتخر بجنسيته الفرنسية...!

وحدث من جراء كثرة شكاوى القوى الوطنية لدى جامعة الدول العربية والمنظمات الدولية، أن أرسلت الأمم المتحدة أو جامعة الدول العربية - لا أذكر على وجه الدقة - لجنة لتقصى الحقائق فى چيبوتى، ورفضت الحكومة الفرنسية منحى تأشيرة دخول لچيبوتى، وعند الحدود الصومالية الچيبوتية، أقام الأهالى حفلاً لتكريم لجنة تقصى الحقائق، وكان رئيسها دبلوماسيًا مصريًا، تقدمت إلى مقعده فى صدر الحفل، وأسررت فى أذنه اسمى ومهنتى، وأن فرنسا رفضت منحى تأشيرة دخول، فألحقنى بأعضاء لجنة تقصى الحقائق كصحفى ملحق بها.. فأصبحت رسميًا فى چيبوتى، وكنت ألتقى خفية بزعيم المقاومة الوطنية الشعبية حيث كان يزودنى ببياناتها والتى كنت أنشرها تباعًا، وقد أجريت حديثًا صحفيًا مع الحاكم العام الفرنسى، أكد فيه أنه إذا ما كان شعب چيبوتى يريد الاستقلال ففرنسا ترحب بذلك، وهو ما جرى بالفعل..

وحين أجريت حديثًا صحفيًا مع رئيس الحكومة الموالية بل العميلة للاحتلال الفرنسى، استفزتنى إجابات رئيسها، الذى أجاب فى زهو العبيد أنه فرنسى، ويعمل على بقاء تبعية چيبوتى لفرنسا، وقال: إننى فرنسى ديجولى، وحين نشرت حديثه جعلت عنوانه «حديث مع رأس الأفعى فى چيبوتى»، وكانت صورته كما أخرجها رسام الجريدة حية رأسها وجهه.. هذا وأسفر كفاح شعب چيبوتى وتقرير لجنة تقصى الحقائق عن اعتراف فرنسا باستقلال چيبوتى، وانتخب حسن جوليد أول رئيس للجمهورية الأفريقية الصغيرة چيبوتى، وزرته فى مكتبه برئاسة الجمهورية وأجريت معه حديثًا سياسيًا مهمًا خاصة عن الأوضاع الاستراتيچية للقرن الأفريقى الذى جوهره چيبوتى، وساءنى ما وقع من خلاف بينه وبين رفيق جهاده أحمد دينى الذى اتخذ مكانه فى المعارضة ثم ما لبث أن توارى أو اختفى!



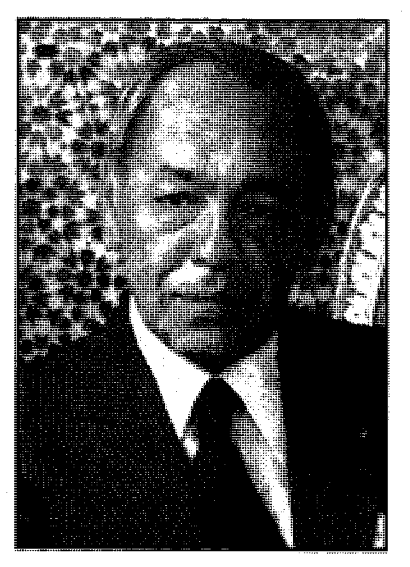
صورة مع حسن جوليد أول رئيس لجمهورية چيبوتى عقب إعلان استقلالها

الفصل الثالث عشر

اتهمنى الجنرال أوفقير بمحاولة اغتيال الملك الحسن الثانى



الجنرال أوفقير



الملك الحسن الثانى



- بسبب مقال، اختطفنى أوفقير من فندقى، وطالبنى بالاقرار أنى ضابط مخابرات موفد للإطاحة بالملك الحسن!
- تعرضت لتعذيب جهنمى وحشى للخضوع وصمدت حتى فقدت النطق..
- محكمة عسكرية مغربية صورية للحكم بإعدامى، نجوت منها بصلح بين ناصر والحسن الثانى فعدت إلى القاهرة
- قُبض علىَّ فى مطار القاهرة وسجنت متهما بنفس اتهامى فى المغرب!
- أُطلق سراحى وظللت دون عمل إلى أن سُمح بعملى بشرط المرتب الأقل!



فقد سعد زغلول فؤاد أسنانه نتيجة ما تعرض له من اعتداءات وحشية

الإنسان، أغلى شيء فى الوجود، كرّمه الله حين أمر الملائكة بالسجود له، فأطاعوا وسجدوا تكريماً لشأنه وتعظيما، وهو الذى من أجل سلامته وأمنه وصحته ونموه ورفاهيته، تكون فى خدمته أجهزة الإدارة والحكم.. هذا الإنسان يتعرض فى بعض بلدان التخلف والظلام، إلى انتهاك آدميته باعتداءات دامية رهيبة، تتمثل فى عمليات تعذيب وحشى، يقوم بها رجالات السلطان، وهم يتراقصون على نغمات صراخ الضحايا وتمزقات أجسامهم..، هؤلاء مجرمون موغلون فى الإجرام، وجرائمهم تلك ضد الإنسانية، لا تسقط أبدا بالتقادم، وليس أشد قسوة وإيلاماً للنفس، أن يكون رجل الدولة والقانون، من بين محترفى القتل بأشد ضروبه قسوة ووحشية، بمختلف ألوان التعذيب، حيث يمارسون جرائمهم ويستعينون فى ارتكابها، بما تحت إمرتهم من سلطات وأموال ورجال، وتصبح هذه الجريمة المنكرة فوق القانون! هذا، أود أن أشير هنا، إلى أنى كنت أحد ضحايا التعذيب مرتين، الأولى فى الرباط بالمغرب، والثانية فى عمان بالأردن، أروى تفصيلات كل منهما فيما يلى:

هذا، وما جذب انتباه وزير الداخلية أوفقير نحوى، كان من خلال بعض المواقع التى شغلتها وأُبعدت عنها فور ممارستى لمهامها، فما إن وصلت حتى زرت أحد معارفى من خريجى جامعة القاهرة، السفير أحمد بن مليح فى مكتبه بوزارة الخارجية بالرباط، وكانت مجلة الإذاعة المغربية متوقفة عن الصدور، فألحقنى من خلال المدير العام للإذاعة رئيسًا لتحريرها، وحين تسلمت عملى بها لم أجد أى محرر بها، فرحت أحررها وحدى بمختلف أبوابها، وبعثت برقيات إلى بعض أصدقائى من كتاب وصحفيين بالقاهرة، وطلبت منهم موافاتى بمقالات وكتابات صحفية، وقد أخبرتهم أنى رئيس تحريرها.. وأصدرت العدد الأول الذى صادف رواجًا لدى القراء، لكننى فوجئت بقرار وزير الإعلام الذى أذكر أن اسمه أحمد العلوى، بفصلى وإغلاق المجلة، وكان هذا العدد يتضمن موضوعات رئيسية منها: مهاجمة الاستعمار الجديد ممثلاً فى الحكومة الأمريكية وعراق عبد الكريم قاسم، ورئيس تونس الحبيب بورقيبة، حيث نشرت تفصيلات اغتياله لخصمه السياسى التونسى الكبير صالح بن يوسف فى ألمانيا والذى كان بصحبة زوجته فى زيارة طبية،

والذى كان لاجئًا سياسيًا فى القاهرة، ويمارس منها أنشطته المعارضة لبورقيبة، وكنت قد حصلت على صورة من تحقيقات السلطات الألمانية، والتى كان بها اسما القاتلين من جوازى سفرهما، وهما اثنان من خاصة العاملين فى مكتب الرئيس التونسى بورقيبة، وكان أحدهم «البشير زرق العيون» ابن خالة صالح بن يوسف، دخل كل منهما ألمانيا بجواز سفره الرسمى الحقيقى، وتوجها إلى حيث التقيا بصالح بن يوسف فى غرفته، وقد زعم البشير أن معه أوراقًا تونسية مهمة تدين بورقيبة، فرحب بهما وفى غرفته بالفندق ما إن شرع يتلو هذه الأوراق المزعومة، حتى أطلق أحدهما الرصاص على رأسه، وعلى الفور غادرا الفندق إلى المطار، وحين وصل البوليس إلى المطار، كانت الطائرة قد غادرت فى طريقهما إلى تونس، وقد طلبت وزارة العدل الألمانية من الحكومة التونسية تسليمهما لسلطات التحقيق الألمانية، لكن الرفض كان الرد التونسى، وهو ما أثار أزمة فى العلاقات التونسية الألمانية، جرى تسويتها بعد حين دون تسليم القاتلين..

كانت هذه الموضوعات السبب فى إغلاق المجلة وفصلى، وكان وزير الإعلام المغربى يردد أن هذه المجلة رسمية تصدرها الحكومة المغربية فكيف تنشر تلك الموضوعات المشتعلة بالهجوم على حكومات صديقة للمغرب، هذا وقد أخذ زملائى الصحفيون والكتاب فى القاهرة الذين سبق أن طلبت منهم موافاتى بكتاباتهم يتندرون وهم يتلقون برقيات منى تحظرهم بعدم إرسال أية كتابات صحفية لى لأنى فصلت من عملى بالمجلة وتم إغلاقها والتوقف عن الصدور...!

الموقف الثانى الذى شد انتباه أوفقير ورجاله من ضباط البوليس السياسى، أن الرئيس الجزائرى أحمد بن بيلا، بعث إلىّ بجواز سفر جزائرى باسمى، وانتدبنى مندوبًا عن الجزائر فى مؤتمر التعريب الذى كانت الجامعة العربية قد عقدته فى الرباط، وكان وزير التعليم المغربى «ابن عباس» فى كلمته قد طالب بأن يمهل المغرب بعض الوقت، لصعوبة بدء تعريب المواد الدراسية للتعليم الثانوى الذى كان يجرى بأكمله باللغة الفرنسية، بزعم صعوبة ترجمة المصطلحات الدراسية، ومن فوق المنبر رددت عليه بأن هذه المصطلحات ليست لوغاريتمات، فكل دول المشرق العربى تجرى الدراسة فيها باللغة العربية، وصدر قرار المؤتمر البدء فى تعريب المواد الدراسية فى المدارس المغربية...

ومن منصة المؤتمر عقب انتهائه التحقت بالعمل مدرسا فى إحدى المدارس الثانوية التى أنشأها فى نفس ذلك العام ١٩٦٢ حزب القوات الشعبية المعارض الذى كان يترأسه المهدى بن بركة، وأمسكت البرامج الوزارية التعليمية للتاريخ والجغرافيا للمدارس الثانوية والتى كانت باللغة الفرنسية، وأصدرت أول كتب مدرسية فى التاريخ والجغرافيا للمدارس الثانوية باللغة العربية، وطبعتها وسوقتها مكتبة الوحدة العربية فى الدار البيضاء...

وكتب مقدمتها وكيل وزارة التعليم المغربية، والذى أصدر قراراً بتعينى مدرساً فى إحدى المدارس الثانوية الحكومية فى مدينة تطوان والتى لم تدم حيث كان أوفقير قد قبض علىّ بطريقته الإرهابية وعلى نحو ما أسلفت وذكرت فى صفحات التعذيب الوحشى الذى حل بى فى السجون الخاصة للجنرال أوفقير فى الرباط..

المكان: العاصمة المغربية الرباط، الزمان: شهر أكتوبر ١٩٦٣، الأحداث: نزاع مسلح حول الحدود بين المغرب والجزائر، وكان الجيش المغربى هو البادئ بالهجوم، وبعثت مصر بقواتها لمؤازرة الجيش الجزائرى الوليد، فلم يكن قد مضى على إعلان استقلال الجزائر غير سبعة شهور، وكنت مراسلاً لصحيفة الأسبوع العربى اللبنانية، حيث كنت هارباً من أمر اعتقال سياسى فى القاهرة، وحدث أن نشرت فى صحيفتى هذه تحقيقاً صحفياً عن هذه الحرب فى أواخر أكتوبر ذلك العام، ذكرت فيه أن المنطقة الحدودية التى يطالب بها المغرب، وأعلنت حكومته الحرب ضد الجزائر من أجلها، هى أرض جزائرية، وليست أكثر من صحراء قاحلة تتوسطها بئر جافة، وأن الهدف من الهجوم العسكرى المغربى، هو ضرب النظام الثورى الوليد فى الجزائر.. ما وقع لى بعد ذلك من ردود الفعل لدى سيئ الصيت السفاح الجنرال محمد أوفقير، الذى كان وزير الداخلية ورئيس الأمن والمخابرات وقائد الجيش، رجل الدولة القوى ذلك الوقت.

مساء ٩ نوفمبر ١٩٦٣ عدت إلى الفندق الذى كنت أقيم فيه، وما إن أغلقت باب حجرتى، حتى داهمنى أربعة رجال مسلحون، لم يفصح أى منهم عن هويته أو وظيفته ولا عما يريد، وإنما انقضوا ليمسك اثنان بذراعى، وثالث غرس فوهة مسدسه فى صدرى، أما الرابع فقد وضع عصابة سوداء فوق عينى، وقادونى إلى سيارة كانت بالباب انطلقت بسرعة كبيرة، وأدهشنى صمت رفاقى هؤلاء الأربعة،

حتى فيما بين أنفسهم وامتناعهم عن إجابة أى سؤال عمن يكونون وماذا يريدون وإلى أين هم يقودونني، إلى أن توقفت السيارة ودخلوا بى أحد المبانى.. ثم فى حجرة لأجلس على مقعد مثبت فى الأرض، وشدوا وثاقى بإحكام، ومن بعد كلمات غاضبة مقترنة بصفعة شديدة على وجهى، خلفت صفيراً حاداً فى أذنى، كانت تقول: «تكون عايش فى المغرب وتكتب ضده».. وتتابعت الصفعات.. ثم أعقبتها دقائق من الصمت لأستمع إلى صوت يأمر برفع العصابة عن عينى وفك قيودى، لأجدنى فى مواجهة شاب برفقة زميل له يحدثنى «بلطف» ويبدى غضبا مصطنعا ممن قيدنى وصفعنى..!، وسألت عمن يكون وأين أجد نفسى، فأجاب أنه وزملاءه من رجال الشرطة المغربية، وانى فى أحد مراكز الشرطة (لم يكن ذلك صحيحاً، وإنما أحد المراكز السرية للمخابرات المغربية).. لم يضع الرجل الوقت فباغتنى بقوله: «لدينا ما نريدك توقيعه وكتابته بخطك، ومن بعد نطلق سراحك ونجزل لك العطاء»، وقدم إلىّ عدة صفحات مكتوبة على الآلة الكاتبه، تتهم حكومتى القاهرة والجزائر، بالتآمر على قلب نظام الحكم فى المغرب، بالإطاحة الدموية به وإعلان النظام الجمهورى وتنصيب المهدى بن بركة (زعيم المعارضة واليسار المغربى) رئيساً للجمهورية..! كما تضمنت هذه الأوراق الزعم بأن المدرسين والأطباء والقضاة المصريين العاملين فى المغرب، هم بعثات عسكرية رجالها جميعاً ضباط فى المخابرات المصرية.. إلخ هذا السخف اللامعقول من الافتراء والكذب المفضوح، وكان ردى فى حزم أنى لن أوقع على هذه المزاعم، فلكمنى وهو يقول: «ستوقع عليها وتعيد كتابتها بخط يدك ست مرات»..! وانصرف.. ثم صحبنى آخرون عبر ممشى ليتوقفوا بى أمام صرخات إنسان مجاور كان يتعذب وتتحشرج صرخاته بعلائم الموت، ثم أُدخلت إلى قاعة فسيحة لأرى إنساناً معلقاً فى الهواء على شكل صليب، حيث كان مشدوداً من الرأس والكتفين إلى السقف ومن القدمين إلى الأرض وكل ذراع مشدودة عن آخرها، وانتصب من تحت كتفيه مسندان خشبيان شُدا من الأرض إلى السقف، وهو يصرخ باكيا صراخاً يفصح عن تمزق القلب ومصارعة الموت.. وبعد جولتى هذه بين مجازر البشر، أُعدت إلى حيث كنت لأجدنى أمام نفس الشخص الذى سبق وانصرف عنى، وهو يعيد عرض أوراق الأكاذيب الشريرة المفضوحة طالباً منى توقيعها، ويهدد ما لم أستجب لأمره، يحل

بى مـا شاهـدت لتـوى. . ثـم قـال وقـد تلقى نفس إجابتى السـابقـة إلى مرافقـيـه من رجـاله: «هذا طلعوه فوق»..!، وفوق هذه كانت تعنى نقلى إلى قصـر «المقرى».. الذى لا أدرى كم من الليالى قضيتها به من هول ما حل بى فيه..!، قصر كبير تحوطه أسوار عالية وحديقة فسيحة، يقع فى طريق زعير بمدينة الرباط، على مقربة من قصر دار السلام أحد قصور الملك الحسن، وبعد مسيرة فى ممرات الحديقة بالسيارة التى نقلونى بها، توقفوا لأدخل قاعة فسيحة كانت عندما كان المقرى يسكن قصره هذا مخصصة للخيول، وعندما تتصفح محتويات هذه القاعة من أجهزة متناثرة ما بين الجدران والأرض والسقف، تظن أنك فى قاعة «جمانزيوم» للألعاب الرياضية، لكن سرعـان مـا تدرك بما يحل بك بواسطة هذه المعدات أنها آلات تعذيب، تعطى كل منها درجة من الألم ونوعا من العذاب..، إنها بعض منشآت سيئ الصيت السفاح الجنرال أوفقير..

ما إن أصبحت وسط هذه القاعة، حتى طرحنى ثمانية رجال أشداء على الأرض، بعد معركة قصيرة قاتلت خلالها قتال الموت خارت من بعده قوایّ، وأوثقنى الأبالسة لأصبح على شكل ضفدع أو دجاجة مذبوحة، بطريقة فى ذاتها مؤلمة رهيبة، ووضع عمود حديدى تحت الركبتين وبين الذراعين عند الكتفين حيث رفعت إلى ما يشبه العقلة الرياضية، رأسى إلى أسفل وقدماى إلى أعلى، وشعرت بإمعائى تكاد تسقط من حلقى، والدماء تثقل رأسى وأنفى وعينيّ، وراح أحد الزبانية يضربنى بشدة على قدميّ، وأخذت أصرخ بلا طائل والضابط الذى يشرف على هذه العملية واسمه الحقيقى أو الحركى «السلامى محمد علي» الذى ظل قائماً بهذه المهمة الإجرامية طوال مدة إقامتى بكهف التعذيب هذا، وراح هذا الضابط يرد على صرخات استغاثتى هذه: «لن يسمع صراخك أحد»، ثم أعدت إلى الأرض وفكت قيودى وأمرت أن أقف وأعدو.. لم أستطع.. ضُربت عشرات العصى كى أعدو دون جدوى، فساندونى وراحوا يجرون بى ثم صحبونى إلى حجرة جانبية حيث أعيد تقديم الأوراق كى أوقعها فرفضت فتركونى للنوم على سرير خشبى صغير كل ما به بطاطين مبللة بالزيت لفونى بها بعد أن جردونى من ملابسى فأصبح جسمى غارقاً فى الزيت.. ورحت فى نوم عميق ليقوم الجندى المختص بحراستى ليلاً بتجفيف الزيت وارتداء ملابسى، ومصاحبتى ذهاباً وعودة إلى وجبات التعذيب، وكنت قد

نقلت إلى إحدى الڤيلات السرية لقسم العمليات الخاصة للمخابرات المغربية، وظل هذا الحارس المخابراتي ورئيسه الضابط « السلامي محمد على » في مرافقتي طوال مدة اختطافي هذه التي دامت نحو شهر، نقلت من بعدها إلى السجن مقدماً مع آخرين من زعماء المعارضة المغربية للمحاكمة عسكرياً بتهمة التآمر على قلب نظام الحكم المغربي. لصالح نظام الحكم في مصر..، أذكر هنا أن حارسي هذا المكلف بتعذيبي وحراستي. كان يدعى « على » وما إن يستقر به المقام في موقع محبسي، حتى يؤدي في خشوع الصلاة في مواقيتها، معتذراً لي في كل مرة بعد « وجبة » تعذيبي أنه مجبر عسكريا ولأكل العيش على تنفيذ الأوامر، وكان يبالغ في الاهتمام بما يمدني من مأكل ومشرب، وحدث ذات ليلة أن ترك سلاحه « مدفع رشاش » بجواري وغادر الڤيلا لشراء ما يلزمني من شاي وسكر، وتركني وحيداً في هذه الڤيلا، وكان من السهل أن أغادرها هارباً، لكنني لم أفعل وعاد ليجدني مستلقيا في مكاني، والذي كنت أؤدي فيه الصلاة راقداً، وقد أُثخن جسدي جراحاً وآلاما.. أستطرد إلى عرض ما جرى معي من صور وضروب التعذيب..

بعد وجبة التعذيب السابق بيانها والتي أدمت قدميّ، أعاد الضابط السلامي أوراق الأكاذيب لتوقيعها فرفضت مكرراً ومصراً على الرفض، فأدخلني مرة ثانية إلى كهف التعذيب، طرحوني على بطني فوق لوح خشبي بطول الجسم، التفت من جوانبه سيور من الجلد حول جسمي لتجعلني معه قطعة واحدة، ثم ارتفعت ميكانيكاً بهذا اللوح إلى أعلى، ثم تقدم آليا إلى الأمام حيث رأيت نفسي فوق برميل ضخم مملوء بالماء، وأنزلوني من ناحية رأسي وبعض صدري في برميل الماء هذا، أصبحت بالفعل غريقاً.. اندفع الماء بقوة عبر فمي إلى بطني وقد توقف التنفس، انتابتني آلام مروعة رهيبة في الصدر والأنف والأذنين والبطن.. تم ذلك في لحظات رُفع من بعدها اللوح وعاد إلى مكانه حيث ضغط أحد الزبانية على ظهري وكان فمي مفتوحاً للتنفس مع أنفي، وتدفق الماء من فمي في البرميل، وأعادوا إغراقي هذا حيث فقدت وعيي، وأفقت لأرى من يجري لي تنفساً صناعياً، وطبيباً يجري لي الإسعافات اللازمة وقد غطى بقناع وجهه عدا عينيه، أبشع الآلام وأشدها تلك التي يعانيها الغريق، ومن تجربتي تلك المروعة الرهيبة، أدركت حكمة وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله « الغريق شهيد ».

بعد ليلة من النوم العميق، أُعدت صباحاً إلى كهف التعذيب، حيث أُجلست على مقعد مثبت فى الأرض، ووضع قيد حديدى فى يدى اليسرى، كانت تتدلى من طرفه سلسلة طويلة تتصل بقيد آخر وضع فوق كعب قدمى، وضغط أحد الزبانية على مقبض جهاز صغير ربما كان دينامو، لتصدمنى ضربات كهربائية، لاح لى أنها اقتلعت ذرات جسمى ومزقت أحشائى وفجرت رأسى.. من بعدها رحت أتحدث وصوتى كأنه يخرج من أحشائى مرتعشاً، ولم أوقع.. فأعدوا فى اليوم التالى برنامجًا من نوع جديد، حيث أدخلونى فى المجلدة، وراحوا يتناوبون صفعى، وكلما أصبت بالإغماء صبوا على رأسى الماء البارد، وما إن أفيق حتى يعاودوا الصفع ولم يعد فى أذنى غير صفير حاد.. من بعد أعادونى إلى مكان فى الڤيلا السرية الخاصة وكانت بجوار صومعة حسان الشهيرة فى الرباط، حيث غشينى نوم عميق.. فى الصباح جاء «بن منصور» أحد رؤساء البوليس السياسى، وهو الذى بعث بى إلى محرقة التعذيب، نصحنى أن أمتثل وأوقع ما طُلب منى، وإلا فمصيرى التعذيب حتى الموت، ولم أمتثل وأكدت رفضى المتكرر، فقد آثرت بوعى وبحق الموت، وكنت قد تلوت الشهادة عقب إغراقى، وعددت نفسى بين الأموات الشهداء..

فجأة عاد بن منصور وبصحبته الجنرال أوفقير، الذى خاطبنى قائلاً: «أنت ترفض التوقيع.. لكن لدينا توقيع زميلك الصحفى (كان يعمل فى مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط فى الرباط ومقبوضاً عليه وغيره).. انس كل ما سبق، أنت هارب من المشنقة فى القاهرة، هنا فى المغرب تعيش فى أمان مطلق ورفاهية، ستعمل مستشاراً صحفياً لسيدنا (الملك) بمرتب شهرى كبير ومسكن لوكس وسيارة، وتتولى عمل بروبوجندا فى الإذاعة والصحف ضد ديكتاتورية ناصر، وإرساله الجيش المصرى لقتل المغاربة»، لم أتمالك نفسى وقلت: أنا عاوز أرجع مصر حياً أو ميتاً.. تركنى وانصرف ورجاله وهو يصفنى لهم بأنى ضابط مخابرات مدرب، وأمرهم بإعداد أوراق القضية، وكنت غاية فى الضعف مثخناً بجراح وآثار التعذيب، حتى أن لقاء أوفقيرهذا جرى وأنا مستلق على سريرى هذا العسكرى الصغير الخاص بخيام الجنود، ولم يلبث أن تحولت غرفة محبسى هذا، إلى مكتب لإعداد ملف القضية، حيث راح الضابط «السلامى محمد على» يملى على من راح يدق على الآلة الكاتبة ما يملى عليه من أقوال زميلى - س.ف - الذى قُبض عليه من مكتبه فى وكالة

أنباء الشرق الأوسط بالرباط، والذين استولوا على ما كان به من أوراق ومعدات، وكان مختصاً من خلال أجهزة اللاسلكى بالمكتب، بالإبراق إلى المكتب الرئيسى بالقاهرة، واستقبال ما يرد من تعليمات وتوجيهات، ومدير المكتب كان الصحفى «ك.ع»، والذى تمكن من الهرب بسيارته المرسيدس الجديدة إلى الجزائر فالقاهرة، وكان سنده فى موقعه هذا مديراً للمكتب، عمله السرى الآخر جاسوساً للمخابرات المصرية، وأود أن أشير هنا، إلى أنى عانيت عدة وجبات من التعذيب الجهنمى دفاعاً عنه، حين كان الضابط السلامى يصر فى استنطاقى على أن أقر أنه جاسوس لمخابرات القاهرة، فكنت رغم اللكمات والصفعات أنفى عنه هذه الصفة وأردد أنه صحفى وطنى وليس جاسوساً، حيث كان السلامى وهو يستنطقنى عنه، يقدم إلىّ أوراقاً بخط يده هى تقارير مخابراتية، كلها كانت اتهامات كاذبة ضدى، تنسب إلىّ أنشطة سياسية معادية للنظام المصرى الناصرى، وكانت كلها صور كربونية لأصول بعث بها إلى القاهرة، كانت آلات التصوير الضوئى للأوراق لم تعرف بعد فى مصر، وانتابتنى مشاعر متعارضة، فهذا الزميل فى المهنة، كنت أضعه بين قائمة أصدقائى، وكان أحد القضاة المصريين المعارين للمغرب، والذى كان زميلى فى كلية الحقوق وصديقى، كلما رآنى معه يحذرنى من مصاحبته لأنه جاسوس، فأنفى ذلك عنه مسوغاً أنى خارج مصر ليس لى أى نشاط سياسى معاد للنظام المصرى، بل أقف مع سياسته الخارجية، المعادية للاستعمار ولنظم الاستبداد العربى، والتى كانت تدعم حركات التحرر الوطنى فى أفريقيا وآسيا، ولى مقال فى مجلة مغربية أشدت فيه بسياسة مصر الخارجية كان بعنوان «جمال عبد الناصر والإنسان العربى»، هذا المقال لم ينقل إلى القاهرة، وإنما نقلت مقالات معادية لعبد الناصر كانت تدأب على نشرها مجلة أسبوعية مغربية، نسبها الجاسوس ك.ع هذا إلى قلمى وأصبحت أعانى مشاعر الانتقام من هذا الزميل الجاسوس الكاذب فى تقاريره ضدى، والتى أطلعنى على صورها الضابط السلامى كى أقرر أن هذا الصحفى المصرى يمارس التجسس بصفة أساسية ومن بعد عمله الصحفى، رغم كل ذلك أصررت فى كل إجاباتى بشأنه على أنه صحفى وطنى وليس جاسوساً، مغلبا النزعة الوطنية على المشاعر الخاصة.. رغم أنه كان قد أحبط كل ما كان يجرى من مساعٍ لإلغاء أمر اعتقالى وعودتى إلى القاهرة، وكان عسكر القاهرة وعلى رأسهم سيئ الصيت صلاح نصر مدير المخابرات،

قد أشاعوا التجسس بين المواطنين، وجعلوه سبيل الترقى والصعود فى الوظائف، فقد حدث أن زارنى فى مسكنى المغربى صديقان صحفيان مصريان، كانا فى زيارة صحفية للمغرب، ووجدا لدى كتاباً ضد سياسة عبد الناصر لمؤلفه أحمد أبو الفتح، الذى كان يقيم فى جنيف، وكتب بخط يده إهداءه لى، فما إن عادا إلى القاهرة حتى كانت التفاصيل لدى المخابرات، والتى أمرت عميلها ك.ع. بضرورة تصوير الصفحة المدون فيها إهداء الكتاب لى بتوقيع مؤلفه، وفوجئت بزيارة ك.ع. لى فى مسكنى، وسألنى إن كان لدىّ كتاب أبو الفتح هذا، ولما أجبت بالإيجاب، طلب مشاهدته فأطلعته عليه فطلب منى بإلحاح أن أعيره ليلة واحدة كى يقرأه، ولما رفضت متعللا بصدق أنه ليس من قراء الكتب، ألح أن أستجيب، لم يسعنى غير إعارته له، وكان كما تبين حين قبض علىّ فى مطار القاهرة فور وصولى إليه، وقدم لى المحقق صورة الكتاب وكلمة إهداء مؤلفه لى، أنه قام بتصوير الصفحة التى عليها اسم الكتاب وكلمات إهدائه لى، وبعث بها إلى رؤسائه من ضباط المخابرات فى القاهرة..
هذا وعلى ذكر صلاح نصر هذا، الذى فى سجن المخابرات خلف قصر القبة فى القاهرة، أسال دماء وأزهق أرواح العديد من المواطنين الأبرياء عباد الله الصالحين تحت سياط التعذيب، فقط لأن تقارير الجواسيس كانت تتهمهم بمعاداة «الثورة» وكان ينافسه فى هذا الشر والأذى الجهنمى، حمزة البسيونى الذى كان مديراً للسجن الحربى، وجاء إلى كل منهما عقاب الله تعالى، إذ قُتل البسيونى هذا شر قتلة حين سحقه لورى فى طريقه إلى الإسكندرية، أما صلاح نصر فقد قُبض عليه عقب هزيمة الجيش المصرى فى حرب يونيو ١٩٦٧، وتآمره ضد حكم عبد الناصر لصالح صديقه المشير عامر، أدين فى قضية انحراف المخابرات، كما حكم عليه بالسجن عشر سنوات عقاباً على تعذيبه الصحفى مصطفى أمين، وفى سجنه أصيب بالعمى ولم يلبث أن مات كمداً، فنال كل منهما جزاءه فى الدنيا، غير ما يلقى من عقاب يوم الحساب فى الآخرة.

نعود لمواصلة ما جرى فى حجرة محبسى بالفيلا الخاصة بمخابرات أوفقير، التى تحولت إلى مكتب إعداد ملف القضية التى أعدت لتقديمى وزميلى س.ف إلى محاكمة عسكرية.. راح الضابط السلامى يملى على زميله ما يدفعه على الآلة الكاتبة، فأمره مثلاً بلسان زميلى الذى رسم باعترافاته شاهداً علىّ، «وأن سعد

زغلول سلم فى مكتبى بالوكالة بن بركة ٦٥ ألف جنيه استرلينياً» لكن زميله توقف عن الكتابة معترضاً أن المبلغ ضخم والأحسن تكتب ٣٠ أو ٢٠ ألف جنيه، لكن السلامى نهره وأمره أن يمتثل لما يمليه».. كنت مستلقياً لضعفى على السرير وصدرى عاريا كى تجف جروحى، وكان ضارب الآلة الكاتبة وزميل له يحلو لهما أن يطفئ كل منهما سيجارته فى «صرة» بطنى والتى لا تزال آثارها فى بطنى.. كان زميلى هذا قد تجنب التعذيب باستجابته لكل ما طالب به أوفقير، وأصبح بتوقيعه الأكاذيب وإعادة نسخها بخطه، معترفاً على نفسه وشاهد إثبات على، وبعد أيام قليلة أمرت بارتداء ملابسى للتوجه إلى المحكمة العسكرية العليا حيث تبدأ الجلسة الأولى للمحاكمة، ومعى قائمة اتهام الادعاء العسكرى والمطالبة بإعدامى، وفى سيارة ڤولكس صغيرة وضعت وزميلى س.ف فى المقعد الخلفى، بينما فى المقدمة السائق وحارس كان بين من اشتركوا فى عمليات تعذيبى، كان اسمه «فضل»، وسألته والسيارة تمضى فى طريقها إلى المحكمة تتبعها سيارة مليئة بالحراس الجنود، «أين تعلمت فنون التعذيب التى تؤلم ولا تقتل» أجاب: عملت دورة فى المخابرات الفرنسية فى باريس».. همست فى أذن زميلى فى مقعده بجوارى: «المحكمة مفيهاش تعذيب.. قول الحقيقة»، فأومأ برأسه ولم يجب..!

قاعة المحكمة كانت مليئة بالحاضرين من محامين وصحفيين ورجال أمن، وبعد أن شغل القضاة العسكريون مقاعدهم فى المنصة، أعلن محامى مغاربى أنه حاضر عن زميلى س.ف. ولم يذكر اسمى، فقد وكلته السفارة المصرية ودفعت له أجراً كبيراً للدفاع عن زميلى وحده، فقد اعتبرتنى السفارة معادياً لنظام الحكم فى مصر، وهارباً من أمر باعتقالى فى القاهرة، لكننى فوجئت بإعلان أربعة محامين حضورهم للدفاع عنى، على رأسهم كبيرهم المحامى محمد عمر إجداينى، الذى كان يدرس القانون فى جامعة القاهرة وتخرج فيها، وكان رئيس اتحاد الطلبة المغاربة فى مصر، تطوع وزملاؤه للدفاع عنى..

بدأت المحاكمة بتلاوة المدعى العسكرى قائمة الاتهام، وفيها المطالبة بإعدامى شنقاً، وبالسجن لزميلى س.ف. خمسة عشر عاماً.

نادى رئيس المحكمة أولاً على زميلى، وسأله عن اعترافاته المدونة والموقع عليها فى

ملف القضية فاقرها، ثم سأله رأيه فى حكم الديكتاتور جمال عبد الناصر، فأجاب: «ديكتاتور وسفاح»..، ثم نادى عليّ: المتهم سعد زغلول فؤاد، نهضت: حاضر.. لم يسألنى عن الاتهام، فقط وجه إليّ سؤالاً واحداً: «ما هو رأيك فى زعامة جمال عبد الناصر؟»، أجبت بأعلى صوت: «أنا أعتز بزعامة جمال عبد الناصر»، وهنا التفت رئيس المحكمة إلى كاتب الجلسة وهو يقول: «اكتب.. اعترف المتهم أنه يعتز بزعامة الديكتاتور السفاح جمال عبد الناصر»، فرددت: ليس فى ذلك أية جريمة، فأنا مواطن مصرى وهو رئيس مصر»..، وهنا رفع الجلسة وانصرف وزملاؤه وهو يقول لحراسى «خذوه»، وبالفعل أخذونى إلى حيث أنزلوا بى تعذيباً مروعا رهيباً فى كهف التعذيب، لم أفق منه إلا فى مستشفى المواساة، حيث اكتشفت أنى قد فقدت القدرة على النطق، كما أصبت بشلل جزئى فى ذراعى وكفى الأيسر، وبعد علاج فى المستشفى نقلت إلى سجن العلو فى الرباط، حيث واصل طبيبه علاجى، وفيه ظللت أربعة شهور، أفرج عنى وزميلى لأعود إلى القاهرة.. جرى ذلك الإفراج وشطب القضية عقب الصلح بين عبد الناصر والملك الحسن الثانى، وذلك من خلال الإعداد لعقد الاجتماع الأول للقمة العربية فى الإسكندرية.

هذا وحدث أن حاول أوفقير احتجازى لإيداعى فى أوكاره السرية، التى يلقى فيها بمن يقع فى قبضته، من العناصر الثورية المعارضة من الشباب، ليظلوا قابعين بها معصوبى الأعين مقيدين بالسلاسل سنوات طويلة، والبعض منهم يقضى ويدفن فى مقابر مجهولة، والذين يعرفون فى المغرب باسم «المفقودين»، وكنت شاهدت لفيفا منهم فى القاعة العليا لقصر المقرى، مقيدين بالسلاسل على أرضها الرخامية، حين أودعونى بها لعدة ساعات ما بين وجبتى تعذيب، فقد صحبونى وحدى إلى أحد أقسام الشرطة، حيث جلست فى مكتب رئيسه، والذى أفهمنى أنه فى انتظار من سيحضر من قبل الجنرال أوفقير، وفجأة فوجئت بالسفير المصرى عبد العزيز جميل بقامته الطويلة، طالباً تسلمى ولم يستطع أن يستجيب لطلبه رئيس قسم الشرطة لأنى مودع لديه بأمر وزير الداخلية الجنرال أوفقير، وقد أسرع بالاتصال تليفونيا به، وأفضى إليه بحضور السفير المصرى طالباً تسلمى، وأمسك السفير بالتليفون وسمعته يقول لأوفقير: «إذا ما خرجشى معايا هقعد معاه.. أنا جاى من عند الملك وأمر باطلاق سراحه»، وأمسك رئيس قسم الشرطة بالتليفون حيث تلقى أمر الإفراج

عنى، وصحبنى السفير إلى منزله ومعه تناولت العشاء، وهو يبدى إعجابه بى ويردد: « رجالتنا فى المحكمة تناولوا الرئيس بالتجريح ونعته بالديكتاتوريه وبكل ما يشمت الأعداء، واللى بيقولوا عليه ضد الثورة وباعتين أوامر بعدم الاختلاط به ومعاملته كعدو للثورة، هو اللى رفع رأس مصر فى المحكمة وتحدى أئمة الكفر.. أنت الذى أشدت بالرئيس عبد الناصر..»، وأضاف يقول: « أنت مطلوب للأسف اعتقالك فى مصر، فإلى أين تريد أن تذهب؟»، قلت: إلى روما.. فأمر القنصل أن يعد تذكرة طائرة لى إلى روما، وأن أبيت ليلتى هذه فى مسكن القنصل، وأمره أن يصحبنى إلى المطار، ولا يغادره إلا بعد التأكد من مغادرتى إلى روما.. وحين أصبحت بها توجهت إلى جريدة « اليونيتا » حيث رحب بى صديقى « ألبرتو ياكوفللى » رئيس القسم الخارجى والكاتب المتخصص فى الشئون العربية، فأنزلنى فى مسكن تابع له، كان يشغله أحد وزراء لومومبا بعد الإطاحة به وإعدامه، وكان فى إحدى كتاباته قد أشاد بى فى مقاومتى للاحتلال البريطانى لمصر وامتداد هذه المقاومة صحفياً فى كل من ليبيا وتونس والجزائر، وبعد بحث ما كان من الصواب العودة إلى مصر أم الاستمرار فى روما أو بيروت ، تقرر بعد التعرف على موقفى فى الرباط العودة إلى مصر، وتطوع فاشترى لى تذكرة إلى القاهرة على طائرة مصر للطيران.

* * *

من صالة كبار الزوار بمطار القاهرة إلى سجن المخابرات بقصر القبة

وتوجهت إلى مكتب وكالة أنباء الشرق الأوسط، حيث طلبت من مديرها كزميل لى فى المهنة، الاتصال بأحد زملائه فى المكتب الرئيسى بالقاهرة، ويتعرف على رقم تليفون أخى ليخبره بموعد وصولى إلى مطار القاهرة، هذه المكالمة لم تقع، وإنما بادر بإبلاغ المخابرات المصرية فى القاهرة بموعد وصولى.. حيث كان استقبالى فى مطار القاهرة، يشكل مسرحية غاية فى الغرابة، تفصح عن مدى عمق ما كان يحكم وجدان هذا النوع من البشر من نزعة الشر والأذى..!

ما إن أصبحت فى مطار القاهرة، حتى سمعت نداء فى مكبرات الصوت يقول: « رجاء إلى الأستاذ سعد زغلول فؤاد، التوجه إلى قاعة استقبال كبار الضيوف »، وراح هذا النداء يتكرر، بينما كنت فى طريقى إلى تلك القاعة، بعد أن دلنى عليها

بعض عمال المطار، وما إن وصلت إليها، حتى وجدت أربعة رجال يستقبلوننى باحترام وترحاب، يتوسطهم رجل أشيب، راح يتقدمنى مرحباً إلى حيث أجلسنى على مقعد وثير، واتخذ مقعده إلى جوارى، بينما أخذ منى بطاقة الطائرة التى بها ما يدل على حقائبى وأمر رجاله بتسلم حقائبى وإحضارها، على حين كانت زجاجات الكوكاكولا تقدم للجميع، ورحنا نتجاذب أطراف الحديث عن الرحلة إلى القاهرة.. وألف حمد الله على السلامة.. إلخ الأحاديث المعتادة فى مثل هذه الظروف، وفجأة سألت: مين حضراتكم؟ فأجاب الرجل الأشيب: «نحن مندوبو مصلحة الاستعلامات، جئنا لنكون فى شرف استقبالك ولتسهيل إجراءات الوصول».. فشكرتهم وقد أصبح فى يقينى أن هذا الاستقبال جرى بأمر الرئيس جمال عبد الناصر، وقد عرف أنى الوحيد الذى أشاد به فى معقل الأعداء فى الرباط، بينما رجاله الغارقون فى عديد المزايا والمنح، هم الذين خذلوه ونعتوه بقبيح الصفات، ذلك أن الشتائم وقبيح النعوت التى وُجهت علانية إلى عبد الناصر، لم تكن قاصرة على تلك التى رددها زميلى س.ف. فى المحكمة العسكرية، بل كان قد رددها خمسة من ضباط الجيش المصرى، الذى كان فى الجزائر مسانداً للجيش الجزائرى فى مواجهته القتالية للجيش المغربى، ووقعوا أسرى فى يد الجيش المغربى حين هبطوا خطأ بطائرتهم الهليكوبتر فى الصحراء المغربية على الحدود الجزائرية، فتسلمهم أوفقير وهددهم بتعذيبهم، فاستجابوا لمطالبه، وراحوا فى مؤتمر صحفى ينددون بالرئيس عبد الناصر. وانتهى الأمر بهم أن أودعوا فى إحدى قاعات قصر المقرى، حيث كنت حين أودعت به عدة ليالى إلى جوارهم بهذا القصر البغيض والغريب فى محتوياته ومهامه.. هذا وكانت تتردد إشاعة فى بعض الأوساط السياسية المغربية، عقب تولى الرئيس مبارك حكم مصر، أنه كان بين هؤلاء الضباط المصريين الخمسة الأسرى، وكانت إشاعة شبه مؤكدة، حيث كان قائد القوات الجوية للجيش المصرى فى الجزائر، وفى أول لقاء لى مع الرئيس مبارك، سألته: سيادتك كنت مع الضباط المصريين الخمسة الأسرى فى سجن قصر المقرى بالرباط، فقد كنت أنا بجوار القاعة التى كنتم فيها؟

أجاب قائلاً: الله سبحانه وتعالى نجانى، من عادتى أن الشىء الذى لا أكون مقتنعا به لا أقدم عليه، والذى حدث أننا قررنا عمل مطار حربى لطائراتنا المقاتلة،

يكون على مقربة من الحدود المغربية، واختلفت مع زملائى على الموقع، حيث كنت أرى أن يكون موقعه بعيداً عن الحدود المغربية بنحو مائتى كيلو متر شرقاً، بينما كان الباقون يرون أن يكون ملاصقاً للحدود، فالأرض كلها صحراء شاسعة عبر هذه الحدود، وليس بها أية مراكز عسكرية أو مدنية، وتقرر إجراء طلعة استكشافية، وطلبوا منى مرافقتهم فرفضت لأنى غير مقتنع بما يرون من إقامة المطار على الحدود وكنت أرى إقامته بعيداً مائتى كيلو متر شرقي الحدود، وأذكر أنهم راحوا يتزاحمون فى ركوب الطائرة، ولما انتقلوا بها هبطوا فى صحراء المغرب، فأطبق عليهم جنود الجيش المغربى ووقعوا فى الأسر..

نواصل الحديث عن استقبالى عند وصولى مطار القاهرة، فما إن حضرت حقيبتى مع من كان قد أوفد لإحضارها من بين حقائب الركاب، حتى نهض الرجل الأشيب وهو يشير إلىَّ بمرافقته قائلاً: اتفضل سعادتك، وعلى باب الخروج فى المطار كانت تقف سيارة سوداء كبيرة فاخرة، ركبت فى المقعد الخلفى وإلى جوارى الرجل الأشيب وآخر من رجاله، بينما الباقون جلسوا فى المقدمة جوار السائق، وفى الطريق سألت: إلى أين؟، أجاب: «إلى قصر القبة (أحد قصور رئاسة الجمهورية) كى توقع سيادتك فى دفتر التشريفات بسلامة الوصول»..، وعندما أصبحنا أمام القصر لم تدخل السيارة من بوابته التى على جانبيها الحرس الجمهورى، وإنما انحرفت يساراً وراحت تمضى فى طريقها بجوار سور القصر حتى إذا ما وصلت إلى نهايته انحرفت يميناً فى طريق ضيق إلى نهاية أسوار القصر، حيث توقفت أمام مبنى صغير سرعان ما فُتحت أبوابه لتدخل بى السيارة فى فناء محاطة جدرانه بنوافذ حديدية صغيرة وأمرنى الرجل الأشيب بغلظة «انزل» فسألت وقد غادرت السيارة: أنا فين؟، قال بحدة: أنت فى سجن المخابرات..!، ثقلت ساقاى وأصبحت أجر فى جسمى وهو يأمرنى بصعود الدرج إلى أن وصلت إلى مكتب فى الطابق الأول، وما كدت أسأل: لماذا تضعنى فى السجن؟ حتى صفعنى بشدة وهو يسبنى ويردد: عاوزين تقلبوا الحكم.. عاوزين تحكموا البلد.. إحنا الجيش.. فاهم يعنى إيه الجيش..؛ هسيبك تنام وأشوفك الصبح، وكان قد أعد سريراً فى هذا المكتب وترك حارساً بالباب، بينما استلقيت على السرير بملابسى وحذائى ورحت فى نوم كان ما بين الإغماء والنوم..!

عندما أشرق الصباح جاءنى الرجل الأشيب، وقدم لى نفسه أنه وكيل المخابرات

العامة، وبصحبته كان اثنان من مرءوسيه ، وفي يده كان ملف كبير أشار إليه وهو يقول لي: « هذا كتابك فيه كل كبيرة وصغيرة عنك، ومنه أخرج ورقة مكتوبة بالآلة الكاتبة عليها توقيعي تقول إني بعث آلة كاتبة عربية إلى أحد مدرسي اللغة العربية من المصريين الذين كانوا معارين للعمل في المغرب، ولما أبديت عدم أهمية هذه الورقة ولا شأن لها بالاتهام الموجه لي، قال: أطلعك عليها لتعرف أننا كنا دائما وراءك »، ولما بدأ يحقق معي في اتهامي بالتآمر على قلب نظام الحكم، قلت: لن أجيب إلا أمام النيابة. فقال: حاضر.. أجيب لك عشرة وكلاء نيابة.. قلت: إذن لن أتكلم إلا أمام المحكمة.. فقال: محكمة عسكرية أنا رئيسها وأشار إلى أحد رجاله قائلاً: هذا عضو اليمين، وإلى آخر: وهذا عضو الشمال، وهنجيب لك محاميًا من رجالتنا.. والحكم نصدره معجل النفاذ، وتوقف لحظة ثم قال وهو يضرب بكفه مكتبه: عشرون سنة وأنت تهرب من المشنقة، والمرة دي خلاص.. المشنقة في رقبتك، ونهض ورجاله حيث غادروا حجرة مكتبه، بينما بادرت بالصلاة داعيا الله أن يشملني بعدله ورحمته.. وقد صدقت كل ما قال لي.. وقد ظللت في محبسي هذا بسجن المخابرات نحو عشرة أيام، كان الطعام يأتيني من مطاعم جروبي، وكنت أتناول منه أقل القليل والباقي يتناوله حارسي، فقد استقرت نفسي على أن أتخذ الجوع طريقاً إلى الموت قبيل شنقي.. وذات صباح استدعاني إلى مكتبه في مبنى رئاسة المخابرات حيث خاطبني بهدوء قائلاً: « سعد حولناك لنيابة أمن الدولة للتحقيق معك، إن ظهرت براءتك سيفرج عنك وإلا سينفذ عليك القانون، وتسلمني ضابط بوليس كان مختصاً بشئون الصحفيين في المباحث العامة، ومنه إلى سجن الاستئناف حيث امتنعت عن الطعام عدا الماء دون إعلان.

وكان في السجن أصدقاء ومعارف من الشيوعيين، كان يفرج عنهم تباعاً في مناسبة زيارة « خروشوف »رئيس الاتحاد السوفيتي للقاهرة، وعرفوا جميعاً قصتي، وأني سأحاكم محاكمة عسكرية صورية تصدر الحكم بإعدامي.. ذلك أن مقولات رجل المخابرات لي والسابق بيانها كنت قد صدقتها، خاصة أن هروبي من مصر دام ست سنوات، فلم أكن أعرف حقيقة الأوضاع التي آلت إليها البلاد، ومن هؤلاء وصلت قصتي إلى خارج السجن، وذات صباح نودي عليّ للتوجه إلى مكتب مأمور السجن لزيارة لي.

وفوجئت بالمحامى الصديق وزميل دراستى عادل أمين، فبادرته بأن لم يكن هناك ما يدعو لهذه الزيارة، لأن الحكم بإعدامى صادر من الآن بمحكمة عسكرية صورية ذكرها لى وكيل المخابرات.. وإذ به ينفعل ويعلو صوته بما جذب انتباه مأمور السجن الذى كانت الزيارة بحضوره وإشرافه قائلاً: إيه الكلام الفارغ ده.. هى البلد فوضى.. أنا متطوع للدفاع عنك، ولما يطلبوك للتحقيق أطلب حضورى معك..

كانت كلمات صديقى المحامى إشارة إلى كذب كل ما كان رجل المخابرات قد أفضى به إلىّ، وحين استدعيت إلى نيابة أمن الدولة، كان رئيسها مصطفى طاهر قد كلف بالتحقيق معى، وطلبت حضور المحامى عادل أمين، فاستدعاه تليفونياً فأصبح بعد برهة وجيزة إلى جانبى فى مكتب المحقق، واستغرق التحقيق عدة أسابيع، أطلق من بعدها سراحى وقد اختتمه الشريف المرحوم مصطفى طاهر، هذا الذى عرف بنزاهته بقوله: «ثبت عدم صحة كافة الادعاءات الواردة فى بلاغ المخابرات العامة ضد سعد زغلول فؤاد ويفرج عنه من سراى النيابة ما لم يكن محبوساً على ذمة قضايا أخرى»..، وبالفعل أُطلق سراحى واستعدت حريتى، بعد أن قضيت فى سجن المغرب أربعة شهور، ومثلها فى سجن مصر، والاتهام كان فى موضوعه وصيغته واحداً: «التآمر على قلب نظام الحكم»، وخيوط التلفيق كانت على نمط متشابه جداً وبغيض..

هذا وللعلم كانت للمخابرات سلطات مطلقة على الصعيد المدنى، فكل جهودها وطاقاتها بُذلت فى مقاومة الرأى الآخر، وجعلت المعارضة السياسية جريمة، كما سخّر بعض رؤسائها سلطاتهم فى الحصول على منافع ذاتية، وولجوا العمليات القذرة اللاأخلاقية، والتى أدينوا بها فى قضية انحراف المخابرات، والتى من بينها العبث بأموال الدولة بما فى ذلك الرصيد الذهبى، والذى عرف حين ضُبط لدى أحد ضباط «الثورة» عباس رضوان، والذى كان قد شغل مقعد وزير، حقيبة بها أربعة آلاف جنيه ذهبية، قال فى التحقيقات إنه حصل عليها من صلاح نصر معونة وهدية، وقد أقر بذلك صلاح نصر مبرراً أن ذلك من بين صلاحياته وسلطاته، فاستبعدت من الاتهام ولم تذكر فى المحاكمة وأعيد المبلغ لخزينة الدولة، وعلى حين كانت أنشطة المخابرات العامة على ذلك النحو من الفساد والتوسع فى ضروب مطاردة أصحاب الرأى الآخر، كانت مخابرات إسرائيل تنشط فى عملها داخل مدننا وقرانا، حتى أنها

تعرفت على كافة المطارات السرية المصرية، فقصفتها مع بقية المطارات الحربية صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ الحزين..!

كانت زيادة «خروشوف» لمصر عام ١٩٦٥، للمشاركة فى وضع حجر الأساس لبناء السد العالى، الذى قرر الاتحاد السوفيتى مشاركة مصر فى بنائه، فرصة للإفراج عن الشيوعيين من السجون والمعتقلات، وجرى تعيينهم فى المؤسسات الصحفية والثقافية، ولم يستثن منهم أحد، حتى أن أحدهم كان يعمل بائعاً فى محلات عمر أفندى، وآخر كان للتفتيش على تذاكر الركاب فى قطارات السكة الحديد، جرى تعيينهما صحفيين فى إحدى كبريات الصحف، ومن ناحيتى لم يصدر أى قرار بإعادتى إلى عملى فى روز اليوسف، وكانت مجلة البوليس قد أُغلقت اثناء تغيبى بالخارج، ولم يصدر قرار بتعيينى فى أية صحيفة، فظللت بلا عمل واصبحت فى قائمة العاطلين، فاتخذت من مقهى ريش مقراً يومياً لى، والتى كان الصحفيون والمراسلون الأجانب يترددون عليها، إضافة إلى زملائى من الصحفيين والكتاب المصريين والمثقفين وبعض من كان فى مصر من شعراء عرب لاجئين، وكنت اثير قضيتى وأبدى احتجاجى على عدم تعيينى فى أية صحيفة، فقد كانت كافة المؤسسات الصحفية ملكاً للدولة بعد تأميمها، والتى مازالت على حالها هذا حتى اليوم، وإن كانت الأوضاع اليوم غيرها بالأمس فى ميدان الصحف والصحفيين، إذ خفت يد الدولة بشأن المواد التحريرية والتى أصبحت فى يد رئيس التحرير الذى تعينه الدولة، كما تعين رئيس مجلس إدارة المؤسسة الصحفية، واصبحت من المنادين بخصخصة المؤسسات الصحفية، وطرح أسهمها بين العاملين فيها والمواطنين..

على ما سبق ظللت عاطلا وأنا الصحفى الوحيد الذى مهنته الوحيدة هى الصحافة ولا عمل ولم أعين فى أية صحيفة..، وكان زميلى القديم فى عملى بمجلتى روز اليوسف وصباح الخير أحمد بهاء الدين، يشغل موقع رئيس مجلس إدارة مؤسسة صحف دار الهلال ورئيس تحرير مجلة المصور يتبنى قضيتى ويسعى لتعيينى فى دار الهلال، وأوضح لى أن تعيين الشيوعيين فى الصحف والمؤسسات الثقافية، كان بيد وزير الداخلية شعراوى جمعة وهو رجل سياسى أولاً وقبل كل شىء.. أما

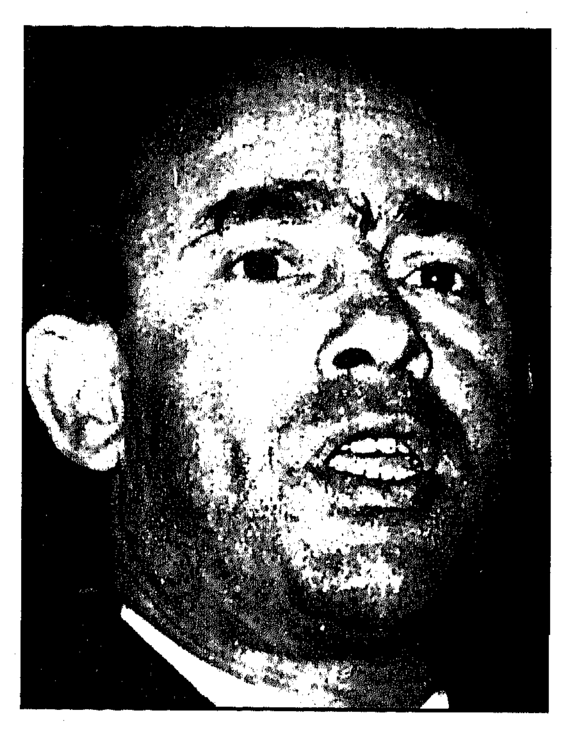
شخصى غير الشيوعى فمن اختصاص سامى شرف مدير مكتب معلومات رئيس الجمهورية، والذى كان يصر «لخطورتى» على عدم اشتغالى بالصحافة ولا بأى عمل آخر، وأخبرنى بهاء أنه دائب السعى لديه لحل مشكلتى، إلى أن نجح فى مسعاه بتعيينى سكرتيراً صحفياً لرئيس تحرير المصور ورئيس مجلس الإدارة أحمد بهاء الدين وبالشرط الذى اشترطه سامى شرف، بأن أتقاضى أقل مرتب، وبعد نحو شهرين نقلنى بهاء إلى تحرير المصور وبالمرتب الأقل، وهكذا عدت إلى مهنتى.

هذا وبصدد المرتب الأقل، حدث عقب تولى السادات رئاسة الدولة أن جرى نقل أحمد بهاء الدين إلى الأهرام وحل مكانه فى رئاسة دار الهلال ورئاسة تحرير المصور يوسف السباعى، ولما طالبت عضو مجلس الإدارة المنتدب عبد الواحد الوكيل بتعديل مرتبى وفق الكفاءة والأقدمية، أفتى مدير شئون العاملين أن الأستاذ بهاء حين نقلنى إلى التحرير نقلنى فنياً ولم ينقلنى إدارياً، فيظل مرتبى على حاله بموجب النظم واللوائح الإدارية.

وبصدد «خطورتى» هذه المزعومة والدأب على معاملتى بهذه الصفة من أجهزة الدولة خاصة المباحث العامة وأمن الرئاسة، أن كان الطبيب الخاص بإجراء التحاليل الطبية لجمال عبد الناصر، الدكتور ناصح أمين أستاذ التحاليل الطبية بكلية الطب جامعة القاهرة، وعرفت أن بينه وبين الرئيس وداً، وأن الرئيس عبد الناصر يكن له احتراماً وتعاطفاً، فطلبت منه أن يطلب من الرئيس أن يأمر برفع الاضطهاد والملاحقة عنى وكان أن طلب ذلك من الرئيس فى جلسة صفاء من خلال تقدم طبى فى التحليل، فرد عليه الرئيس قائلاً: «التقارير اللى عندى تخلينى أقول إن سعد زغلول فؤاد هو أخطر رجل فى مصر»..!!، هذا وللعلم بينما كنت عاطلاً ممنوعاً من العمل، التقى بى صدفة زميلى فى سجن الرباط والمحاكمة العسكرية س.ف، قال لى إن المخابرات منحته مكافأة ألفى جنيه فقط لأنه سجن رغم أنه سب عبد الناصر فى المحكمة، وسألنى عن المكافأة التى منحت لى وهو يعتقد أنها أكبر من مكافأته لأنى أشدت بعبد الناصر فى المحكمة، فأجبت: سجنونى ظلماً مثلما كنت فى الرباط، والآن ممنوع من العمل..!

الفصل الرابع عشر

القصة الكاملة لاختطاف المهدى بن بركة فى باريس



كان بن بركة زعيمًا تاريخيًا لشعب المغرب وكان قوة ثورية دافعة أعطت المجتمع المغربي اليقظة والوعى للجماهير لذلك خطفوه ثم اغتالوه اختطفوا المهدى بن بركة فى باريس ثم اغتالوه بوحشية ودفنوه فى قبر مجهول



14

الجنرال أوفقير قام بتعذيبه حتى الموت!

- تعاون على اختطافه وتعذيبه حتى الموت أخطبوط جهنمى للمخابرات المغربية والفرنسية والأمريكية والصهيونية!
- مصيره ظل غامضًا وكشف عنه فى أوائل عام ٢٠٠٠، وأعيدت التحقيقات الجنائية بعد توقفها ٣٥ عامًا!
- عبد الناصر ألغى مصادرة كتابى ضد الحكم فى المغرب!



سعد زغلول فؤاد يسأل الرئيس الفرنسى جاك شيراك عما انتهى إليه التحقيق
فى قضية بن بركة .. وهى القضية التى تؤرق ضمير فرنسا حتى الآن!



وانتهز الفرصة ليسأل رئيس وزراء المغرب اليوسفى أيضا عن قضية الشهيد بن بركة

بعد انقضاء ٣٥ عاماً من الصمت المطبق على قضية اختطاف الزعيم التاريخى لليسار المغربى المهدى بن بركة فى باريس، واختفائه بصورة مطبقة غامضة، وعدم التعرف على مصيره، رغم التعرف على المجرمين الذين اختطفوه، وإدانتهم بأحكام قضائية رادعة، بعضها كان حضوريا لمن تم القبض عليهم، وغيابياً لمن فر الى المغرب عقب ارتكاب جريمتهم، وكان على رأسهم المتهم الأول فى هذه الجريمة سيئ الصيت الجنرال محمد أوفقير وزير داخلية المغرب فى ذلك الوقت، والذى حكم عليه بالسجن مع الاشغال الشاقة المؤبدة، مع أربعة فرنسيين من عتاة المجرمين، الذين هيأ لهم الحماية فور هروبهم إلى المغرب، وظل قرار تسليمهم الى القضاء الفرنسى مجمداً بسبب الرفض المغربى الاستجابة لهذا القرار، وكان أن شمل الصمت القضية برمتها، وتعذر التعرف على مصير بن بركة بعد اختطافه، إلى أن رفع مؤخراً الحظر الذى تطورت فيه الأوضاع المغربية، بمولد مغرب جديد قوامه الديمقراطية والعدالة وسيادة القانون، على يد الملك الشاب الجديد محمد السادس، ورئيس حكومته المناضل الاشتراكى التاريخى عبدالرحمن اليوسفى، زميل كفاح الزعيم المختطف بن بركة، فأعيد فتح ملف القضية مع مطلع الألفية الثالثة، والتى عهد بها إلى القاضى الفرنسى « جان باتيست بارلوس »، الذى بادر بإرسال مطالبة قضائية الى وزارة العدل المغربية، للتعاون معه فى استكمال تحقيقات هذه القضية واختتام ملفها وكشف كل الحقائق، وذلك فى ٢٠ يناير ٢٠٠٠، وجاء الرد بالاستجابة، « وبذلك تتحمل باريس والرباط الوفاء المتبادل لمسئوليتهما تجاه العدالة » . .

وقد أسفرت باكورة هذا التعاون، فى الأيام القليلة الماضية عن كشف مصير بن بركة بصورة مؤكدة ، بانه عُذب بأيدى مختطفيه حتى قضى نحبه، ودُفن سراً فى غابة مدينة « إفرى كوركورون » جنوبى باريس، والتى تلاشت تحت زحف العمران، وأصبحت مبانى وشوارع، وفى المنطقة التى يرقد فيها جثمان بن بركة ، أقيم مسجد كبير هو أحد أكبر مساجد أوروبا، حيث تشغل مساحته ٧ آلاف متر مربع، مولت حكومة المغرب من خلال « مؤسسة الحسن الثانى » بعض نفقات بنائه وزخارفه، ومنذ افتتاحه تتولى الرباط نفقاته. هذا، ومنذ أن أعيد فتح ملف هذه القضية، و أنباؤها تشغل عناوين الصحف : « بارى ماتش » فى عددها الصادر فى ٣ فبراير ٢٠٠٠،

ذكرت فى ختامه، أن صاحب البرامج التليفزيونية الشهير « فريدريك ميتران » فى برنامجه الأخير عن اكتشاف مصير بن بركة، وفي لقائه مع المدير المغربى للمسجد، اقترح أن يطلق عليه اسم « مسجد بن بركة »!

خيوط المؤامرة

تبدأ القصة، حين تلقى « أنطوان لوبيز » الضابط فى المخابرات الفرنسية وعميل المخابرات المغربية، مكالمة تليفونية من الرباط فى مكتبه بشركة طيران « إير فرانس » فى مطار أورلى ، تدعوه إلى الاجتماع برئيسه وصديقه القديم الجنرال محمد أوفقير وزير داخلية المغرب ، طار على أثرها إلى الرباط ليستقبله أوفقير ويعرض على عميله الفرنسى خطة مفصلة لخطف بن بركة بعد استدراجه إلى باريس، واحتجازه فى مكان أمين حيث يخطره بتمام الاختطاف ليطير إلى باريس ويتسلمه.. وأنبأه أنه أخطر أصدقاءه من قادة مخابرات فرنسا بالعمل من جانبهم على تقديم أوجه المساعدة لرجاله لإنجاح الخطة بكافة خطواتها.. وأنبأه باختياره اثنين من خاصة رجاله لإدارة العملية في باريس هما: الكولونيل « نعيمى ميلود » رئيس قسم العمليات الخاصة بالبوليس السياسى المغربى، والكوميسير « الماحى الغالى » الملحق بمكتبه فى وزارة الداخلية والذى يمت إليه بصلة القرابة.. وأخطره أن يتلقى وزملاؤه أوامرهم من « نعيمى ميلود » المعروف باسمه الحركى « شتوقى » وأن يتقاضوا المال اللازم من الماحى الغالى.. وسافر شتوقى الى باريس، بينما تلقى الكوميسير الماحى فى باريس حيث كان يقيم تحت ستار الدراسة لمراقبة أنشطة الطلبة المغاربة، الأوامر بتمويل العملية.. وأبلغ « لوبيز » فور عودته إلى باريس، رئيسه « مارسيل لوروا » (فانفيل) تقريراً بتفصيلات اجتماعه مع أوفقير.. وفى منتصف شهر مايو ١٩٦٥ وصل إلى باريس الكولونيل الدليمى مدير الأمن العام بصحبة آخر يدعى الحسينى، حيث اجتمع مع انطوان لوبيز والماحى الغالى وشتوقى فى الغرفة رقم « ٥٥ » بفندق الإليزيه حيث تم عرض الخطة وتوزيع الأدوار.. اتفق المتآمرون على الكيفية التى يستدرجون بها بن بركة إلى باريس، وهى إيهامه بإنتاج فيلم سينمائى يمثل نهاية الاستعمار، واتفقوا على أن يتولى الصحفى الفرنسى « فيليب برينيه » الذى نجحوا فى شرائه، والذى كان على صلة مالية سابقة بإحدى الواجهات المخابراتية فى باريس، نظراً لصداقته المعروفة لـ « بن بركة » والنابعة من كتاباته دفاعاً عن أنشطة المعارضة

المغربية ومن قبل عن الثورة الجزائرية، من هنا كان محلاً لثقة بن بركة، واتفق على أن يصطحبه فى ذلك « جورج فيجون » المجرم السابق والكاتب الروائى للمسرحيات البوليسية الرخيصة.. وفى القاهرة اجتمع فيليب برينيه وفيجون بالمهدى بن بركة فى قاعة صالون فندق هيلتون، بينما كان « شتوقى » يرقبهم عن كثب، حيث عرضا مشروع الفيلم عن نهاية الاستعمار وأطلق فيجون عليه اسم « باستا » أى كفى.. تلك الكلمة الشهيرة لكاسترو التى خاطب بها الأمريكان عندما أمم شركاتهم وطرد عملاءهم.. وراقت قصة الفيلم للمهدى بن بركة، والذى أوصى بأن يتم إخراجه قبيل انعقاد مؤتمر شعوب القارات الثلاث فى هافانا يوم ٤ يناير من ذلك العام، وأبدى استعداده أن يكون إنتاجه من ميزانية المؤتمر الذى كان يرأس لجنته التحضيرية، و غادرا القاهرة بصحبة شتوقى إلى باريس بعد أن اتفقا مع بن بركة على لقائه فى جنيف لمناقشة التفاصيل، وقد جرى اجتماع ثان وآخر ثالث مع بن بركة فى جنيف حول مزيد من الدراسة، وخلف كل هذه اللقاءات كان رجل أوفقير « شتوقى » يرقب كل شىء من مكمنه، وكان عليهما أن يستدرجاه إلى باريس للاتفاق النهائى حيث كان بن بركة يتعجل إنتاجه.. وفى يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٦٥ اتصل بن بركة من جنيف بالصحفى برينيه وضرب معه موعداً فى باريس ظهر اليوم التالى، على أن يكون بصحبته المخرج السينمائى « جورج فرانجو » وفيجون لمناقشة البدء فى إنتاجه.. إن كل شىء أصبح جاهزاً.. وأحكمت حلقات الفخ.. ولم يتبق غير حضور الصيد....!

الاختطاف

وصل المهدى بن بركة إلى باريس فى التاسعة من صباح الجمعة ٢٩ أكتوبر ١٩٦٥ قادماً من جنيف وفى نيته قضاء يومين فقط فى باريس .. هذا وقد اتصل تليفونياً بشقيقه عبدالقادر المقيم فى باريس، اتفق معه على موعد للقائه مساء ذلك اليوم لدى صديق لهما، والذى حجز تذاكر لمسرح مونبارناس وفق رغبة بن بركة، ثم اتصل تليفونيا بالطالب المغربى « التهامى الأزمورى » الذى كان يدرس التاريخ فى جامعة السوربون وضرب معه موعداً فى الحادية عشرة صباح ذلك اليوم فى الشانزليزيه ومنه استقلا تاكسى إلى حيث كان موعد بن بركة مع كل من برينيه - فيجون - جورج فرانجو فى مقهى « ليب » بشارع سان جيرمان فى الحى اللاتينى فى

منتصف الساعة الثانية عشرة من ظهر نفس اليوم.. فى الطريق قال بن بركة لصديقه: «سبق أن حدثتك عن فيلم سينمائى يريد بعض معارفى إنتاجه عن قضية الاستعمار، سيكون دورك كمستشار فى الأحداث التاريخية، وسنلتقى بهؤلاء الأشخاص الآن فى مقهى «ليب» .. وفى هذا المقهى كان الصحفى فيليب برينيه والمخرج جورج فرانجو فى انتظار المهدى بن بركة، بينما وقف على الرصيف أمام باب المقهى ضابطا الشرطة الفرنسية «سوشوت» و«فوانو»، وعلى مقربة منهما وقف «أنطوان لوبيز» بعد أن وضع شارباً مستعاراً ومنظاراً أسود، وعلى بعد خطوات كان يقف ميلود العربى (شتوقى)، «باليس»، «جوليان» «ليناى» و«فيجون» .. الجميع فى انتظار قدوم بن بركة.. الذى وصل فى الثانية عشرة والربع، بصحبة الأزمورى، وراح يتفحص الكتب المعروضة فى واجهة مكتبة لابوشار المجاورة لمقهى «ليب» فأشار لوبيز إلى رجلى البوليس قائلاً: ها هو يغادر التاكسى، ثم أكده لهما مشيراً إليه وهو يتفحص واجهة المكتبة.. عندئذ، وبينما بن بركة وزميله يتقدمان لدخول المقهى، اعترض سوشون وزميله طريقهما وقال سوشون لـ«بن بركة»: «نحن من البوليس الفرنسى، ولدينا أمر باصطحابك الى مقابلة مهمة»، وطلب بن بركة إطلاعه على بطاقتيهما اللتين تثبتان أنهما ضابطا شرطة فى باريس، فأطلعاه على البطاقتين وعندئذ وافق على صحبتهما دون اعتراض، واستقل معهما سيارة البوليس الفرنسى وكانت من طراز بيجو «٣٠٤» ومزودة بتليفون لاسلكى.. وركب معه فى السيارة بخلاف ضابطى الشرطة: لوبيز – جوليان، كان «فوانو» يقود السيارة وبجواره لوبيز، بينما جلس بن بركة فى المقعد الخلفى بين سوشون وجوليان... وتبعتهم سيارة أخرى بها: فيجون – باليس – ليناى .. أما أزمورى فقد ظل وحيداً على الرصيف ثم استقل الأتوبيس إلى بيته.. على حين مضت سيارة الشرطة بصيدها ومرافقيه إلى فيلا بوشيس بضاحية فوعناى لى فيكونت جنوبى باريس، حيث دخل بن بركة إلى الفيلا صحبة لوبيز وجوليان، وفيها كان فى انتظاره المجرمون «بوشيس» – «فيجون» – «باليس» – «ليناى» – بينما عاد ضابطا الشرطة إلى باريس، على حين أسرع لوبيز بالاتصال بأوفقير والدليمى فى الرباط، اللذين بادرا بالحضور إلى باريس، حيث استقبلهما لوبيز فى مطار أورلى، وتوجها رأساً إلى فيلا بوشيس حيث بن بركة، الذى كان حين شعر بما يريبه انهال عليه بوشيس وزميلاه بلكمات ثقيلة فى وجهه وحطموا فازة على رأسه

حتى كسا الدم معالم وجهه، ثم قاموا بشد وثاقه وتقييده...

الجريمة

وحين وصل أوفقير أمسك بخنجر مغربى وصعد وزميله الدليمى إلى الطابق الثانى حيث كان بن بركة، الذى ما إن رآه حتى أصيب بفزع شديد وانهارت قواه وكف عن محاولاته التذمر من قيوده الشديدة حول ذراعيه وساقيه وقدميه، وراح أوفقير أمام المجرمين الأربعة الفرنسيين والدليمى، يمزق بنصل خنجره فى بطء عنق وصدر أسيره المقيد، والدم يتدفق بغزارة، وأنهى جزارته الوحشية هذه بذبح ضحيته، وأمر رجاله بالإسراع بدفنه فى أرض مجهولة، وتم نقله إلى فيلا «لوبيز» فى ضاحية «أورموى»، ويقول فيجون فى اعترافاته، إنه حين نقله فاقدا الوعى داخل كيس كبير كاكى اللون، كانت به أنفاس متقطعة خافتة، كتمها وأجهز عليه من قام بربطه إلى ماكينة توليد التدفئة والمياه الساخنة فى البدروم، وفى نحو الثالثة صباحاً وضع الجثمان فى حقيبة سيارة دبلوماسية مغربية، حيث دفن فى أرض غابة مدينة إفرى، التى من بعد سنوات بُنى فوقها مسجد إفرى، كما شيدت بجواره وحوله بيوت سكنية وشقت عدة شوارع، ولم يعد للغابة أى وجود. هذا، وكان لشهادة أزمورى أمام النائب العام، حول اعتراض ضابطى الشرطة بن بركة وهو يهم بدخول المقهى، وصحبته معهما فى عربة شرطة، الفضل فى اكتشاف الجريمة، وكان لشيوع أمرها فى الرأى العام الفرنسى والعالمى وقع زلزال سياسى عاصف، هز الضمير الفرنسى والإنسانى فى كافة العواصم، وأثار فى فرنسا موجة شعبية عاصفة من الاستنكار والغضب والاحتجاج، كما أثارت انفعال الرئيس الفرنسى فى ذلك الوقت شارل ديجول، الذى بادر بالقبض على بعض رجاله فى أجهزة الأمن الذين شاركوا فى الجريمة وحوكموا جنائياً كما عزل آخرين من وظائفهم الأمنية.. ذلك أن الجريمة وقعت فى قلب باريس وفى رابعة النهار، ضد زعيم سياسى عربى، له ثقله ومكانته فى كافة الأوساط السياسية الإقليمية والعالمية، يتمتع باللجوء السياسى وحماية القوانين، وسبق له أن تردد على أكثر العواصم الأوروبية فى مهام سياسية، كان أبسطها يثير حنق خصومه من حكام الرباط ذلك الوقت، وتمكن المتربصون بتتبع خطواته من ارتكاب جريمتهم بعد ساعات من وصوله إلى باريس، التى توجه إليها ثقة منه فى ضمير الدولة وسيادة القانون، لكن ما وقع له فيها كان أغرب من الخيال، إذ كانت أجهزة الأمن المسئولة عن سلامته

وحمايته، تشارك المجرمين فى أكثر وأخطر خطوات الجريمة، وتحت مظلتها عمل أبالسة الشر من قيادات أجهزة الأمن المغربية، على الإمساك بالزعيم المغربى المعارض لسياسة حكومته، وتعذيبه حتى الموت برئاسة سيئ الصيت وزير داخلية المغرب الجنرال أوفقير، بما حمل الرئيس ديجول أن يقول فى المؤتمر الصحفى الذى عقده فى باريس ظهر يوم ٢١ فبراير ١٩٦٦، أى بعد نحو أربعة شهور من ارتكاب الجريمة والتحقيق فيها: **«إن الجنرال أوفقير وزير داخلية المغرب، الذى واجه المتاعب الخطيرة فى بلاده، هو الذى نظم حادث اختطاف زعيم المعارضة المغربية فى أرض فرنسا، وتم ذلك بالتواطؤ مع بعض الهيئات الرسمية الفرنسية، وعدد من المجرمين الأوغاد الذين جندهم لهذا الغرض.. إن كل الأدلة تثبت أن هذا الوزير، هو الذى نفذ على أرض فرنسا، اختطاف واحد من كبار زعماء المعارضة فى المغرب».**

وبالرغم من احتجاجات الحكومة الفرنسية، فإن حكومة المغرب لم تفعل شيئاً يساعد القضاء الفرنسى للتوصل إلى الحقيقة، ولم تتخذ أى إجراء لتصحيح الموقف، وبذلك توترت العلاقات الفرنسية المغربية وكانت فرنسا قد طالبت الرباط بتسليمها المتهمين للقضاء الفرنسى لاستجوابهم حول جريمتهم النكراء، لكن الرباط ظلت دائماً ترفض طلب القضاء الفرنسى.. الذين شملهم طلب المثول أمام القضاء الفرنسى هم: الجنرال أوفقير - كولونيل الدليمى - الضابط ميلود العربى «شتوقى»... والمجرمين الفرنسيين الأربعة الذين نفذوا عملية الاختطاف والتعذيب هم: بوشيس - جوليان - باليس - ديباى، وقد انتقاهم رجال أوفقير من بين أعتى المجرمين المعروفين، فصاحب الفيلا التى سيق إليها بن بركة وعذب فيها «جورج يوشيس» أو الفم الجاف رئيس عصابة «جو عطة» لإعداد الليالى الحمراء لمن يدفع الثمن، وهو النجم القديم لعصابة «بيرو المجنون» التى كانت قد روعت عمليات سطوها المسلح سكان باريس، وقد حكم عليه بالسجن ٦ سنوات فى سرقة بإكراه قام بها.. وعندما هرب إلى المغرب عقب جريمة الاختطاف، يمتلك فى الرباط فندقاً وكباريه «بيل أوبرى».. جوليان لونى - جان باليس - مارسى دى باى، مجرمون أصحاب سجلات إجرامية لدى شرطة باريس.. «جورج فيجون» مجرم عريق فى الإجرام، وكان قد قضى فى السجن ٦ سنوات لجريمة سرقة بالإكراه.. هذا، وما يشد

الانتباه، أن جميع من شارك فى اختطاف وتعذيب بن بركة قد قتلوا جميعاً.. «أوفقير» لقى مصرعه إثر محاولاته الإنقلابية الفاشلة، «الدليمى» قتل فى حادث سيارة، أما الفرنسيون المجرمون الأربعة اللاجئون فى المغرب، فقد خشى أوفقير أن تتسرب من أفواههم أسرار الجريمة، فسجنهم ثم أمر بقتلهم جميعاً ضماناً لسرية جريمة الاختطاف... «فيجون» الذى أصر أن يظل فى باريس، وهدد بفضح الجريمة لعدم تقاضيه أجره، عثر عليه فى مسكنه مقتولاً برصاصة فى عنقه.. الكولونيل «فانفيل» انتحر فى سجنه بعد اكتشاف دوره فى الجريمة.

ولم يتبق على قيد الحياة ممن شاركوا فى الجريمة غير «أنطوان لوبيز» الذى قضى فى السجن ٨ سنوات لإدانته فى هذه الجريمة، والذى فى الأيام القليلة الماضية كشف عن موقع جثمان بن بركة ، بعد أن اختفت طغمة أوفقير، وبدأ مغرب جديد يطمح إلى الديمقراطية والعدالة.

من هو بن بركة؟

كان المهدى بن بركة أحد ألمع نشطاء أعضاء حزب الاستقلال برئاسة الزعيم التاريخى الكبير علال الفاسى، وكان على رأس الجناح اليسارى لحزب الاستقلال، وانشق وأقرانه ليشكلوا حزبًا يساريًا جديداً باسم «الاتحاد الوطنى للقوات الشعبية»، والذى استوعب العناصر الثورية من المثقفين والشباب، وأدار بن بركة التحركات السياسية الشعبية ضد مظاهر استبداد «الحكم» أى الملك الحسن الثانى، دفاعًا عن سيادة الشعب وحقوقه الديمقراطية، وأصبح العداء سافراً والمواجهة مع الملك وسط الجماهير، فى الاستفتاء على الدستور الجديد، الذى أصدره الملك وطرحه على الاستفتاء الشعبى، ونشط بن بركة فى دعوة الجماهير إلى رفض هذا الدستور تحت شعار «لا للدستور الممنوح، نعم لدستور يصدره الشعب من خلال جمعية تأسيسية منتخبة».. وعقب فوز دستور الملك فى الاستفتاء، بفضل دعوة الزعيم علال الفاسى التصويت لصالحه نشط بن بركة فى عمليات تعبئة وتوعية الجماهير بحقوقها الديمقراطية، ومجابهة كافة ما كانت السلطة تمارسه من إجراءات تمس بهذه الحقوق، إلى أن بادر أوفقير بالبطش بحزب بن بركة المعارض، فألقى القبض على عناصره القيادية، وساقهم إلى محكمة خاصة، متهمين بالتآمر على قلب نظام الحكم، وكان

على رأسهم الزعيم المهدى بن بركة الذى كان قد نجح فى الفرار إلى القاهرة ولحقت به زوجته وأطفاله وقد أصدرت محكمة الرباط الخاصة، حكمًا غيابيًا عليه بالإعدام...

هذا وفى القاهرة باشر توجيه وتنظيم أوجه المعارضة الوطنية والديمقراطية فى المغرب، واستوعبت «أنشطته النضالية» بعثات الدارسين المغاربة فى جامعات مصر وفرنسا، وشغل موقعًا قياديًا فى مؤتمر التضامن الآسيوى الأفريقى، الذى كان مركزه الرئيسى فى القاهرة، والذى شملت مهامه شعوب أمريكا اللاتينية..

ومن خلال موقعه هذا، نجح فى تعبئة وإثارة شعوب تلك البلدان ضد التحركات التآمرية للإمبريالية الأمريكية، وكان رئيس اللجنة التحضيرية لمؤتمر شعوب القارات الثلاث: أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، الذى عقد فى هافانا فى يناير ١٩٦٦، فى غيبة بن بركة، الذى كان قد اختطف واختفى فى أواخر أكتوبر عام ١٩٦٥، حين كان فى أوج نشاطه لإعداد انعقاد هذا المؤتمر، وهو ما نعرض تفصيلاته المذهلة الرهيبة فى الصفحات التالية، وقبل ذلك نقدم للقراء نبذة موجزة عن المهدى بن بركة، الذى أصبح فى ذاكرة التاريخ زعيم كفاح حريات الشعوب...

* وصف الكاتب الفرنسى الشهير «جان لاكوتير» فى كتابه «المغرب تحت التجربة» شخصيته فى الكلمات الآتية: «إن قوة المهدى بن بركة مزيج من مقدرة هائلة على العمل والملاحظة، ونظام أكاديمى جامعى وثقافة اقتصادية عميقة وسياسية شاملة، وإرادة قوية لا تلين أمام ما يعتقد أنه مفيد للمغرب، وجاذبيته ترجع إلى حيوية جارفة، وذكاء مفرط وتحرر فكرى خلاق.. وعندما كان الماريشال جوان يحكم المغرب قال عنه: إنه أعدى أعدائنا.. وكان أستاذًا للرياضيات للملك الحسن الثانى حين كان وليًا للعهد».

* كان المهدى بن بركة بين ألمع الزعماء التاريخيين للشعب المغربى، وكان صاحب شعبية كاسحة فى المغرب، وهو القوة الثورية الدافعة التى غذت المجتمع المغربى بالوعى واليقظة، والقوة الإيجابية التى كانت وراء التعبئة الثورية للجماهير والطاقة التنظيمية الهائلة فى مؤتمرات قوى التحرر العالمية، والذى احتل مكانًا قياديًا مرموقًا

فى مؤتمرات تضامن الشعوب الآسيوية الأفريقية، وهو الذى اختُطف وهو ينشط فى الإعداد لنجاح انعقاد مؤتمر شعوب القارات الثلاث، الذى كان رئيسًا للجنته التحضيرية، والذى انعقد فى هاڤانا فى يناير ١٩٦٦ .

* التقيت به عدة مرات فى القاهرة، كان آخرها عام ١٩٦٥ قبيل اختطافه، أثناء انعقاد الندوة العالمية لفلسطين، حيث راح يتدفق دفاعًا عن حقوق شعب فلسطين، وأن فلسطين قضية عربية، وبالدرجة الأولى تتطلب كفاحًا تحرريًا عربيًا... وأعرب عن إيمانه بحتمية قيام الوحدة العربية ومولد الدولة العربية الكبرى، أيًا كان طول الزمن الذى تتحقق فيه..

* وعندما أذيع وعرف نبأ اختطافه، توليت كافة مهام متابعة قضيته فى مجلة المصور وإثارة الضمير الإنسانى فى كافة المحافل والأوساط العربية، بالتنسيق والتعاون مع العناصر السياسية والصحفية الأوروبية، وكان ذلك وراء الأمل فى التمكن من استرجاعه، والتشدد فى معاقبة المجرمين الذين اختطفوه من قلب باريس وفى رابعة النهار، والذى كان على رأسهم وزير داخلية المغرب سيئ الصيت الجنرال أوفقير... هذا وحدث أن بعث الملك الحسن الثانى بوزير خارجيته « بن همة » إلى القاهرة، لينفى منها إلى العالم اتهام حكومة المغرب بجريمة الاختطاف.

وعقد لذلك مؤتمرًا صحفيًا كبيرًا فى فندق شبرد، كان بين الحضور الصحفيون والمراسلون الأجانب، إضافة إلى الصحفيين المصريين والعرب، وما إن شرع فى محاولة نفى الاتهام عن حكومة المغرب، حتى قاطعته ساردًا أدلة إدانة حكومة المغرب ممثلة فى وزير داخليتها أوفقير ومدير الأمن الدليمى، وأشرت إلى « مذابح » تعذيب الأحرار المغاربة حتى الموت فى سجون أوفقير فى الرباط، مدللاً على ذلك بتجربتى المرعبة الأليمة فى تلك السجون..

أود هنا أن أشيد بالموقف العادل والحازم، لرئيس فرنسا ذلك الوقت الجنرال شارل ديجول، الذى أعلن بانفعال وغضب فور وقوع الاختطاف أسماء المجرمين وعلى رأسهم وزير داخلية المغرب الجنرال أوفقير، بالتعاون مع بعض كبار ضباط المخابرات الفرنسية، ومجرمين فرنسيين أربعة من أقطاب حى الدعارة « بيجال » فى باريس،

وقدمهم جميعًا للمحاكمة حيث حكم بإدانة وسجن المجرمين، وعلى رأسهم وزير داخلية المغرب الذى حكم عليه غيابيًا بالسجن المؤبد، حيث كان فور إنجازه جريمة الاختطاف قد عاد إلى المغرب...، وطوى ملف القضية، وظل مصير المهدى بن بركة غامضًا، تحوطه إشاعة أنه نُقل إلى المغرب حيث دفن فى إحدى حدائق قصور الملك الحسن الثانى...

وظل الغموض يحيط بمصير بن بركة، إلى أن مات الحسن الثانى ومن قبل مات أوفقير قتيلاً، وبدأ فجر عهد جديد فى المغرب بالملك الشاب محمد السادس، وحكومة مغربية يرأسها رفيق نضال بن بركة عبد الرحمن اليوسفى، وكان ضابط المخابرات الفرنسية «أنطوان لوبيز» قد غادر سجن باريس، بعد قضاء سنوات سجنه التى حكم بها عليه لاشتراكه فى خطف بن بركة، فأفضى فى الصحف الفرنسية بكل ما كان غامضًا وأفصح عن مصير بن بركة عقب اختطافه، فأعيد التحقيق من جديد، وشاركت فيه هذه المرة وزارة العدل المغربية مع نظيرتها الفرنسية..

***

أريد أن أقول إننى عشت فى الرباط كفاح الشعب المغربى من أجل كفالة حرياته العامة وحقوقه الديمقراطية، وشاركت فى الأنشطة النضالية لقوى المعارضة المغربية، فى صحفها ومظاهراتها واجتماعاتها العامة..

وكان الزعيم علال الفاسى، الذى قاد بنجاح كفاح الشعب المغربى للتحرر الوطنى، والذى كان فى منفاه الاختيارى بالقاهرة، يرأس لجنة تحرير المغرب العربى بأقطاره الثلاثة: المغرب والجزائر وتونس، وكنت خلال ذلك على صلة به وبعض زملائه، ومن هنا فى الرباط كانت تربطنى به علاقة وطيدة، ظل كلما زرته فى بيته بالرباط، ينصحنى أن أكون فى إقامتى بالمغرب بعيداً عن السياسة المغربية، وأن أعيش فى المغرب ضيفًا لا شأن له بما يجرى فيه.. لكننى لم أستجب لنصائحه، فكان ما جرى لى حين اختطفنى رجال سيئ الصيت سفاح العصر الجنرال محمد أوفقير، وما جرى لى من تعذيب وحشى فى سجونه على نحو ما عرضت فى صفحات هذا الكتاب..

استفتاء الدستور الجديد

كان الملك الحسن الثانى قد أصدر دستوراً للمغرب، بعد نحو عشر سنوات من إعلان الاستقلال، وطرحه للاستفتاء الشعبى، وانقسم الزعيمان الكبيران تجاه هذا الدستور، فقاد الزعيم علال الفاسى رئيس حزب الاستقلال الدعوة لتأييد الدستور بشعار «نعم للدستور»، بينما قاد الزعيم المهدى بن بركة رئيس حزب الاتحاد الوطنى للقوات الشعبية الحملة الدعائية بين الجماهير بشعار «لا للدستور الممنوح»، حيث كان يطالب بدستور تضعه جمعية تأسيسية منتخبة، وكان كل منهما يجوب المدن والأقاليم يحث الجماهير على الاستجابة لما يدعو له..، وانتهى الاستفتاء بفوز دستور الملك..، وعقب ذلك توجهت إلى بيت علال الفاسى أسأله متعجباً كيف وهو الذى قاد المقاومة الشعبية الوطنية ضد الاحتلال الفرنسى، وانتصر وتوج الكفاح الوطنى بإعلان استقلال المغرب، والمعروف تاريخياً عن الثورات الشعبية أنها تسقط العروش، وتقيم النظم الجمهورية التى فيها رئاسة الدولة تكون بالانتخابات العامة، وأنت زعيم الشعب اليوم وأمس وغدا...؟!، اعتدل الرجل فى جلسته وقال: المغرب له خصوصياته، شعبه يتكون من قبائل وعرقيات مختلفة، لدينا العرب والبربر، والعرب قبائل متعددة وكذلك البربر، الملك والنظام الملكى المتوارث منذ القدم، هو الذى يحفظ وحدة المغرب، وإذا ما أصبح المغرب بدون ملك، يتفتت المغرب إلى دويلات عديدة، من هنا لصالح وحدة المغرب يتوجب مساندة الملك مع المطالبة العقلانية وبالطرق الشرعية بإجراء الإصلاحات السياسية والقانونية اللازمة... وغادرت منزل رائد التحركات السياسية العقلانية للشعب المغربى، إلى حيث مقر المهدى بن بركة فى الحزب الذى أسسه باسم الاتحاد الوطنى للقوات الشعبية، والذى جمع فى صفوفه العناصر الوطنية والديمقراطية لليسار المغربى، والذى كان من أقطابه عبد الرحمن اليوسفى رئيس الوزراء اليوم فى المغرب، والزعيم التاريخى لكفاح الاستقلال الفقيه «محمد البصرى»، الذى كان قائد جيش التحرير المغربى فى معارك الاستقلال الوطنى.

هذا، أود هنا أن أشير إلى أننى كنت أتردد على مقهى فندق «باليما» وسط الرباط، والذى كان ملتقى المثقفين والصحفيين المغاربة، والذين عندما كنت أتخذ مكانى فى المقهى، كان البعض من روادها، يغادرون أماكنهم ليتخذوا مقاعدهم على

مقربة مني، وأخبرني بعض أصدقائي من الصحفيين المغاربة، أنني محل رقابة مطبقة من البوليس السياسي المغربي، فضربت موعداً مع الجنرال أوفقير في مكتبه بإدارة الأمن العام في الرباط، وما إن أصبحت في حجرة سكرتيره، حتى فوجئت بمن يلتقط لي عدة صور فوتوغرافية دون استئذاني..، ثم أصبحت مع أوفقير في مكتبه وجهاً لوجه، وأخطرته أني أغادر المغرب في أول طائرة، إذا ما كنت من الناحية الأمنية أو غيرها، غير مرغوب في إقامتي به، لكنه نجح في خداعي فغادرت مكتبه مطمئناً...، إلا أنه بعد أيام قليلة بادر باعتقالي أو اختطافي حيث أودعني سجونه الخاصة، والتي جرى بها تعذيبي بأسلوب وحشي!.

حاشية:

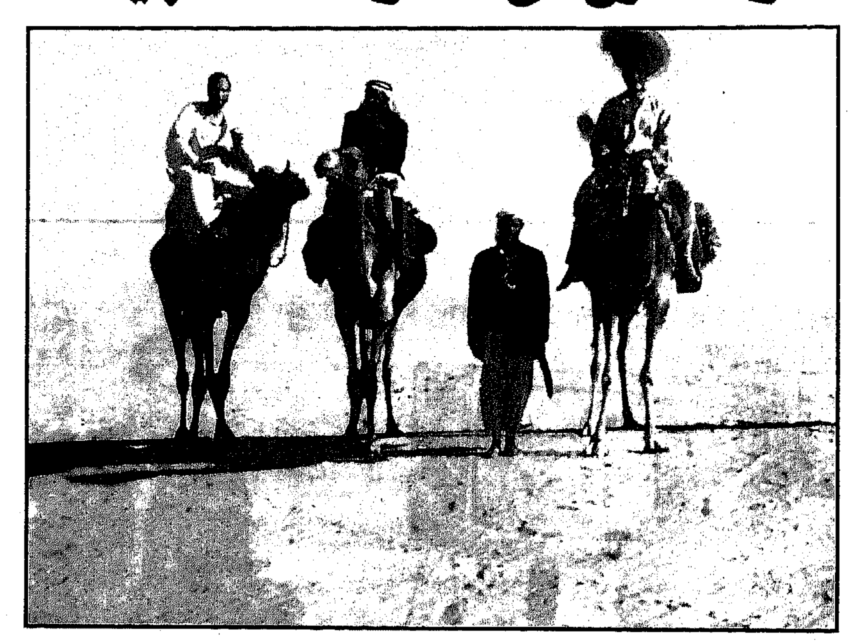
نسيت أن أشير، إلى أنه بعد مشاركتي باسم الجزائر في مؤتمر الجامعة العربية في الرباط الخاص بتعريب المواد الدراسية المغربية، فوجئت بسفير الجزائر يزورني، ويطلب مني باعتذار رقيق استرداد جواز سفري الجزائري، حيث كما ذكر لي إن السفارة المصرية في الجزائر، احتجت لدى وزارة الخارجية الجزائرية على منحي جواز سفر جزائرياً، وطالبت بسحبه واسترداده، فأعدته إلى السفير الجزائري في الرباط، وبادر الكاتب الصحفي الثوري الوطني أحمد أبو الفتح بإرسال جواز سفر أردني إليّ في الرباط، بعث به إليّ من منفاه الاختياري في جنيف.



المهدي بن بركة.. المناضل المغربي .. تآمروا عليه وخطفوه ثم قتلوه في باريس

الفصل الخامس عشر

هزيمة يونيو
والتطوع في المقاومة الشعبية



15

- قرار بحلها والتنكر لقائدها!
- اعترافات مثيرة ومشينة لضابط مخابرات منهار في سيناء!



حوار مع وزير الخارجية بطرس غالى .. هل هناك حل سلمى ؟؟

وقعت هزيمة يونيو ١٩٦٧، فتطوعت فى المقاومة الشعبية، التى كان يقودها الضابط الوطنى عبد الفتاح أبو الفضل، والذى اتخذ مقر قيادته فى مدينة الصمود والكفاح بورسعيد، فبعث بى مع طبيب إلى سيناء وكان ذلك عقب نحو عشرة أيام من وقوع الهزيمة، وارتدى كل منا جلبابًا أبيض وغطاء للرأس (طاقية) بيضاء.. زى الصيادين الذين يتكاثرون فى بورسعيد وحول بحيرة البردويل التى تقع شواطئها الشرقية فى سيناء التى كانت قد احتلتها القوات الإسرائيلية، والتى كانت مزدحمة بالانسحاب غير المنظم للجيش المصرى، حيث كانت مجموعات الجنود الذين تخلوا عن أسلحتهم واتجهوا سيراً على الأقدام غربًا إلى شاطئ البردويل، ومنها عبر قارب بخارى إلى أراضى بورسعيد.. تسلمت وزميلى الطبيب صندوقًا كبيراً من الكرتون مليئًا بالأدوية، وتسلمنا بدوى من أهالى سيناء، كان محملاً بمواد تموينية، وفى انتظاره على الشاطئ الشرقى للبحيرة جمل من ممتلكاته، أصبحت وزميلى الطبيب « عهدة » لتوصيلنا إلى « جبل الحلال » فى سيناء، حيث كانت مجموعة من الجنود والضباط الجرحى.. وانتظمنا فى مسيرة صحراوية طويلة مرهقة فى اتجاه الشرق، بينما مجموعات المنسحبين كانت تتجه إلى الغرب نحو بورسعيد والسويس عبر بحيرة البردويل، بواسطة « لنش » كبير، كان يقوده جندى صاعقة مصرى فى زى صياد أسماك البحيرة والمياه الإقليمية المصرية، والذى كان قد تعرف على حقيقتى وزميلى الطبيب دكتور فاروق الخولى، حين وصلنا معه إلى سيناء.. وطوال الطريق وتحت شدة حرارة شمس يونيو الصحراوية، لم يكن من طعام غير الخبز الجاف وقطع صغيرة من الحلاوة الطحينية وبعض الماء من « القربة » التى كانت من أحمال جمل دليلنا البدوى.. وكان الطبيب حين نستوقف بعض الجنود المنسحبين، يرى فى جروح إصابات بعضهم ديدان سوداء غليظة وهو ينظفها ويطهرها، كنت أسأله عن هذه الديدان فيقول إنها فقس بيض الذباب خلال المسيرة الطويلة وتحت حرارة شمس يونيو.. والجميع: المنسحبون، الدليل البدوى وأنا والطبيب، كنا حفاة الأقدام فقد تخلصنا من أحذيتنا التى كانت تغوص فى رمال سيناء الناعمة وتمتلئ بها.. وكان الإسرائيليون لا يتوقفون عن التحليق بطائراتهم المروحية على ارتفاع منخفض، فى

الوقت الذى كانت دورياتهم العسكرية تنشط فى المسيرات التفتيشية الإرهابية، عبر الطرق المرصوفة ما بين قرى ومراكز البدو، وبين الحين والآخر، كانت مروحيتان حربيتان تتوقف إحداهما فى الجو على مقربة من الأرض، بينما تهبط الأخرى ويأمر جنودها مجموعة من الجنود المصريين المنسحبين بالاصطفاف، تأمرهم بخلع ملابسهم العسكرية، وكل من كان مرتدياً فى ملابسه الداخلية « كيلوت » كان يعدم رمياً بالرصاص فى مكانه، إذ كان ذلك يدل على حقيقته العسكرية أنه ضابط، بينما يترك من كان لباسه الداخلى من قماش فلاحى طويل، يترك لحاله فهو من الجنود، حيث كانوا مع المنسحبين يقتلون فقط الضباط، هذا وعند مخيم بدوى صغير على مقربة من أحد آبار المياه، والذى من حوله بعيداً كانت خيام البدو.. غادرنا مرافقنا البدوى الدليل بجمله إلى عشيرته، ودخلنا تلك الخيمة لأفاجأ بالدكتور محمود فهمى زميلى فى مدرسة بنى سويف الثانوية، والذى كان أميناً للاتحاد الاشتراكى فى حى بولاق بالقاهرة، أتى إلى سيناء بحثاً عن شقيقه النقيب مصطفى. وبصحبته لمساعدته ورعايته ضابط بالمخابرات العامة قال لى وهو يقدم نفسه فى انهيار عصبى شديد:

أنا المقدم « سلامة »، تلميذ فى السياسة لإبراهيم يونس، أنا الذى فى روما اختطفت من الشارع الضابط الهارب والخارج على الثورة « ... زغلول » وشحنته جواً فى صندوق إلى القاهرة، والذى فتحه عبد الناصر بنفسه..، ونلت بذلك ترقية ومكافأة.. أنا الذى اختارونى دون غيرى لأكون مرافقاً ومسئولاً عن سلامة الدكتور محمود فهمى... إلخ ما كان يتفوه به من ترهات الانهيار العصبى الشديد.. وغادرت وزميلى الدكتور فاروق هذه الخيمة إلى حيث وصلنا إلى جبل الحلال، حيث قام الدكتور فاروق بإجراء العلاج اللازم لمن كان قد تبقى حياً من الضباط المصابين.. وبدأنا العودة إلى شاطئ بحيرة البردويل للانتقال منها إلى بورسعيد.. وكان الشاطئ مزدحماً بالمنسحبين فى انتظار وصول القارب البخارى الكبير لنقلهم إلى شاطئ بورسعيد، والذى على غير المعتاد كان قد تأخر فى الوصول إلى شاطئ سيناء.. وحدث أثناء الانتظار أن تقدم إلينا أحد الضباط المنسحبين مرتدياً جلباباً وقد سألنا عمن نكون؟، ولما عرف أن زميلى طبيب، أشار إلى رجل سمين كان

يرتدى جلبابًا أزرق جالسًا على رمال شاطئ البحيرة وفي يده فرع شجرة، منحنى هذا الضابط صندوق سجائر بلمونت، وهو يوصى الطبيب بفحص «سيادة اللواء» الجالس على الشاطئ فى انتظار قارب النجاة للعبور إلى شاطئ بورسعيد، وما إن وصل إلى اللواء حتى ارتفعت أصوات مشاجرة بين الطبيب واللواء فأسرعنا إليهما حيث كان اللواء يضربه بفرع الشجرة الذى بيده وهو يسبه ويلعنه، وحين فضضنا الاشتباك تبين أن السبب كان، حين وصل الطبيب إلى حيث كان اللواء، ربت على كتفه وهو يقدم نفسه كطبيب إلى اللواء ويسأله عما يشكو، فرد عليه اللواء «أشوف بطاقتك اللى تقول إنك طبيب»، فلما رد عليه «وأنت معك بطاقة تقول إنك لواء» فانفعل وانهال عليه سبًا وضربًا.. وأسرعت بجذب زميلى الطبيب بعيداً عن هذا اللواء المنهار والمصاب بلوثة صدمة الهزيمة.. ولم يلبث أن وصل القارب البخارى، وبدأ المنسحبون يتزاحمون وهم يخوضون المياه إلى القارب وكان قائده هو جندى الصاعقة الذى عرفنا فقد كنا حضرنا إلى الشاطئ معه فنادى علينا فأسرعنا إلى حيث أصبحنا معه فى القارب، وإذ باللواء محمولاً بين اثنين من ضباطه يصيح «محدش يركب غير الضباط» فصاح الدكتور فاروق «الكل يركب جنوداً وضباطًا وبدواً»، وأعاد ذلك النداء قائد القارب الذى استوعب الجميع ووصل بهم إلى شاطئ بورسعيد، حيث كانت قيادة الجيش قد أقامت مركز استقبال للعائدين مزوداً بطبيب وممرضين ومطعم لوجبات خفيفة وأسرّة عديدة للنوم إلى حين الانتقال إلى مدينة بورسعيد بقارب بخارى آخر كبير.. وحين أصبحنا فى بورسعيد، دخلت وزميلى الطبيب المستشفى لتورم مصحوب بآلام وتمزقات فى الأقدام.. وفى دار الهلال أعطيت قسم التصوير لمجلة المصور، الأفلام التى التقطت بها صور آثار مأساة الهزيمة فى سيناء، والتى جرى حفظها فى الأرشيف، تجنبًا لإثارة مشاعر المواطنين، والغريب أنه بعد انتصار الجيش المصرى فى سيناء فى حرب أكتوبر ١٩٧٣، طلبت هذه الصور من الأرشيف، فقيل لى «أكلها وصوراً غيرها الفئران»، والحقيقة أنه فى فترة ما سمى بالانفتاح سداح مداح، كان الأرشيف المصور قد انتقل بالرشوة إلى صحف الخليج، والتى كانت قد دمرت مقراتها ونهبت محتوياتها فى الغزو العراقى للكويت..!

هذا، وكنت عقب الوصول إلى بورسعيد، قد رويت لقائد المقاومة، ما كان من اللواء المنهار فى سيناء، والذى كان من المفروض أن يكون قدوة للمنسحبين

عسكريين ومدنيين.. فكتب أبو الفضل ما حدث من الضابط اللواء من اعتداءات وسلوك معيب خاصة عندما كان على الضفة الشرقية لبحيرة البردويل فى انتظار قارب النجاة للعبور إلى بورسعيد وبعث بما كتب إلى المسئولين فى القاهرة، فكان الرد قراراً بحل المقاومة الشعبية، واستدعاءه إلى القاهرة، حيث وجد قراراً بتعيينه موظفاً فى رئاسة الجمهورية بدرجة وزير، لكن أصيب بإحباط حين وجد الوظيفة اسمية وبلا عمل حقيقى..!

* * *

الفصل السادس عشر

مع منظمات المقاومة الفلسطينية



16

- معركة «الكرامة» وتصاعد العمل الفدائى
- أيلول الأسود ورحيل منظمات المقاومة



مع بعض الفدائيين الفلسطينيين

أيلول الأسود ورحيل منظمات المقاومة

وبعد هزيمة ٦٧ والإحباط الذى شاع فى الأمة العربية برزت ومضة مضيئة بظهور العمل الفدائى الفلسطينى ضد الاحتلال الإسرائيلى عام ٦٨، وظهرت منظمات المقاومة الفلسطينية المسلحة (أحمد عبد القدير) «فتح» بقيادة ياسر عرفات، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بقيادة جورج حبش، وأخذت تتواتر عملياتها فى الصحف عبر وكالات الأنباء الأجنبية فى كلمات مقتضبة بطابعها الغربى الأمريكى الأوروبى!

فاستدعانى أحمد بهاء الدين وكان رئيسا لتحرير مجلة «المصور» وطلب إلىّ أن أسافر إلى عمان مراسلا للمصور، لتغطية أعمال الفدائيين بالقلم والصورة.

ومنذ لحظة وصولى صحبتنى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين فى بعض عملياتها الفدائية، ضد العدو الإسرائيلى فى الضفة الغربية، وكنت أنشر تفاصيلها وصورها أسبوعيا فى المصور.

ثم وقع انشقاق فى الجبهة الشعبية وانقسمت إلى الجبهة الشعبية الديمقراطية برئاسة نايف حواتمة، والجبهة الشعبية القيادة العامة برئاسة أحمد جبريل.

وبهذه المناسبة أشيد بالعبقرية والكفاءة القتالية للضابط أحمد جبريل (خريج الكلية الحربية المصرية) وتلميذ الفريق محمد فوزى، وأستطيع القول اليوم إن قوات المقاومة الفلسطينية تجمع بين كفاءات سياسية وعسكرية غاية فى الروعة، لكن للأسف الشديد كانت متوزعة بين هذه المنظمات.

وتصادف أن وجدت أحد زملائى فى كفاح ثورة لبنان ضابط الجيش الأردنى «نذير رشيد» فى موقع رفيع فى السلطة فى عمان وقد أصبح فيما بعد وزيرا للداخلية، كما أن زميلى فى هذه الثورة اللبنانى «محسن دلول» قد أصبح وزيرا للدفاع فى لبنان.

معركة «الكرامة» ٢١ مارس ١٩٦٨ أبرز انتصارات الثورة الفلسطينية

هذا وقد نشطت منظمات المقاومة الفلسطينية فى شن هجماتها على العدو الإسرائيلى فى مواقعه العسكرية ومستوطناته فى الضفة العربية وشمالى إسرائيل.. وكانت تتبارى فيما بينها بما كانت تفصح عنه، وما تصدره من بيانات عن عملياتها القتالية ضد العدو الإسرائيلى... ومن بين عمليات المقاومة القتالية، تبرز إحدى أهم وألمع هذه العمليات، التى انتصرت فيها المقاومة الفلسطينية، تلك هى معركة «الكرامة»، التى كنت الصحفى العربى الوحيد الذى حضرها، وانفردت بنشر تفصيلاتها ووقائعها مصورة فى مجلة المصور، وتلك المعركة كانت نقطة تحول وتطور إيجابى كبير فى التحركات القتالية لمنظمات المقاومة الفلسطينية، أعرض بإيجاز وقائعها فيما يلى:

«الكرامة» بلدة صغيرة تقع فى غور الأردن، فى منخفض سحيق بمحاذاة نهر الأردن، تحيط بها المرتفعات الجبلية من الشرق والغرب.. وكانت مركزاً متقدماً لقوات منظمات المقاومة، فنهر الأردن الضيق الصغير، يفصلها عن الضفة الغربية لفلسطين المحتلة.. وقررت إسرائيل احتلالها حيث تنطلق منها هجمات منظمات المقاومة الفلسطينية.. ووردت الأنباء وحصيلة عملياتها الاستطلاعية، أن الجيش الإسرائيلى فى طريقه لاحتلالها... وعلى ضوء هذه المعلومات، اجتمع قادة منظمات المقاومة وأصوات تحركات جيش إسرائيل تدوى فى الآذان.. وقرر القادة المبادرة بانسحاب قواتهم وإخلاء البلدة، فليس من اختصاص ولا بقدرة منظمات العمل الفدائى الفلسطينى مواجهة جيش إسرائيل، فعملياتها قاصرة على تكتيكات حرب العصابات، أى اضرب واختفى ليبحث عنك العدو بجيشه النظامى فلا يجدك.. لكن ياسر عرفات عارض الانسحاب وأصر على بقاء قواته، حتى يكون احتلال البلدة قد وقع بعد قتال فلسطينى.. فانسحب الجميع إلى داخل الأردن، وظل مقاتلو منظمة فتح وحدهم فى البلدة، فى انتظار المواجهة مع الغزاة الصهاينة.. كانت الخطة أن يختفى جنود فتح داخل بيوت البلدة، وهى بيوت مهجورة منذ الاحتلال الإسرائيلى للضفة الغربية عام ١٩٦٧، وأن يظلوا بأسلحتهم مختبئين، حتى يكتمل دخول القوات الإسرائيلية فى الشارع الوحيد فى البلدة المحاذى للشاطئ الشرقى لنهر

الأردن، وعندما يرون مشاة جيش العدو يطبقون عليهم برشاشاتهم وبالفعل، فمع أول ضوء للنهار بدأت دبابات ومصفحات وعربات نقل الجنود تتدفق على البلدة في شارعها الوحيد الطويل، وتتباطأ في تحركاتها حيث كانت تتوقف كل عدة أمتار للتأكد من صحة وسلامة الغزو.. واستغرقت هذه العملية ساعات طويلة.. إلى أن امتلأ الشارع بالدبابات والمصفحات، وناقلات الجنود، ثم غادر المشاة عرباتهم وراحوا يتقدمون طابور الدبابات والمصفحات، وهنا أطبق عليهم جنود فتح، حيث جرت معركة بالرشاشات، والتحم المقاتلون الفدائيون بقوات الغزو الصهيوني، التحامًا جرت معاركه بالسلاح الأبيض والاشتباك بالأيدى، فى الوقت الذى انهمرت فيه على الدبابات والمصفحات الإسرائيلية، قذائف مدفعية الجيش الأردنى من مواقعه الخاصة بحماية الحدود الأردنية من قمم الجبال المطلة على الشارع ميدان المعركة، أطلق ضباط وجنود الجيش الأردنى قذائف مدافعهم على المدرعات والدبابات الإسرائيلية دون أية أوامر من قادتهم، فأسرع الجيش الإسرائيلى بالانسحاب إلى الضفة الغربية المحتلة التى أقبل منها، وانتهت المعركة فى الغروب وقد خلف جيش إسرائيل دبابات محترقة ومنها كان قائدها متفحمًا فى مقعد قيادة دبابته.. وأصبح نصر معركة الكرامة، فى ذلك الوقت المبكر من سنوات ما بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، شعلة أمل ونقطة تحول إلى الأمام فى معارك التحرر الوطنى الفلسطينى...

هذا وأشير هنا إلى أن الصحف الفرنسية والإنجليزية فيما نشرته عن هذه المعركة، ذكرت أن جرحى الجيش الإسرائيلى فى مستشفى هاداسة الذين أصيبوا فى المعركة، كانت فى أجسامهم آثار عضات أسنان الفدائيين الفلسطينيين فى اشتباكهم اليدوى معهم..

وأشيد هنا بما كان للتدخل العفوى للجيش الأردنى من مواقعه الجبلية من أثر فى حسم المعركة لصالح الفدائيين، بقصف دبابات ومدرعات العدو وتدميرها، فدائيو فتح هؤلاء من خيرة الشباب الفلسطينى، خلدت بطولاتهم القتالية الأسطورية، ما سجلته صحف بريطانيا وفرنسا وهم الذين فى اشتباكهم اليدوى غرسوا فى أجسام جنود إسرائيل أسنانهم وأظافرهم، وجذبوا انتباه وتعاطف الرأى العام العالمى مع قضية الشعب الفلسطينى.

منظمة فتح

هذا، ومنظمة فتح التى قاتلت قوات العدو فى بلدة الكرامة، قتالاً بطوليًا أسطوريًا، هى كبرى منظمات المقاومة الفلسطينية وأقدمها ورئيسها وقائدها هو ياسر عرفات، الذى هو اليوم رئيس السلطة الفلسطينية وزعيم الشعب الفلسطينى، وأصبح على الصعيد الدولى القائد الرمز والزعيم الجماهيرى للشعب الفلسطينى، والذى يستقبل فى زياراته للعواصم العالمية بوصفه رئيس الدولة الفلسطينية على أرض الواقع، وإن كانت لم تعلن بعد، وسيجرى إعلانها رسميًا قريبًا.

ياسر عرفات تربى وعاش ونشأ نشأة نضالية في مصر، كان طالبًا فى كلية الهندسة جامعة فؤاد الأول (القاهرة اليوم)، وحين نشب الكفاح الشعبى المسلح ضد قوات الاحتلال الإنجليزى فى منطقة القنال، حيث كنت قائد كتيبة خالد بن الوليد التى كانت قاعدتها بلدة التل الكبير، والتى كان بها أكبر معسكرات قوات الاحتلال فى منطقة القنال، حضرت ذات ليلة من القاهرة إلى التل الكبير، كتيبة الاتحاد العام لطلبة الجامعة (جامعة فؤاد الأول – القاهرة اليوم) بقيادة رئيس الاتحاد «حسن دوح» لشن هجماتها على قوات الاحتلال، وكان بين أعضائها الفدائيين «ياسر عرفات» الطالب بكلية الهندسة، وكانوا على أهبة القيام بعملية هجومية ضارية ضد المعسكر الكبير، وقد طلب منى أحد رجالها «المنيسى» تزويده ببعض المتفجرات وفتيل التفجير واستجبت لطلبه، وفى الصباح بدأوا العمل، فقد فجروا عبوة ناسفة على شريط السكة الحديد الخاص بالمعسكر بهدف خروج جنود المعسكر إلى موقع الانفجار، وما إن خرجوا حتى فجّروا عبوة ناسفة تحت أقدامهم كانوا قد زرعوها ليلاً..، ونشبت معركة تبادل النيران، سقط فيها شهيداً الطالبان «منيسى وشاهين»، وأسر ستة من المقاتلين الفدائيين، وانسحب المقاتلون ومعهم ياسر عرفات سالمين إلى القاهرة، وأقيمت للشهيدين جنازة شعبية كبيرة، كان رئيس الوزراء زعيم الشعب النحاس باشا على رأس المشيعين.. وحين كان ياسر عرفات يعمل فى الكويت أسس منظمة فتح عام ١٩٦٥، والتى بدأت عملياتها القتالية فى الأرض المحتلة ابتداء من ذلك العام، والتى كان عرفات على رأس المقاتلين الفدائيين...

الجبهة الشعبية (القيادة العامة)

هذا، وقد تتابعت العمليات القتالية الهجومية لكافة منظمات المقاومة ضد العدو الإسرائيلى فى الأرض المحتلة عام ١٩٦٧، وتلك المغتصبة عام ١٩٤٨.. وكان من ألمع هذه الهجمات، ذات الطابع القتالى المتقدم، تلك التى قامت بها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة، بفضل الكفاءة القتالية الفائقة لقائدها أحمد جبريل، خريج الكلية الحربية فى القاهرة، وتلميذ الفريق محمد فوزى، والذى كان أول من استخدم الأسلحة الالكترونية فى معارك قواته الهجومية الضارية والموجعة ضد العدو الإسرائيلى، وشملت هجماته البر والبحر وبعضها كان جواً.. ومن ناحيتى كانت أول مرة شاهدت فيها التفجير عن بُعد، كانت فى عمليات قوات هذه المنظمة، التى امتازت أيضاً بالحرص على نشر الوعى السياسى، بين الشعب الفلسطينى وليس فقط بين مقاتليها، وذلك عبر ما كانت تعقده من مؤتمرات وندوات، وتصدره من صحف ومطبوعات، وتشارك بدراسات وأبحاث لشرح أبعاد القضية الفلسطينية فى ندوات ومؤتمرات إقليمية عربية وأخرى دولية.

هذا، وقد مضى على تأسيسها نحو ٣٣ عامًا حتى اليوم، حيث تشغل موقعًا صلبًا مهمًا فى الساحة الفلسطينية، ومكانة متقدمة على الصعيد النضالى العربى، من أجل تحرير الأرض واستعادة الحق للشعب الفلسطينى، وتستوعب مساندة وتعاطف الجماهير العربية لصمودها وكفاحها ضد كافة ضروب محاولات المهادنة والتطبيع مع العدو الإسرائيلى، وذلك كله يرجع إلى قيادتها المستنيرة ذات المصداقية والشفافية، الممثلة فى أحمد جبريل وفضل شرور وطلال ناجى، الذين هم من بين أبرز العناصر الثورية للمثقفين العرب.

أيلول الأسود ورحيل المقاومة

مع تصاعد العمل الفدائى الفلسطينى بدأت المؤامرات تتصاعد أيضا لضربه، وقد توجهت إلى رئيس الأمن الأردنى الذى كان يسمى رجل عمان القوى «محمد رسول الكيلانى»، وأجريت معه حوارا نشرته فى المصور، واجهته باتهامه بانه يتآمر لضرب العمل الفدائى الفلسطينى.

فأجاب: لن نضربه إلا بعد أن يصبح مطلبا شعبيا.

وبالفعل بدأت العناصر المشبوهة العميلة المتسترون بمظلة العمل الفدائى يمارسون تعبئة الأردنيين بالسخط على الفدائيين الفلسطينيين، وقد عاصرت هذه الأحداث «فمثلا».. اقتحمت مجموعة من هؤلاء العملاء أحد المساكن الأردنية وكسروا الأثاث ومزقوا البطاقات الشخصية الأردنية، وأشبعوا أصحابها ضربا ونهبوا ما كان لديهم من أموال..

والحوادث المماثلة كثيرة ومتعددة، رغم جهود ما كان يسمى شرطة الكفاح المسلح التى شكلها عرفات لمقاومة هذه الجرائم.

كما كانت بين حين وآخر، تنتظم مواكب مظاهرات مسلحة لبعض المنظمات، تطوف شوارع وميادين العاصمة الأردنية، وهى تهتف هتافات مدسوسة «جمهورية لا ملكية»، وتتابعت عمليات اختطاف الطائرات الأوروبية وهبوطها فى الأردن وتفجيرها..!

وبهذه الوقائع، تلاشت سيادة الدولة الأردنية، وأصبحت القوة الفوضوية هى السائدة.

وهذه السلبيات كلها لم تشارك فيها منظمتا فتح والجبهة الشعبية القيادة العامة، وقد انفلت الزمام ولم تعد شرطة الكفاح المسلح تستطيع التدخل فى مواجهة هذه الفوضى المسلحة..!

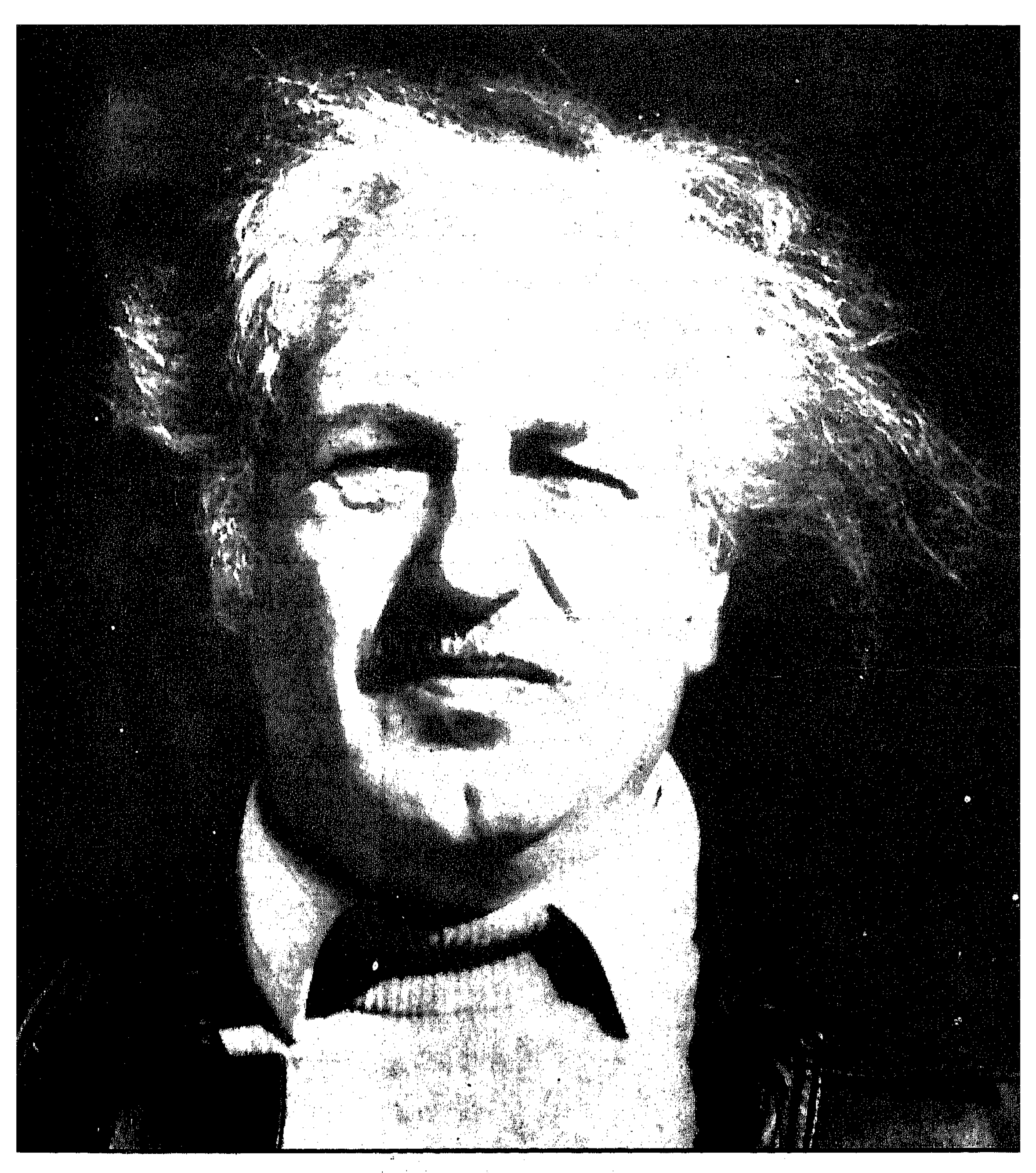
فتدخل الجيش الأردنى بقيادة الملك حسين لاستعادة هيمنة الدولة.. ومن هنا جاءت أحداث ما يعرف بأيلول الأسود التى انتهت بخروج المقاومة من الأردن.

كانت عمليات المقاومة الفلسطينية تجرى عبر حدود بعض دول المواجهة، ومع الضغوط الدولية واستمرار تعاظم خسائر إسرائيل، وتزايد مشاعر القلق من جراء تزايد عمليات المواجهة القتالية وضغوط المقاطعة العربية، مع تصاعد إرادة الرغبة فى تصفية الصراع العربى الإسرائيلى، وإحلال السلام والتعايش السلمى فى المنطقة، خاصة بعد أن وقعت مصر مع إسرائيل اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة الصلح، كما وقعت الأردن اتفاقية صلح مع إسرائيل، اضطرت إسرائيل أن تعترف بالوجود الفلسطينى، وانسحبت من بعض الأراضى المحتلة، لتقوم السلطة الفلسطينية، وتقوم كافة المؤسسات الخاصة بشئون الحكم والإدارة فى تلك المساحة التى وُضعت تحت يد

السلطة الفلسطينية، والتى عمد الإسرائيليون أن تكون محاطة بالقوات الإسرائيلية وتحت سيطرتها العسكرية.. لكن الجانب ا لإيجابى هنا، أن المواطنين الفلسطينيين أصبحوا فى ظل مقومات الدولة الفلسطينية والتى سيجرى إعلان قيامها وفق ما تمليه الظروف والأوضاع الفلسطينية والإقليمية والدولية.. وبقيام مقومات الدولة الفلسطينية وتبلور المنظمات السياسية ومؤسساتها، أصبحت منظمات المقاومة على أرض فلسطين فى سائر مدن الضفة الغربية وقطاع غزة، ومعها منظمات جهادية فلسطينية نشأت ونمت فى هذه المدن الخاضعة للسلطة الفلسطينية أهمها منظمتا حماس والجهاد، وتدور يوميًا معارك التحرير بين هذه المنظمات وقوات الاحتلال الإسرائيلى، وكان لتفاقم الاعتداءات الإجرامية الإسرائيلية على الشعب الفلسطينى، أن انبثقت الانتفاضة الثورية الفلسطينية المتصاعدة يومًا بعد يوم، والتى تقودها جبهة وطنية فلسطينية، والتى لن تتوقف إلا بعد تحرير الأرض وإعلان الاستقلال الوطنى للدولة الفلسطينية وعاصمتها القدس.



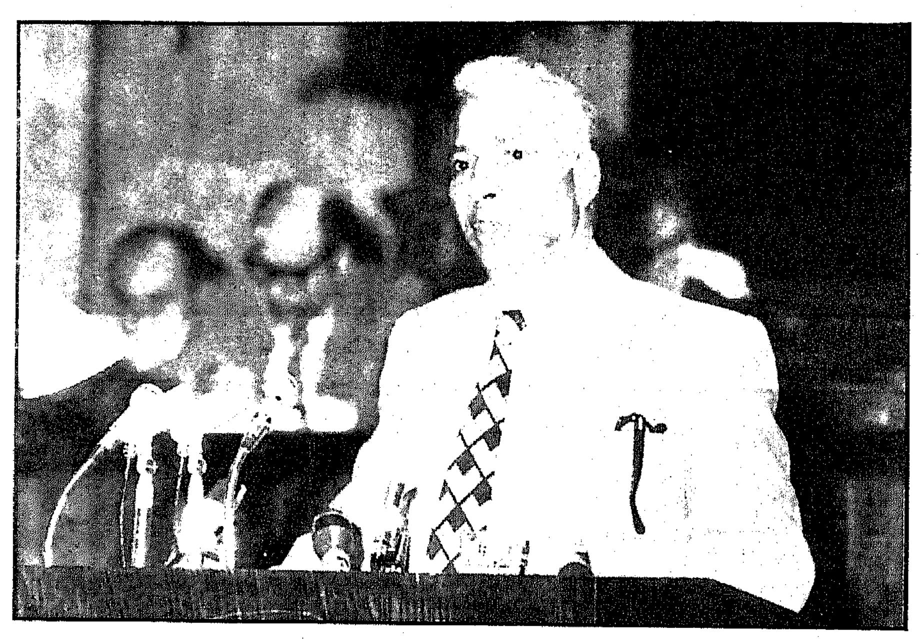
بالإيمان ترتفع رايات النصر والعزة والكرامة



أحمد جبريـــل قائـــد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيادة العامة ..
خريج الكلية الحربيـــة وتلميـــذ الفريـــق محمد فـــوزي
وأول من استخدم الأساليب الإلكترونية في أعمال المقاومة بالتفجير عن بعد

الفصل السابع عشر

لا للإرهاب.. ولكن نعم للعمل الفدائى والمقاومة الوطنية المسلحة



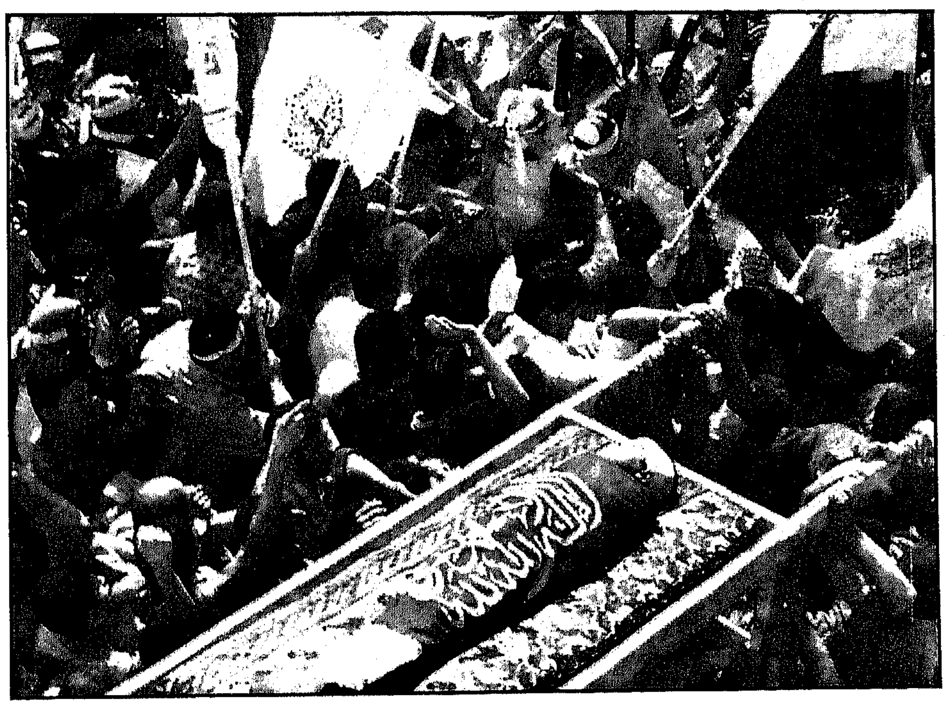
17

محاضرة فى جامعة مقديشيو عاصمة الصومال عن الثورة فى إريتريا والعمل الفدائى الوطنى

- عندما تورطت فى العمل مع مجموعة من الفدائيين فى ضرب طائرة شركة العال الإسرائيلية فى مطار زيورخ..
- كيف استسلم الفدائيون الفلسطينيون بينما نجحت فى الهرب بعيداً
- لجأت إلى سفير مصر فى سويسرا



لا للإرهاب.. ولكن نعم للعمل الفدائى الوطنى



أجيال من الشهداء تتواصل لتحرير الأرض ورفع رايات الشرف

أود أن أشير إلى أن الإرهاب عمل وحشى مضاد للإنسانية وللكفاح الوطنى، فان يُقتل ويصاب أبرياء جريمة أخلاقية أكثر من قانونية.. وأقول ذلك من خلال ممارسة كنت قد تورطت فيها.

فقد حدث أن استدعانى من عمان الدكتور وديع حداد الذى كان نائبا لرئيس الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ومختصًا بالعمليات الإرهابية خارج المنطقة العربية...

أخبرنى بأنه سيقوم بضرب الاقتصاد الصهيونى ممثلا فى الخطوط الجوية الإسرائيلية بضرب طائرة «العال» الإسرائيلية فى زيورخ، وأنه أرسل أربعة من الفدائيين الفلسطينيين إلى فندق فى زيورخ كان من بينهم فتاة تدعى أمينة دحبور، على أن أغطى هذه العملية صحفياً، وأضاف: أنت لست صحفيا فقط، ولكنك فدائى أولا وقبل كل شيء، ولذلك ستقوم بنقل الأسلحة إلى أيدى الفدائيين الفلسطينيين الأربعة فى سويسرا بزيورخ..

وبالفعل وصلت إلى زيورخ بالطائرة السويسرية وفى يدى حقيبة جلدية طويلة بداخلها أربعة مدافع «كلاشينكوف»، و٣٠٠٠ طلقة، وبعض القنابل اليدوية ومنشورات باللغة الألمانية.

ولم تكن هناك إجراءات تفتيش مشددة فى مطارات أوروبا (١٩٦٩)..

كان الاتفاق أن أسلم هذه الأسلحة إلى الفدائى الفلسطينى «يوسف» فى مطعم المطار، والذى كان قد اختطف من قبل طائرة العال الإسرائيلية إلى الجزائر والتى أعيدت منها إلى إسرائيل!

بعد عبورى للجمرك السويسرى بجواز سفرى الصحفى بدون تفتيش، وجدت الفدائى يوسف بانتظارى بالمطعم، ففاجأنى بأنه سيرحل فوراً إلى أسبانيا لأن طاقم الطائرة التى سبق أن خطفها شاهدوه فى المطار، وأن علىَّ أن أقوم بدلاً منه بتسليم الأسلحة لللفدائيين الأربعة بفندقهم وقيادة هذه العملية!

وبعد أن أجريت المعاينة لموقع الإقلاع لطائرة «العال» الإسرائيلية عبر مطل سياحى فى مطار زيورخ أمكننا إطلاق النار على الطائرة التى توقفت فور تفجير قنبلة حارقة

على مقدمها، وإطلاق الرصاص عليها، فقتل فيها مساعد الطيار وأصيب بعض الركاب الذين كانوا قد أسرعوا بمغادرة الطائرة عبر أبواب الطوارئ.

ووفق الخطة الموضوعة التى جاءوا بها من قيادتهم ألقوا بالأسلحة على الأرض ورفعوا أيديهم بالتسليم، وفى هذه اللحظة تقدم أحد الركاب (طويل القامة نحيل الجسم) واعتقدت أنا وزملائى أنه جاء لاستطلاع ما يجرى، وإذا به يخرج مسدسه ويصوبه إلى أحد الفدائيين الذى سقط صريعاً على أرض المطار، والذى عرفت أنه ضابط أمن الطائرة وهو إسرائيلى اسمه « رحاميم » ومنحته « جولدا مائير » بعد ذلك وساماً!

كان على الفدائيين الثلاثة المتبقين تسليم أنفسهم لإلقاء دفاع سياسى فى محاكمتهم يشرحون فيه عدالة قضيتهم الفلسطينية..

وقد انتدب اتحاد المحامين العرب المحامى عبدالرحمن اليوسفى « رئيس وزراء المغرب الحالى » للدفاع عنهم، بينما أسرعت أنا إلى أبواب المطار وأخذت « تاكسى » إلى محطة السكة الحديد ومنها إلى العاصمة السويسرية « برن »، حيث وصلت إلى السفارة المصرية فى منتصف الليل وطلبت من حارسها الاتصال بالسفير زاعماً أننى « اللواء محمد عبدالسلام »..

المهم أيقظت السفير بزعم أننى لواء من رئاسة الجمهورية وأريد الاجتماع به فى الحال لأمر مهم، فأرسل لى أحد معاونيه وهو حسن شاش الذى أصبح فيما بعد سفيرا فى بيروت، وصحبنى إلى بيت السفير فى ذلك الوقت المتأخر من الليل..

قلت للسفير: أنا الصحفى سعد زغلول فؤاد قمت بعملية فدائية مع الفدائيين الفلسطينيين فى « زيورخ » وقد سلموا أنفسهم وفق الخطة وعليك أن تهربنى بأسرع ما يمكن إلى بيروت..

فسألنى: بأى حق.. وباسم من تنفذ هذه العملية التى شاهدتها فى التليفزيون؟

قلت مدعيًا: بأمر شخصى لى من الرئيس جمال عبدالناصر!

وهنا اعتدل على مقعده، وانفرجت أساريره وهو يقول لحسن شاش: الريس بتاعنا بيشتغل كمان لحسابه الخاص!

وقال لى: سأهربك، وعلى استعداد أن أغير ملامحك لو اقتضى الأمر، فأنت فى عمل فدائى يقوده الرئيس عبدالناصر!

بعد يومين من استضافته لى بعثنى مع «حسن شاش» إلى مطار «جنيف» بتذاكر طائرة إلى بيروت التى وصلتها وقد أعلن أمر دولى بالقبض علىَّ..

فقد كنت قد استأجرت سيارة «فولكس ڤاجن» نقلت فيها من الفندق إلى مطار الفدائيين وكل الأسلحة والذخيرة، وفور إطلاق النار على الطائرة واستسلام الفدائيين أسرعت بالهرب وتركت السيارة، عند المطل السياحى لممر الإقلاع موقع العملية، فاستدلوا من السيارة التى استأجرتها على «اسمى» خاصة أنهم وجدوا بداخلها بقايا من الأسلحة والذخيرة، فصدر أمر دولى بالقبض علىَّ!

وفوجئ عبدالناصر ببرقية أرسلها السفير يقول فيها: (غطينا العملية.. وهرَّبنا سعد زغلول فؤاد).. هكذا روى لى أمين هويدى الذى كان وزيراً لشئون رئاسة الجمهورية..

فأمر الرئيس عبدالناصر بإقالته!

فيما بعد وبعد زمن طويل قال لى أمين هويدى: «كنا قد علمنا أنك غادرت بيروت إلى أوروبا لضرب هدف إسرائيلى، ولأنك مصرى فقد جهدنا فى البحث عنك لمنعك كمصرى من ذلك حيث كنا نَجِدُّ فى بناء حائط الصواريخ ونخشى أى ضربات انتقامية إسرائيلية لكننا فشلنا فى العثور عليك..».

عدت إلى بيروت ومنها إلى عمان حيث كتبت رسالة مطولة سلمتها للدكتور «جورج حبش» استنكرت فيها هذه العمليات التى استبشعتها حين عشت فصولها الدرامية، وفى هذه الرسالة ذكرت أنه من المحتمل أن يكون من بين ركاب هذه الطائرة اليهود من هو مع الحق الفلسطينى، وأن هذا الأسلوب بعيد عن أى مقاومة وطنية، ولكنه أقرب إلى جموح الرغبة فى سفك الدماء!

كان الدكتور جورج حبش دمثاً.. رقيقا.. عقلانيا.. لم يغضب من رسالتى وهو يقول: نحن فى بداية العمل الفدائى، وبمضى الوقت نتعلم من أخطائنا ..

وبعد هذا الحادث قطعت صلتى تماماً بالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وقصرت

كل تحقيقاتى الصحفية الميدانية على عمليات الجبهة الشعبية «القيادة العامة» التى يرأسها أكفأ الضباط الحربية قتالاً ووطنية تلميذ الفريق محمد فوزى وهو أحمد جبريل.

ولقد تصاعد انحراف بعض أجنحة العمل الفدائى الفلسطينى حين جرى اختطاف عدة طائرات أوروبية وتفجيرها فى عمان، حتى أن الفدائية (ليلى خالد) اختطفت طائرة «جامبو» أمريكية وفجرتها، وكل هذه كانت عوامل إثارة واستفزاز للملك الأردن الراحل حسين، وقد رأى الملك أن سيادته على أرضه مهددة، فقام بضرب العمل الفدائى الفلسطينى، وأخرج منظمات المقاومة من الأردن، بما عرف بأيلول الأسود.

وكانت هناك منظمة باسم الهيئة العاملة لتحرير فلسطين، وتناثرت الأقاويل بأنها تصدر بلاغات عن عمليات قتالية وهمية، وعندما اتصلت برئيسها وزرت قواعدها تأكدت أنها لم تقم بأية عملية ضد إسرائيل، وأن كل ما أصدرت من بلاغات عن عمليات ضد العدو الإسرائيلى كانت كاذبة، وأنها لإجبار جريدة «الدستور» الأردنية على نشر بلاغاتها اختطفت رئيس تحريرها، وأطلقت سراحه، بعد أن تعهد بنشر كل ما يتلقاه من بلاغات هذه المنظمة، ثم لاحظت من ترددى على مكتب رئيسها اهتمامًا غير عادى من الإعلام الأمريكى بنشر وتمجيد هذه المنظمة، فقمت بمهاجمتها، وكانت النتيجة أن اختطفونى من الطريق العام، وتلك قصة نعرضها فى صفحات أخرى.

الفصل الثامن عشر

اختطفونى من الشارع فى عمان
ثم أخذوا فى تعذيبى بوحشية.. لماذا؟



اختطفونى فى عمان ..
وأيامها كان الملك حسين
ملكًا على الأردن

18

- بسبب مقال فى مجلة المصور قرر عصام السرطاوى قتلى ثم إعلان أننى مت شهيدًا فى عملية فدائية ضد الإسرائيليين!
- تعذيب لمدة ١٠ ساعات متواصلة بواسطة عملاء الرجل الذى اتهمته فى مقال نشرته أنه يتزعم منظمة مشبوهة..!
- وعرفت منظمة فتح بما حدث فبادرت بالتدخل وإنقاذ حياتى



الرقم: ١٠/٢٧/١/٣

التاريخ: ١٩٦٩/٦/١٦

حضرة الاستاذ سعد زغلول فؤاد المحترم

تحية طيبة، وبعد،

بالاشارة الى رسالتكم بتاريخ ١٩٦٩/٤/١.

يسرني أن أبعث اليكم بالكلمة السامية التي تفضل جلالة الملك الحسين المعظم بتوجيهها لتكون مقدمة لكتابكم القيم (٩٠ يوما مع الفدائيين).

متمنيا لكم التوفيق والنجاح في مسعاكم الخير لتعريف القارىء العربي بالابعاد المختلفة للمقاومة العربية الباسلة. وآملا أن يحتل كتابكم المكان اللائق به في المكتبة العربية.

واقبلوا فائق الاحترام.

الامين العام

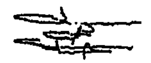


تمر في حياة الشعوب أحداث تعصف بالعديد من مسلماتها، وتهز الكثير من معتقداتها، وتترك افرادها في متاهة فكرية وتمزق نفسي. غير ان الامم الحية انما تستطيع تجاوز النكسات، وتخطي النكبات بما لديها من قدرة على التجدد والبقاء، وتوق شديد الى التحرر من جميع مظاهر العدوان والتخلف. وما المقاومة الباسلة للاحتلال والزحف الاسرائيلي غير مظهر مشرق من مظاهر التكون الجديد لامتنا العربية، وهي ليست أمرا مشروعا فحسب، بل واجب تمليه ارادة الحياة الحرة الكريمة للانسان. والتاريخ القريب حافل بالكثير من الامثلة الحية على انتفاضات الشعوب في وجه الظلم والطغيان، وعلى الحروب التي خاضتها طلائع هذه الشعوب على دروب التحرير والنصر.

والامة العربية في نضالها الدائب لتحرير مقدساتها واستخلاص حقوقها المشروعة انما تستهدي بتجربة غيرها من الامم، وتطمح في الوقت نفسه الى انشاء الشعوب الاخرى في ميادين التصدي للعدوان ودحره.

وان نظرة عامة على اوضاع العرب بعد سنتين من محنة حزيران لتؤكد ان الامة التي استطاعت ان تعيد تنظيم نفسها، ورص صفوفها وتفجير طاقات جديدة فيها، لقادرة على الانتقال من مرحلة الاعداد والرد الى مرحلة التحرك والصمود.

فتحية أزجيها الى أبطالنا المناضلين في المحتل من أرضنا، والى جميع اخواننا رفاق القضية والسلاح جنودنا الاشاوس الذين أعادوا لامتنا ثقتها بنفسها في يوم الكرامة، ونذروا انفسهم لتحرير الارض العربية واستعادة مقدساتنا وحقوقنا.



ذات يوم من شهر مايو ١٩٧٠ اختطفنى مسلحون من الطريق العام فى عمان، وتناولونى بالتعذيب الوحشى، لأكثر من ١٠ ساعات.. وبعد أن تحولت إلى مجموعة، من الإصابات والجراح.. بعد أن أصبحت بقايا إنسان.. هموا بقتلى، برصاصة فى رأسى..، لكن فى اللحظة الأخيرة.. وقبيل أن يطلقوا «رصاصة الرحمة».. بعث الله بمن أنقذنى.. واقتص لى من الجناة.. وهذا الذى وقع لى.. من جراء مقال للمصور، لم يعجب تلك الطغمة من المسلحين، فقرروا اختطافى وقتلى، وإعلانى للناس شهيدا، فى عملية وهمية، يزعمون أنهم قاموا بها، ضد العدو الإسرائيلى فى الأرض المحتلة...!

المكان: العاصمة الأردنية عمان، والزمان: مايو ١٩٧٠، حيث كنت موفدا من صحيفتى فى القاهرة «المصور» لموافاتها بتحقيقات صحفية عن عمليات المقاومة الفلسطينية والتى كنت أوافى بها صحيفتى بانتظام، منذ أن وصلت إلى عمان أول عام ١٩٦٨، إلى أن توقفت باختطافى وتعذيبى وعودتى مقعداً جريحا إلى القاهرة، فى شهر يوليو عام ١٩٧٠.

كان المقال، يشير إلى أحد مظاهر الخلل، الذى كان قد تسلل إلى بعض مظاهر العمل الفدائى الفلسطينى. والذى كان يتهدده بالإجهاض من داخله، ومن تحت مظلته.. ذلك أن العناصر اللامسئولة ، وتلك التى كانت مدسوسة ومشبوهة تسللت إلى العمل الفدائى، وأعلنت نفسها بين منظمات المقاومة الفلسطينية، أى أن الباب كان مفتوحا على مصراعيه، لكل من هبّ ودبّ ، ليجمع من حوله بعض المسلحين، ويستأجر مسكنا، يعلنه مقرا لجماعته، ويُطلق اسما «ثوريا» على جماعته، فينتظم بين صفوف المقاومة الفلسطينية، وهذا النوع من الذين كانوا مندسين، على العمل الفدائى الفلسطينى، كانوا يصدرون بلاغات حربية، عن عمليات قتالية وهمية، تزعم أنهم قاموا بها، ضد العدو الإسرائيلى.. بينما يكونوا لم يغادروا مقراتهم فى عمان.. وضربت المثل، بإحدى هذه المنظمات الوهمية والمشبوهة، وكانت تسمى نفسها «الهيئة العاملة لتحرير فلسطين».. فقرر رئيسها الدكتور عصام السرطاوى قتلى وإعلانى شهيدا، فى عملية مزعومة ضد العدو

الإسرائيلى ، فقد كانت تحقيقاتى عن العمل الفدائى ميدانية مصورة، إذ كنت أرافق الأبطال الفدائيين فى بعض عملياتهم، مما يشير إلى احتمال الاستشهاد، مع من تخلف المعركة من شهداء.

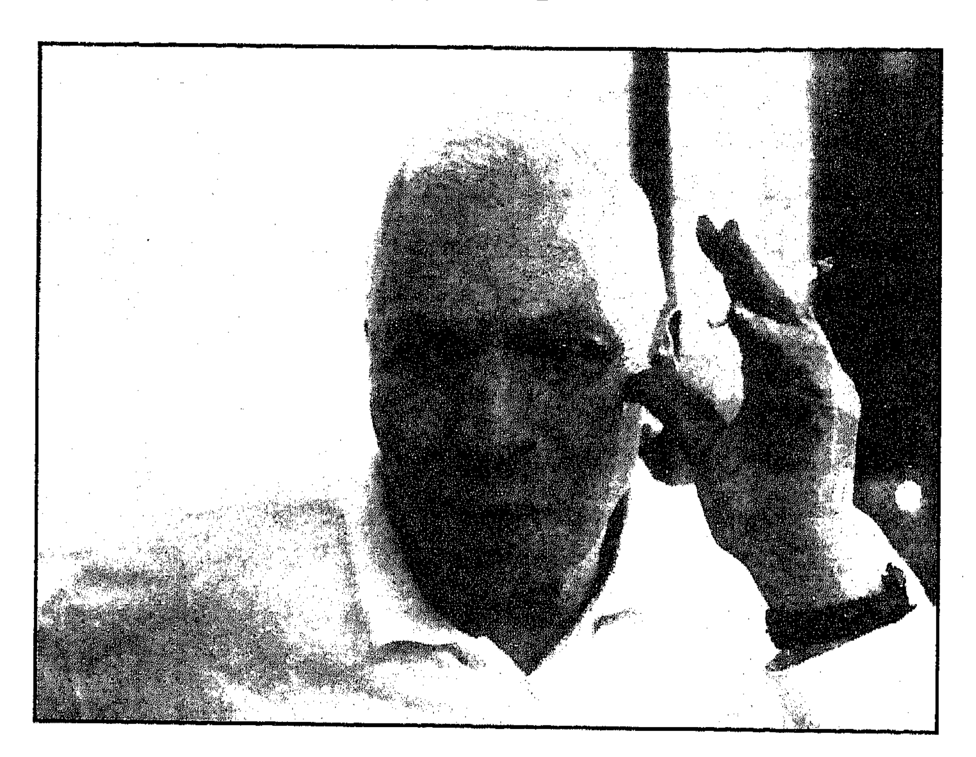
اختطفنى رجاله صباحا من أحد شوارع عمان، حينما كنت متوجها إلى زيارة صديق، وقادونى موثوقًا إلى أحد أوكارهم، وراحوا يعذبوننى بمختلف صور الضرب، لأكثر من ١٠ ساعات، كنت كلما فقدت وعيى، يصبون على رأسى الماء، حتى أفيق وأعود إلى وعيى.. وقد تشوهت بالكامل معالم وجهى، وتكسرت بعض فقرات ظهرى.. ثم ألقونى مقيد اليدين والقدمين فى مرحاض «عربى» .. وكنت كلما طلبت شربة ماء، أفقد وعيى على الفور، من جراء ألم مروع فى وجهى، وقد سال منه مزيد من دمائى، وذلك بفعل ركلة قوية لقدم أحد الذين قاموا بتعذيبى.. وكأنه يقذف عاليا الكرة، بقدمه ذات الحذاء العسكرى الغليظ.. فجأة استنهضونى وساندونى، وفى خطواتى الثقيلة إلى حيث أُجلست بمكتب نائب رئيس هذه المنظمة، أو العصابة التى أطلقت على نفسها، اسم الهيئة العاملة لتحرير فلسطين، وأملى علىَّ رسالة قصيرة إلى زوجتى، أخطرها فيها أننى «مع شباب الهيئة العاملة لتحرير فلسطين، فى عملية كبرى وخطيرة، ضد العدو الإسرائيلى فى الضفة الغربية المحتلة، و أنه من المتوقع استشهادى» وأمرنى هذا المسلح، أن اختتمها بوصيتى فكتبت وصيتى لأولادى ، ولزوجتى «كونى شجاعة» .. وما إن فتحت زوجتى باب مسكنى، وتلت كتابى هذا، حتى صرخت فى وجه حامله، الذى كان يدعى «أبو الأوس» وهى تقول: سعد قتلتوه.. لما يروح عملية بيلبس كاكى واضع له آيات من القرآن الكريم فى جيوبه، ويأخذ معه الكاميرا.. أنتم قتلتموه»، وعاد أبو الأوس هذا، إلى رئيسه بما قالت زوجتى، وكان قد تصادف وحضر إلى عمان، زميلى فى مجلة المصور، الرسام بهجت عثمان، وحضر بصحبة الصديق المشترك الشهيد سعيد حمامى إلى مسكنى، حيث عرفا هول ما وقع لى من زوجتى، وفى أقل من ساعة، كان رجال فتح فى طريقهم لإنقاذى، وفوجئت بالسرطاوى يظهر لأول مرة، وتظاهر بالغضب من رجاله أن عذبونى، ثم رجانى أن أقول، إن إصاباتى من حادث سيارة، وأسرع بمغادرة المكان، لكن رجال فتح كانوا قد وصلوا وأحاطوا بالمبنى، فقبضوا عليه وأرسلوه مخفورا مقيدا، إلى حيث كانوا يتحفظون على المذنبين، وفوجئت بخالد

الحسن والمرحوم أبو صبرى، الذى كان قائد قوات فتح وآخرين مسلحين، حيث نقلونى إلى مستشفى فتح، ونقلوا زوجتى وأولادى إلى مسكن آمن، واستولت فتح، على مقر منظمة السرطاوى تلك الوهمية، وألغيت من الساحة، ولم يعد لها من وجود.. وعدت وزوجتى وأولادى إلى القاهرة... حيث رحت أتنقل للعلاج مما حل بى، على مدى ثلاث سنوات ما بين مستشفيات القاهرة وبراغ ولندن..

تظل فى النهاية إشارة إلى الكيفية التى انتهت بها علاقتى مع «قاتلى، هذا السرطاوى... » فقد تصادف أن كان موعد انعقاد المجلس الوطنى الفلسطينى، بمقر جامعة الدول العربية فى القاهرة، وذلك بعد نحو أسبوعين، من عودتى إلى مصر، وعلمت أن السرطاوى بين الحضور فقررت أن أنتقم منه بيدى، وفى الموعد المحدد لجلسة الافتتاح استقللت عربة تاكسى، إلى مبنى الجامعة العربية بميدان التحرير.. وطوال الطريق رحت أرسم خطتى فى الهجوم على هذا الذى عذبنى، وكاد أن يقتلنى، وقررت أن أغرس فى عنقه، أظافرى، وأطبق عليها بكل قواى إلى أن يقضى ولن يخلصه منى، من قد يسارع لنجدته من الشرطة أو الأعضاء..، وحين اقترب التاكسى من مبنى الجامعة، كان رجل واحد، يقف على الرصيف فى انتظار قدوم عربة تاكسى، كان هو بعينه عصام السرطاوى، فقد غادر الجلسة حين توقفت باستراحة.. ورحت أتحفز وأشحذ قوايّ، للانقضاض عليه فور خروجى من التاكسى.. ودفعت للسائق الأجرة قبيل خطوات من الوصول، وما إن فتحت الباب وأصبحت على الرصيف حتى فوجئ بى السرطاوى، الذى فتح ذراعيه بطريقه عفوية وفورية، وأقبل عليّ يقبلنى «أهلا أبو خالد».. ووجدت نفسى، أستجيب لعناقه، وأبادله قبلاته.. ونسيت كل ما كان قد جرى منه.. ثم استقل عربة التاكسى، ودلفت إلى قاعة الاجتماعات بالجامعة.. وفى الطريق التقى بى ياسر عرفات، ومعه كان المرحوم سعيد حمامي، فقالا وهما يشيران إلى الباب: «منذ دقائق خرج عصام.. شفته» قلت: نعم.. قالا: شو صار؟»؟!، قلت: تعانقنا وانتهى الأمر..! ضحكا وهما يقولان: أنتم يا مصاروة... ما فى أبيض من قلوبكم»...

الفصل التاسع عشر

اختطفنى الموساد من براغ ونجحت فى الهرب إلى القاهرة!



19

- استدرجني صديقى المصرى فى ألمانيا وسلمني للعدو الصهيونى، بعد أن ألقى به إدمانه للخمر فى أحضان إسرائيل!

في عام ١٩٧٢ كنت في العاصمة التشيكية براغ، أعالج للعام التالى على نفقة الاتحاد الدولى للصحفيين، من جراء الإصابات التى خلفها فى عمودى الفقرى التعذيب الوحشى الذى تعرضت له، على يد الطغمة المشبوهة التى اختطفتنى من الطريق العام فى العاصمة الأردنية عمان، وكان المرحوم مجدى حسنين سفيرا لمصر فى براغ، اتصل بى وأنبانى أن أكون فى مكتبه فى تمام الحادية عشرة ظهرا، لتلقى مكالمة تليفونية من صديق لى يقيم فى ألمانيا الغربية، وفى الموعد المحدد تلقيت المكالمة التليفونية من صديقى الذى كنت قد تعرفت عليه فى القاهرة المهندس « ح.ع. ر »، والذى كان يعمل فى دسلدورف مفتشا على المواصفات الهندسية للمشتريات الصناعية المصرية قبيل تصديرها إلى مصر، قال لى: « علاجك فى تشيكوسلوفاكيا علاج متخلف، سأعالجك على يد أحد كبار الأطباء البريطانيين، الذى سأستدعيه إلى برلين ليعالجك على نفقتى، كما ستكون إقامتك على نفقتى، فلما سألته: أنى له بتحمل هذه النفقات، وكل دخله مرتبه الشهرى من مكتب التفتيش الهندسى؟، أجاب: « خلاص تركت التفتيش الهندسى، وأصبحت شريكا لإحدى شركات البترول فى الكويت، وبذلك أصبحت ثريا، وكان أول تفكير لى، أن أنفق على علاجك وأنت الذى بذلت حياتك فى سبيل مصر » واختتم مكالمته هذه أنه فى الغد سيكون من بعد الظهر فى فندق كذا فى براغ لأكون لديه، انتهت المكالمة التى كانت فى مكتب السفير، الذى أفضيت إليه بمكالمة صديقى هذا، وأشدت بتبرعه لعلاجى على يد طبيب بريطانى إخصائى فى إصابات العمود الفقرى، يعالجنى فى أرقى مستشفيات برلين الغربية، والتى كان الدخول إليها للمصريين بدون تأشيرات، ورد السفير « شعب مصر أصيل، ما يفعله معك صديقك هذا، سبق أن قام به فلاح مصرى، حين باع ما كان يمتلك من أراض زراعية، وبالثمن شحن جثمان الزعيم محمد فريد من منفاه الأوروبى إلى مصر. مصر ولادة معطاءة بالخير ».

أعطانى صديقى هذا (ح.ع.ر) تذكرتى طائرة إلى برلين الغربية ولزوجتى التى كانت دائما معى فى رحلات علاجى، وكان فى استقبالنا بالمطار حيث صحبنا إلى فندق غير بعيد من بوابة برلين، والسور الكبير الذى كان يفصل بين برلين الشرقية

الشيوعية وتلك الغربية الرأسمالية، وفى المساء حضر إلى الفندق ومعه من قدمه لى على أنه الطبيب البريطانى، والذى حدد بدء «عمله» معى صباح اليوم التالى.

ما قيل لى وزوجتى من صديقى الذى استقبلنا فى المطار وقادنا إلى ما قال إنه فندق والذى لم يكن به أية لافتة أو بيان تشير إلى أنه فندق، بيت من طابقين، الأرضى قاعة استقبال وبار، والثانى غرف للنوم، ويقع وسط أرض فضاء يتوسطها الطريق المؤدى إلى برلين الشرقية، ولم يكن به من نزلاء غيرى وزوجتى، والتى كانت عقب التعرف على «الطبيب» البريطانى، قالت لى: إنه يهودى، عرفته من منخاره، وفى الصباح طلب منى صديقى تليفونيا، ان أهبط وحيدا دون زوجتى إلى قاعة الاستقبال والبار لبدء العمل، وما إن أصبحت بها، حتى رأيت صديقى يجلس فى البار يحتسى الخمر، أما «الطبيب» فكان يجلس على مائدة صغيرة عليها دفتر كبير وبعض أوراق، جلست إليه وهو يقدم لى نفسه: «أنا ضابط مخابرات إسرائيلية، سأحقق معك وعليك ان تجيب على كل أسئلتى»، بالطبع أُخذت لوهلة، ثم تماسكت وقلت: اسأل وسأجيب، دار التحقيق حول ما وجهه إلى من اتهام أنى «قدت» أو «شاركت» مع «إرهابيين» فلسطينيين فى ضرب طائرة العال الإسرائيلية فى زيورخ فى فبراير ١٩٦٩، وأجبت فنفيت اشتراكى فى تلك العملية، وإنما حضرتها كصحفى واتخذت منها سبقا صحفيا نشرت عناوينه على غلاف مجلة المصور مدعمًا بصور الفلسطينيين الفدائيين الأربعة فى موقعهم بالمطار والذين كان من بينهم فتاة، وكل هذا يشكل لى سبقا صحفيا فى مهنتى، ولو كنت أنت مكانى لبادرت بل ولحرصت على التواجد للانفراد بهذا السبق الصحفى، وواصل أسئلته وتواصلت إجاباتى فى حدود أنى كنت أمارس عملى الصحفى، لصحيفتى فى القاهرة، ومصر فى حالة حرب مع إسرائيل، وأنا مواطن مصرى أمارس مهنتى الصحفية ويُرصَد فى قائمة وميزان عملى ما أقدم من تحقيقات مصورة عما يقع عليكم من ضربات من الذين أنتم فى حالة حرب معهم، هذا وفى ختام التحقيق، طلب منى التوقيع فرفضت فأثبت ذلك كتابة، وأنا أعلم أنه من المؤكد كان تحت المائدة جهاز تسجيل، وانصرف مع صديقى الشمل الذى فاجأنى أنه عميل لإسرائيل..!، والذى بعد قليل عاد بصحبة اثنين إسرائيليين من أصول لبنانية أو سورية وفق لهجة تحدثهما، وقد طلبا منى جوازى سفرى وزوجتى، لسفرنا غداً إلى

فرانكفورت ومنها إلى إسرائيل، وصعدت إلى الطابق الثاني حيث أخبرت زوجتي همسا في أذنها، حيث سبق أن اكتشفنا فوهات أجهزة تسجيل هنا وهناك في الحجرة، وكانت زوجتي حاملا في شهرها التاسع، فأسعفتني بأن أقول لهما: نائمة مريضة ومتاعب الحمل شديدة، فعدت إليهما أن يمهلاني نحو ساعة لحين تستيقظ، فلما اعترضا تدخل صديقي بأنه مسئول عن إحضار جوازات السفر صباح الغد، فانصرفوا جميعا، وفي الصباح الباكر والسيدة القائمة بالاستقبال منهمكة في إعداد القهوة والشاي وعمليات النظافة، وبعد أن شربنا الشاي وهي التي كانت قد حملت ما كان معنا من أحمال، حقيبتي ملابسي حين وصلنا من براغ، ذكرت لها أننا سنتجول قليلا في الهواء الطلق أمام «الفندق» وبالفعل غادرنا ونحن نمضي في اتجاه بوابة برلين، حيث كانت سيارة متجهة نحو برلين الشرقية، استأذنا صاحبها أن يوصلنا إلى البوابة فوافق، وحين أصبحت وزوجتي مع رجال أمن وجوازات دخول برلين الشرقية، وأخبرتهم أني وزوجتي هاربان من برلين الغربية وأني أطلب القنصل المصري.. صحبوني وزوجتي في سيارة شرطة إلى قيادة الأمن في برلين الشرقية، حيث رويت قصتي في اختصار شديد، وأني أطالب بحضور قنصل مصر، الذي حضر على عجل وصحبنا إلى فندق وسط المدينة، بينما تذاكر الطائرة التي كانت من براغ إلى القاهرة، تم استبدال أخرى بها من برلين إلى القاهرة.

عقب وصولي كنت أروي للواء حسن طلعت رئيس المباحث العامة القصة الرهيبة التي عشتها ما بين براغ وبرلين، وأعطى أحد رجاله اسم «الصديق» العميل طالبا بيانات عنه، وحين راح يطالعها قال لي: هذا عميل مزدوج لنا ولإسرائيل، واتصل بأحد ضباط المخابرات العامة، بعث بي إليه، حيث أعدت على مسامعه القصة كلها، فأخبرني أن نشاطه المعادي لمصر خدمة لإسرائيل، يقوم على تجنيد عملاء جدد لإسرائيل، من بعض شباب مصر المترددين على ألمانيا الغربية، وأنه متنقل ما بين محل إقامته دسلدورف وبرلين الغربية، وأن المطلوب مني أن أظل في مصر وعدم مغادرتها نحو عام.. هذا، وحين وقعت معاهدتا كامب ديفيد والصلح مع إسرائيل، حضر إلى القاهرة وبعد انتهاء زيارته وهو يهم بمغادرتها إلى هولندا حيث يقيم مع زوجته الهولندية وأولاده منها، سقط مغشيا عليه في المطار ونقل إلى هولندا حيث عولج وقد أصبح بعد العلاج شبه مقعد.

تبقى نبذة موجزة عن حياته، كان وطنيا مصريا نقيا، وحين عمل مهندسا بحريا خاض عدة معارك وطنية فى الشركات الأجنبية التى عمل بها، إلى أن التحق بالعمل فى مكتب التفتيش الهندسى فى ألمانيا الغربية بمدينة دسلدورف، لكن لشدة وعمق إدمانه للخمر، جرى فصله لعدم صلاحيته للعمل، وانتقل إلى هولندا للإقامة بها حيث موطن زوجته وأهلها، وواصل إدمانه للخمر يلتقطها من هنا وهناك، حيث لم يكن له من دخل مالى غير ما كانت تتقاضاه زوجته، من معونات اجتماعية لها ولأطفالها، فتصيدته المخابرات الإسرائيلية، وراحت توفر له الخمر وبعض النقود، واقتصرت مهمته على تجنيد من يستطيع خداعه أو غوايته، من الشباب المصرى الزائرين لألمانيا وهولندا فى الموساد الإسرائيلى، هذا الرجل أودت به الخمر والقت به فى قاع الوحل والطين، فقد اشتد به إدمان الخمر، حتى أنه فى سبيل الحصول عليها، ارتمى فى أحضان الموساد الإسرائيلى، لكن المضغة أو الجذور المصرية، جعلته فى حالات إفاقته من الخمر، يحرص على تربية أولاده تربية وطنية مصرية، وهم الذين يحملون الجنسية الهولندية، وطالعت فى بعض صحف مصر مواقف مصرية وطنية لأولاده وقد كبروا وأصبحوا شبابا لم ينسوا جذورهم وأصولهم المصرية من ناحية أبيهم المريض..، قصة درامية تعلن بوضوح نهاية طريق تجرع الخمر، فلم يعد يصلح لأى مهنة أو عمل، وارتمى فى أحضان مخابرات العدو الإسرائيلى، وقد غاب عنه وعيه غيبة مطبقة.. واليوم علمت من بعض من زاروه من أصدقائى، أنه قد استرد وعيه، واستعاد يقظته ووطنيته، وإن كان صحيًا شبه مقعد، إنها قصة درامية حية، عرضتها لمن يعتبر، بما تفسد الخمر النفوس وتخرب الضمير..

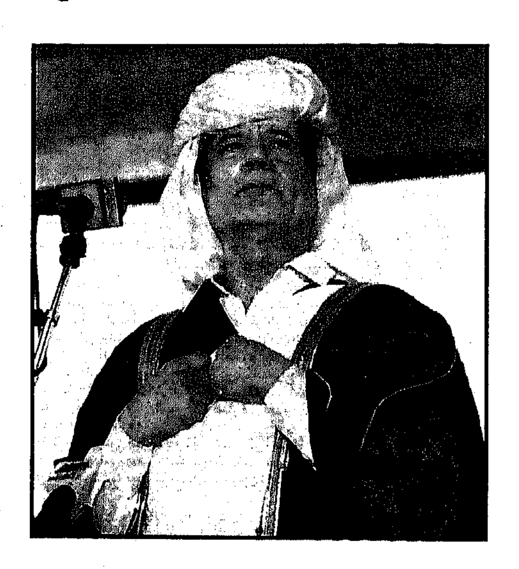
* * *

الفصل العشرون

ذكريات نضالية فى ليبيا

أيام الملك إدريس السنوسى سنة ١٩٥٦

حتى سنة ١٩٦٩ مع ثورة الفاتح من سبتمبر؟



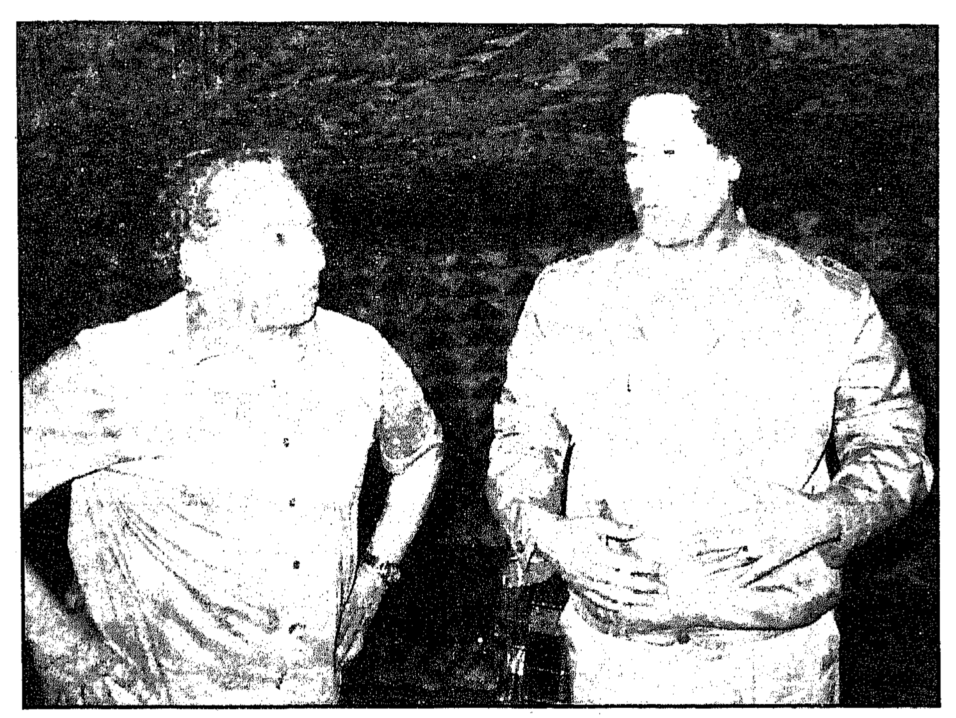
العقيد معمر القذافى



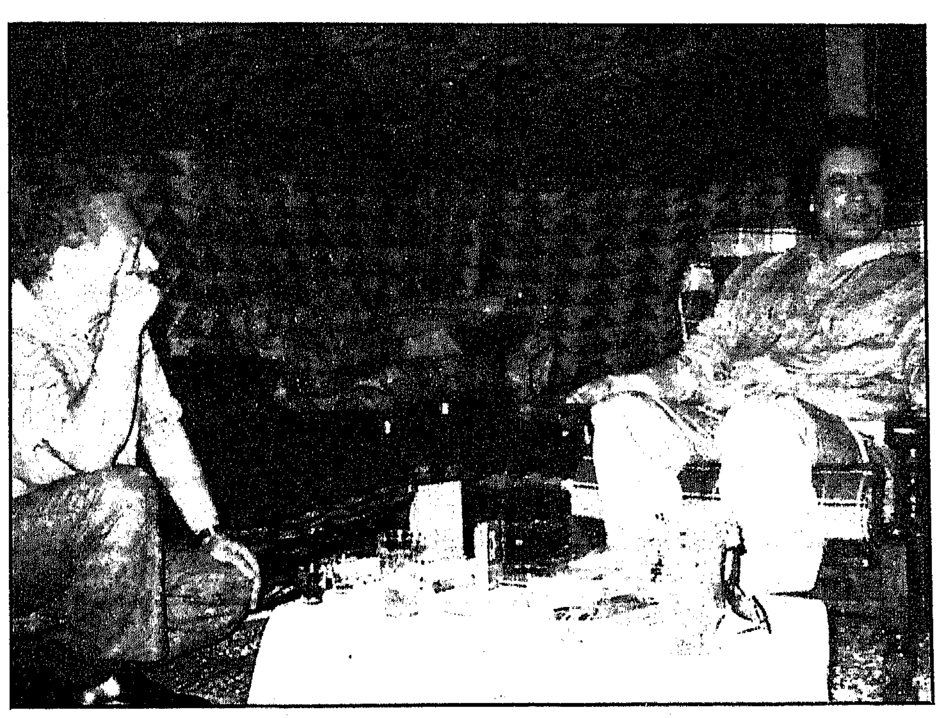
الملك إدريس السنوسى

20

- وشاركت في بنغازى مظاهرات الطلبة ضد الاستعمار
- استخرجت شهادة رسمية بأننى أعمل ساعى فى السفارة المصرية
- القذافى صداع في رأس أمريكا وإسرائيل
- دعم ليبيا يصل إلى جميع حركات التحرر فى أفريقيا وأمريكا وأيرلندا



سعد زغلول فؤاد أثناء زيارته للعقيد القذافى



.. وأخذ العقيد القذافى يتكلم بينما جلس سعد زغلول يستمع باهتمام بالغ!

أعلن عبد الناصر تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦، وأردت زيارة صحفية ونضالية لليبيا، وكان الخروج من مصر يتطلب تأشيرة بالموافقة للخروج من المخابرات العامة المصرية، والتى رفضت منحى هذه التأشيرة، ومصادفة عرفت أن كلية الآداب جامعة القاهرة، على وشك القيام برحلة سياحية لبعض الطلبة الدارسين بها، وكان المسئول عن هذه الرحلة أحد أساتذتها على ما أذكر كان اسمه الدكتور السكرى، قدمنى إليه أحد زعماء طلبة هذه الكلية يدعى «صدقى» كان زميلى فى معتقل هايكستب عام ١٩٤٩، وبالفعل أدرج اسمى فى قائمة أعضاء الرحلة، الذين شملتهم وثيقة سفر جماعية، وأصبحت فى مدينة بنغازى مقيماً فى الفندق الخاص بأعضاء الرحلة.. وتصادف أن كان اليوم التالى لوصولنا، الاحتفال بذكرى تأسيس الجيش الليبى، هذا التأسيس الذى جرى فى مصر، إبان الحرب العالمية الثانية، وكانت إيطاليا تحتل ليبيا.. وبضغوط قوة الاستعمار الفاشى الإيطالى لليبيا تدفق مئات آلاف المواطنين الليبيين على مصر، حيث عاشوا بها إلى أن تحررت ليبيا بعد هزيمة الجيشين الألمانى والإيطالى فى معركة العلمين غربى الإسكندرية، بقيادة الألمانى «روميل»، والذى كان لتمكنه من الوصول بقواته خلال العديد من المعارك فى الصحراء الليبية المصرية التى انتصر فيها على قوات الحلفاء، أن أطلق عليه «ثعلب الصحراء»، وقد انتهت الحرب العالمية الثانية بانتصار الحلفاء (أمريكا - بريطانيا - فرنسا)، وتحررت ليبيا من الاستعمار الفاشى الإيطالى، لكنها وقعت تحت احتلال قوات الحلفاء، الذين قسموها إلى ولايات ثلاث: برقة - طرابلس - فزان فى الجنوب، كل ولاية مستقلة لها حكومتها وبرلمانها، وتجمع بينهم فى طرابلس حكومة اتحادية، تختص بالدفاع والشئون الخارجية، والنظام الاتحادى الحاكم ملكى على رأسه الملك إدريس السنوسى، وتقاسمت قوات الحلفاء المنتصرة المملكة الليبية المتحدة، فالقوات البريطانية فى برقة وكانت عاصمتها بنغازى، والأمريكية فى طرابلس تشاركها القوات البريطانية، وفى الجنوب ولاية فزان وعاصمتها سبها وفيها القوات الفرنسية.. صادف غداة وصولى احتفالات ذكرى تأسيس الجيش الليبى، على ما أذكر ٩ أغسطس من ذلك العام ١٩٥٦.. **وأمام جامعة بنغازى كان الطلبة يتظاهرون ويهتفون بسقوط الاستعمار**، وبحرية واستقلال ليبيا، **ووجدت نفسى أشارك المتظاهرين**

هتافاتهم وإلقاء كلمات مع زعمائهم، وانطلقت نحونا قوات الأمن لتفرقنا، ونالتنى بعض ضربات العصى وأفلت منها، وجاء من يحذرنى من العودة إلى الفندق حيث كان البوليس فى انتظارى بها للقبض علىّ، وتطوع بشير المغيربى الذى كان ذلك الوقت صاحب مكتبة ورئيساً لجمعية عمر المختار لتهريبى إلى طرابلس (ولاية مستقلة استقلالاً ذاتياً)، ووضعنى فى سيارة لنقل الركاب إلى طرابلس، التى تتباعد عن بنغازى ١٥٠٠ كم، كان بالسيارة ركاب ليبيون بملابسهم الوطنية، وقد دهشت حين كانوا فى الطريق يطلبون من السائق التوقف للراحة وسط هذا الطريق الصحراوى الطويل، وما إن يستجيب السائق حتى يغادروا السيارة ويظلوا وقوفاً عدة دقائق، كانت راحة من طول الجلوس.. أصبحت فى طرابلس ونزلت فى فندق بشارع عمر المختار، واتصلت بالسفير المصرى ذلك الوقت أحمد حسن الفقى الذى رحب بى، وتعرفت على صحفى ليبى كان صاحب ورئيس تحرير جريدة الحرية التى كان يصدرها من طرابلس، اسمه محمد عمر الطيشانى والذى أصبح صديقى وسهل لى تحقيقاتى الصحفية عن ليبيا، والتى كنت أنشرها فى مجلة روزاليوسف، والتى كانت تغضب حكومة طرابلس، حتى أنها صادرت أربعة أعداد متتالية بسبب ما تضمنته من رسائلى الصحفية، وكان متعهد توزيع الصحف يدعى «الفرجانى» الذى كان من خلال صديقى هذا، يحتجز لى نسخة من كل عدد مصادر.. وذهبت محتجاً إلى الوزير القائم بأعمال رئيس الحكومة ذلك الوقت مصطفى بن حليم، الذى كان متغيباً فى زيارة لأوروبا، واسم الوزير «خليل قلال» الذى استقبلنى بفتور، ولما سألته لماذا يصادر رزواليوسف، أربعة أعداد متتابعة؟ أجاب: لأنك كتبت أن ليبيا محتلة، فقاطعته قائلاً: ما هى طبيعة تواجد القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية فى ولايات ليبيا الثلاث برقة وطرابلس وفزان؟ وغادرت مكتبه ممتعضاً..

وبعد ذلك أعلنت فى الصحف عن محاضرة ألقيها عن تأميم قناة السويس فى المركز الثقافى المصرى بشارع عمر المختار فى طرابلس، ووجه المركز الثقافى الدعوات لحضور هذه المحاضرة، وفى الموعد المحدد للمحاضرة فوجئت بجدار من جنود الأمن يسدون مدخل المركز الثقافى تنفيذاً لأوامر وزارة الداخلية بمنعى من إلقاء هذه المحاضرة.. فصحبنى عمر الطيشانى فى عربة جيب إلى مدينة سبها عاصمة فزان، حيث سُمح لى بإلقاء هذه المحاضرة، فألقيتها فى قاعة المجلس التشريعى لحكومة فزان،

وكان رئيس وأعضاء حكومة ولاية فزان فى مقدمة الحضور، واكتشفت أنهم من قبيلة سيف النصر المنتشرة ما بين الجنوب الليبى والفيوم بمصر، وكانت سبها أول مدينة فى ليبيا تضاء شوارعها بأنوار لمبات الفلورسنت قوية الإضاءة.. وصحبنى الطيشانى لزيارة مدينة «مرزق» فى الحدود الجنوبية لفزان، حيث وجدت مقابر كُتب على شواهدها أسماء ضباط عثمانيين كانت الحكومة العثمانية قد نفتهم إلى هذه المدينة عقاباً لمواقفهم وأنشطتهم السياسية المعارضة للسلطان العثمانى، وظلوا منفيين بها إلى أن ماتوا الواحد تلو الآخر، وقام الأهالى الليبيون بدفنهم وبناء مقابرهم.. وعلمت أن فى فزان مدينتين فى عمق الصحراء هما غات وغدامس، وأنهما فى عزلة مطبقة لبعدهما عن كل من سبها وطرابلس، ووعورة المسالك الصحراوية إلى أى منهما، وليس من سبيل إليهما غير الطائرات، ونجحت فى زيارتهما وذلك عندما كتب رئيس الإدارة الهندسية فى سبها طلباً إلى قيادة القوات الفرنسية، أن تنقل بطائراتها العسكرية من وإلى قواعدها فى تلك المنطقة، المهندسين المصريين العاملين فى الإدارة الهندسية للكهرباء فى سبها: المهندس سعد زغلول، وآخر مهندس حقيقى، لتأدية مهامهما فى الإعداد لإنارة كل من غات وغدامس بالكهرباء، وجاء الرد بالموافقة، واستقللت الطائرة الفرنسية الحربية مع من كان فيها من جنود فرنسيين إلى لا أذكر غدامس أم غات.. وكانت غدامس شوارعها من طابقين، الأرضى للرجال والعلوى للنساء، وكان مركز الشرطة من جنود من قبائل الطوارق الشديدة المراس، أما الضابط رئيس مركز الشرطة فموفد من وزارة الداخلية فى طرابلس، ولم ألبث حتى اكتشفت أن فى هاتين المدينتين النائيتين، مقاومة سرية مسلحة يترأسها الضابط الليبى وجاويش مركز الشرطة رجل الطوارق شديد المراس، ومن غدامس بعربة الجيب الخاصة بمركز الشرطة انتقلت إلى مدينة غات، وبعثت بتحقيقاتى الصحفية عن فزان بمدنها سبها ومرزق وغات وغدامس، وكنت بذلك أول صحفى ينشر تحقيقات مصورة عن هذه المنطقة فى أقصى الجنوب الليبى، وفى ليبيا لم تصادرها السلطات، فقد كانت الكتابات كلها عن الحياة المعيشية والثقافية والفنية للأهالى.. ومن بعدها عدت جواً من سبها إلى طرابلس..

وبعد أيام من وصولى استقبلت المدينة الملك عبد العزيز آل سعود بمظاهرة حاشدة كانت كل هتافاتها لحرية ليبيا، رافقت موكب الاستقبال حيث كانت تستوعب

الجماهير من مواقعها على جانبى الشارع الرئيسى، ولم يشأ البوليس أن يقمعها لتفرقتها حتى لا يشوه استقبال الضيف السعودى، ولتجنب الهتافات العدائية ضد الحكومة الاتحادية الليبية، التى كانت محل بغض من الشعب، الذى كان يرى أنها وليدة قوى القواعد العسكرية الأمريكية والبريطانية.. ولم تكن المصالح الليبية من أوليات اهتمامها.

فى طرابلس

هذا، وحدث ذات مساء، أن كان سرادق كبير على مدخل أحد الشوارع الجانبية لشارع عمر المختار لإحياء عرس به، كانت مكبرات الصوت تذيع الأغانى والموسيقى على الحضور الذين كان يغص بهم السرادق، واتخذت مكانى بينهم فى مقدمة الصفوف، حيث كان صديقى عمر الطيشانى إلى جوار صاحب العرس الذى كان من معارفه، وطلبت منه إلقاء كلمة تحية للعريس، وما إن أمسكت بالميكروفون، وبعد أن قدمت التهانى للعريس وعروسه، ألقيت خطابًا ناريًا ضد الاستعمار والحكومة الليبية، التى تحمى قواعده العسكرية التى تدنس التراب العربى الليبى، واختتمت كلمتى هذه بالهتاف بسقوط الاستعمار والحكومة الليبية الموالية له، وكان أن غادرت الجماهير السرادق فى مظاهرة صاخبة تهتف بحرية ليبيا وسقوط الاستعمار، والتى سرعان ما تصدت لقمعها وتفرقتها قوات الأمن، بينما أخذ البوليس السياسى يجد فى البحث عنى للقبض علىَّ، لكن مندوب جيش التحرير الجزائرى، كان قد بادر بصحبتى إلى تونس، ومنها عبر الحدود إلى قوات الثورة فى منطقة ولاية سوق أهراس، حيث مارست عملى الصحفى فى متابعة عمليات قتال الثورة، ضد الاحتلال الفرنسى.. إلى أن أذيعت أنباء وقوع العدوان الثلاثى على مصر، بقوات بريطانيا وفرنسا وإسرائيل.. وطلبت من القائد الجزائرى «سى عمارة بوجلاس» سرعة توصيلى إلى السفارة المصرية فى طرابلس، لانتقل منها إلى مصر، حيث كان قد أعلن إغلاق المجال الجوى لمصر، حيث أصبح الطريق البرى ما بين مصر وليبيا، هو السبيل الوحيد إلى القاهرة.. وبالفعل استجاب القائد الجزائرى لمطلبى، وأصبحت فى العاصمة الليبية طرابلس، حيث واجهتنى مفاجآت لم تكن فى الحسبان، ولم تخطر لى على بال، تعاملت معها بكل ترحاب وحماس، وبلادى فى حالة حرب بكل المقاييس والأبعاد، وكنت أتوق للتواجد سريعًا فى مصر، لأشارك فى القتال ضد

المعتدين.. على أرض منطقة قناة السويس، التى سبق أن قاتلت على أرضها قوات الاحتلال الانجليزى، عقب إلغاء معاهدة ١٩٣٦ المصرية الإنجليزية فى أكتوبر ١٩٥١، لكن الأوضاع التى فوجئت بها فى طرابلس أبقتنى بها، إلى أن فشل العدوان الثلاثى، وارتدت جيوشه خاسئة إلى بلادها، وهنا فقط وصلت إلى القاهرة، ولذلك قصة رسمت فصولها الأقدار المجيدة أرويها فيما يلى:

فوجئت بمحاصرة السفارة المصرية بقوات الأمن الليبية بقيادة ضابط كبير، كان على كتفه رتبته العسكرية ثلاثة نجوم وتاج، وعلى ما أذكر كان اسمه الزيتونى.. وعلى باب السفارة كانت سيارات خاصة لنقل الرعايا المصريين القادمين من العواصم الأوروبية فى طريقهم إلى القاهرة، وعلى إحدى الشرفات الأرضية للسفارة، كان يقف أحد موظفيها وفى يده مدفع رشاش، وضعه الملحق العسكرى لحماية السفارة، من أية محاولة حمقاء لاقتحامها من قبل أى عملاء للأعداء المعتدين، وكان ذلك الإجراء مجرد روتين دفاعى فى القاموس العسكرى..

استقبلنى الملحق العسكرى إسماعيل صادق وهو يشد على يدى قائلاً: «حمد الله على السلامة (كان يعرف أنى قادم من الجزائر الثائرة) واستدرك ليقول: «استرح فى الحجرة المجاورة»، فلما قلت: «مفيش راحة، عاوز أروح مصر فوراً بين ركاب هذه السيارات المغادرة إلى القاهرة»، فسألنى: «لماذا؟»، أجبت: «عشان أحارب ضد المعتدين»، فقال: «حارب هنا، الطائرات البريطانية المغيرة على مصر، تنطلق من مطار العضم هنا»، والقاعدة الخلفية للعدوان هنا.. الشعب الليبى كله مع مصر ضد المعتدين والحكومة الليبية الموالية للمعتدين والتى تحاصر السفارة المصرية، الحصار الذى لم تفرضه حكومات العدوان على أى من سفارتى مصر فى لندن وباريس.. حارب هنا والشعب الليبى كله مع مصر، وبذل الكثير من التضحيات فى مواجهة مع قوات الأمن.. ولدينا عدد لا يحصى من طلبات التطوع فى الجيش المصرى دفاعاً عن مصر.. حارب هنا..»، ووافقت.. فكان ما يأتى:

عمل لى شهادة رسمية بصورة لوجهى، أنى أعمل فى السفارة «مباشر»، أى «ساعى».. وبهذه الصفة ستنتقل من وإلى السفارة فى المدينة، وبدأنا العمل.. غادرت السفارة وفى يدى سلة مغطاة بقطعة قماش بيضاء، وعند الحاجز الأمنى

اعترضنى الضابط الزيتونى، فلما أطلعته على الشهادة الدالة على أنى أعمل ساعيًا فى السفارة المحاصرة، سألنى متعجبًا: «كيف هذا، أنت صحفى فى جريدتين روزاليوسف وصباح الخير، كيف الشهادة هذه تقول إنك مباشر؟!»، فأجبت: مصر فى حالة حرب، وحكومتى جندتنى مباشراً فى سفارتها هنا، الحكومة وما ترى، تجندنى جنديًا مقاتلاً، أو جندى خدمات، وكما ترى أصبحت فى الحرب مجنداً فى الخدمات»، غادرته إلى المدينة وهو يضرب كفًا بكف.. وأسرعت إلى صديقى الصحفى الليبى أخبره بأمرى الجديد، وكانت المنشورات الثورية السرية توزع هنا وهناك، وطلبت منه أن يعرفنى ببعض الشباب الليبى ليتلقى منى ما سيجرى طبعه من منشورات فى السفارة فعرفنى بتلميذ فى المدارس الثانوية الليبية يدعى راسم بن عتمان واتفقت معه على موعد يومى ومكانه المحدد، حيث غادرت السفارة بسلة ممتلئة بمنشورات ضد العدوان الثلاثى وضد حكومة بن حليم الليبية، وكان التوقيع «الجمعية الثورية الليبية» تسلمها راسم وراح وزملاؤه يوزعونها، وفى كل مرة لعودتى إلى السفارة، كانت السلة تكون مليئة بالخضراوات والفاكهة واللحم، وقد كشفت عن جزء منها من قطعة القماش البيضاء التى كانت تغطيها، ولم يكن فى أمرى هذا الجديد ما يدعو إلى الريب أو الشكوك من قبل قائد الحصار على السفارة، حيث إن الملحق العسكرى وموظفى مكتبه، كانوا مقيمين فى السفارة ويبيتون فيها، وكنت فى ذلك معهم، وكانت ترد سراً إلى الملحق العسكرى من بعض المناضلين الليبيين دون توقيع، كتابات خطية ثورية يقوم بطبعها فى السفارة، يتسلمها منى راسم وعمر الطيشانى ضد حكومات العدوان الثلاثى وتأييداً لمصر، حيث يقومان بتوزيعها.. إلى أن تصاعد الملحق العسكرى فى نشاطه هذا، حيث انتقل إلى مرحلة أكثر خطورة وأعلى صوتًا وأشد أثرًا، حيث بدأ يسلمنى متفجرات: عبوات ناسفة وأصابع جلجنايت وديناميت ومفاتيح التفجير وفتيل المتفجرات، لضرب المؤسسات العسكرية والإعلامية البريطانية فى طرابلس، وبالفعل تسلم راسم هذه المتفجرات تباعًا بعد كل عملية، فمعًا يداً فى يد قمنا بإلقاء عبوة ناسفة صغيرة، حيث ألقيناها فى مطبعة جريدة إنجليزية كانت تصدر فى طرابلس باسم «سَنْ داى جبلى»، ومن بعد قام «راسم» وحده بإلقاء متفجرة على مركز التشويش على إذاعة صوت العرب، وتبعها بتفجير «ربطة» أصابع جلجنايت على حافة الأسلاك الشائكة لسور معسكر

العزيزية البريطاني، وقد أفهمته أن الأمر في ذلك إحداث دوى التفجير كصوت احتجاج لا أكثر.. وسلمته بقية ما كان لدى الملحق العسكرى من متفجرات ليقوم وحده بتفجيرها فيما ينتقى من مراكز عسكرية بريطانية، وكان العدوان الثلاثى قد توقف، وظللت معتصمًا في السفارة، حيث أصدرت الحكومة الليبية قرارًا بإبعاد الملحق العسكرى إسماعيل صادق وإبعادى معه إلى القاهرة.. وجاء قرار القيادة العسكرية المصرية بتنفيذ القرار الليبى والعودة إلى القاهرة، انطلقت سيارة الملحق العسكرى من موقعها أمام السفارة المصرية فى طرابلس إلى القاهرة، اتخذ مقعده على مقعد عجلة القيادة فهو الذى يقودها، وإلى جواره زوجته، بينما اتخذت مكانى فى المقعد الخلفى، بينما امتلأت الحقيبة الخلفية للسيارة بأوراق وحقائب الملحق العسكرى ولم يكن معى أية حقيبة.. انطلقت السيارة ومن خلفها سيارة بها الضابط الزيتونى، تتلوها شاحنة مليئة بالجنود شاهرين أسلحتهم، ولطول الطريق توقفنا في محطات البنزين للتزود بالوقود للسيارة، ولهول الموكب العسكرى المسلح للترحيل، كان الأهالى يتجمعون لمشاهدة ما لم يروه من قبل، خاصة أن سيارة الملحق العسكرى الدبلوماسية كان يعلو مقدمتها على جانبيها العلم المصرى، فكان الملحق العسكرى يلقى خطابًا حماسيًا ضد العدوان الثلاثى الفاشل وضد حكومة مصطفى بن حليم صاحبة قرار الترحيل، فى كل محطة بنزين يتوقف فيها على طول الطريق الطويل، وعند المرور بالمدن والقرى الواقعة على جانبى الطريق.. وأخيرًا اجتزنا مدينة طبرق فى برقة، ومنها إلى مركز للجمارك والجوازات على الحدود كان يسمى «كبتنرو»، آخر نقطة للتراب الليبى على حدود مصر الغربية.. حيث استوقفنا الضابط الزيتونى، الذى كان قد أمر جنوده الذين كانوا فى الشاحنة من خلف سيارتنا، بالالتفاف حول سيارتنا شاهرين أسلحتهم، ومتخذين أوضاع ضرب النار، أى إطلاق الرصاص علينا فور صدور الأمر بذلك، تقدم الضابط الزيتونى وقال لإسماعيل صادق الملحق العسكرى: «لدىّ أوامر بتفتيش سيارتك، وسأقوم بذلك سواء برضاك أو رغمًا عنك بالقوة، وفى هذه الحالة ستلقى ومن معك مصرعكم وأنت ترى أسلحة الجنود موجهة إليكم.. هنا انفعل الملحق العسكرى وأمسك برشاشه سريع الطلقات وهو يقول بأعلى صوت:

«انت عساكرك هيضربوا طلقة طلقة، وأنا بمدفعى الرشاش سأطلق فى الدفعة

الواحدة أربعين طلقة.. الزم حدودك وبلاش تعمل مذبحة سيكون أول ضحاياها أنت وجنودك هؤلاء الأبرياء..»، وهنا وقعت مفاجأة إذ فوجئنا بقوة من الجيش المصرى قدمت عبر الحدود فى السلوم أحاطت بنا وبالزيتونى وجنوده، الذى بادر برفع يديه عاليًا معلنًا استسلامه، ثم تقدم إلى حيث كان الملحق العسكرى يتحدث مع الضابط المصرى، وأبدى لهما التحية العسكرية، وسحب جنوده عائداً معهم إلى طرابلس، بينما توجهت والملحق العسكرى وزوجته مع الضابط المصرى وجنوده إلى السلوم وسط تحيات وتصفيق رجال الجمرك والجوازات الليبيين..، وعرفنا ما حدث، فقد أسرع أحد العاملين الليبيين فى مركز الجمرك، بإبلاغ قائد قوات الجيش المصرى فى مدينة السلوم بما كان يجرى مع الملحق العسكرى فأبرق المشير عبد الحكيم عامر إلى قيادة قواته فى السلوم على الحدود يقول: «أنقذوا الملحق العسكرى ومن معه».. ومن السلوم وصلنا إلى القاهرة، وفى مجلة روز اليوسف لم يسمح الرقيب بنشر كتاباتى عن رحلة العودة من طرابلس إلى القاهرة، فقد كانت العلاقات المصرية الليبية فى طريقها إلى التحسن، وعندما تم ذلك خاصة عقب خطاب للرئيس عبد الناصر فى المنيا، أشاد فيه بالعلاقات التاريخية بين مصر وليبيا وبالملك إدريس السنوسى، كان أول مطالب الملك ضرورة فصل الملحق العسكرى إسماعيل صادق، ونفذ عبد الناصر المطلب الملكى الليبى.. وهنا أصيب الملحق العسكرى بالإحباط والعصبية، فأبرق إلى عبد الناصر يقول: «أنقذنى من السجن الكبير الذى هو مصر، وأودعنى فى السجن الحربى»، فأشر الرئيس «يجاب إلى طلبه»..!، فأودع السجن الحربى، وبعث منه برقية يطلب إطلاق سراحه فأفرج عنه.. وجاءنى فى مجلة روزاليوسف حيث قال: إنه افتتح مكتبًا للتصدير والاستيراد، وساعده أحد أصدقائى فى تصدير كمية من الفول السودانى اليابس.. لكنه لم يستطع إتمام الصفقة إذ فاضت روحه ومات..

هذا وبصدد المناضل الشاب الصغير راسم بن عثمان، فقد قبض عليه متهمًا بارتكاب كل ما وقع من تفجيرات فى طرابلس، وتبنيت قضيته فى مجلة روزاليوسف، وحين جاء محاميه فى زيارة قصيرة للقاهرة، عرفت أنه ابن أكبر أثرياء ليبيا، وأحد ألمع رجال القمة فى المجتمع الليبى.. ولم يلبث أن أُفرج عن راسم بن عثمان الذى حضر إلى القاهرة، حيث استدعاه «سامى شرف» مدير مكتب

المعلومات برئاسة الجمهورية، وأبلغه تحيات وتقدير الرئيس جمال عبد الناصر، وحين هم بتقديم مظروف به مبلغ كبير من المال وهو يقول: «مكافأة لجهادك من الرئيس»، استنكر راسم وعنف فى كلمات استنكاره وانصرف ولم يلتق بأى مسئول مصرى، وكان قد تعرف على صحفى مصرى فاضل، فتزوج ابنته وأنجب منها ولدين.. وعاد إلى طرابلس وسكن فى قصر والده الذى ورثه عنه، وتزوج من ليبية هى شقيقة زوجة الرائد عبد السلام جلود، وأنجب منها حيث يعيش سعيداً معها...

لكن أصحاب القلوب المريضة النابضة بالحقد والحسد، ممن يشغلون مواقع أمنية خاصة بحماية الثورة، ألقوا القبض عليه بتهمة «معاداة الثورة» وعبثًا حاولوا حمله على الاعتراف كذبًا بهذه التهمة، فافرج عنه حيث افتتح مكتبًا للتصدير والاستيراد بين ليبيا ومصر، حيث يعيش فى شبه عزلة عاكفًا على الإكثار من أداء الفروض والنوافل الدينية، وعلاقاته الاجتماعية قاصرة على الأقرباء وبعض الأصدقاء القدامى.

إن قصة راسم بن عتمان فى ليبيا، هى قصة كل مجاهد صادق من أجل الحرية، فما إن تتحقق بثورة كان من أبرز صناعها، وتمسك الثورة المنتصرة بمقاليد الأمور، حتى يتسلقها الانتهازيون، والذين يجهدون فى إقصاء كل مجاهد جاد بذل الدم والعرق على الساحة السياسية والعمل العام، وفى هذا الصدد نجد الصحفى محمد عمر الطيشانى الذى كان يصدر قبيل الثورة جريدة «الحرية»، يعيش على هامش الحياة فى طرابلس، حقًا ما ردده الحكماء..

الثورة يصنعها الثوريون ويجنى ثمارها الانتهازيون!

* * *

الجماهيرية الليبية

بعد عامين من هزيمة يونيو ١٩٦٧، انبثقت ومضة مضيئة فى سماء الوطن العربى، حيث قامت الثورة الليبية فى أول سبتمبر ١٩٦٩، والتى أطلق عليها « ثورة الفاتح من سبتمبر»، التى استولت فيها مجموعة من ضباط الجيش الليبى الوطنيين والشبان الثوريين، بقيادة العقيد معمر القذافى على الحكم، لتبدأ ليبيا عصراً جديداً من التقدم والبناء، وإجراء تغيرات جذرية تقدمية فى المجتمع الليبى، بدأت بتمكين الثورة من تحرير ليبيا من القواعد العسكرية الأجنبية.. وحملت فى سياستها الخارجية شعار ضرورة تحقيق الوحدة العربية ومقاومة الاستعمار فى كل مكان، ودعم ومناصرة حركات التحرر الوطنى، وقد تضاعف بصورة كبيرة الدخل القومى وقد أممت البترول الليبى، وأصبحت عائداته فى الخزانة الليبية.. أحسنت الثورة استثماره فى عمليات تنمية هائلة لمدن وقرى وأقاليم ليبيا ..، وغمرت المشروعات العمرانية كل الأراضى الليبية، كما شيدت مجموعات ضخمة من المبانى السكنية الحديثة، انتقل لشغلها السكان الليبيون، بعد أن هجروا بيوتهم الهشة العتيقة ذات الأنظمة الهندسية الريفية.. وحظرت الثورة السكن بالإيجار، وقد منحت ملكية المساكن بالمجان لشاغليها، تحت شعار البيت ملك لساكنه، وارتفع الدخل القومى فارتفع دخل الفرد.. وبنيت المدارس والجامعات الجديدة، وانتدبت إليها أساتذة ومعلمين من مصر وسوريا والعراق، وفرضت مجانية التعليم من ليبيين وعرب..، وتوسعت المنح الدراسية للطلاب الوافدين العرب، ومنح مرتب مالى شهرى لكل طالب من هؤلاء بالإضافة إلى السكن المجانى، كما فتحت ليبيا أبوابها على مصاريعها للعاملين العرب فى مختلف وظائفها الحكومية ومؤسساتها الاقتصادية والإنشائية والتجارية، وللفلاحين المصريين لزراعة الأراضى، وقد التقيت ببعض هؤلاء فى مواطن مزارعهم، وقالوا لى « نحن هنا شركاء لا أجراء .. إلخ مظاهر التطور العمرانى التقدمى الكبير».

هذا، ومن ناحية أخرى، فتح العقيد القذافى أبواب ليبيا وخزائنها لدعم كافة حركات التحرر العربى والافريقى وحتى الأوروبى فى إيرلندا.. ومن خلال ذلك تسللت بعض العناصر الانتهازية، واغترفت الكثير من الأموال لدعم نضال مزعوم ضد استبداد موهوم أو حقيقى لكن دون القيام بأية أعمال نضالية جادة .. والبعض تقاضى أموالاً سخية بدعوى الحفاظ على تراث عبد الناصر فى مصر، فأقام المطابع

والمنشآت الإعلامية فى القاهرة وأصبح من كبار الأثرياء .. لكن ما أقوله فى النهاية، إن الثورة الليبية أنفقت الكثير من الأموال في دعم حركات التحرير فى الوطن العربى وإفريقيا، بعضها كان جاداً وصادقًا وأمينًا .. كما أقامت الثورة « مؤتمر الشعب العربى »، منظمة شعبية عربية تهدف إلى تحقيق الوحدة العربية من خلال الوحدة الثقافية وتكامل وترابط المصالح الاقتصادية العربية، ومضت بعقلانية فى سلوك الطرق المؤدية إلى ذلك الهدف برئاسة مناضل صلب نقى عربى حتى النخاع عمر الحامدى، للتمكن من توحيد عمل المنظمات والأحزاب العربية فى كفاحها من أجل أهداف عربية متفق عليها، وفى مقدمتها الكفاح من أجل تحرير فلسطين والأراضى العربية المحتلة .. ونشط مؤتمر الشعب العربى، فى تجميع قيادات النضال التحررى فى مختلف أنحاء الوطن العربى، واجتماعهم فى مؤتمرات يدعون لحضورها، والمشاركة معًا فى تناول القضايا العربية، وكان ذلك عملاً إيجابيًا صائبًا، حيث كان زعماء وقادة الأحزاب والمنظمات العربية، حول مائدة واحدة وفى قاعة اجتماعات واحدة، يتناولون معًا القضايا العربية الساخنة الحالية وتلك المزمنة القائمة .. وفى هذه المؤتمرات والاجتماعات كانت تتوحد الإرادات والكفاح من أجل الأهداف التحررية العربية .. وفى كل هذه المؤتمرات كان العقيد القذافى يلقى خطابات حماسية نارية ضد قوى الاستعمار والصهيونية وضد نظم الاستبداد وموالاة الهيمنة الأمريكية، فهو الثائر العربى الذى حمل على عاتقه كفاح التحرر الوطنى والديمقراطى فى الوطن العربى وافريقيا، كما كان دائم الاجتماع بقيادات الأحزاب والمنظمات العربية، يتدارس معهم سبل وأوجه الكفاح من أجل التحرر بشقيه الوطنى والديمقراطى .. وكانت تعجبنى كثيراً الكلمات والنداءات الثورية التى كان يلقيها فى الجماهير العقيد القذافى ومساعده الرائد عبد السلام جلود، والذى قلت له يومًا « إن كلماتك تلك فى الجماهير هى نفسها التى كنت حين أرددها فى كلمات ألقيها وسط الجماهير بالقاهرة أو مكتوبة فى الصحف، أعاقب عليها بالفصل أو الاعتقال .. »!

هذا وقد وصل دعم العقيد القذافى لحركات التحرر إلى جنوب افريقيا ونلسن منديلا فى سجنه، وإلى منظمات الزنوج والهنود الحمر فى أمريكا وثوار أيرلندة .. إنه ليس فقط زعيم الثورة والثوار العرب، وإنما أيضًا لجميع حركات التحرر فى كافة أنحاء العالم .. إنه بحق الزعيم الثورى الأممى .. داعية احترام وتحرير الإنسان فى كل

مكان.. حتى أن أمريكا فى عهد ريجان قصفت طائراتها الحربية العديد من مدن ليبيا وسقط العديد من الضحايا المدنيين ومن بينهم ابنة العقيد القذافى (بالتبنى).

جانب آخر مهم فى أوصاف شخصية العقيد القذافى هو الزهد والتواضع، فهو رئيس الدولة وزعيم الثورة، من المفترض أن يكون مقر سكنه ورئاسته قصراً فاخراً منيفاً، يتناسب وعظمة حاضر الدولة وعراقة تاريخها وتراثها، لكنه ابتعد عنه وزهد فى سكن القصور، واتخذ من الخيمة البدوية مقراً لمسكنه وعمله الرئاسى .. لماذا؟، ليكون المثل فى التواضع ونبذ البذخ فى المساكن.. تماماً مثلما كان يفعل زعيم الهند التاريخى «غاندى» من إزار لملابسه ومخدع بسيط خشن لنومه..

مرات عديدة التقيت به وتحاورت معه، وأحد هذه الحوارات المطولة نشرته على صفحتين فى جريدة العرب اللندنية حيث كانت صحف مصر فى ظل الخصومة التى كانت بينه وبين السادات ساخنة، لا تنشر عن القذافى غير الهجوم.. وحدث خلال وطيس هذه الخصومة، أن أراد القذافى أن يوجه ضربة للاقتصاد المصرى، فامر برحيل كل العاملين والمقيمين المصريين إلى مصر (نحو مليون شخص)، فاسرعت إلى ليبيا، حيث توجهت فور وصولى إلى ميناء طرابلس، حيث كانت السفن تنقل المرحلين إلى الإسكندرية، سفن أخرى فى ميناء بنغازى للنقل إلى الإسكندرية، شاهدت على رصيف الميناء تكدس المرحلين ببعض الثمين من ممتلكاتهم، لكن كان رجال جمارك وشرطه الميناء يصادرون الأجهزة الكهربائية من تليفزيونات ومسجلات وحتى المكواة الكهربائية، وكان يحيط بالمرحلين بعض التجار المستغلين الذين راحوا يشترون التليفزيون بخمسة دنانير، يشترى بها البائع المرحل أطعمة من الميناء لسد حاجته الغذائية خلال السفر بحراً إلى الإسكندرية، ومن الميناء توجهت إلى العقيد القذافى حيث شكوت له عمليات مصادرة الأدوات الكهربائية من المرحلين، وقلت له: «العامل أو الفلاح المصرى، الذى بذل الجهد والعرق سنوات إقامته فى ليبيا، يحمل فى يده وهو مرحل إلى مصر جهاز تليفزيون أو مسجلاً أو مكواة، هو الذى غادر به ليبيا ذكرى حصيلة سنوات ما بذل من جهد وعرق فى أرض ثورة الفاتح، ينزع من يده على رصيف الميناء ليتلقفه استغلالى متربص من التجار الليبيين المحتشدين فى الميناء للتربح من بلاء هؤلاء الأبرياء المطرودين من أرض ثورة الفاتح أرض كل العرب»،

قال فى نغمة حزينة: «تلك عملية سياسية ضد السادات وفى نفس الوقت ضربة فى نظامه اقتصادية»، ثم أمر بعدم مصادرة أية آلات أو معدات كهربائية من المرحلين. ونفذ الأمر فور صدوره..

هذا وكان أمر الترحيل قد استثنى المدرسين والأساتذة والأطباء والمهندسين المصريين، وفى اجتماع لمؤتمر الشعب العام (البرلمان) برئاسة القذافى، صاح أحد الأعضاء محتجًا بعدم ترحيل المدرسين والأساتذة المصريين مطالبًا باستدراك هذا «الخطأ» فى قرار الترحيل، فرد عليه القذافى قائلاً:

الذين علموك وعلمونى وعلموا كل المجتمعين هم المدرسون المصريون الذين تجلّهم الثورة وتحترمهم.. واليوم تحتضنهم أكثر مما قبل، حيث إنى أدرك مدى معاناتهم لمشاعرهم الحزينة تجاه خلو طرابلس من العمالة المصرية..

وبعد، إننى أؤمن بثورية العقيد القذافى، والتى كانت قد تجلت فى الأيام القليلة الماضية تجاه مؤتمر القمة العربية الذى خصص لمواجهة ارتكاب العدو الإسرائيلى جرائم الإبادة الجماعية ضد الشعب الفلسطينى فى انتفاضته دفاعًا عن المقدسات الإسلامية والمسيحية فى القدس، حيث كانت فى يده مسودة القرارات المعدة لإصدارها، ولم يكن من بينها قرار عقابى يردع إسرائيل وحماتها الأمريكيين، بما فى ذلك قرار بالمقاطعة الاقتصادية لكل من إسرائيل وسندها الأمريكى، ومن هنا رفض حضور مؤتمر القمة العربية هذا، الذى عقد فى القاهرة يومى ٢١ و٢٢ أكتوبر ٢٠٠٠، والذى انسحب من جلساته الوفد الليبى، لعدم مواءمة قراراته، لبشاعة ووحشية ما ترتكبه إسرائيل من جرائم الإبادة الجماعية للشعب الفلسطينى.. وإن كنا نقول: إن ما اتُّخذ من قرارات دعم مالى سخى للشعب الفلسطينى، تمكنه من الاعتماد المعيشى على موارده ومؤسساته الخاصة، وتوقف قوى الإنتاج الفلسطينية عن العمل فى إسرائيل، قرار إيجابى يدعم كفاح الشعب الفلسطينى من أجل تحرره الوطنى، ويزيد من توهج شعلة المقاومة الفلسطينية للعدوان الإسرائيلى المستمر، تلك المقاومة التى تساندها الشعوب العربية والإسلامية بمختلف السبل المتاحة اليوم والتى ستتوسع ساحتها غدًا، وفق ما يستجد مستقبلاً من ظروف وأوضاع دولية وإقليمية فى صالح التحرر الوطنى والديمقراطى، والتى من المحتم أن تقود إلى انتصار الشعب الفلسطينى.



حوار مع العقيد معمر القذافى .. وحدة االأمة العربية أمل كل وطنى وعربى

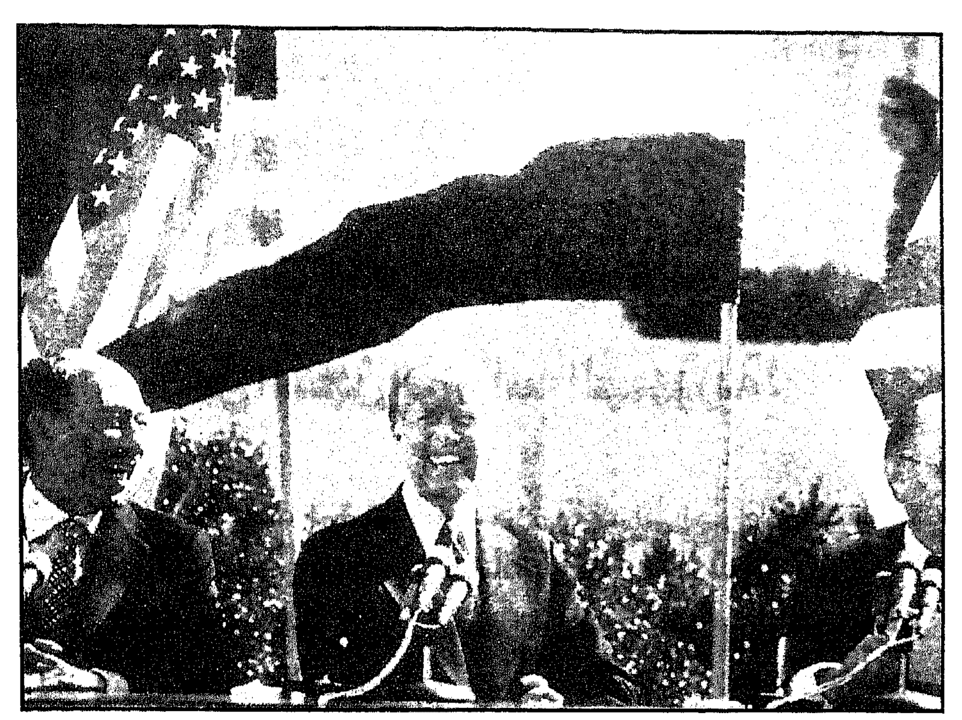
الفصل الحادى والعشرون

أنا والرئيس السادات

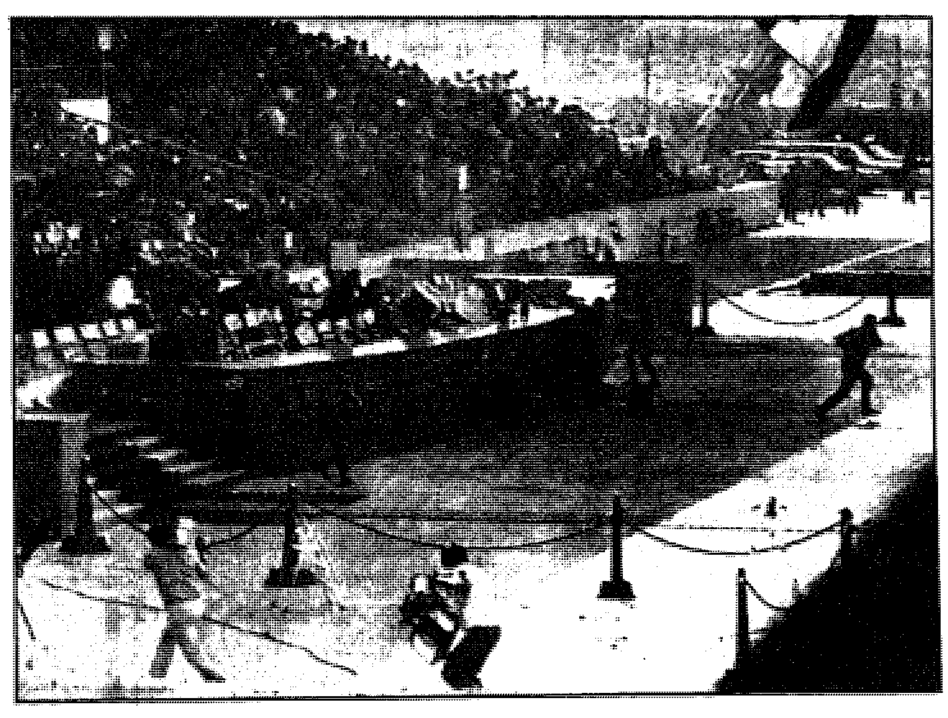
من السجن إلى رئاسة الجمهورية!

- عندما ضربت الرقيب العسكرى وأعد لى إجراءات انتقامية ومحكمة عسكرية، أنقذنى السادات وأجاز نشر المقال
- رغم شدة حملتى الإعلامية ضد السادات واعتراض وزير الداخلية بعث إلىّ بأطفالى وزوجتى فى منفاى الاختيارى
- أجهضت أسئلتى مؤتمرا صحفيا للرئيس السادات فى بغداد
- رغم خلافى معه أقول: كان عبقريا فى السياسة وطنيا حتى النخاع
- لو استجاب الفلسطينيون لندائه لما عانوا تعثر مفاوضاتهم للسلام..
- عندما شاهدت عملية دفن السادات فى التليفزيون الفرنسى، وجدتنى أبكى بلا شعور
- خالد محيى الدين: السادات كان الوحيد بيننا فى مجلس قيادة الثورة الذى يفهم فى السياسة
- مقال رفضه الرقيب كان سببا فى هجرتى من مصر!

21



صورة السادات مع الرئيس الأمريكى كارتر ومناحم بيجين بعد توقيع اتفاقية كامب ديفيد



ودفع السادات الثمن - وكان حادث اغتياله فى حادث المنصة فى عام ١٩٨١

كنت صديقا للسادات منذ أن كنا زميلين فى زنازين متقاربة بسجن مصر لمدة ثلاث سنوات قبل الثورة.

وعندما تولى السادات حكم مصر اختلفت معه حول عدد من القضايا الداخلية، وسافرت إلى بغداد حيث رحت أهاجمه فى صحفها وخصوصا عندما بدأ الإعداد لزيارة القدس.

والآن.. وبعد مرور ٢٠ سنة على رحيل السادات فإننى اعترف وأدلى بهذه الشهادة للتاريخ:

– سياسة السادات الخارجية اتسمت بعبقرية التخطيط والمهارة والحنكة فى التنفيذ، فقد نجح تماما فى تحرير الأرض واستعادة سيناء بالكامل، وإن اتفاقية «كامب ديفيد» ومعاهدة الصلح مع إسرائيل كانت لصالح الفلسطينيين لكنهم رفضوها، وليس عجيبا ما نراه اليوم بالتالى من صعوبات وتعقيدات يختلقها الإسرائيليون فى مفاوضات السلام المتعثرة.

وفوق ذلك كله كان السادات إنسانا بمعنى الكلمة وله الفضل فى لم شمل أسرتى فى الغربة، ولذلك بكيت عليه وأنا أشاهد حادث المنصة على شاشة التليفزيون الفرنسى عام ١٩٨١.

وأذكر عقب رحيل عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٧٠، أننى فرحت بتولى السادات حكم مصر، فقد كنت على صلة وثيقة به منذ انتصار الضباط الأحرار وتوليهم الحكم فيما عرف بثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، فمعرفتى به تبدأ حين كان زميلى فى السجن على مدى ثلاث سنوات (من عام ٤٧– ١٩٥٠) فى زنازين متقاربة فردية ومنعزلة عن بقية الزنازين، وإن كنا فى محابسنا هذه مفاهيمنا السياسية كانت متعارضة، فالسادات كان فى مجموعة حسين توفيق الذى قتل أمين عثمان بينما أنا كنت فى مجموعة المتهمين بقتل الإنجليز العسكريين، هذا، وكان لفرحتى بتولى السادات الحكم أنه كان قد تمرغ فى الحياة وفى الحركة السياسية الوطنية، فقد كان على صلة برجال الأحزاب السياسية عدا الوفد، وأنه حين فُصل من الجيش واعتُقل ثم هرب، عانى قسوة الحياة والجوع والتشرد، واحترف مهنًا متنوعة عديدة للظفر بالمآكل

والمسكن، وخالط خلال ذلك المطحونين الكادحين من المواطنين، كما خالط الأثرياء ورجال المال والأعمال، فهو رجل عركته الحياة، يكون الأصلح والأنجح فى حكم مصر..

وكما ذكر خالد محيى الدين فى مذكراته، كان السادات هو الوحيد فى مجلس قيادة الثورة الذى يفهم فى السياسة..

وفى عام ١٩٥٣ كان هو المشرف على الرقابة على الصحف، وكان يحلو له أن يصحبنى ليلا فى مروره على الصحف، حتى أنى كنت يوما برفقته فى مراجعته للبروفات الأخيرة لصحيفة أخبار اليوم، واقترب منى سلامة موسى يسألنى إن كنت أعمل فى الرقابة، فنفيت وأننى فقط أرافق السادات تلك المرة لمواصلة حوارى معه حول ضرورة السماح بمواصلة الفدائيين عملياتهم ضد القواعد الإنجليزية فى منطقة القنال، والتى كانت قد توقفت بوقوع حريق القاهرة وإعلان الأحكام العرفية (قانون الطوارئ).. وأحد هذه الحوارات جرى فى مكتب إحسان عبد القدوس فى روز اليوسف بعد الغروب، واستمر حتى الواحدة صباحا، حتى أن صاحب المكتب ترك لى مفتاح مكتبه وغادر إلى بيته بعد ان أوصانى بإغلاقه وتسليم المفتاح إلى الخفير الليلى للمجلة، ولم تسفر هذه الحوارات عن السماح لمنظمات الفدائيين بمواصلة كفاحهم الشعبى المسلح ضد قوات الاحتلال.. ومن خلال علاقتى هذه بالسادات كمشرف على الرقابة على الصحف، وكان هذا الإشراف بالتناوب مع وجيه أباظة، أحد القيادات المبكرة لتنظيم الضباط الأحرار، وزميلى فى الكفاح المسلح ضد قوات الاحتلال فى منطقة القنال عام ١٩٥١ ويناير ١٩٥٢، من خلال صلاتى هذه بكل منهما، كنت على معرفة دقيقة بتعليمات الرقابة، فيما يسمح ولا يسمح بنشره، وبسبب مقال لى فى جريدة الجمهور المصرى، كدت أن أُعدم او أُسجن طويلا مع التعذيب المسبق للحكم بالسجن، لولا مبادرة السادات بإنقاذى فى اللحظة الأخيرة، وهوما أرويه هنا بالتفصيل..

مقال ضد الإخوان

كان الصراع السياسى محتدما ساخنا فى الجامعة، خاصة فى تلك الفترة من انتخابات الاتحاد العام لطلبة الجامعة، حيث كان التنافس بين مرشحى الإخوان المسلمين بزعامة حسن دوح، ومرشحى القوى الديمقراطية بزعامة أحمد الخطيب،

وكان التصويت محددا له يوم الاثنين، وهو الموعد الأسبوعى لصدور جريدة الجمهور المصرى، التى كانت تصدر فى حجم وعلى نسق جريدة أخبار اليوم، وكتبت مقالا انتخابيا شغل الصفحة الثالثة بأكملها، هاجمت فيه جماعة الإخوان المسلمين، ودعوت إلى عدم انتخاب مرشحيهم والانتصار للقوى الديمقراطية، وأمر رئيس التحرير المسئول عن التوزيع، بوضع كميات كبيرة من أعداد الجريدة على مختلف أبواب الجامعة، وبعد الغروب قصدت إلى حيث كانت تطبع الجريدة، ففوجئت بأن الرقيب العسكرى قد صادر المقال ومنع نشره، ولما حاولت أن أراجعه فى قراره نهرنى وأمرنى أن أغادر مكتبه وهو يطردنى بكلمات نابية، فوجدتنى أنهال على وجهه باللكمات وأسرعت إلى المطبعة لأتصل تليفونيا بالقائم بأعمال نقيب الصحفيين (أحمد أبو الفتح) رئيس تحرير جريدة المصرى، وقلت له أن ينقذنى حيث الرقيب العسكرى طلب البوليس الحربى للقبض علىّ وما سيرافق ذلك من اعتداء على بالضرب غير تقديمى لمحكمة عسكرية، وأبدى أبو الفتح تعجبه وهو يسألنى: لماذا تتوقع كل هذا؟ فلما قلت له «ضربت الرقيب العسكرى وسيحت دمه»، فقال «تضرب الرقيب العسكرى ممثل الثورة، عايزنى أعمل إيه» وأغلق التليفون!

ذهبت للسادات فى السينما

رحت أبحث عن السادات فلم أجده فى بيته ولا فى القيادة، وعرفت أنه فى سينما ريفولى بصحبة رئيس سوريا أديب الشيشكلى، وكانت معى بطاقة من مجلس قيادة الثورة تتيح لى دخول مقرات اجتماعاتهم.. وفى دقائق كنت فى قاعة العرض للسينما، كانت المقاعد الخلفية الأخيرة يشغلها جمال عبد الناصر، السادات وأديب الشيشكلى وبعض ضباط الثورة، كان الفيلم الذى يتابعونه عن الزعيم التاريخى (مصطفى كامل)، وكان السادات يشغل مقعد الصف الأخير من ناحية اليسار، فهمست فى أذنه: «الحقنى ضربت الرقيب العسكرى وطلب البوليس الحربى وراح يقبض علىّ»، نهض من مقعده وهو يقول «بتقول إيه، ضربته» قلت: «أيوه، وسيحت دمه» فتركنى برهة وهمس فى أذن جمال عبد الناصر وعاد إلىّ ليصحبنى فى سيارته العسكرية إلى حيث تطبع الجريدة، وما إن وصلنا حتى وجدنا مبنى الجريدة والمطبعة مطوقا بعربات البوليس الحربى، وما إن دخل السادات إلى مكتب رئيس التحرير الذى كان يشغله الرقيب العسكرى، حتى نهض وهو يبدى التحية

العسكرية للسادات، ولأول مرة أرى فيها إحدى عينيه متورمة وتحيطها كدمات.

قال السادات للرقيب المضروب: « ده زميلى فى السجن وكان بيقتل العساكر الإنجليز » وقال لى « وده كان دراعى اليمين فى سلاح الإشارة بوسوا بعض واصطلحوا » فهجمت أقبل الرجل وأعتذر له.. ثم أمر السادات ببروفة المقال الممنوع، ولما أصبح بين يديه أشر بنشره.. وصدر العدد فى موعده وبه المقال، وإن كان مرشح الإخوان هو الذى فاز فى الانتخابات!

كان السادات فى بداية حكمه، يردد فى تصريحاته وأحاديثه أن أحلام الشعب المصرى ستتحقق جميعها..

وفى عام ١٩٧٢ انتُخبت عضوا فى مجلس نقابة الصحفيين، وقدت وزملائى فى المجلس معركة إعادة ١٨٠ صحفيا كانوا مفصولين ويعملون فى شركات مختلفة لعدة سنوات خارج المجال الصحفى.

وعقدنا جمعية عمومية، وفيها تقرر إعطاء مهلة أسبوعًا للرئيس السادات لإعادتهم إلى صحفهم وإلا سنضرب عن العمل، وكان هذا اقتراحى.

وصل هذا القرار إلى السادات، وكانت مظاهرات الطلبة مستمرة تطالب بالحرب، وبين هتافاتها : (العيشة بقت مرة.. عايزين صحافة حرة)..

وأمام مبنى نقابة الصحفيين بوسط البلد كانت هذه المظاهرة بهتافها هذا، فالقيت باسم النقابة خطابا أعلنت فيه تأييد الصحفيين لمطالبهم وحرية الصحافة، وبدخول الحرب لتحرير الأرض..

وفى اجتماع مجلس النقابة فى ذلك اليوم فاز اقتراحى بإصدار بيان نؤيد فيه مطالب الطلبة والذى أذاعته وكالات الأنباء الأجنبية فاستاء من ذلك السادات، لكنه استجاب وأعاد جميع المفصولين إلى صحفهم.

قضية ١٥ مايو

تبين اتجاه السادات فى الانفراد بالحكم فى قضية ١٥ مايو عندما سجن خصومه السياسيين من رجال عبد الناصر بمحاكمات صورية، وحاولت أن أكتب أى شىء وطنى لكننى فشلت، من ذلك « مثلا » أنى كتبت مقالا فى مجلة المصور.. أدعو فيه

لتكوين جبهة وطنية وتشكيل قوات شعبية تساند الجيش فى تحرير سيناء فرفض الرقيب وأشر بالمنع!

فذهبت للقاء السادات ٧٢ ودخل معى سيد مرعى الذى كان مسئولا عن التنظيم السياسى مستنكرا مصادرة الرقابة لمقالى هذا، فأشر عليه السادات «بالنشر»، وعدت إلى مجلة «المصور» بالبروفة وعليها تأشيرة رئيس الدولة بالنشر..

لكننى فوجئت أيضا بعدم نشره، وكان يوسف السباعى قد حل مكان أحمد بهاء الدين فى رئاسة مجلس إدارة الهلال ورئاسة تحرير المصور، ونائبه صالح جودت، وعند استنكارى بعدم النشر رغم توقيع الرئيس، أدلى صبرى أبو المجد (نائب رئيس التحرير) بفقدان تلك «البروفة» التى تحمل توقيع السادات «بالنشر»، فلما طلبت باستخراج بروفة جديدة ادعى أن الأصول قد فقدت أيضا، فعرفت أن السادات قد اتصل تليفونيا وأمر بعدم النشر.

فقررت الهجرة إلى خارج مصر لاستحالة كتابة أية كلمة مغايرة لسياسة الدولة فى ذلك الوقت.

السفر إلى بغداد

فتوجهت مع إبراهيم شكرى الذى كان أمينا للنقابات المهنية فى التنظيم السياسى للدولة (الاتحاد الاشتراكى)، واجتمعت مع رئيسه الدكتور حافظ غانم، وقلت له إننى أريد أن أذهب إلى بغداد التى تعارض سياسة السادات لأشرح سياسة (السادات) وأقنعهم بها فى محاضرات ألقيها، وندوات أعقدها فسُر تماما، وأصدر قرارا رسميا نشر فى الجريدة الرسمية: (يسافر سعد زغلول فؤاد عضو مجلس نقابة الصحفيين إلى بغداد ليشرح سياسة الرئيس السادات فى محاضرات يلقيها وندوات يعقدها)..

وكان لطفى الخولى فى مكتبه بالاتحاد الاشتراكى، فطلب منى الذهاب للخزينة لتسلم «بدل السفر» فلما رفضت - قال: هذا قانون وأنت فى مهمة رسمية، لكننى أصررت على الرفض، لأننى كنت أنوى الهروب ففكرت فى هذه الحيلة.

ووصلت إلى بغداد..

كان أول مقال لى هجوما على سياسة السادات فى جريدة الثورة العراقية تحت عنوان: ما الذى يجرى فى القاهرة؟! - وعلمت بعد ذلك أن السادات قد وجه اللوم إلى الدكتور حافظ غانم، وقال له: «كده سعد زغلول يضحك عليك»؟!

وواصلت الكتابة ضد سياسة الرئيس السادات فى جريدة «الثورة» العراقية، و«الوطن» الكويتية، ومجلة «٢٣ يوليو» اللندنية التى كان يصدرها محمود السعدنى.

وبعد نحو عامين حضر السادات فى زيارة لبغداد تمهيدا للتخطيط لزيارة القدس، وعقد مؤتمرا صحفيا حضره عدد كبير من الصحفيين العرب والأجانب، فحدثت مشادة بينى وبين السادات فى هذا المؤتمر حول مناشدتى له مواصلة حرب ٧٣ لتحرير كل سيناء، فرفض قائلا: أمريكا دخلت الحرب مع إسرائيل ضدنا، وأنا لا أحارب أمريكا ولا أدمر جيشى.. رحم الله امرءاً عرف قدر نفسه..

فقلت له بانفعال وكنت على مقربة منه: (لا تخف، الفيتناميون حاربوا أمريكا ولم يكن لديهم طائرات ولا دبابات فعليك أن تضع فى الاعتبار شجاعة وكفاءة الجندى المصرى فى عبوره القنال واقتحامه خط بارليف).

فانفعل السادات بأعلى صوته ويده تكاد تلمس جبهتى وهو يلوح بها فى وجهى: (فيتنام حرب عصابات.. عارف يعنى إيه حرب عصابات.. أنا لا أدمّر جيشى.. ومش «أد» أمريكا!).

وغادر السادات قاعة المؤتمر فتابعته ومعى سفير مصر ببغداد عبد المنعم النجار لأعتذر له ولأخفف من غضبه، وبدأ السفير يمهد لذلك قائلا:

- ده مجرد سؤال من سعد يا ريس ولا يقصد إثارة سيادتك أبدا!

رد السادات:

- ده ماكانش بيسأل.. ده كان بيعطينى تعليمات!

فانسحبت وغادرت المكان..

وبعد مغادرة السادات لبغداد كنت مع سفيرنا فى مكتبه مندهشا أن يتهمنى

السادات بأننى كنت أعطيه تعليمات، فضحك السفير (وهو من الضباط الأحرار) وأدار شريط تسجيل المؤتمر الصحفى فاستمعت فيه لمخاطبتى (عليك أن تضع فى الاعتبار) . .

إنسانية السادات

أقول رغم هذه الخصومة السياسية مع زميلى فى السجن الذى أصبح رئيسا للجمهورية، فقد كان وزير الداخلية النبوى إسماعيل يمنع حضور زوجتى وأولادى إلى مقر إقامتى فى بغداد مشدداً دائماً أنه علىَّ أنا أن أعود إلى مصر . . فأبرقت للسادات أناشده وصول عائلتى إلى بغداد . .

وحدث أن وصل إلى بغداد يوسف السباعى الذى كان وزيراً للثقافة والإعلام، وحين اجتمعت به فى الفندق فاجأنى بأنه يبحث عنى – وقال إن الرئيس السادات عندما استأذنه فى السفر إلى بغداد قال له : خذ زوجة وأولاد سعد زغلول معاك إليه . . وأخرج من جيبه بحضور السفير كتاباً رسمياً أمر به السادات من « دار الهلال » باعتبارى فى إجازة رسمية بدون مرتب وليس مفصولاً !

ومن غرفته بالفندق هاتفت زوجتى تليفونيا بالقاهرة، فأخبرتنى أن لديها قرار الرئيس وأنها ستصلنى بأطفالى فى اليوم الثانى . . وكانت هذه لفتة إنسانية من خصمى السياسى الذى لديه كل السلطة . .

ومرة أخرى تتكرر هذه اللفتة وأنا أنتقد سياسة السادات فى الصحف والإذاعة الموجهة من بغداد لراديو صوت العروبة، وعلمت أن السادات وحافظ الأسد فى مؤتمر قمة مع النميرى فى الخرطوم، فأسرعت بالحضور لتغطيته صحفياً، وعندما كان السادات ونميرى والأسد يغادرون قاعة اجتماعهم لمحنى السادات وقال لى على مسمع من الجميع :

– انت هنا والا فى بغداد ؟

* أنا فى كل مكان بالوطن العربى ياريس . .

– ما عدا مصر ؟

* مصر فى قلبى ودمى ياريس . .

- **عاوز حاجة ياسعد؟**

* فوضعت يدى على كتفه وقلت: «روح الله يقويك»..

ومرة ثالثة طلب عودتى وزملائى المعارضين لسياسته فى الخارج لمصر والعفو عنهم قائلاً: (من عاد منهم ودخل النقابة فهو آمن)..

وأرسل إلينا نقيب الصحفيين إلى باريس التى كنت قد انتقلت إليها من بغداد، لكننا رفضنا!

بكيت عند رحيله

لكننى عندما شاهدت مصرعه فى حادث المنصة عام ١٩٨١ فى التليفزيون الفرنسى وجنازته المحدودة بعيداً عن الشعب والتى علق عليها «ميتران» كنت أحب أن تكون الجنازة وسط شعبه، وشاهدته يدفن وجدتنى بلا شعور أبكى!

وأود هنا أن أشير إلى أن بعض عناصر أجنحة السلطات العراقية لم تبد ارتياحًا لوجودى فى بغداد لأنى كنت أتصرف صحفيًا واجتماعيًا كمواطن مصرى لا شأن لى بخصومات بغداد مع بعض الأنظمة العربية - كما كان يفعل غيرى من بعض الصحفيين المصريين فى بغداد.

فغادرت بغداد إلى الكويت حيث عملت بجريدة «الوطن»، وكنت أتقاضى مرتبًا ضخمًا ولى صلاحيات تحريرية كبيرة، حتى أنى هاجمت صاحب ورئيس تحرير جريدة «الرأى العام» الكويتية لمهاجمتها أحمد بهاء الدين فى رئاسته لتحرير مجلة «العربى» الكويتية..

وعندما أصدرت الحكومة الكويتية قرارات قمعية بحل الاتحادات النقابية وتعطيل بعض الصحف استقلت، ولم يفلح صاحب الجريدة التى أعمل بها «الوطن» فى عدولى عن قرار الاستقالة..

فعدت إلى بغداد مرة أخرى وفوجئت بأن صاحب ورئيس تحرير جريدة «الوطن» يكتب مقالاً على ثلاثة أعمدة يمتدحنى فيه وكان بعنوان: (سعد زغلول يخلع نفسه من الجريدة احتجاجًا على إجراءات القمع)..

وحدث أن فقدت الوعى وتم نقلى إلى مستشفى «مدينة الطب» حيث كانت

بطنى منتفخة والكبد ملتهبًا وأصبحت فى غيبوبة، وكتب ثلاثة أطباء تقريراً بأننى سأموت خلال ٧٢ ساعة!

وكانت حجرتى مليئة بزوارى من المصريين فاتصلت زوجتى تليفونيًا بطارق عزيز وطلبت نقلى إلى باريس للعلاج، وأمسكت الكاتبة «صافى ناز كاظم» التليفون صارخة فى زوجة طارق عزيز:

– أنتم قتلتم سعد زغلول ولم يكن هذا صحيحًا على الإطلاق، فتم نقلى وأنا فى الغيبوبة إلى مستشفى «تنو» فى باريس، حيث اكتشفوا أن فى كبدى فيروسًا خطيراً..

وبعد عدة شهور شفيت تمامًا وظللت فى باريس منذ ذلك الوقت من عام ١٩٨٠ وحتى اليوم، وفى كل عام أتوقع العودة إلى مصر نهائيًا، ولم يتيسر ذلك بسبب اتهامى لدى المدعى الاشتراكى من الرئيس السادات بالهجوم على مصر، بينما فى الواقع كان الهجوم على سياسة من أجل مصر..

وبدأت حياتى فى باريس والتى إمتدت إلى عشرين عامًا، ولم تكن تخطر لى على بال، ولم أكن أتوقع أن يطول اغترابى عن مصر هذه المدة الطويلة، فى هذا الجو الأوروبى الغريب، وفى هذه الغابة المسماة باريس!..

وبعد ذلك كله.. اليوم على ضوء ما يجرى من تعنت ومراوغة إسرائيل فى مفاوضاتها مع الفلسطينيين من أجل السلام:

– أود أن أشيد بالتحركات السياسية الخارجية للرئيس السادات، التى اتسمت بعبقرية التخطيط، والمهارة والحنكة فى التنفيذ، فقد نجح تمامًا فى تحرير الأرض واستعادة سيناء بالكامل، كما أن اتفاقية كامب ديفيد ومعاهدة الصلح مع إسرائيل، كانت تقضى بأن توضع أراضى الضفة الغربية وقطاع غزة، تحت الحكم الذاتى الفلسطينى لمدة خمس سنوات، يجرى من بعدها استفتاء تقرير المصير، لكن الأشقاء الفلسطينيين رفضوا هذه الاتفاقية، ونرى اليوم الصعوبات والتعقيدات الإسرائيلية التى يختلقها الإسرائيليون فى مفاوضات السلام المتعثرة..

السادات علامة مضيئة فى تاريخ حكم مصر، بما له من إيجابيات وسلبيات، مواطن مصرى من أعماق قرى دلتا النيل المعطاءة بالخير..

زمن التردى بين التخوين والتكفير !

بين أكثر الآفات الاجتماعية خطورة وضررا، تلك التى تصيب العقول وتسكن النفوس، مفاهيم لا معقولة ومغلوطة، وإذا ما سادت تهدم المجتمع وتفكك الدولة، واستطاعت مصر حين أصيبت بها أن تتجاوزها وتقضى عليها وتتطهر من أوزارها.. من ذلك حين أصيب بعض الشبان بلوثة عقلية من الهوس الدينى، فآمنوا بأن المجتمع المصرى مجتمع كافر يتوجب ضربه وتصفيته، وإلى أن تصبح لديهم القوة اللازمة لذلك، فعليهم أن يعتزلوا هذا المجتمع ويعيشوا بعيداً عنه.

فكان أن هجروا أسرهم وبيوتهم، إلى حيث أقاموا فى الكهوف والجبال.. وكان بين أبشع ما ارتكبوه من جرائم، حين اختطفوا الشيخ الذهبى من منزله، والذى كان وزيراً للأوقاف فى ظل حكم السادات، وهذه جريمته فى نظرهم، وزير أوقاف مجتمع الكفر وأنه كافر يحل قتله، وبالفعل قاموا بتعذيبه حتى قتلوه، والغريب أن القتلة لم يُقبض عليهم، ولم نسمع عن آية محاكمة جرت للقتلة حيث ظلوا مجهولين، رغم ما أعلنوا عن قتله بدعوى كفره!، وكان هؤلاء الشباب يطلقون على أنفسهم «جماعة التكفير والهجرة»..، وتمكنت مصر على الصعيدين الرسمى والشعبى، من القضاء على مثل هذه الجماعات، والتى ارتكبت فى الأقصر مجزرة رهيبة كان ضحيتها مجموعة من السياح الأجانب، بدعوى أنهم كفار يتوجب عدم ترددهم على مصر.. إلخ هذه الترهات الجنونية والدموية..

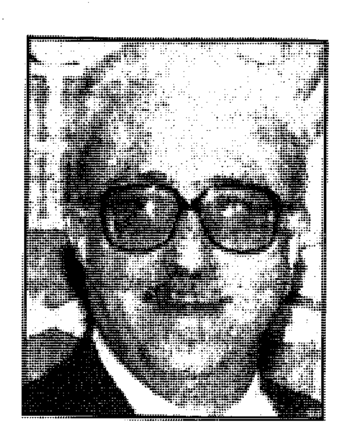
ومثلما يكفر هؤلاء الذين يعزفون عن معتقداتهم ويرفضونها، نجد فى الساحة السياسية الراهنة، بعض من يمارسون العمل السياسى بنفس مفاهيم جماعة التكفير والهجرة، ولكن باتهام خصومهم السياسيين بالخيانة العظمى.. ففى الأيام القليلة الماضية من شهر يناير ٢٠٠١، نشرت صحيفة العربى التى يصدرها بمعونة مالية من الحكومة الحزب الناصرى، هجوماً على الرئيس الراحل أنور السادات اتهمته فيه بخيانة مصر، بل وأطلقت عليه «الخائن الأعظم»..، وهو الذى قاد انتصار القوات المصرية ضد العدو الإسرائيلى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣..، ليس فى مصر عبر تاريخها خائن أكبر أو أصغر من حكامها، فقط الخديو توفيق لحماية عرشه من غضبة

الشعب، استدعى القوات البريطانية لغزو مصر، وهو تركى وليس مصرياً.. وإذا ما وجد البعض فى اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة الصلح مع إسرائيل بعض النقائص والثغرات، فالعلاج هل يكون بتصحيحها أو إلغائها؟ لكن مصر من بعد السادات أقرتها، وتحكم بنودها العلاقات المصرية الإسرائيلية.. وهل المعاهدة المصرية الإنجليزية التى وقعها الرئيس عبد الناصر عام ١٩٥٤، والتى تتضمن قبول مصر الدفاع المشترك، الذى سبق أن رفضته حكومة الوفد عام ١٩٥٠، تعتبر خيانة؟!، وهل اعتراف الرئيس عبد الناصر بمسئوليته عن هزيمة يونيو ١٩٦٧ يعد خيانة..؟!، ليس من خائن بين حكام مصر، حتى حكم المماليك الذى كان مثقلاً بالجور والفساد، لكنهم كانوا وطنيين وحاربوا بأسلحتهم البدائية قوات نابليون فى غزوها لمصر..، الخيانة هنا تكون للقلم الذى يخط كلمات غثة كاذبة مضللة، خيانة لمصداقية ومسئولية الكلمة المطبوعة، وميثاق الشرف الصحفى.. وكل حاكم ومسئول له إيجابياته وسلبياته، وفى قراراته وسياسته الصواب والخطأ، لكن وهو ممسك بمقود البلاد، تحت مظلة خدمة مصر والإخلاص للوطن.. وليس من المقبول أن يشوه تاريخ مصر، ربما يكون الحاكم طاغية مستبداً، لكن ليس خائناً للوطن..

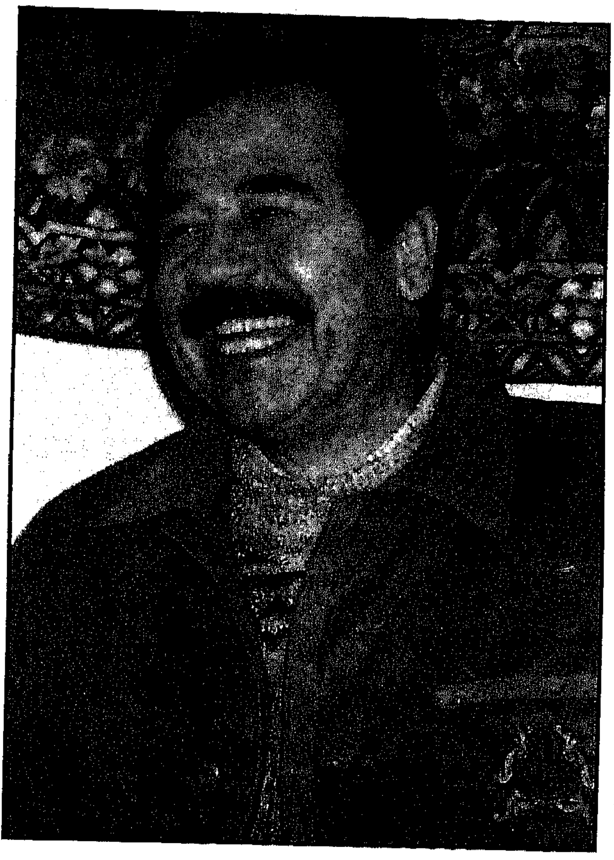
الفصل الثانى والعشرون

خمس سنوات فى العراق

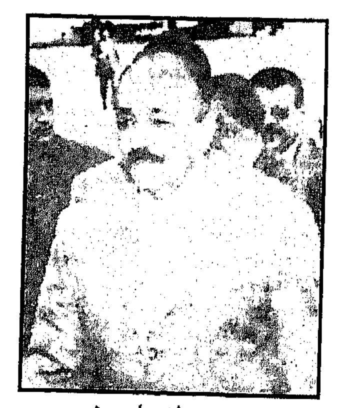
من ١٩٧٤ - ١٩٧٩



طارق عزيز



الرئيس العراقي صدام حسين



طه ياسين

22

خمس سنوات قضيتها فى بغداد (١٩٧٤ - ١٩٧٩)، محرراً للشئون السياسية فى جريدة الثورة، مع زملاء عراقيين ومصريين، من الصحفيين المعارضين لسياسة السادات، والذين كانوا موزعين بين صحف بغداد وبيروت وطرابلس، وفى تلك التى كانت تصدر باللغة العربية من باريس ولندن . . هاجروا من مصر وقد استحال عليهم التعبير عن آرائهم السياسية فى صحف القاهرة، والتى وجدوا متسعا لها فى صحف العواصم التى هاجروا إليها . . وكنت واحداً منهم فى صحف بغداد والكويت وباريس ولندن .

عندما التحقت بالعمل فى جريدة الثورة، كان رئيس تحريرها طارق عزيز، وكنت قد تعرفت عليه، أثناء انعقاد مؤتمر اتحاد الصحفيين العرب فى بغداد عام ١٩٧٢ . . ومن خلال العلاقة الصحفية والثقافية والسياسية، التى نشأت وتعمقت، من خلال كتاباته فى الجريدة وما أصدر من كتب، وحواراته اليومية حول مختلف قضايا الوطن العربى، وما كان يجرى من أحداث على المسرح السياسى الدولى، إضافة إلى العلاقات الإنسانية التى كانت بينه رئيساً للتحرير، وبين زملائه العاملين تحت رئاسته، عرفت فيه النموذج الرفيع للمثقف الثورى العربى المستنير . . ومن غزارة كتاباته الموضوعية والمستنيرة الصادرة من منطلق قومى، وهو أحد قيادات الثورة العراقية، يمكننى القول بأنه عقل الثورة فى كافة كتاباته ودراساته المكثفة والغزيرة، والتى تقترن بعقلانية تحركاته السياسية فى إطار منطلقات حزب البعث العربى الحاكم - مصداقية وموضوعية على الصعيدين الداخلى العراقى، والإقليمى العربى، والميدان الدولى .

هذا وقد غادر طارق عزيز موقعه فى جريدة الثورة، ليشغل موقع وزير الإعلام، الذى نهض به وحرص على أن يكون من منطلق قومى عربى، ومن بعد أصبح وزيراً للخارجية، ثم نائباً لرئيس الوزراء حيث لا يزال حتى اليوم، وقد مارس مهامه بدبلوماسية الثورى الموضوعى بنجاح ملموس، خاصة فى تلك الحقبة الحرجة والمريرة التى سبقت وأعقبت حرب الخليج الثانية والتى أصبح فيها العراق، هدفاً لعمليات الاعتداءات الحربية اليومية من قبل السلاح الجوى الأنجلو أمريكى، والتى واجهها

العراق بصمود الشموخ والأبطال.. والتى نشط طارق عزيز فى فضحها وإدانتها فى كافة المحافل الدولية، والمنظمات الإنسانية للأمم المتحدة وغيرها غير الحكومية، وفى مؤتمر القمة العربية الخاص بالقدس والانتفاضة الفلسطينية التى جوبهت بجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية ارتكبتها القوات العنصرية الفاشية الإسرائيلية ضد الشعب الفلسطينى الأعزل، كان الطرح العراقى لإنقاذ الشعب الفلسطينى وتحرير أرضه المحتلة هو «الجهاد بكافة الطرق المعروفة» والتى هى فى نفس الوقت مشروعة، كان هذا الطرح العراقى هو الذى أخذ به الشعب الفلسطينى باستمرار الانتفاضة ومختلف طرق المقاومة، ويدعم هذا الجهاد الوطنى الفلسطينى المشروع، ما رصدته قمة القدس العربية (٢١-٢٢ أكتوبر ٢٠٠٠ بالقاهرة) من دعم مالى ومساندة فعالة.. ونقول هنا إن المذكرة العراقية التى وزعت على الملوك والرؤساء باسم الرئيس العراقى صدام حسين، - تنطق باسم الضمير العربى - أود هنا أن أشيد، من خلال إقامتى خمس سنوات فى بغداد، أن الشعب العراقى عميق الوجدان بعروبته، فيه يتمثل بوضوح شديد التمسك بالقيم العربية الأصيلة، وكل عربى كان فى العراق، كانت مشاعره من خلال إقامته وسط شعب العراق، أنه فى وطنه وبين أهله، وله كافة حقوق المواطن العراقى وعليه الواجبات الخاصة به دون أدنى تفرقة، ومن هنا امتلأ العراق بمختلف أبناء الأمة العربية. وكان للمصريين محبة خاصة من الشعب العراقى وسلطاته الحاكمة، حتى أن تعداد المصريين العاملين فى العراق كان أكثر من أربعة ملايين نسمة، والفلاحون المصريون منحتهم الدولة ملكية الأرض الزراعية التى يفلحونها، بل ومنحت كل أسرة منهم بيتا عصريا قرويا مزوداً بالماشية والأغنام، إضافة إلى الأبقار لمنتجات الألبان.. كان ذلك العصر الذهبى للأمة العربية فى العراق، وامتلأت أسواق بغداد بالخضراوات والفاكهة المنوعة من منتجات مزارع الفلاحين المصريين، والذين كنت أراهم يتزاحمون فى البنوك العراقية، لتحويل فوائض مواردهم المالية، إلى ذويهم فى مصر..

هذا، أود أن أعرض بإيجاز، خصوصية الأوضاع السياسية فى العراق:

منذ أن نجح حزب البعث العراقى فى الاستيلاء على السلطة والانفراد بالحكم عام ١٩٦٨، عقب معارك ضارية ضد الشيوعيين، استطاع بإجراءات حازمة و صارمة قاسية، القضاء على القوى السياسية الأخرى، فقد منع تشكيل أية أحزاب سياسية

أخرى، وسحق منظمات سياسية مغايرة تكون قد تكونت بصورة سرية وتعمل فى الخفاء، وقد أصبح الحكم بالإعدام عقوبة فورية التنفيذ لذلك، فليس فى العراق غير حزب واحد، هو حزب البعث العراقى الحاكم والذى يرأسه صدام حسين، وهو حزب عقائدى بمبادئ وحدوية عربية، تحت شعار «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة»، وتمكنت قيادة الحزب من توسيع قاعدته بصورة هائلة، والتى استوعبت عدة ملايين من المواطنين، المشبعين بمبادئ الحزب والملتزمين بتنفيذ أوامره وتوجيهاته، والتى تشمل كافة نواحى التحرك الاجتماعى والاقتصادى والسياسى، وعلى مر السنين، أصبح الجيش العراقى جنودا وضباطا أعضاء عاملين فى الحزب، وغالبية موظفى وعمال الإدارات والمصالح الحكومية ومؤسسات القطاع العام أعضاء عاملون فى الحزب، ولهم عدة امتيازات عن زملائهم غير المنتمين للحزب وإن كانوا متعاطفين معه.. والارتباط قوى بين قيادة الحزب وأعضائه، وهو ما قاد إلى نجاح عمليات البناء والتنمية للمجتمع، والتى تضاعفت فيها الجهود، خاصة تلك المخططات النشيطة البناءة والمثمرة، فيما أطلق عليه «التنمية الانفجارية» بما أشاع الرخاء بين المواطنين، وقد تضاعف بمراحل كبيرة هائلة الدخل القومى السنوى للشعب، وفى طليعته أعضاء الحزب الذين يدينون بالولاء للرئيس صدام، وهو ما قاد إلى إحباط كافة المحاولات الأمريكية للإطاحة به، وصموده العنيد الصلب فى مواجهة ما يتعرض له العراق من اعتداءات جوية أمريكية بريطانية، ومناطحته للسياسة العدوانية الأنجلو أمريكية، وعدم الخضوع لتهديداتها والاستمرار فى تحديها، رغم قسوة الحصار الامبريالى العنصرى المفروض على العراق منذ أكثر من عشر سنوات.

هذا، ومما يؤسف له تلك الظاهرة السلبية الخطيرة التى برزت فجأة، وشابت العلاقات المصرية العراقية، كما أصابت الوجدان المصرى العربى بشرخ مبلل بدماء عشرات أبرياء المواطنين المصريين، الذين كان يتتابع وصول جثمانهم جوا إلى القاهرة، يحمل كل جثمان شهادة رسمية عراقية تقول إن سبب الوفاة طلق نارى وهو ما عرف فى صحف القاهرة باسم «النعوش الطائرة» دون ذكر للجناة ودون قضايا عن هذا القتل العمدى...

والقصة تعود إلى الحرب العراقية الإيرانية التى استمرت ٨ سنوات، وخلفت أعداداً هائلة من القتلى لدى الطرفين، وكان أن تكاثرت فى العراق النساء الأرامل

اللائى استشهد أزواجهن الشباب فى الحرب، ولتشجيع الشباب على الزواج منهن، منح الرئيس العراقى مكافأة مالية مقدارها عشرة آلاف دينار لكل من يتزوج أرملة شهيد، فاستجاب عشرات وربما مئات من الشباب المصريين، وحين توقفت الحرب وعاد المجندون بعد تسريحهم إلى العراق، ومنهم من كان قد أعلن أنه من المفقودين أو الشهداء، وحين دخل مسكنه فوجئ بمن يعيش مع زوجته من شباب مصر فى العراق، فأطلق عليه النار وصرعه فى الحال، وتولت السلطات العراقية شحن جثته جوا على الطائرات العراقية إلى القاهرة.. ولتعدد استقبال القاهرة لهؤلاء الأبرياء القتلى الشهداء، أطلقت الصحف على هذه العمليات اسم «النعوش الطائرة»، والتى كانت سببا لنزوح جماعى للمصريين من العراق إلى القاهرة..

هذا وقبيل الأحداث السابق بيانها، وقع ما حمل بعض المصريين العاملين فى بغداد على العودة إلى القاهرة، واستقالتهم من أعمالهم التى كانوا يحصلون منها على أجور عالية من جراء مبالغة من كان فى السلطة العراقية ممن يسمون «الثعالب الصغيرة» فى حمأة اشتداد الخصومة بين القاهرة وبغداد، والدأب على توجيه ضربات إهانة لمصر الوطن وليس فقط للنظام المصرى.. إنهم من يطلق عليهم «ملكيون أكثر من الملك»..

من ذلك مثلا عرض مسرحية غثة رخيصة تافهة سخيفة، على المسرح القومى فى بغداد، الذى تمتلكه وتديره الحكومة العراقية، تظهر مصر فى صورة وضيعة مشوهة، وحدث أن كانت الكاتبة الصحفية المصرية السيدة «صافى ناز كاظم» التى كانت تعمل أستاذ فى جامعة المنصورية ببغداد، وهى فى مصر ناقدة فنية للمسرح والسينما بكتاباتها الموضوعية فى صحف مصر، بين حضور هذه المسرحية التافهة الغثة الرخيصة، وما إن انتهى العرض حتى وجهت اللوم للقائمين على المسرح وهى تتساءل «هل هذه المسرحية تعرض حقيقة مصر...؟! وهل هذا التزييف والتشويه لمصر يعرض على المشاهدين، وفى مسرح تمتلكه وتديره الدولة»؟!، فما إن أصر المسئولون عن المسرح على الاستمرار فى عرض المسرحية، حتى بادرت بحزم أمتعتها وغادرت بغداد إلى القاهرة، وكان راتبها الشهرى من الجامعة يفوق ما كان يتقاضاه كبار موظفى الدولة.. وكان رحيلها هذا، إعلانا مدويا أن الضمير المصرى لا يباع ولا يشترى.

هذا وأود هنا أن أشير إلى ما أصاب بعض القائمين على السياسة العراقية من خدوش فى التعامل مع بعض العناصر الوطنية الشريفة، من جراء نجاح بعض العناصر المصرية المريضة فى قلوبها، المدسوسة، فى الإيقاع ببعض المخلصين الأتقياء وكنت أحد ضحايا أنشطة هؤلاء، أسوق بعض الوقائع لذلك فيما يلى:

فى غضون عام ١٩٧٦ كان زميل لى وصديق، صحفى مصرى من معارضى سياسة السادات، وكان مقيماً وأسرته فى عاصمة خليجية، ولسبب ما جرى طرده منها، وكنت عام ١٩٧٦ أعمل فى جريدة **الوطن الكويتية**، فقصدت إليه فى مسكنه ووجدته يتأهب للسفر إلى بيروت، فعرضت عليه التوجه إلى بغداد، فاستنكر بشدة مردداً «ده بلد السحل.. لا..لا..»، وبعد أن أفضيت إليه بأوضاع الحياة القومية فى العراق، وقلت له إننى سأعود إلى عملى فى جريدة الثورة فى بغداد وبذلك سأرافقه فى دخوله إلى العراق، توجهت إلى السفارة العراقية فى الكويت، وطلبت من الملحق الصحفى العراقى «جليل عطية» ذلك الوقت، أن يبرق إلى المسئول عن استقبال الزائرين الصحفيين لبغداد، بقدوم هذا الزميل فى تاريخ وموعد وصوله، ليكون فى ضيافة العراق والتعرف قبيل الرحيل على اسم الفندق الذى يقيم وأسرته فيه، لكن الرد كان باستنكار كيف يستضيف العراق هذا الصحفى الذى عاش يمتدح فى كتاباته كل مسئول فى الخليج؟ وهنا رددت عليه بصوت مشوب بانفعال، بأكذوبة منى حيث قلت: «لقد أخطرت تليفونياً بأمره وزير الإعلام طارق عزيز وهو فى انتظار وصوله» فامتثل الرجل وأبرق إلى بغداد، ورافقته وأسرته الطريق حتى استُقبل وأسرته فى أحد الفنادق الكبرى ببغداد، ومنه إلى مسكن فى «ڤيلا» مفروشة على نفقة وزارة الإعلام، وأمر الرئيس صدام براتب شهرى كبير له.. زميلى هذا، جعل مسكنه كل مساء منتدى لبعض العناصر القيادية الشابة من أعضاء حزب البعث الحاكم، وكان يبلغنى من بعض جلسائه هؤلاء بما كان يكيل لى من دسائس، مثال على ذلك حين كنت فى مقر إذاعة «صوت مصر العروبة» الموجهة إلى القاهرة، أن قال لى «جبار قاسم» الذى كان منتدبا من الحزب للإشراف على الإذاعة: «البارحة سهرت الليل كله عند فلان - زميلى هذا - وطول السهرة وجه لك اتهامات ما أنزل الله بها من سلطان»، استمعت ولم أعقب بأية كلمة، فالاتهامات كلها كما كان قد نقلها إلىّ آخر - صحفى عراقى من قيادات الصف الثانى للحزب - ممن كان قد قضى سهرة

لدى زميلى وصديقى هذا، تدور كلها حول مقولات مزعومة بلسانى ضد الحزب الحاكم وقيادته، وأنى أخص بالهجوم والتشويه الرئيس العراقى صدام حسين، ومن هنا أدركت السبب وراء مبادرة المخابرات العراقية، إرسال أحد عملائها من النشطين إلى مسكنى لزيارتى، وإذا به يفاجئنى بحقيقة المهمة التى كُلف بها، حين أخرج من جيب جاكتته جهاز تسجيل صغيراًوهو يقول: المخابرات أعطتنى هذا الجهاز، وأمرونى أن أزورك وأسألك الرأى فى الرئيس صدام حسين، وأفهمونى أنك ستهاجمه وستصب عليه الشتائم، وأوصونى أن أعيد وأكرر أسئلتى عن الطريقة التى يُحكم بها العراق، كما أسألك عن حزب البعث العراقى، وسأنفذ ذلك الآن..»، وأضاف يقول: ونضالك الوطنى والعربى معروف، وزيارتى هذه سبقتها عدة زيارات لم تنطق فى أى منها بكلمة سوء ضد العراق..»، وبدأت الأسئلة ورحت أجيب بصدق وأشدت بالرئيس العراقى، خاصة أن تعداد المصريين العاملين فى العراق أربعة ملايين نسمة، ومعهم ملايين المواطنين العرب، إنه فتح أبواب العراق على مصاريعها للعرب. .إلخ».

وغادر الرجل مسكنى بجهاز التسجيل إلى مقر المخابرات، وهو يحذرنى بشدة أن أتكتم الأمر «فإذا ما عرفوا حقيقة ما جرى منى معك، عقوبته الإعدام»، وبالطبع امتثلت لتحذيره، وهذه السطور التى رويت فيها ما حدث، هى أول مرة أروى فيها تلك القصة، التى كانت وقائعها منذ أكثر من عشرين عاماً..!

مثال آخر: فى غضون عام ١٩٧٧ كان حزب البعث يجد فى تجنيد الشباب من المصريين المقيمين فى بغداد فى عضوية الحزب تحت عنوان «التنظيم المصرى للحزب»، حتى إذا ما عادوا إلى القاهرة، يكون فى مصر حزب البعث، والذى يعمل على توسعه وانتشاره حتى يتمكن من الوصول إلى السلطة..، وكان هذا خطأ فى تفهم طبيعة الشعب المصرى، الذى لا يحب استيراد عقائد سياسية من الخارج، وهو ما قاد إلى فشل الشيوعية فى مصر، وتلك الحقيقة تعيها جيداً القيادة الليبية، والتى كان عبد السلام جلود حين كان الرجل الثانى فى حكم ليبيا، حين قلت له أن يهتم بالعمل وسط المليون مصرى العاملين فى ليبيا، على تبنى الكتاب الأخضر للثورة الليبية، حتى إذا عادوا إلى مصر يعملون على تطبيقه بها، فقال لى: «الشعب المصرى يرفض بطبيعته أية عقائد أو تيارات سياسية واردة إليه من الخارج».. وبالفعل

في بغداد سألت لفيفا من الشباب المصرى، عما جذبهم إلى حزب البعث، فأجابوا جميعا أنهم انضموا إلى الحزب فقط أثناء إقامتهم، وأن ذلك سعيا وراء ما يحاطون به من مزايا فى وظائفهم بالمؤسسات العراقية، وعند مغادرتهم العراق عائدين إلى مصر، يتركون فى بغداد انتماءهم الحزبى وقد خلعوا رداءه..

هذا، وعلى ضوء الأوضاع السابقة، وفى ظل المقاطعة العربية لمصر إبان تلك الحقبة، وقع الحزب ضحية عمليتى نصب واختراق المباحث المصرية.

أما النصب فقد نجح أحد الزملاء من الصحفيين المصريين، الذى كان فى القاهرة أيام الحقبة الناصرية معروفاً بكتاباته اليسارية الجيدة، فى إقناع القيادة العراقية بإيمانه بمبادئ الحزب واحتفل بعضويته فى الحزب، ونصب رئيساً للتنظيم المصرى للحزب، واتفق أن يكون التنظيم الحزبى المصرى سرياً، حتى لا يتعرض أعضاؤه لبطش السلطات المصرية، وهو بعد فى مرحلة بدايته.. على الفور مُنح قصراً بأثاثه لإقامته وأسرته، وسيارة بسائقها مع راتب شهرى كبير بلا عمل غير رئاسته للتنظيم الحزبى المصرى، واشترط للأمان أن يكون موقعه هذا الحزبى سرياً لا يعلمه أحد من أعضاء التنظيم لحين نمو التنظيم والعودة إلى مصر لإعلان قيام الحزب وإعلان اسمه على رأس الحزب.. والغريب أن كل ذلك كان موقع القبول والتصديق من المختصين بالشئون المصرية فى قيادة الحزب من منطلق الرغبات والأمانى.. وذات مساء حين كنت فى مقر إذاعة صوت مصر العروبة الموجهة إلى مصر، حيث كنت أذيع باسمى وصوتى تعليقات يومية ضد سياسة الرئيس السادات، وكنت جالساً على أحد مقاعد مكتب العراقى المشرف على هذه الإذاعة، جاءه «جبار قاسم» أحد رجال المخابرات العراقية ومن بين المشرفين على الإذاعة، وفى يده حقيبة مليئة بالدولارات وسأله: «هذه فلوس بالدولارات الخاصة بمساعدة عائلات المعتقلين السياسيين فى مصر، إلى من أسلمها فى عمان بالأردن؟ فأجاب: «تسلمها (لفلان) المصرى ومعكم عنوانه الذى سبق أن أمليته عليك، وهو سيوصلها بيده إلى عائلات المعتقلين فى القاهرة.. وللعلم لم يصل أى فلس أو مليم أو قرش إلى أى عائلة من عائلات المعتقلين، وهذه الأموال كانت تتكرر كل شهر..!، والغريب أن نفس الشيء كان يحدث فى طرابلس بليبيا، حيث كان نصاب مصرى آخر، يتسلم كميات من الدولارات بدعوى إعانة أسر المسجونين السياسيين المصريين، يعود بها إلى مقر إقامته فى باريس، ويزعم لمن

تسلم من يده هذه الأموال، أنه يبعث بها في سرية على مراحل إلى القاهرة.. وبادر بشراء شقة في حي مونبارناس في قلب باريس، وأخرى في قلب القاهرة، ولم تصل لأية أسرة للمعتقلين في القاهرة أية أموال على الإطلاق..!، وساعد على عدم متابعة مسيرة هذه الأموال، المقاطعة العربية لمصر، وشدة الخصومة التي كانت في أوجها بين النظامين العراقي والليبي وبين نظام حكم الرئيس السادات..! وبصدد هذا الذي كان يعد لرئاسة حزب البعث في مصر وحكمها أقام وهو في بغداد عمارة في القاهرة. كان يحول أموالها تباعاً من بغداد، وبعلم وتشجيع قيادة الحزب في بغداد، وعندما انتهى من بنائها واطمأن على مسيرتها، طلب الانتقال إلى لندن بدعوى سهولة الاتصال منها بالقاهرة، بعد أن زعم أنه زرع فيها أعضاء في الحزب، فغادر إلى لندن معيناً في وظيفة عليا بالسفارة العراقية.. وعندما بدأت حرب الخليج الثانية، انتقل إلى المعسكر الخليجي المضاد للعراق، وعلى شاشة قناة «سي إن إن» هاجم الرئيس صدام حسين..!!

الواقعة الأخرى كانت نصب واختراق، فقد نجح شاب مصري في الحصول على ثقة قيادة الحزب وقد انضم إليه وشغل موقعا قياديا في التنظيم المصري للحزب، وفي اجتماع لمجلس إذاعة صوت مصر العروبة، أثارني بمقولاته ومقترحاته المنافقة والموغلة في النفاق، فوقعت مشادة بيني وبينه، اتهمته بأعلى صوت أنه جاسوس للمباحث المصرية، الأمر الذي استنكره المجتمعون، فاستقلت من الإذاعة وغادرتها ولم أعد إليها.. وبالطبع تزايدت الدسائس والتقارير ضدي، والتي انتهت بمغادرتي بغداد مريضاً بالتهاب كبدي وبائي إلى مستشفى «تينو» في باريس، حيث جرى علاجي طويلاً على نفقة الحكومة العراقية، وهذه إحدى القيم العربية الأصيلة التي تغمر عميق الوجدان العراقي، فقد ألقت القيادة العراقية جانباً، كافة ما كان لديها من دسائس ضدي، وبذلت لعلاجي في باريس الرعاية والمال إلى أن شُفيت والحمد لله ولم أعد إلى بغداد وظللت في باريس منذ ذلك الوقت من عام ١٩٧٩.. وفي ذلك الوقت أو العام ١٩٨٠، غادر القيادي في التنظيم المصري لحزب البعث العراقي بغداد إلى مدريد ليعد فيها انعقاد مؤتمر مصري يدين سياسة السادات، يرعاه وينفق عليه الحزب، ووصل مدريد وفي يده حقيبة مليئة بالدولارات اللازمة لحجز فندق خمسة نجوم بأكمله لأعضاء المؤتمر الذين سيدعون لحضوره، ومنها غادر بهذه الأموال إلى

القاهرة، ليصدر كتاباً معاديا لنظام الحكم فى العراق، وكشف عن شخصيته الحقيقية: ضابط فى مباحث القاهرة..!!

حادثان انتقاميان كنت ضحيتهما فى بغداد والقاهرة، اختلفا فى الشكل وتوحدا فى المضمون، فقد أراد سيئ الصيت وزير داخلية السادات النبوى إسماعيل، إظهار المزيد من الولاء لسيده رئيس الجمهورية، الذى كنت أتناول سياسته بصورة يومية بالانتقاد والهجوم من بغداد والكويت وباريس، فى الصحف وعبر إذاعة صوت مصر العروبة الموجهة إلى القاهرة من بغداد، فبعث برجاله إلى مسكنى بالقاهرة، حيث اقتحموه واستولوا على كل ما كان فيه من أوراق وكتب كنت قد أصدرتها، ومعها البومات صورى العائلية، وتلك التى كانت على حوائط صالون الاستقبال، والتى كانت خاصة بمحاكمتى فى قضية القنابل، كما استولوا على ما كان بمسكنى من أدوات كهربائية بما فى ذلك التليفزيون وبعض التحف التى كنت أحضرتها من العواصم الأجنبية التى كنت فى زياراتى الصحفية لها، وفى المساء عاد المخبرون وضباطهم ومعهم عربة نقل، أفرغوا فيها أثاث مسكنى الذى لم يعد به ولو مقعداً واحداً..!، وأخبرنى أحد السكان تليفونياً فى غربتى بما وقع، وسألنى أن يتوجه إلى قسم البوليس للإبلاغ عن سرقة محتويات الشقة، فرفضت حتى لا أفتح على نفسى أبواب جهنم.. حيث قام رجال النبوى إسماعيل وزير داخلية الرئيس الراحل أنور السادات بالاستيلاء على محتويات مسكنى بناءً على المظاهر والوقائع التالية:

- اللصوص يسرقون كل ثمين فى المسكن بما فى ذلك الأثاث.

- اللصوص لا يسرقون ما كان فى مسكنى عدة نسخ من مطبوعات كتب أصدرتها هى «عالم آخر أو سجن مصر» - «تكتيك حرب العصابات».. ولا يسرقون ألبوم صورى العائلية ، والذى كان مليئا بصور لى منذ طفولتى ومطلع شبابى ، وكل ما كان لى من صور فى قضية القنابل، ومنها ما كان فى براويز زجاجية كبيرة معلقة على جدران صالون الاستقبال، ومنها صور لى فى مظاهرات كنت من قياداتها بما فى ذلك صور لى فى مظاهرات فى مدينة طرابلس بليبيا.. كل هذه الصور سرقت، ولا يلتفت إليها اللصوص، خاصة أن النسخ من كل كتاب لم تزد على ثلاثة هى كل ما كان قد تبقى لى بعد توزيعها.

* نوع المسروقات قاد إلى تعرفي على الذين سرقوها لأنها موضع اهتمامهم وهم رجال الأمن السياسي، أمن الدولة، ولا يمكن أن يقدموا على ذلك إلا بأمر من وزير الداخلية.. أمر شفهي كالمعتاد في مثل هذه الإجراءات غير القانونية.. ، وليس لديّ دليل مادي على اتهامي هذا، فهو اتهام ظني استنتاجي، عرضة للصواب والخطأ، لكن مبعثه أنه كان متربصا بي، فهو الذي كان يرفض بإصرار السماح لزوجتي وأطفالي باللحاق بي في بغداد، وكان يردد للوسطاء أن المطلوب حضوري إلى القاهرة، والحل جاء من الرئيس السادات، حين أبرقت إليه فبعث إليّ بزوجتي وأطفالي، وبأمر اعتباري في أجازة بدون مرتب من عملي في دار الهلال، حمل كل هذا إليّ وزير الثقافة يوسف السباعي في زيارته بغداد..

وكان لي صديق من أثرياء القاهرة يتردد كل عام على باريس وبراغ، وطلب مني أن أشتري له سيارة شيفروليه تدخل مصر باسمي كمغترب لسنوات في الخارج، وفي القاهرة أبيعها له وينقدني الثمن ويدفع جمركها، وبهذا الثمن أعيد تأثيث مسكني..

وبالفعل اشتريت السيارة من الكويت، شيفروليه امبالا بتكييف وقدتها إلى بغداد، حيث أودعتها جراج جريدة الثورة، تحت رعاية صديقي رئيس التحرير سعد قاسم حمودي ورئيس اتحاد الصحفيين العرب، لحين العثور على من أستأجره لقيادتها إلى اللاذقية ومنها إلى الإسكندرية.. وظلت السيارة مودعة طويلاً في جريدة الثورة لحين توفر المال اللازم لذلك، وهو ما لم يتيسر لقلة مواردي في باريس، خاصة بعد أن دفعت مدخراتي في شراء هذه السيارة..

وحدث أن كان أحد قيادات الحزب في زيارة لباريس، واستدعاني تليفونياً أحد العاملين في السفارة العراقية يدعى «قيس» والذي كان على خلق وثقافة وموقع حزبي مسئول، وحين بادرت بالتوجه إليه في مكتبه بالسفارة، وجدت في انتظاري هذا الزائر، طويل القامة عريض المنكبين مكتنز الجسم، ورغم أن الوقت كان قبيل الظهر، فقد كانت رائحة الخمر تفوح من فمه، وطلب مني عدم ترك السيارة معطلة في جراج جريدة الثورة، والأفضل أن أؤجرها أو أبيعها للحكومة العراقية، ومستقبلاً من بعد يمكنني شراء غيرها تكون لديّ إمكانيات شحنها بحراً من الكويت إلى

الإسكندرية، بدلاً من قيادتها براً إلى ميناء اللاذقية فى سوريا ومنها إلى الإسكندرية، وافقت فقال وهو يترك السفارة مغادراً: على موعد من بعد الظهر فى المقهى المجاور للسفارة، ليتسلم منى طلبا باسم طه يسين رمضان نائب رئيس الوزراء العراقى، والمسئول عن رعاية وشئون التنظيم المصرى للحزب، وهو تنظيم لم يعد له وجود عقب العودة الجماعية للمصريين إلى القاهرة، عند وقوع ظاهرة النعوش الطائرة عقب حرب الخليج الثانية، وفى المقهى المجاور للسفارة العراقية، كتبت الطلب باسم نائب رئيس الوزراء طه يسين رمضان، أعرض عليه إما شراء أو استئجار الحكومة للسيارة، وبعد الغروب توقف هذا الرجل أمام المقهى وكان بصحبته من كان يشغل موقع المستشار الثقافى «ف. ش» أحد كبار مدمنى الخمر، والذى كان فى مواسم الأعياد الوطنية للعراق، يستقبل المدعوين على باب قاعة الاحتفال وفى يده كأس الخمر، والذى كان لا يطيق أن يراه ممتلئاً أو فارغاً والذى كان يضمر لى بغضا وكراهية لعدم احترامى له، جاء هذا الغليظ المكتنز الجسم فى سيارة السفارة وبجواره صديقه هذا، وهما يتمايلان من الخمر وفى حالة سكر شديد، تسلم المبعوث الثمل الطلب الموجه إلى نائب رئيس الوزراء رمضان، والذى كتبته وفق نصيحته.. ومضت أيام وأسابيع، دعيت من بعدها إلى مؤتمر للاتحادات الإقليمية الصحفية فى بغداد، وعندما توجهت لزيارة رئيس اتحاد الصحفيين العرب رئيس تحرير جريدة الثورة سعد قاسم حمودى، رحت أتفقد سيارتى فى جراج الجريدة فلم أجدها، وسألت الجندى المخصص لحراسة سيارات الجريدة عن سيارتى فأجاب «أخذوها» قلت: من؟، قال: لا أعرف..!، وما إن جلست إلى سعد قاسم حمودى فى مكتبه بالجريدة وأخبرته بنبأ اختفاء سيارتى، حتى قدم لى صورة رسالة رسمية إلى القيادة القومية لحزب البعث، تقول: «إن سيارة الأستاذ سعد زغلول فؤاد المبين أوصافها أدناه والتى كانت مودعة بين سيارات الجريدة، قد أخذت دون علم الجريدة»..

أبرقت فوراً إلى الرئيس صدام حسين أقول: «سرقت سيارتى من داخل نطاق الحراسة على سيارات جريدة الثورة، أرجو التكرم باتخاذ اللازم لاسترجاعها ومعاقبة اللصوص»..، بعد ساعات من إرسال هذه البرقية، فوجئت بزيارة الكاتب السورى الساخر «شريف الراس»، الذى كان لاجئاً سياسياً فى بغداد، وهو يلومنى على إرسالى تلك البرقية ويحثنى على سرعة مغادرة العراق، لأنه علم أننى سأقتل، فلما

سألت متعجباً: «أُقتل.. لماذا.. وممن؟»، قال: الاستخبارات العراقية لأنها هى التى أخذت سيارتك، وانت ستفضحهم حين تعود إلى باريس»، وفى الفندق أعطيت تذكرة الطائرة لمن كان فى الفندق مختصاً بشئون الصحفيين الضيوف، والذين كانوا جميعاً قد غادروا بغداد، ومنهم كان نبيل المغربى رئيس تحرير مجلة الوطن العربى التى كانت تصدر من باريس، وكنت قد حضرت معه إلى بغداد، وفى الفندق كنت كلما سألت الذى أعطيته تذكرة الطائرة للحجز إلى باريس، يقول دائماً «ماكو أماكن»..، وهكذا اجبرت على عدم العودة إلى باريس، وكنت كلما طالبت من الفندق اتصالى تليفونياً بزوجتى فى باريس، يكون الرد «الخطوط عطلانة»، إلى أن تمكنت من الاتصال فى الساعات الأولى من الفجر، حيث كانت المسئولة عن تليفونات الفندق، غير تلك التى كانت لديها أوامر بعدم اتصالى بباريس وينتهى عملها فى منتصف الليل، قلت لزوجتى وأنا أعلم جيداً أن كافة الاتصالات التليفونية الخارجية مسجلة ومراقبة، قُلت لزوجتى «إذا لم أعد إلى باريس غداً أكون قد قُتلت، وما لم أعد تبادرين بالاتصال بجميع منظمات حقوق الإنسان الفرنسية وباصدقائى المصريين وبصديقى نقيب الصحفيين الفرنسيين تعلنين نبأ قتلى بيد المخابرات العراقية، الجناح الذى سرق سيارتى»..

وكان لهذه المكالمة التليفونية مفتاح نجاتى، فقد بادر رجل المخابرات فى الفندق الذى كانت تذكرة طائرتى بيده منذ أيام ويردد دائماً «ماكو أماكن» يطرق باب حجرتى وفى يده حجز مكان لى فى الطائرة العراقية، وأسرعت إلى سعد قاسم حمودى، وأخبرته بالتفاصيل وحملته مسئولية قتلى، فهو الذى دعانى ومسئول عن عودتى سالما إلى باريس، اهتم الرجل بأمرى وهو على خلق رفيع، وأفضل من تولى رئاسة اتحاد الصحفيين العرب، فبعث بثلاثة صحفيين عراقيين من العاملين فى مكتب اتحاد الصحفيين العرب، صحبونى إلى المطار ومعى زميلى المرحوم سعد التائه والذى رافقنى إلى الطائرة حيث وصلت إلى باريس، وفيها من عراقيين مقيمين فى باريس وزائرين من أعضاء الحزب ومنهم قياديون عرفت منهم الآتى:

الرجل السكير المكتنز الجسم الذى تسلم طلبى فى باريس الموجه إلى نائب رئيس الوزراء طه يسين رمضان، قدم إليه تقريراً عن زيارته لباريس، ينسب إلىّ أننى فى باريس، أردد كلمات التشهير بالنظام العراقى الحاكم، وأننى فى كافة الأوساط

السياسية والصحفية فى باريس أهاجم العراق، ولم ينس أن يذكر فى تقريره أننى تنكرت للعراق الذى عالجنى وأنفق على إقامتى وزوجتى وأولادى خلال فترة مرضى، وذكر فى تقريره أن لدىّ سيارة شيفروليه جديدة مودعة فى جراج جريدة الثورة، يحتاج الحزب إلى خدماتها والاستفادة بها، فأمر بالاستيلاء عليها، ولا تزال حتى ساعة كتابة هذه السطور فى خدمة العاملين فى المخابرات فى بغداد!!

هذا وأود هنا أن أشير إلى أن ذلك الحادث لم يترك فى نفسى أى أثر سلبى تجاه النظام العراقى، فعندما نشبت حرب الخليج الثانية، بادرت أقلام رؤساء تحرير الصحف القومية المصرية بمهاجمة العراق؛ حيث كانت القوات المصرية بين قوات التحالف الأمريكى، وركزوا هجومهم على شخص الرئيس صدام، والذى كان من شهور قليلة قد أهدى كل واحد منهم سيارة مرسيدس حديثة مدفوع جمركها بالكامل.. بينما تصديت لكتاباتهم بمقال بارز فى جريدة الشعب، لسان حزب العمل المعارض، كان بعنوان «حرب الخليج وكتبة السلطان»..، ذلك أن ما أصابنى من أضرار بالاستيلاء على سيارتى والتى كانت وديعة لدى جريدة الحزب والثورة، بأمر من نائب رئيس الوزراء طه يسين رمضان، تماماً مثل اقتحام مسكنى فى القاهرة، وسرقة محتوياته بأمر وزير الداخلية النبوى إسماعيل، لم يمس هذا بعمق انتمائى لمصر، كما لم يمس مصادرة سيارتى عمق إيمانى بسلامة ونجاح النظام العراقى فى تحقيق ما أطلق عليه «التنمية الانفجارية» للشعب العراقى، والذى غمره الرخاء ومعالم التقدم، والذى فى حرب الخليج الثانية تعرض لحرب هدم وإبادة أمريكية لصالح العدو الإسرائيلى، والتى واجهها الشعب العراقى ببطولة فائقة وصمود أسطورى.

الفصل الثالث والعشرون

أنا والرئيس مبارك

الرئيس قال لى: خليك معارض



سعد زغلول فؤاد يعانق الرئيس مبارك وهو يقول له: خليك معارض!

23



مع الرئيس مبارك عام ١٩٨٧ بعد عودته
لأرض الوطن بدعوة رسمية بعد غياب ١٣ عامًا



الرئيس حسنى مبارك أثناء لقائه مع الوطنيين والزعماء المصريين الذين أفرج عنهم فى نوفمبر سنة ١٩٨١ مع رجائي بإلغاء قانون الطوارئ فى نهاية عام ٢٠٠١ والإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين

يخرج الذى يدرس شخصية الرئيس المصرى حسنى مبارك بنتيجة مفادها، أنه ذو ملامح مميزة خاصة، ينفرد بها دون بقيه حكام مصر، فهى فى كلمة ملامح المواطن المصرى، عادت إلى ذاكرتى، حين التقيت به، فى مقره بقصر العروبة فى القاهرة، فى يناير ١٩٨٧ شخصية « المصرى أفندى » التى كانت الصحف المصرية ترمز بها إلى « رجل الشارع المصرى » سنوات كفاح الاستقلال الوطنى والحقوق الديمقراطية.

وربما يعلم الجميع أن حياتى تكاد تكون قد اعتصرتها السجون والمعتقلات.. فى مصر وبعض العواصم العربية، من أجل التمتع بالحريات العامة والحقوق الديمقراطية، على مدى السنوات الأربعين الماضية... تصبح مبادئ حرية المواطن، وحقه فى التعبير عن رأيه المناهض لرأى حكومته، هى القيمة الإنسانية الكبرى، التى تعلو على كل الإنشاءات، وتجب كل الإنجازات التنموية والعمرانية، فكل هذه أمور تزهر وتثمر فقط، فى ظل حرية المواطن فى مناخ من الحريات الديمقراطية. وتهوى وتنتكس، وتحبط وتختنق، فى ظلام الإرهاب والحكم المطلق، وفى ظل القهر والقمع.. ومن هنا، استضافتنى جميع معتقلات الحكومات السابقة، ومن هنا أيضا، رفضت كل ما جاءنى، من عروض بالمناصب والرواتب، بينما كنت رهن القيد، وبقية الشعب قيد القهر.

لقد كانت الحرية هى القضية، لدى الذين ناضلوا طويلا، من أجل التحرر من الاحتلال والحكم الملكى.

هذا وقد حملتنى ضغوط سيادة الرأى الواحد وقمع الكلمة الحرة، وارتفاع أغانى الذين احترفوا العزف على مزامير السلطان، أن أهاجر بعيدا عن مصر، إبان حكم الرئيس الراحل السادات.. بعد أن حيل بينى وبين التعبير عن رأيى المعارض لسياسته، فى صحف بلادى، ظللت فى هجرتى تلك ثلاثة عشر عاما، رافعاً خلالها صوتى المعارض، للسياسة والمنهج الساداتى، ولم أتوقف عن مهاجمته، إلا عندما قضى نحبه وأصبح بين يدى الله فى العالم الآخر، وللعلم، كانت إحدى دور النشر فى بيروت قد اتفقت معى على أن تصدر لى كتاباً أرد فيه على ما ورد فى كتاب « البحث عن الذات » للرئيس السادات وبالفعل أنهيت الكتاب المطلوب فتوقفت عن

إرساله وقد اعتذرت للناشر رغم تتابع مناشدتى تليفونيًا بإرساله وكان الأجر سخيًا، ولا يزال الكتاب لدىّ مخطوطًا فقد أصبح الرجل بين يدى الله.

ورحت أتابع تحركات الرئيس الجديد، وأتناولها بعين الرفض وقلم المعارضة.. لكن استوقفتنى هذه التحركات، فى محطات عديدة، كان أولها، انه ما إن تسلم الحكم، وكان زعماء المعارضة، بمختلف أحزابهم وتياراتهم السياسية فى السجون، حتى بادر فاطلق سراحهم، بل واستقبلهم مرحبا بهم، وكأنه يعتذر عما كان قد وقع لهم.. كما أعاد إلى الحياة، الأحزاب والصحف المعارضة، بعد أن كانت قد أغلقت وألغيت تراخيصها... ومنذ أولى ساعات تسلمه زمام مصر، سمح بالممارسة الديمقراطية للشعب، وكفل حرية التعبير، وحرية العمل السياسى، لجميع المواطنين، وفى ظله أصبح للرأى الآخر، وللقلم المعارض، حريته فى التعبير، وحقه فى أن يطرح على الناس، رؤيته المغايرة، والمناهضة لسياسة حكومته بعد أن كان مجرمًا محظورا طوال السنوات الثلاثين الماضية.. كما أنى توقفت كثيرا، عند محاولات بعض المسئولين الذين تضيق صدورهم بحرية الكلمة، وتنفر نفوسهم من الكتابات المعارضة لسياسة الدولة، والرئيس مبارك يتصدى لهم، مدافعا عن حرية الكلمة، فمن المؤكد أن مصلحة مصر، فى توفير الحريات العامة، وكفالة التمتع الجماهيرى بالحقوق الديمقراطية، فمن خلال الممارسة الديمقراطية، يعمل الشعب ويسعى فى مناخ صحى يدفعه قدما إلى الأمام، ويجعله يقفز عدوا، فى طريق التنمية والتطور.

كما شدتنى مواقف الرئيس الوطنية .. وصلابته فى خوض غمار، أوجه معاناة التعامل مع الإدارة الأمريكية، بما ورثه من ديون مثقلة بالأعباء وبالشروط والفوائد الربوية الباهظة... و فى نفس الوقت، إصراره على التمسك بالتراث السياسى المصرى، بالالتزام النضالى القومى العربى، خاصة منه الوقوف إلى جانب كفاح الشعب الفلسطينى لاستعادة حقوقه، وإقامة دولته المستقلة على ترابه الوطنى وعاصمتها القدس.

لقاء المشاعر الدافئة

وقلت للرئيس:

طول عمرى وأنا فى العمل السياسى، لكننى منذ أن حُبست لأول مرة عام

١٩٤٢، وحتى اليوم، وأنا معارض لكل الحكام.. رافض لكل الحكومات واليوم، ولأول مرة في حياتي أكون مؤيدا للحاكم .. مؤيداً لك ومؤمناً بك.. لقد مكثت ١٣ سنة بعيداً عن مصر، أعاني مرارة الاغتراب والحرمان من الوطن.. وأنا الذي في سبيل حرية هذا الوطن، بذلت الكثير من الدم والعرق.. واعتصرت السجون والمعتقلات، كل شبابي ورحيق عمري.. فكم كان مؤلما، أن أجدني محروما، حتى من زيارة وطني واليوم .. وعلى يديك .. عدت إلى بلدي..

قال الرئيس: طبعا تعود إلى بلدك .. إذا كانت مصر بلد العرب أجمعين مفتوحة أبوابها لكل عربي.. فكيف بابن مصر؟! من الطبيعي أن تعود لبلدك..

ومضيت أقول: حقيقة أول ما توليتم الحكم عارضتكم. واستمررت في معارضتكم.. أي أنني ظللت معارضا رافضا.. مثلما كنت مع كل الحكام السابقين.

قال الرئيس: خليك معارض.. أنا ما أزعلش من المعارضة.. اليوم في مصر المعارضة من مقومات الدولة.

وعندما تقدمت لمصافحة الرئيس وجدتني أحتضنه معانقا، فقد وجدت فيه نموذج الحاكم المصري الذي ظللت أبحث عنه، طوال السنوات الأربعين الماضية.. وعلمت أن الرئيس قال عقب مغادرتي مجلسه: «سعد زغلول جعل المقابلة كلها مشاعر دافئة».

عشت ٢٧ عاما في الغربة، منها ٦ سنوات في الكويت وبغداد، و٢٠ عاما في باريس التي تعامل الأجنبي فيها كالمواطن الفرنسي في الحقوق والواجبات، وذلك بعد أن اختلفت مع سياسة الرئيس الراحل أنور السادات.

- مبارك هو الرئيس الذي ظللت أنتظر قدومه لمصر على مدى الأربعين عاما السابقة.. **رئيس يحكم بلا معتقلات للسياسيين المعارضين.. وبلا قمع للرأي الآخر..** ويكفل الحرية والديمقراطية بمساحة تتسع سنة بعد أخرى، وإن كان يحول دون اكتمالها قانون الطوارئ الذي نتناوله في الصفحات التالية:

لا لقانون الطوارئ

عهد الرئيس حسنى مبارك، تمثله راية بيضاء ناصعة البياض، لكن تشوه صورتها بقعة سوداء يتوجب إزالتها تتمثل فى قانون الطوارئ، قانون الأحكام العرفية، المفروض على البلاد والسارى المفعول منذ إعلانه فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ عقب اغتيال الرئيس السادات.. والمحبون للرئيس حسنى مبارك، الحريصون على اكتمال أركان ومبادئ الديمقراطية، يرون الضرورة التى تمليها وقائع أنظمة الحكم فى بلدان التقدم، وما تتطلبه مقتضيات العولمة فى مطلع الألفية الثالثة، والتواجد المصرى بين دول التقدم، المبادرة الفورية الحاسمة بإلغاء قانون الطوارئ، حتى لا يشاع فى ميدان السياسة الدولية، أن مصر تحكم بهذا القانون البغيض، والذى نتناوله بالتفصيل فى السطور التالية:

الأحكام العرفية أو قانون الطوارئ، المفروض على شعب مصر منذ ٦ أكتوبر ١٩٨١، قانون معيب وبغيض، مستمد ومستخرج من قانون الأحكام العسكرية الإنجليزى الخاص بحكم المستعمرات البريطانية، والذى كان الإنجليز قد فرضوه على مصر، غداة احتلالهم القاهرة فى سبتمبر ١٨٨٢، ثم قننه المشرع المصرى عام ١٩٢٣، وأطلق عليه اسم «قانون الأحكام العرفية»، وظل باسمه هذا إلى أن استبدل الاسم فى السنوات الأخيرة باسم «قانون الطوارئ»، بينما ظلت مواده على ما كانت عليه، وأضيف إليها مواد تشدد فى القضاء العسكرى والمحاكم الاستثنائية الخاصة بالقضايا السياسية، وما اصطلح على تسميته أمن الدولة، الذى هو أمن السلطة الحاكمة.

وفى إيجاز نقول: إن إعلان الأحكام العرفية أو قانون الطوارئ فى بلد ما، يعنى أن يصبح الحاكم مطلق السلطان، فيتعطل العمل بالمبادئ الدستورية وبالإجراءات والقواعد القانونية، ويتوقف تمتع المواطنين بالحريات العامة والحقوق الديمقراطية، ويصبح من حق السلطة تقييد كافة صور الحريات الخاصة للمواطنين وانتهاك حرماتهم.. من حقها القبض والتفتيش دون توجيه اتهام ودون أمر قضائى.. الاعتقال والإيداع فى السجون دون تحقيق وبلا محاكمة، وسوق من ترى السلطة

محاكمته إلى المحاكم العسكرية أو أية محاكم استثنائية تقيمها تحت أى اسم وعنوان، وأحكامها غير قابلة للطعن فيها ولا تخضع لغير تصديق الحاكم العسكرى العام، ناهيك عن حق السلطة فى إلغاء الأحزاب السياسية ومصادرة الصحف وفرض الرقابة على ما يصدر منها، وعلى الخطابات والبرقيات والمكالمات التليفونية، وحق التحفظ على الأموال والممتلكات ومصادرتها..... إلخ.

هذا، ومن أجل هذه المخاطر التى تتضمنها الحياة فى ظل قانون الطوارئ، حرصت كافة التشريعات فى جميع الدول على اختلاف نظمها، على الا تلجأ الحكومة إلى فرض العمل به، إلا فى حالة «الضرورة القصوى» و«لميقات محدد» ينتهى بانتهاء مسوغاته والتى وردت على سبيل الحصر، كحالة حرب فعلية، أو نشوب اضطرابات شديدة شاملة ومستمرة، وقوع وباء أو فيضان مدمر وقع من جرائه اضطراب عام فى الأمن.. تلك هى الأحوال التى بتوافرها، يحق للحكومة إعلان قانون الطوارئ، ويتوقف العمل به فور انتهاء الأحوال التى دعت إلى إعلانه وفرض سريانه.

ونحن حين نتفحص الأوضاع فى مصر حين أعلن فرض قانون الطوارئ فى أكتوبر ١٩٨١، والذى ما زال سارياً حتى ساعة كتابة هذه السطور من عام ٢٠٠١، نرى أنه يفتقد أى سند لإعلانه وفرضه على البلاد، ذلك أن مصر منذ توقيع اتفاقيات كامب ديفيد واتفاقيات الصلح مع إسرائيل وتبادل العلاقات الدبلوماسية معها، لم تعد فى حالة حرب ويسودها السلام، كما أن البلاد ليست نهباً للاضطراب والفوضى، وتنعم بالاستقرار والأمن.. فلماذا تصر السلطة على استمرار فرض قانون الطوارئ، وتبادر بتجديد سريانه كلما انتهت المدة المحددة فى إعلانه..؟!، وكيف يتفق ذلك مع تتابع تأكيدات المسئولين، وهم يدعون ويعملون على جذب الاستثمارات الأجنبية، بأن مصر تنعم بالأمن والاستقرار والسلام، وهو ما قاد بالفعل إلى استجابة الأموال الأجنبية لنداء الاستثمار فى مصر..

تقول الحكومة وتردد، أنها تبقى على قانون الطوارئ لمقاومة الإرهاب والمخدرات، وأنها لا تستخدمه ضد السياسيين، وهذا القول مردود عليه، فما هو الضمان بعدم استخدامه مستقبلاً ضد السياسيين والصحف والأحزاب المعارضة، طالما أنه قائم سارى المفعول شاهر سيفه؟ هذا فى الوقت الذى يعلن فيه قانون العقوبات أنه ملىء

بالنصوص والمواد الخاصة بمكافحة الإرهاب والمخدرات، والتى تصل إلى عقوبة الإعدام والسجن مع الأشغال الشاقة.. ونشير هنا إلى ما كان قد وقع من جرائم إرهابية فى كل من باريس ولندن، خاصة العاصمة البريطانية التى لا تزال تتعرض لتفجيرات إرهابية، ولم تفرض أى من الحكومتين قانون الطوارئ، إنما تواجهها بقانون العقوبات، والذى هو فى مصر مغلظة عقوباته فى جرائم الإرهاب والمخدرات..

الأوضاع السياسية الراهنة لمصر الدولة العريقة، انتكاسة مخزية عما كانت عليه من أوصاف وملامح الدولة العصرية، التى كانت تمضى قدمًا بنجاح فى طريق التقدم، فمصر «الملكية» والتى كان فيها الملك مجرد رمز، يملك ولا يحكم، مصر أربعينيات وأوائل خمسينيات القرن العشرين الماضى، وقعت فيها أحداث جسيمة، لم تفرض بمقتضاها الأحكام العرفية المسماة اليوم قانون الطوارئ، فقد قتل رئيس الوزراء أحمد ماهر فى البرلمان، وقتل خليفته رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى فى قلب وزارة الداخلية، وقتل أمين عثمان فى وسط أهم أحياء القاهرة، ولم تفرض الحكومة «الملكية» قانون الطوارئ.. مصر أربعينيات القرن الماضى، كانت مسرحًا لتعدد وقوع تفجيرات فى مراكز تجمعات قوات الاحتلال فى القاهرة والإسكندرية، ولم يفرض قانون الطوارئ، ولم تحل هذه الأوضاع دون التعرف على الجناة والقبض عليهم ومحاكمتهم أمام المحاكم العادية محاكمات علنية عادلة، حكم على من أدينوا بالعقوبات المقررة، وكان بينها أحكام بالإعدام نفذت جميعها، دون قانون طوارئ ودون محاكمة استثنائية.. وفى مناخ الحريات العامة والحقوق الديمقراطية، كان الرخاء والازدهار الاقتصادى يسود مصر، وكان الجنيه المصرى يعادله خمس دولارات أمريكية، والجنيه الاسترلينى يساوى ٩٧٫٥ قرش مصرى.. واليوم فى ظل الحكم بقانون الطوارئ، أصبح الدولار الأمريكى يعادل نحو أربعة جنيهات مصرية (ويزيد)، والجنيه الاسترلينى نحو ٥ جنيهات مصرية..!

وبعد، تظل كلمة فى هذا الصدد، فلم يمنع قانون الطوارئ وقوع أبشع الجرائم وأكثرها وحشية، ففى ظله وقعت تفجيرات فى محاولات اغتيال وزراء الداخلية حسن الألفى والإعلام صفوت الشريف، واغتيال رئيس مجلس الشعب رفعت المحجوب.. كما وقعت جريمة اغتيال عدد من السياح فى مقاعدهم بأتوبيس سياحى أمام المتحف الوطنى، وانفجار قنبلة فى مقهى وادى النيل بميدان التحرير، كما جرت

مذبحة السياح فى الأقصر.. ومؤخراً منذ شهور مذبحة فى بنك ببلدة المراغة، التى قتل المسلحون الإرهابيون اللصوص ١١ مواطنًا بريئًا من موظفى البنك وعملائه وفروا هاربين، بعد أن استولوا على أكثر من ستمائة ألف جنيه من خزينة البنك، ولم يقبض على أحد منهم حتى اليوم..! فأين قانون الطوارئ؟!

هذا ومن ناحية أخرى، فقد شاعت الجريمة واهتز أمن المواطنين، خاصة جرائم السرقة بالإكراه وتلك العادية، بل وجرائم القتل بسبب السرقة، والسبب فى ذلك انصراف غالبية الجهود الأمنية للمحافظة على أمن النظام الحاكم وقياداته على حساب أمن المواطنين.. إضافة إلى شيوع وانتشار تعاطى المخدرات والخمور ونوادى المجون لأبناء الأغنياء الجدد، الذين تضاعفت ثرواتهم من مصادر غامضة، كما وقد تعددت وتكاثرت منح البنوك قروضًا بالملايين لبعض الأشخاص دون أية ضمانات، وهروبهم بأحمالهم المالية المنهوبة إلى خارج البلاد، مما تسبب فى إصابة الاقتصاد المصرى بنقص متجدد فى السيولة.. ولم تستخدم السلطة قانون الطوارئ فى مكافحة هذا النوع الأسود من الفساد..!، لكن السلطة حشدت عدة ألوف من المواطنين فى السجون معتقلين دون اتهام معلن ودون تحقيق ودون محاكمة.. وفى هذا الخضم من انتهاك الدستور والقانون باسم قانون الطوارئ، أقامت محاكم عسكرية خاصة، أصدرت أحكامًا قاسية بالسجن على بعض المواطنين لمجرد انتمائهم إلى جماعة الإخوان المسلمون، مجرد الانتماء الفكرى يزج بهم فى السجون، بالرغم من أن الدستور يشدد على كفالة احترام العقائد الفكرية السياسية والدينية للمواطنين، لكن قانون الطوارئ يجمد ويوقف العمل بالدستور، مثلما يسلب من المواطنين حقوقهم الديمقراطية والدستورية..

إن قانون الطوارئ، المفروض على شعب مصر منذ ٦ أكتوبر ١٩٨١ حتى اليوم، هدفه الوحيد الحفاظ على أمن نظام الحكم ورموزه، وإهدار الإرادة الشعبية وعدم الالتفات لحاجيات ورغبات وطموحات الجماهير..

الأحكام العرفية أو قانون الطوارئ، وصمة سوداء فى جبين حكم مصر، يتوجب المبادرة بإزالتها، إن إلغاءها فى صميم صالح مصر، فلا تقدم ولا نهوض حقيقيًا إلا فى ظل الحرية، إنها فرامل تعرقل سلامة وسرعة عمليات النمو والتقدم، وأعلنت الأيام

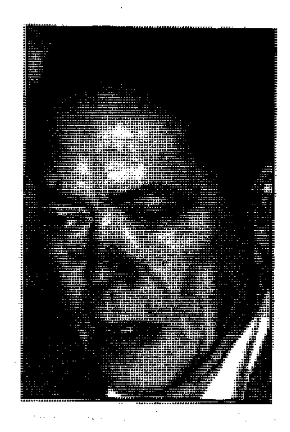
وأحداثها، أنها لم تمنع الإرهاب ولم تقض على الجرائم، بل تزايدت الجرائم وشاع ارتكابها.. وسبق أن ناديت فى جريدة الأهرام بضرورة مراعاة التوازن الأمنى، فلا يكون أمن النظام على حساب أمن المواطنين.. واختتم السطور السابقة بالهتاف بأعلى صوت من صفحات هذا الكتاب بسقوط قانون الطوارئ، وأسوق هنا تجربة مفيدة ومضيئة، ففى عامى ١٩٤٨ و١٩٤٩، كثرت الاضطرابات والتفجيرات والعنف الحكومى والعنف المضاد بين حكومة الحزب السعدى وجماعة الإخوان، وحين تولى حزب الوفد الحكم عام ١٩٥٠، ألغى قانون الأحكام العرفية (قانون الطوارئ) وأعاد شرعية جماعة الإخوان، ونعمت البلاد بالحريات العامة والحقوق الديمقراطية، لم تقع أية تفجيرات ولم ترتكب جرائم قتل سياسى أو عقائدى، وتقلصت الجريمة إلى درجة الندرة، فقد ساد الأمن والسلام واستقرار المجتمع وتضاعف الازدهار الاقتصادى، فانتعاش المجتمع يكون دائمًا تحت مظلة سيادة الحريات العامة والحقوق الديمقراطية، ومن أجل مصر اليوم.. مصر الألفية الثالثة وعصر العولمة.. مصر مبارك الذى يبذل الجهود فى سبيل التنمية والبناء، أنادى وأطالب بسقوط قانون الطوارئ، وغير صحيح على الإطلاق أنه الذى يحمى الحاكم والحكم، الحماية الحقيقية تكون من الشعب.. وأدعو الرئيس مبارك إلى عدم الاستماع إلى النصائح البوليسية والإجراءات الأمنية، والتى لم تشاهدها مصر على مدى تاريخها السياسى العريق والمجيد.. وقد استأت من أعماقى، حين شاهدت فى التليفزيون موكب الرئيس فى طريقه إلى مجلس الشعب لافتتاح دورته الجديدة، وكيف كانت الشوارع التى سلكها الموكب خاصة منها شارع قصر العينى، قد أخليت تمامًا من الجماهير..!، على حين كان الرئيسان السادات وعبد الناصر يتوجهان إلى مجلس الشعب فى عربة مكشوفة والجماهير على جانبى الطريق تدوى هتافاتها وتصفيقها فى أجواء القاهرة، ومن قبل كان الملك فاروق فى طريقه إلى افتتاح الدورة البرلمانية، يستقل عربة تجرها الخيول.

إن محبتى للرئيس مبارك، تدعونى لأن أناشده أن يضرب صفحًا عن النصائح البوليسية، وأن ينزل إلى الشارع ويغوص فى الجماهير التى منها وبها حمايته، والتى تكن له الولاء والحب، وهى تشاهد جهوده المتتابعة لتطوير حياتها وإسعاد أفرادها..

هذا، أود هنا أن أشير إلى ظاهرة معيبة ومستحدثة ومستنكرة، فقد انتقلت

إجراءات الحراسة المسلحة والمشددة فى تنقلات الرئيس من موقع إلى آخر فى القاهرة والإسكندرية وشرم الشيخ، إلى الوزراء وإلى رؤساء الصحف كمظهر للأبهة، كما أن هذه الظاهرة انتقلت إلى الأغنياء الجدد حديثى العهد بالثروة، فبعض رجال الأعمال يؤجر لتنقلاته الحراس الخصوصيين فى رتل من السيارات.. وحتى أصبحنا نرى هذه الحراسة من السيارات المسلحة والسريعة لبعض الراقصات.. والسؤال: حراسة ممن؟!، مرعوبين من أى شىء وشعب مصر طيب، وأفراده كما يقولون «ماشيين جنب الحيط».. وهذه الحراسات تعلن أن أصحابها المغرمين بها، يؤمنون أن محيطهم الاجتماعى يكن لهم العداء، وهذا غير صحيح على الإطلاق، والصحيح المستنتج هنا أن هؤلاء المرعوبين يشعرون فى قرارة نفوسهم، بأن المواقع الوظيفية التى يشغلونها، يتباعدون فيها عن خدمة المواطنين، وهم يعزلون أنفسهم عن مجتمعهم.. أعرق المجتمعات البشرية، وأكثرها طيبة نفس وسماحة قلب.. وما يثير فى نفسى الدهشة والأسى معًا، أن زملائى رؤساء المؤسسات الصحفية القومية (المؤممة)، تحيطهم وزارة الداخلية بحراسة مشددة، فى تنقلاتهم بشوارع القاهرة وفى مساكنهم، على حين عبر التاريخ والزمن الماضى، وفى كل العواصم العالمية والعربية، يمضى الصحفى فى تنقلاته بلا حراسة، لأنه بحق ضمير الشعب ولسان أوضاعه وطموحاته، ويبدو أنها أصبحت لدى البعض صورة من الأبهة أكثر منها حراسة..

وأشيد هنا بالدكتور أسامة الباز المستشار السياسى لرئيس الجمهورية، فتنقلاته كلها فى القاهرة بدون حراسة على الإطلاق.



أسامة الباز المستشار السياسي لرئيس الجمهورية.. يمضي بين الشعب بلا حراسة

السياسيون والمعتقل

هذا، نود هنا بصدد المعتقلات والمعتقلين، أن نضع النقاط على الحروف، فالمقصودهم السياسيون المعارضون لسياسة النظام الحاكم، ففى عهد الرئيس عبد الناصر كان المعارضون لسياسته وأسلوب حكمه، تبتلعهم المعتقلات التى كانت فى السجون وفى صحراء الواحات، وكذلك جرى الحال فى أواخر عهد السادات، خاصة حملة اعتقالات ٥ سبتمبر ١٩٨١ .. فالمعتقلون هنا سياسيون معارضون.. أما فى عهد الرئيس مبارك، فقد أضفى على المعارضة لسياسة الحكم الشرعية، وأصبح الرأى الآخر حراً غير محظور ولا مجرّماً، بل أصبحت المعارضة لسياسة الحكومة من مقومات الدولة كما قال لى الرئيس، وبالتالى تلاشت واختفت المعتقلات التى كان يحشر فيها المعارضون السياسيون، والتى كانت وصمة سوداء فى عهدى الرئيسين عبد الناصر والسادات.

لكن تظل نقطة فى هذا الصدد، أن فى مصر اليوم معتقلات يسكنها من تصفهم سلطات الأمن بالإرهابيين، وذلك بين إجراءات مكافحة جرائم الإرهاب الدموية، التى جرت فى مصر فى السنوات القليلة الماضية، ولوحشية وعشوائية هذه الجرائم التى سفكت دماء الأبرياء، لم يحز مرتكبوها أية تعاطف، بل انصب عليهم سخط واشمئزاز الرأى العام، خاصة وهم مقيدون فى المعتقلات والسجون.. فماذا كانت عليه مشاعر المواطنين، حين انفجرت قنبلة تحت مقعد مقهى وادى النيل فى ميدان التحرير، والضحايا مواطنون أبرياء رواد المقهى؟.. وماذا عن التفجير الانتحارى لاغتيال وزير الداخلية حسن الألفى فى شارع السلطان حسين، الذى أحال بائع فى كشك أمام باب الجامعة الأمريكية إلى أشلاء متناثرة؟.. والفتك بالطفلة شيماء أمام مدرستها فى التفجير لاغتيال عاطف صدقى وآخر لاغتيال صفوت الشريف، ثم ماذا عن مذبحة سياح الأقصر التسعين..؟!، كل هذه الجرائم اللا إنسانية والعشوائية العمياء، حملت المواطنين على عدم التعاطف معهم وربما الارتياح والرضا بحشرهم فى المعتقلات، دفعاً لشرهم واستنكاراً لمعتقداتهم بتكفير المجتمع واستحلال عمليات القتل والسرقة فى أفراده.. ومن هذا المنطلق تتخذ الدولة ذريعة لاستمرار الحكم بقانون الطوارئ، والذى تردد الحكومة، أنه يطبق فقط على مقاومة الإرهاب وتجارة المخدرات.. وهذه ذريعة مردودة على أصحابها، وليست بالأسلوب الصائب فى

معالجة كل من الإرهاب والمخدرات.. وأعرض فى السطور التالية، الكيفية التى عالجت بها فرنسا الإرهاب وقضت عليه واستأصلته من جذوره ومنابعه، دون إعلان قانون الطوارئ، ودون فتح معتقلات واعتقال المشتبه فيهم بالإرهاب وتجارة المخدرات..

فقد حدث منذ سنوات، أن انفجرت قنبلة وسط ركاب المترو فى محطة الحى اللاتينى، كما انفجرت قنبلة وسط المشترين فى محلات «تاتى» الشعبية وسط حى مونبارناس بباريس، كما وقعت عدة انفجارات فى مواقع أخرى من العاصمة الفرنسية، وتمكنت المخابرات والمباحث الفرنسية من التعرف على الجناة، وألقت القبض عليهم، وكان أحدهم قد هرب إلى بروكسل فقبض عليه وقدموا للمحاكمة وانتهى أمرهم، كما قام البوليس الفرنسى بالقبض على نحو ٢٦٠ شخصاً من رعايا بلدان شمال أفريقيا، وجرى التحقيق معهم والتحفظ عليهم بأمر من القضاء، ثم أطلق سراحهم وغالبيتهم من الجزائريين خشية أن يكونوا امتداداً للجماعة الإسلامية المسلحة فى الجزائر، ووضعوا جميعاً تحت المراقبة السرية الدقيقة، ومن الأهمية هنا أن نشير بتكاثر ويقظة عيون الأمن وسط الجالية الإسلامية التى غالبيتها من الجزائر، وبين حين وآخر تتعرض بعض مساكن الجزائريين المعروف عنهم انتماؤهم للجماعات الإسلامية المسلحة فى الجزائر أو تعاطفهم معهم إلى المداهمة والتفتيش بأوامر من القضاء، على ضوء معلومات سرية مؤكدة بحيازتهم فى مساكنهم أسلحة ومتفجرات، يحاكمون عليها محاكمات علنية أمام المحاكم العادية المختصة، وقادت هذه الإجراءات الأمنية إلى القضاء نهائياً على الإرهاب وساد الأمن والأمان منذ سنوات العاصمة الفرنسية بدون معتقلات وبدون قانون الطوارئ.

* * *

الهجرة

وكنت قد غادرت مصر عام ١٩٧٤، بعد ان تعذر علىّ نشر أية كلمة لا يقرها الرقيب، ودامت غربتى هذه حتى اليوم، منها ست سنوات فى بغداد والكويت، وعشرين عاما فى باريس، حيث مازلت أقيم فيها حتى الآن.

وأود هنا أن أشير إلى أنى فى بداية هجرتى، حاولت الإقامة فى أى من البلدان

العربية لكن بعضهم ينعتون الوافد العربى إليهم بأوصاف الهارب من الفقر فى بلده، دون أى اعتبار لما يبذل من جهد فى عمليات التنمية والبناء.

أما البلدان ذات النظم «الثورية» والتى يرفع إعلامها الشعارات البراقة، فما إن تقيم بها بأوصافك الصحفية وكتاباتك السياسية، حتى تجد نفسك مطالبا بوضع قلمك وقدراتك وأنشطتك فى خدمة النظام الذى تقيم على أرضه وتعمل فى صحفه أو إذاعته وتليفزيونه، وإن كنت أستاذا فى مدارسه وجامعاته، فلابد وأن تلتزم بخدمة سياسته، ومن ناحية أخرى غالباً ما تلتف حولك أجهزة مخابراته «الثورية» وتمسك بخيوط تحركاتك السياسية، وتجد نفسك وكأنك أسير ظفرت به أجهزة هذا البلد أو ذاك، من محترفى الشعارات الثورية الزائفة، والويل لمن يرفض الإذعان وينأى بنفسه عن هذا المناخ، فسيحل به الاضطهاد، وربما إذا لم يتمكن من الرحيل، تلفق له الاتهامات ويجرى سجنه وتعذيبه، وربما يجرى قتله بوسيلة أو بأخرى!

ومن أجل كل ما سبق، اخترت باريس للإقامة، حيث الحرية والقانون واحترام الإنسان ومعاملة الأجنبى المقيم كمعاملة المواطن الفرنسى فى الحقوق والواجبات.

وأود أن أشير إلى أنه عندما تحررت مصر وخرج الانجليز عام ٥٦ حتى اتجهت الى الكفاح من أجل التحرر الوطنى والديمقراطى فى مختلف أنحاء الوطن العربى، وبعض المناطق الافريقية كجيبوتى والصومال وإريتريا ودفعت ثمن ذلك غاليا، باستضافتى فى سجون بعض الأنظمة العربية.

وليس أقسى على النفس من أن يسجن مناضل فى غير بلده بلا أهل، وبالنسبة لى كانت تتنكر لى سفارتى باعتبارى معارضاً لسياسة حكومتى وهاربا من أمر باعتقالى..!

ووسط آلام الاغتراب وظلمته برزت ومضة ضوء بمجىء الرئيس مبارك الى الحكم، شد انتباهى أنه أطلق سراح المعتقلين، وكان هذا عملا طيبا، ولكنه أضاف إليه أن استقبلهم بمقره الرئاسى، فكانت لفتة إنسانية كريمة وعلامة إيجابية فى الرئاسة الجديدة.

مبارك وحرية الصحافة

كما أنى رحت أنشر من باريس فى جريدة «الشعب» بالقاهرة عامى ٨١، ٨٢ ما

كنت أعاقب عليه أيام الرئيس الراحل أنور السادات، ومن هنا جاءت محبتى للرئيس مبارك والذى لم يلبث أن دعانى لزيارته فى القاهرة عندما علم أننى أخشى العودة لأواجه مضايقات أنا فى غنى عنها بسبب مقالاتى الانتقادية السابقة فى عهد الرئيس الراحل أنور السادات والتى قدمنى بسببها متهما أمام المدعى الاشتراكى!

هذا وقد وقعت ضد جريدة الشعب، إجراءات إدارية سلبية تتناقض وأوصاف حرية الصحافة، حين أوقفت السلطة صدور الجريدة. وقد أنصفها القضاء فحكم بمواصلة صدورها، وهذا الحكم القضائى العادل، امتنعت السلطة عن تنفيذه إلى اليوم، والذى نأمل الاستجابة لهذا الحكم العادل احتراماً للقضاء وخضوعاً لأوصاف الدولة المتقدمة العصرية الحرة.

ولعودتى إلى وطنى قصة:

فقد سبق أن بعث الرئيس الراحل أنور السادات بنقيب الصحفيين الراحل صلاح جلال إلى باريس يدعونى وزملائى المغتربين فى باريس إلى العودة للقاهرة تحت مقولته الشهيرة: «من عاد منهم ودخل النقابة فهو آمن»، ورددت فى مقال افتتاحى فى مجلة «المستقبل» برفض هذا العرض الذى كان بعنوان: «قصة العودة إلى مصر»!.

لقد رفضت العودة لعدم تغيير سياسة السادات، واستمرار العمل بما كان يسمى القوانين سيئة السمعة، ودليلى على ذلك أنها قادت فى ٥ سبتمبر ٨١ إلى اعتقال القوى المعارضة الوطنية والديمقراطية وعددها ١٥٣٦ من مفكرى مصر ومثقفيها.

وتصادف وجود الكاتب الراحل موسى صبرى فى باريس عام ١٩٨٦ والتقينا هناك فنحن زملاء مهنة ودراسة جامعية، رغم أننى كنت خصما سياسيا له، فأذكر مقالا افتتاحيا فى جريدة «الوطن» الكويتية كان بعنوان: (لماذا العتيقى يا «خواجا» موسى.. وليس روكفلر ومكنمارا؟) عندما شتم موسى وزير مالية الكويت واتهمه بالتدخل فى شئون مصر المالية، بينما كان السادات قد عين نفس الأمريكيين المذكورين مستشارين للاقتصاد المصرى!

وغيرها من مواقف عديدة اختلفت فيها مع موسى صبرى سياسيا، لكننا لم نفقد الود سواء فى زمالة المهنة أو الجامعة.

المهم بعد لقائي بموسى صبري بباريس في فبراير عام ٨٦ فوجئت عند عودته للقاهرة يكتب عني مقالا في «آخر ساعة» ويقول فيه:

- رأيت الصحفي المصري المعروف سعد زغلول فؤاد في باريس في حفل الاستقبال الذي دعا إليه الدكتور ممدوح البلتاجي رئيس هيئة الاستعلامات وقتها (وزير السياحة الحالي)، وكان لابد أن نلتقي بالأحضان!

منذ سنوات طويلة وهو بعيد عن مصر، ولا أعرف السبب القانوني الذي يمنعه من العودة، ولكن كل جيلنا الصحفي يعرف أن سعد زغلول فؤاد أسطورة تروى عنها مئات القصص، وإذا كتبت حياته في قصة.. فإنها تجذب ملايين المشاهدين بلا مبالغة.

وإذا رويت أعماله الفدائية في معاركنا الوطنية، وفي المعارك الفدائية العربية.. فقد لا يصدقها العقل.. وقد يتصور البعض أنها مبالغات من نسج الخيال. ولكنها تعبر عن حقيقة مروعة وهو أن هذا الرجل يقدم حياته فداء لما يقتنع به، و هذه هي أزمة حياته.

ومنذ سنوات وهو خارج مصر، وانتقل بين عواصم عديدة، وكتب في صحف عربية مختلفة ولكنه أفقر خلق الله لأنه لا يُشترى.. ولا يخون.. وكرامته فوق كل هامة.

وكتب كثيراً ضد السادات.. وأيد سياسات وعارض سياسات.. ووقع على بيانات حتى يكاد من لا يعرفه يشك في نواياه أو يتصور أنه من جبهة المنتفعين. ولكنه دائما من جبهة الجيوب الفارغة.

ومضى موسى صبري يقول في «آخر ساعة»: مهما حدث.. فإن دمه ممتزج بالتراب المقدس، وأصبح رب أسرة كبيرة، وعاني من مصروفات العلاج في جراحة خطيرة في العمود الفقري.. وكانت إصابته بسبب عملية فدائية!

ومع ذلك فهو مبتسم دائما.. متفائل .. ومصر هي حبه الأول والأخير.. وكل ما أتمناه أن أراه في مصر».

وعلى أثر هذا المقال فوجئت بدعوتي من الرئيس مبارك لزيارة القاهرة هيأها لي

الوطنيون الفضلاء د. ممدوح البلتاجي رئيس مصلحة الاستعلامات فى ذلك الوقت، ود. أسامة الباز المستشار السياسى للرئيس مبارك ود. مصطفى الفقى مدير مكتب الرئيس للمعلومات.

وأذكر فى مقابلتي هذه مع الرئيس مبارك التى حضرها معى رئيس تحرير «كل العرب» وهو عراقى الجنسية فوجئت بسؤاله للرئيس عن حرية الصحافة قائلاً له: «المعارضة تسجل عليكم علامات».. فكيف تسمح لها بكل هذه الحرية؟

فرد عليه الرئيس:

- انتم خايفين ليه من الحرية .. سيبوا الناس تتنفس.. وفى النهاية لا يصح إلا الصحيح!

ومنذ ذلك الوقت.. عام ١٩٨٦ أتردد أنا وأسرتى على مصر بعد غيبة طويلة ومريرة. وحدث فى عام ١٩٩٦ أن رفض الصحفيون ما سمي بقانون اغتيال حرية الصحافة رقم ٩٣ لسنة ١٩٩٥ فاستدعى الرئيس الى الاجتماع به مجلس نقابة الصحفيين وبعض القيادات الصحفية الذين كنت من بينهم.

معاش استثنائى

وبعد الانتهاء من هذا الاجتماع الذى قرر فيه الرئيس مشكوراً إلغاء هذا القانون المرفوض وإحلاله بالقانون الحالى ٦٠ لسنة ٩٦ الذى شاركت فى وضعه نقابة الصحفيين، وعندما كان الرئيس يصافحنى مودعا صاح كامل زهيرى من خلفى مازحًا:

- خد بالك يا ريس ده إرهابى عالمى!

فقلت للرئيس: محلى.. مش عالمى.. بس ده كان زمان أيام الإنجليز!

صاح كامل زهيرى:

يا ريس ده معاشه مقطوع.

فسألنى الرئيس عن ذلك فأجبت:

- أخبرنى المسئولون فى التأمينات أن معاشى سقط بالتقادم!

فالتفت الرئيس إلى الوزير صفوت الشريف وطلب منه أن يعمل لحصولى على معاش «استثنائى» من الدولة.

وبالفعل اتصل بى فى اليوم التالى الدكتور زكريا عزمى رئيس ديوان رئيس الجمهورية مهنئا لى بأن وزيرة التأمينات وقعت قرارا بمعاش استثنائى، لكننى فوجئت بأنه ٣٠٠ جنيه فقط!

فأبرقت إلى الرئيس أن هذا المبلغ «لا يسمن ولا يغنى من جوع»!

فأمر الرئيس بزيادته فارتفع إلى خمسمائة جنيه.

جواز سفرى فى الغربة

هذا وأشير، إلى ما كنت أعيشه من تخوفات خاصة بالنوعية القانونية لإقامتى فى باريس، كصحفى مصرى يمارس فيها معارضته لسياسة حكومته، بكتاباته الصحفية وكلماته الانتقادية فى الندوات والاجتماعات والمؤتمرات، فقدكانت الإقامة شرطها الأساسى حمل جواز سفر صالح، وبدونه يقع الطرد من فرنسا وترحيل صاحبه جبرا إلى وطنه، وكنت قد تعرفت على المسئولين عن الصحافة فى وزارة الخارجية الفرنسية، وعرفت أنه فور انتهاء صلاحية جواز السفر يطرد صاحبه ما لم تتجدد الصلاحية، وكان بعض زملائى من الصحفيين المصريين، قد سحبت القنصلية المصرية جوازات سفرهم حين تقدموا لتجديدها، لكنهم باتصالاتهم وعلاقاتهم بالنظم العربية التى كانت فى خصومة شديدة مع مصر، حصلوا منها على جوازات سفر، و البعض ألحق بالمكاتب الثقافية لتلك السفارات وحصلوا على جوازات سفر خاصة أو دبلوماسية كانت سند إقامتهم فى فرنسا.. ولم يكن لى هذا النوع من الصلات بأى نظام عربى أو غير عربى، مصرى وكل تحركاتى السياسية فى اغترابى هذا كانت تجرى فى قنوات مصرية خالصة، وحين أصبح جواز سفرى على وشك الانتهاء، قررت فى حالة سحبه منى أن أطلب اللجوء السياسى، الذى كنت قد أعددت أوراقه المطلوبة، وقصدت إلى مدير المكتب الإعلامى بالسفارة المصرية الدكتور ممدوح البلتاجى بوصفه المسئول عن الصحف والصحفيين المصريين فى فرنسا، وأعطيته جواز سفرى لمحاولة تجديده فى القنصلية، وفى اليوم التالى أعاده إلىّ بتجديد صلاحيته لمدة عام، واعتدت أن أقصد إليه فى كل عام لتجديده فى

القنصلية بروحه الوطنية الأصيلة وما إن تولى الرئيس مبارك حتى جرى تجديد جواز السفر بالمدة القانونية، وفى الوقت الذى كان رجال السفارة والقنصلية يقاطعوننى وينفرون منى، فقد كنت فى اعتبارهم معاديا «خطيرا» ، كان الدكتور البلتاجى يدعونى بين حين وآخر لقضاء بعض الوقت فى أحد مقاهى الشانزليزيه، ومن ناحية أخرى، عمل من جانبه على تحسين صورتى لدى الرئيس مبارك، هو مع د. أسامة الباز، عمل على دعوة الرئيس مبارك لزيارتى للقاهرة بموعد محدد للقاء الرئيس، وكان قد أصبح مديرا لهيئة الاستعلامات، فوضع فى خدمتى طوال فترة ضيافتى سيارة بسائقها وانتدب أحد موظفيه مرافقا لى.

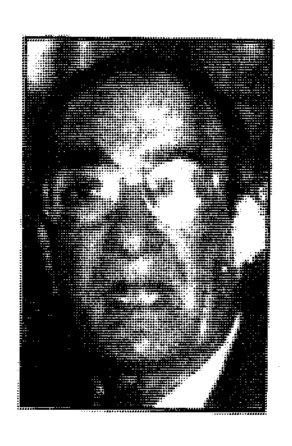
هذا و أود هنا أن أشيد بما حقق من إنجازات سياحية هائلة، منذ أن أصبح وزيراً للسياحة، أصبح العائد السياحى السنوى، أحد الموارد المالية المهمة فى الدخل القومى، بعد أن كانت وزارة السياحة على مدى السنوات الطويلة الماضية وزارة هامشية وهو على كل حال معى مثلما كان يعمل فى باريس.. وسبب نجاحه فى عمله على رأس الإعلام المصرى الخارجى والداخلى مديراً لمصلحة الاستعلامات ثم وزيراً موفقًا لامعا للسياحة عمق انتمائه الوطنى ووجدانه المصرى.. وقد بلغ الدخل من السياحة عام ٢٠٠٠ (٤,٣ مليار دولار) وعدد الزوار ٥,٥ مليون سائح والليالى السياحية ٣٣ مليون ليلة سياحية.



الدكتور ممدوح البلتاجى



الدكتور مصطفى الفقى



الدكتور زكريا عزمي

الفصل الرابع والعشرون



قهر الشعوب وإذلالها اليوم.. لا يختلف عن استعبادها وسلبها حريتها بالأمس

هذا، وبصدد ما تكشف لى من معالم فساد فاضح خطير، فى أجهزة مخابرات البلدان التى تنعت نظمها بالثورية، وتنشط أجهزتها الإعلامية فى نشر وبث الشعارات البراقة، والتى لا تجد لها من أثر فى التطبيق، ويعيش سكانها وزوارها، فى وقائع مضادة لتلك الشعارات، أعرض ما تكشف لى من أوجه نقص وخلل، وثغرات تفتح أبواب الفساد على مصاريعها فيما يلى :

- القول هنا خاص بجهاز المخابرات الخاص بحماية النظام الحاكم، والذى يمارس أعماله تحت اسم وشعار «أمن الثورة»، ومفهوم هذا الأمن يتمثل فى مطاردة الخصوم السياسيين للنظام، وسحق أى شكل للمعارضة، حتى ولو كانت همسا فى الآذان، وهذا النوع من الأنشطة يتضمن تعذيب الضحايا.. وأيضا قتلهم حتى ولو كانوا بعيدا بعيدا خارج البلاد..!

- لرجال المخابرات مطلق الصلاحية وكافة الإجراءات ومطلق السلطات فى حماية «الثورة» من كافة العناصر التى تنأى بأنفسها عن مواكب التصفيق والنفاق، وتحت أيديهم أموال الدولة بلا رقيب ولا حسيب، بدعوى «السرية» لأمن الثورة.

- عناصر عديدة، خاصة الشباب منهم، يجهدون فى سبل احتراف التربح وجمع الثروة من خلال وظائفهم القمعية، والتى تمسك برقاب الناس، ويتملكون مشروعات مربحة يحتكرونها ويقضون على أى منافسة من آخرين، فى إحدى العواصم «الثورية» عرفت شابا برتبة ضابط كبير فى جهاز «أمن الثورة» يمتلك مزرعة للعجول والأبقار، ويحتكر بيع حليب البقر فى المدينة، وآخر يمتلك كازينو كبيراً فاخراً، هو الوحيد فى المدينة، بعد أن تمكن بقرار وإجراءات أمنية، من التخلص من بقية الكازينوهات بدعوى أنها يتجمع فيها عناصر تردد فى مجالسها انتقادات وتروج إشاعات ضد الثورة.

- البعض منهم مرتشون ونصابون وسفاحون، ففى عاصمة «ثورية» على سبيل المثال، حيث كنت كثير التنقل إلى ومن براغ وباريس، فذات مساء كنت فى مكتب إحدى الإذاعات الموجهة للخارج، أنتحى بى جانبا المشرف عليها ذو الرتبة المخابراتية الكبيرة، وسألنى متعجبا : أستاذ أنت تسافر كثيراً إلى الخارج، وعند عودتك لا تحضر

لنا أية هدايا، زميلك المصرى «أ.ع.ص»، كلما عاد من رحلة له فى الخارج، هديته لى زجاجتان ويسكى مع أشياء أخرى وأنت تسافر وتعود ولا أية هدية منك لى»..
قلت: أنت لست صديقى ولا معرفة تدعونى إلى ذلك»، وتركته وانصرفت ولم أعد إلي زيارة هذه الإذاعة تجنبا لرؤيته، وأصبح يبغضنى وأكثر من تقاريره المخابراتية ضدى..!

- كما أن بعضهم يحترف النصب على حكومته، فذات يوم دعيت إلى جنيف لحضور مؤتمر عربى قيل لى إنه يعقد فى مقر الأمم المتحدة، للإشادة بزعيم «ثورة» بلد الداعين وإدانة السياسة الأمريكية تجاهه، ما إن وصلت حتى اجتمعت بى مجموعة من شباب هذا البلد «الثورى». وأفهمونى أنى تأخرت عن الموعد، وأنهم تعجلوا لمسايرة الأحداث، وعقدوا المؤتمر فى مقر الأمم المتحدة بجنيف، وتسلمت منهم مطبوعة على الآلة الكاتبة بمقررات المؤتمر، والتى كانت تبدأ وتنتهى بالإشادة بزعيم النظام الثورى الحاكم فى بلدهم، وبادرت فأبرقت إلى صحيفتى فى القاهرة بنبأ انعقاد هذا المؤتمر ومقرراته، ولسوء حظهم كان لى مجموعة من الأصدقاء المصريين العاملين فى الأمم المتحدة بجنيف وأكدوا لى أنه لم يعقد أى مؤتمر، وجيء برئيس قوة أمن مقر الأمم المتحدة فى جنيف وهو مصرى، فأكد لى عدم صحة انعقاد أى مؤتمر، فبادرت بالعودة إلى باريس، بينما امتلأت جيوب مجموعة أصحاب المؤتمر المزعوم بأموال النفقات والولائم والفنادق الوهمية. كما اكتشفت أن بعض رجال سفارتهم المعتمدين فى المقر الأممى بجنيف يشاركونهم بالرشوة والخوف والنصب على حكومتهم..!

كنت مندوبا لصحيفتى فى مؤتمر دولى لحكومات أكثر من سبعين دولة، وكان فى حراسة وفد إحدى دول النظم الثورية ستة من رجال أمن مخابراتها، كنت أعود للفندق فى ساعة متأخرة من الليل، حيث يكون الحراس العرب الثوريون الستة فى قمة درجات السكر، وبالطبع مجاملة أجلسونى معهم ودارت بينهم أحاديث مباهاة بصور التعذيب التى يباشرها كل منهم على ضحاياه المتهمين بمعاداة الثورة، قال أحدهم: أنا بعد أن ينهار من الصفع والركل، أعلقه بالسقف ورأسه إلى أدنى وأتناوله بالكى بالسيخ حتى يرضخ ويعترف بما أريد».. رد الآخر قائلا: «أنا أختصر كل خطوات التوصل إلى الانهيار بأن أمارس عليه «الفروج المشوى» من أول دورة

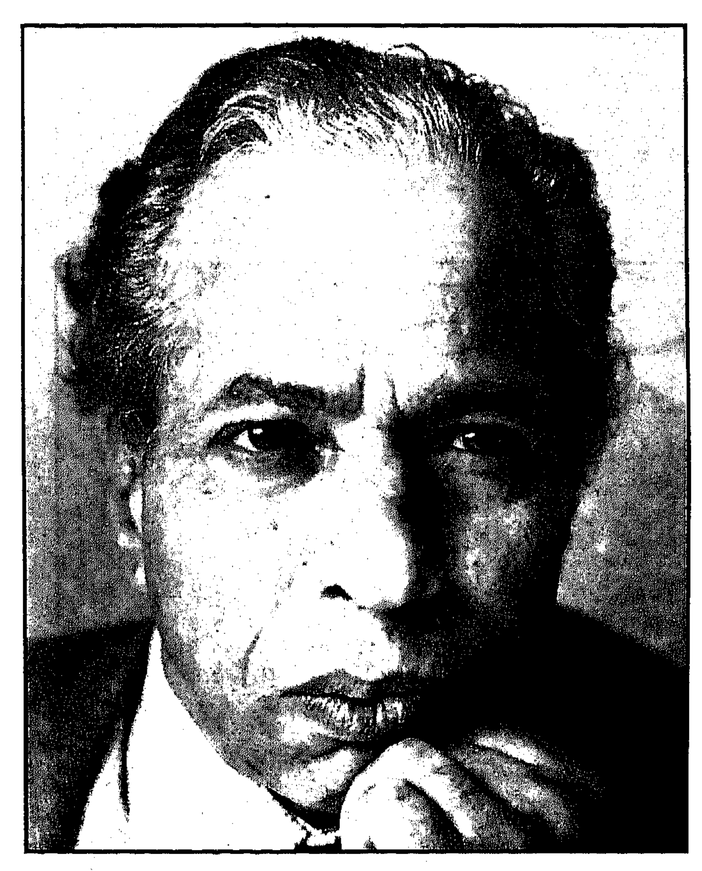
حول لهيب النار يقبّل قدمي وهو يعترف بكل شيء.. ا، كدت أختنق باكتئاب مكتوم وأنا أستمع للزبانية وهم يتباهون بجرائمهم فى تعذيب الإنسان..! عندما كانت تشيكوسلوفاكيا شيوعية، وبلدان الأنظمة العربية «الثورية» تتزعم مقاطعة مصر احتجاجا على إبرامها صلحا مع إسرائيل، حضر أحدهم باسم نظام بلده «الثورى» إلى براغ، وفى يده حقيبة كبيرة مليئة بالدولارات، واستدعى مندوب وكالة الأنباء الحكومية لبلده من باريس، وهو رجل مخابرات ذو حظوة لدى النظام فى بلده، قام برشوته كما منح رشوة دولارية كبيرة لمدير أحد فنادق براغ الكبرى، الذى كتب له فواتير نفقات مبيت وطعام ١٥٠ شخصا زعم أنهم صحفيون مصريون وعرب، وبادر مندوب الوكالة بالإبراق إلى صحف بلده بنبأ انعقاد المؤتمر المزعوم، وأنه اختتم بالإشادة وتحية وشكر رئيس بلاده..!!

هذا، ولابد هنا من التنبيه، أن أجهزة مخابرات الأنظمة الثورية، ليست كلها محلا للفساد والإفساد، ففيها عناصر نظيفة وشريفة وأصحابها متفرغون للسهر على حماية الأمن الخارجي، ضد أخطار الأنشطة المعادية للموساد الإسرائيلى والمنظمات الصهيونية المناوئة والمعادية للأمة العربية والشعب الفلسطينى كذلك الأجهزة الخاصة بدعم حركات التحرر فى إفريقيا..

وأختتم ما سبق، أن ما يجرى من عمليات اعتقال وتعذيب، لا تقع بامر من النظام وأصحاب القرار فى القمة، إنما تجرى وفق إرادة فردية من ضابط المخابرات المطلقة صلاحياته وسلطاته باسم أمن الثورة، والسلطة المطلقة غير المسئولة مفسدة للمرء وإهدار للقيم، والمشكلة هنا أن الحكام يؤمنون بحمايتهم هذه فيغدقون العطايا والمزايا..!

الفصل الخامس والعشرون

حياة الاغتراب فى باريس مدينة الأخيار والأشرار



سعد زغلول فؤاد يفكر .. فى حياة الهم التى تحاصره فى باريس بعد سنوات الكفاح!

25



هموم مصر لم تفارقني .. طيلة غربتي

إنها باريس مدينة النور والظلام، الأخيار والأشرار، الفضيلة والرذيلة، العلوم والفنون، الاستقامة والمجون، مدينة كل التيارات والعقائد السياسية والدينية، المتصارعة والمتصالحة والشديدة التفاعل فى الشارع الفرنسى، هذه الغابة المسماة مدينة النور هى التى أعيش فيها منذ واحد وعشرين عاما..!

وكنت عندما وصلت إلى باريس عام ١٩٨٠، أعتقد أن إقامتى بها لن تتجاوز العام أو العامين، لكنها رغما عنى امتدت إلى عقدين حتى اليوم..!

ونشير هنا إلى قسوة وصعوبة الحياة للأجنبى المقيم، وهو هنا العربى والمسلم، فليس من صعوبات حياتية لدى الأجنبى الأوروبى والأمريكى، وأول وأهم هذه الصعوبات التى تحيط بأمثالى من العرب المقيمين، تكمن فى ارتفاع النفقات المعيشية اليومية، خاصة إذا ما كان رب أسرة، وهو ما يتطلب أن يلتحق كل من الزوجين بعمل ما، يكفل دخلهما منه الحد الأدنى للحياة، وبهذا المقتضى عملت فى مجلة «كل العرب» العراقية التى كانت تصدر من باريس، بينما عملت زوجتى مدرسة فى المدرسة الليبية التى أقامتها الحكومة الليبية لأبناء العرب فى باريس، ومن هنا استقامت لأسرتى الحياة، لكن إلى أمد قليل، ففى حرب الخليج الثانية التى خاضتها فرنسا ضد العراق، وبادرت بإغلاق مجلة «كل العرب» التى كان يصدرها العراق ورحلت رئيس تحريرها إلى بغداد، فالتحقت بمكتب جريدة الأهرام فى باريس. بمبادرة مشكورة من نقيب الصحفيين رئيس الأهرام إبراهيم نافع.

كانت حياتى وأسرتى المكونة من زوجة وثلاثة أولاد يدرسون فى جامعة السوربون، وما تتطلب من نفقات معيشية كانت تعجز مواردى وزوجتى عن سدادها، فرحت كل شهر أسحب من رصيدى فى البنك الوطنى المصرى بالقاهرة، إلى أن نفد هذا الرصيد عن آخره، وعلى حين كان كافة المصريين والعرب المقيمين، يحولون من باريس إلى القاهرة الفائض من مواردهم، كنت الوحيد الذى يحول مبالغ مالية شهرية من القاهرة إلى باريس..!

لكن وقع ما لم يكن فى الحسبان، بما أصابنى بضربة مالية قاسية كانت نازلة عاصفة جعلتنى فى إعسار شديد ورهيب، فقد حدث أن اختُطف من القاهرة،

المعارض الليبى «منصور الكخيا»، الذى كان لاجئا سياسيا فى فرنسا، وصل إلى القاهرة بدعوة من المنظمة العربية لحقوق الإنسان، لحضور اجتماعها السنوى حيث كان عضوا فى مجلس إدارتها، وقد اشتعلت بالغضب، فشننت حملة شديدة على المختطفين فى جريدتى الأهرام الدولى والمحرر، وكان رد الفعل «الثورى» قرار من المستشار الثقافى الليبى بفصل زوجتى من عملها بالمدرسة، وهنا حلت بى نازلة بإعسار مالى مطبق، أصابنى باكتئاب وانهيار عصبى.

وأعود إلى الحديث عن حياة الاغتراب الطويل والمرير فى فرنسا فقد بدأت حياتى فى باريس عام ١٩٨٠ متوقعا ألا تزيد على عام أو عامين، تزول من بعدها الأسباب التى حملتنى على الهجرة.

كنت من خلال رئيس اتحاد الصحفيين العرب فى ذلك الوقت «سعد قاسم حمودى» مراسلا لجريدة الثورة العراقية فى باريس، وتوقف ذلك بعد أن غادر رئاسة التحرير.

وعملت بعد ذلك فى مجلة (الوطن العربى) وظللت بها إلى أن وقعت مذابح (صابرا وشاتيلا) وعرفت أن أحد قادة المذبحة من «الكتائبيين» يدعى «حبيقة»، ومدير التحرير يحمل نفس الاسم فلما واجهته بأنه قريب لمن قاد هذه المذابح سببته وتركت نهائيا عملى بالمجلة.

وكنت أكتب فى مجلة عربية اسمها «الطليعة» مقالات بالقطعة، وبحثت عن عمل فى صحيفة أخرى فعرفت أن صديقى القديم الصحفى اللبنانى ياسر هوارى الذى كنت أراسله من الرباط فى بيروت بمجلة الأسبوع العربى أنه يعد لإصدار مجلة باسم (كل العرب) فذهبت إليه، ورحب بى، وكنت أعتقد أنه يصدرها من ماله الخاص، وكان أن سألته وهو يرحب بى للعمل معه، وبعد أن طلب منى تقدير المرتب الذى سأحصل عليه شهريا سألته:

● هل أنت غنى؟

- وكان رده: يعنى!

● معنى ذلك أنك أكثر ثراء من صاحب مجلة الطليعة، ولذلك أريد ستة آلاف فرنك شهريا..

– وأخذ يقهقه وهو يقول لى:

– لا.. سبعة آلاف فرنك!

وفعلا تم توقيع العقد، وكانت المفاجأة أن أقل مرتب فى هذه المجلة كان خمسة عشر ألف فرنك، وأن المجلة لم تكن تشغل الطابق الذى قابلته فيه، وإنما ستة طوابق بشارع «شارل ديجول» الكبير فى وسط باريس، الطابق الأرضى فقد كانت تشغله المطبعة!.

وأكثر من ذلك كان رأسمال هذه المجلة ٢٥ مليون فرنك، وأنها مجلة يصدرها وينفق عليها النظام العراقى.. وكنت أنا المصرى الوحيد بهذه المجلة.. وبأقل مرتب!

المهم.. بدأت عملى بها بإجراء حوار مع الرؤساء جعفر النميرى (السودان) وحسن جوليد (جيبوتى)، وسياد برى (الصومال)، بالإضافة إلى عدة تحقيقات صحفية عن القرن الإفريقى.

وبالمناسبة كنت فى ظل استعمار فرنسا لجيبوتى قد تسللت إليها وساعدت الثوار الوطنيين بزعامة حسن جوليد الذى حين أصبح رئيسا للجمهورية، استقبلنى بترحاب كبير..

بعد نحو عام زاد مرتبى إلى ٩ آلاف ثم إلى ١١ ألف فرنك فرنسى، ولكن المجلة فى عام ١٩٩١ أغلقت إداريا بسبب غزو العراق للكويت واشتراك فرنسا فى قوات التحالف بحرب الخليج الثانية لتحرير الكويت!

فالتحقت بمكتب «الأهرام» فى باريس فى عام ١٩٩٢.

ويؤسفنى أن أقول إن بعض العناصر السياسية العربية المعارضة لحكوماتها فى باريس، فى ذلك الوقت كانت موزعة على سفارات الأنظمة العربية المتقاتلة والبعض منهم كانوا فى خدمة الأغراض السياسية لهذه الأنظمة المتقاتلة فى الخارج، وأن هذه السفارات كانت تغدق عليهم الأموال بسخاء، وأنهم كانوا يترددون بين باريس وتلك العواصم العربية المتقاتلة ليعودوا بتوجيهات وكتابات وممارسة أنشطة لصالح هذه النظم.

وبالطبع كنت بعيدا عن هذا المناخ الملوث، ولما كان مرتبى ضئيلا وأنا أعول ثلاثة أولاد فى كليات جامعة « السوربون » فقد بادرت بالتقدم إلى المكتب الإعلامى بالسفارة المصرية لتعمل به زوجتى لمواجهة النفقات المعيشية الباهظة، وكانت مفاجأة عندما قيل لى إنه لابد من موافقة الأمن فى القاهرة ولذلك عدلت عن الطلب.

لكن أحد العاملين فى باريس من زملائى المصريين تمكن من إلحاق زوجتى للعمل بإحدى السفارات العربية بباريس والتى كلفتها بالعمل بالتدريس بإحدى المدارس التابعة لتلك السفارة فاستقامت بذلك أمورى المعيشية، ولكن كما ذكرت أننى أدنت جريمة اختطاف هذه الدولة لأحد معارضيها فى صحيفة « المحرر » التى كانت تصدر فى باريس، وفى (الأهرام الدولى) بالقاهرة، وكان الأمر مجرد وجهة نظر صحفية ورأى آخر، ففصلوا زوجتى!

وأصبحت من جراء ذلك بإعسار مالى، وفى نفس الوقت اشتد علىَّ المرض، خاصة بعد إصابتى بالعمود الفقرى على أثر عمليات التعذيب الوحشية التى تعرضت لها بواسطة زبانية المنظمة المشبوهة فى « عمان » عقب اختطافى والذى سبق الإشارة إليه.

وقرر الطبيب أن الفقرات القطنية على وشك الانسداد وإصابة الساقين بالشلل، وكان من الضرورى إجراء جراحة عاجلة بهذه الفقرات فى لندن لدى الاخصائيين فى ذلك التخصص، واتصلت تليفونيا بصديقى القديم الضابط الطيار حسن عزت (من كبار الضباط الأحرار)، والصديق سالم عزام رئيس إحدى المؤسسات الإسلامية فى لندن، وقرر كل منهما التبرع بمبلغ ٥٠٠ جنيه استرلينى مساهمة منهما فى تكاليف إجراء العملية الجراحية.

وكنت قد اتفقت معهما على نشر نداء إلى القراء فى جريدة العرب اللندنية والتى وافق رئيس تحريرها أحمد الهونى على ذلك، ولكن حدث أن اتصل بى الهونى تليفونيا فى مسكنى بباريس وقال لى: ليس هناك ما يدعو إلى نشر نداء إلى القراء، لأنه من حسن حظك أن الأمير العربى تركى بن عبد العزيز آل سعود موجود فى لندن الآن، وقد تبرع بجميع نفقات علاجك وحجز لك فى مستشفى « ميدل سكس » فى لندن، وأكثر من ذلك استأجر مسكنا بجوار المستشفى لزوجتك وأولادك، وستجد تذاكر الطائرة لك ولأسرتك فى مكتب الخطوط الجوية البريطانية فى باريس.

وبالفعل أجريت الجراحة وشفيت تماما، وأذكر أننى كنت قبيل الاتصال بالأستاذ الهونى قد طلبت من كبير حلفاء نظام عربى، وبآخر حليف لنظام عربى أيضا طالبا العلاج على نفقة أى منهما، وجاء الرد من العاصمتين بالرفض!

فما إن غادرت المستشفى بعد الجراحة حتى كتبت مقالا شغل صفحة كاملة بجريدة العرب رويت فيه قصة رفض هذين النظامين العربيين باسم كل منهما أصحاب الشعارات الثورية البراقة لعلاجى، وقصة الأمير الإنسان تركى بن عبد العزيز آل سعود، الذى لا أعرفه ولا يطنطن بأية شعارات، كان عنوان المقال على ثمانية أعمدة: «صدق الأمير وكذب محترفو الشعارات».

الغريب فى الأمر أنه عندما عدت إلى باريس وكنت فى زيارة وفد برلمانى مصرى فى أحد فنادق العاصمة فوجئت بأحد قادة النظام الذى رفض علاجى، عانقنى ويقول أمام الوفد المصرى: (أنت هاجمتنا وقبلنا هجومك، ولا أعرف لماذا رفضنا علاجك؟).

والجدير بالذكر أنه حتى هذه السنوات الطويلة لم أر هذا الأمير الإنسان تركى بن عبد العزيز الذى أنقذ حياتى فى صمت، وأنفق الكثير لإنقاذى، وهو لا يعرفنى، وقد كانت مبادرته الكريمة بمجرد أن سمع بخطورة مرض مواطن عربى يعجز عن العلاج لضيق ذات يده.

وأضيف هنا أن رئيس تحرير مجلة الإذاعة والتليفزيون فى مصر كان قد نشر منذ عامين يصف حال إعسارى وحرمانى من المعاش بزعم أنه سقط بالتقادم، وقد فوجئت فى نقابة الصحفيين بمن يقول لى إن الأمير تركى بن عبد العزيز يبحث عنى، ولم أكن أعرف أنه يقيم فى القاهرة، وعندما اتصلت بسكرتيره أرسل لى فى مكانى بنقابة الصحفيين معونة مالية طيبة أنقذتنى من ديون كانت متراكمة علىّ فى باريس، وكنت مهددا بالطرد من مسكنى. وأود أن أشير هنا إلى أنه حتى هذه اللحظة لم أر هذا الأمير الطيب الإنسان..!

والحياة فى تلك الغابة المسماة «باريس» والباهظة النفقات قادت إلى عدم قدرتى على الوفاء بالالتزامات الشهرية أمام ضآلة دخلى، وحياتى فيها ترجع إلى أنى مريض بعدة أمراض خطيرة ومميتة، وأعالج منها على نفقة التامين الصحى الفرنسى، وخاصة

الأدوية التى أتناولها وهى غالية الثمن، وإذا ما عشت فى القاهرة فمن الذى يدفع تكاليف الفحوص الدورية فى المستشفيات ونفقات الدواء، فأحد الأمراض الذى مات به كثيرون من بينهم الرئيس السابق ميتران والزميل الراحل موسى صبرى ثمن العلبة الواحدة للدواء ما يعادل ٤٠٠ جنيه، وأتناول ثلاث علب كل شهر مدى الحياة، بالإضافة إلى أدوية أمراض أخرى خطيرة أعالج منها دوريا فى مستشفيات باريس!

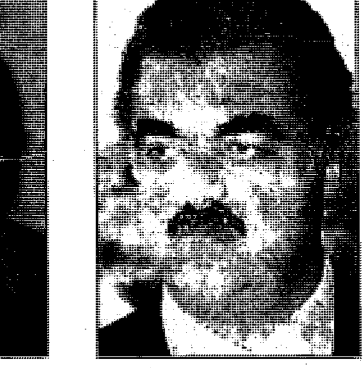
ومنذ عامين تراكمت الالتزامات المالية الشهرية وأصبحت مهددا من جديد بالحجز على أثاث مسكنى والطرد منه، وأصبت باكتئاب حاد استعصى على الأطباء علاجه لاستمرار عوامله وأسبابه الممثلة فيما حل بى من إعسار شديد، وعندما أوشكت على الموت بعثت برسالة إلى صديقين قديمين لى هما: طلال سلمان رئيس تحرير جريدة السفير فى لبنان، وسامى المنيسى مدير تحرير جريدة الطليعة الكويتية وزميلى فى لجنة الحريات باتحاد الصحفيين العرب والذى لم يرد على رسالتى!

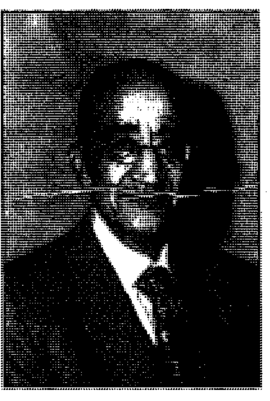
● وقد جاءنى رد طلال سلمان بكل ما فى القيم العربية والإنسانية وعمق الوفاء فقد خاطبنى تليفونيا وأنا على فراشى مريض بالاكتئاب، وأخبرنى بتسلم معونة مالية شخصية منه فى أحد بنوك باريس.

● ونشر فى جريدته مقالا بارزا بعنوان نداء استغاثة لإنقاذ الفارس العجوز سعد زغلول فؤاد، وعدّد فيه بعضاً من تاريخ كفاحى فى مصر والعالم العربى.. وبأننى فى حالة إعسار، مناشدا مساعدتى!

● وكان أول من استجاب لهذا النداء رئيس وزراء لبنان فى ذلك الوقت رفيق الحريرى الذى أبدى نحوى تعاطفا ومؤازرة كريمة لحياة الاغتراب فى باريس أمر بمعونة تصلنى فى مسكنى جنوب باريس!!.

وللعلم مثلما حدث معى تجاه الأمير تركى بعدم رؤيتى له حتى الآن، كذلك رئيس الوزراء رفيق الحريرى لم أره أيضا حتى هذه اللحظة وهو الذى تكتمل فيه كافة أوصاف الزعامة الشعبية على صعيد الأمة العربية وأتمنى التمكن من لقاء كل منهما للشكر والعرفان.





رفيـــق الحريــــري   د. علــــي السمـــان

ومن الذين وقفوا إلى جانبى أيضا فى محنتى الصديق الدكتور على السمان (رئيس مؤسسة الحوار بين الأديان)، وذلك منذ أن أغلقت الصحيفة التى كنت أعمل بها، حتى أنه عندما علم بالضرائب الفرنسية والتى كنت أعجز بمواردى الضئيلة عن الوفاء بها بادر بسدادها على الفور!.

ولا أنسى زميلى فى الكفاح المسلح بالقنال محمد بشارة المقيم حاليا فى باريس بالوقوف إلى جانبى.

وفى هذا الباب، أشيد بالمواطن العربى الحر الأصيل، الكاتب المستنير «محمد مساعد الصالح»، الذى كان صاحب ورئيس تحرير جريدة الوطن الكويتية، والذى كان فى جميع كتاباته الصحفية يغمس قلمه فى ضمير الأمة العربية، هذا المواطن الذى ينبض بالقيم الإنسانية والعربية، صاحب مصداقية الكلمة الحرة المطبوعة، عندما طالع فى إحدي الصحف العربية التى كانت تصدر من بيروت سوء أوضاعى، لم يقنع أن يبعث إلي بمعونة انقاذ، وإنما حضر خصيصًا إلىّ فى باريس، وأعاد إلىّ وأسرتى استقامة أوضاعى المعيشية ..، ولا أعرف اليوم عنه شيئًا، بعد آخر أصبحت جريدة الوطن يصدرها آخرون على نهج مؤسسها «الالتزام بحرية الكلمة ومسئوليتها».

ومن الذين بادروا بالاستجابة لنداء طلال سلمان الزعيم معمر القذافى، والرئيس ياسر عرفات، وعلى ذكر الأخ العقيد معمر القذافى فهو يحمل إلىّ ودا واحتراما لنضالى التاريخى، وأنا أحد المعجبين بمواقفه على الصعيدين العربى والإفريقى، كما

تربطنى صلة صداقة وود كبيرين بنائبه السابق عبد السلام جلود الذى عرض علىَّ رأسمال ضخمًا لإصدار جريدة عربية فى باريس فرفضت، ونفس العرض بشأن الصحيفة وإصدار كتاب كان من طارق عزيز الذى لا يزال صديقا شخصيا أحترمه وأكن لكتاباته وسياساته تقديرا رفيعا، والعرض كان علانية، من كبير الخبراء المصريين فى الرئاسة العراقية (أ.ع. الدين)، والذى كان مقربًا من الرئيس العراقى، وذلك أثناء مأدبة عشاء، أقامها طارق عزيز وزير الإعلام ذلك الوقت، للصحفيين المصريين العاملين فى جريدة الثورة ببغداد، والذى كان يتصدر المائدة، أن أصدر كتابًا عن الرئيس صدام حسين، يتسم بالأهمية أن كاتبه صحفى مصرى، وأضاف أنه سيمدنى بجميع النقاط والبيانات الخاصة بموضوع الكتاب، وستقوم وزارة الإعلام بطباعته وتوزيعه، فاعتذرت علي مسمع من الجميع، محتجًا أنه ليس من المستحسن أن أصدر هذا الكتاب وأنا مقيم فى بلده وفى ظل رعايته، لكننى ساصدره حين أعود إلي مصر، بعد زوال الأسباب التى حملتنى علي مغادرة مصر إلي بغداد ..، وهنا التقط القفاز زميلى الصحفى أمير اسكندر الذى كان بين الحضور، فأصدر هذا الكتاب بعنوان «صدام حسين قائداً ومناضلاً وإنسانًا» والذى قامت وزارة الإعلام بطباعته وتوزيعه، وأصدرت طبعتين منه باللغتين الفرنسية والإنجليزية ..، وقيل أنه منح مكافأة سخية، كما منح رأسمال إصدار صحيفة ثقافية شهرية من باريس أصدرها بالفعل لعدة شهور ...، وفى هذه المأدبة وعلى مسمع من الجميع، عرض طارق عزيز أن أكتب مذكراتى النضالية وما فيها من مغامرات، فاعتذرت شاكراً محتجًا بأن ذلك مكانه البديهي يكون فى مصر بادئ ذى بدء .. هذا وبصدد طارق عزيز، الذى يشغل اليوم موقع نائب رئيس الوزراء العراقى، والذى هو الرئيس صدام حسين، تكتمل فى شخصية أوصاف المثقف العربي الثورى، بل هو أنموذج لامع لهذا المثقف، وجميع كتاباته وتحركاته السياسية، من منطلق عربى قومى، وبوعى وموضوعية مستنيرة .. وهو نموذج رفيع للمثقف الثورى العربى.

والقصص الإنسانية التى ذكرتها تعلن بوضوح أن المجتمع العربى لا يزال مليئا بالخير والقيم الرفيعة المتوارثة، رغم أن زمن التردى قائم.

كما أن هناك نماذج لامعة شريفة وسط الجالية المصرية فى فرنسا مثل الدكتور مصطفى صفوان رئيس رابطة أساتذة علم النفس فى فرنسا ودكتور يوسف الجمال

عالم الفضاء الذى وراء نجاح الصاروخ إيديان ورجل الأعمال النابه محمود عمارة الذى سخر إمكانياته لخدمة الجالية المصرية.

ولا أنسى شكر صديقى وزميلى محمود سامى الذى دائمًا يحمل هموم الصحفيين ويقوم بحل مشاكل الجميع أيًا كانت.


محمود سامي

وذلك بالإضافة إلى ومضات مضيئة ما زالت تعلن عن أصالة هذه الأمة العربية التى من المفروض أن تكون ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾.

* * *

مقال طلال سلمان رئيس تحرير جريدة السفير:

نداء لإنقاذ الفارس العجوز: سعد زغلول فؤاد

يُقتل الحصان الجريح حفظاً لعزة الفروسية وتخفيفا من آلامه التى لا تشفى.

فماذا عن الفارس الذى يُفرض عليه التقاعد الإجبارى، فلا تصل يده إلى لجام حصان ولا إلى رمح أو سيف؟!

إن إذلال الفارس يمس الناس جميعاً، لأنه بطلهم، ولأنه يتجاوز بعمله العادى والمألوف فيدخل الأسطورة، ويخرج منهما غالباً فى الأهازيج والفولكلور الشعبى ويستقر اسمه داخل الوجدان.


طـــلال سلمـــــان

سعد زغلول فؤاد فارس عجوز الآن، ظل يُضرب على يديه حتى أُسقطت أصابعه مع الرمح، وظل يُضرب على رأسه حتى أسقطت أفكاره حماسته وأسنانه وكاد ينسى اسمه، وبعدما اطمأن ضاربوه إلى أنه غادر ميدان الفروسية رموه فى

الإهمال والعوز والنسيان ومرارة المنفى لكى يموت ألف مرة فى اليوم!

والصحيح أن سعد زغلول فؤاد الذى بدأ حياته صحفياً صاحب قضية، وقاده إيمانه بحق وطنه فى الحرية إلى العمل السرى، وإلى ما بات يسمى بلغة اليوم «الإرهاب» وكان يسمى فى الزمن الجميل «العمل الفدائى»، هو خليط من الفارس والصعلوك، الذى لم يغادر بمشاعره الطفولة فظل فيها حتى اليوم، وهو فى الرابعة والسبعين من عمره، وقد حافظ على براءة مريبة حتى وهو يتورط فى علاقات مع قوى سياسية لم تكن دائماً واضحة الأهداف والمقاصد، ولا هى كانت دائما تستحق تضحياته الجسام.

من قبل الثورة فى مصر وإلى ما بعد الثورة فى فلسطين، ظل سعد زغلول فؤاد اسماً يثير من الإعجاب بقدر ما يثير من الإشفاق؛ فهو مقاتل محترف ضد القوى المعادية لطموحات الأمة.

ولطالما انتدب سعد زغلول فؤاد نفسه لمهمات انتحارية لم يكلفه بها أحد، ولم يكن أحد على استعداد لتحمّل مسئوليتها، ربما بسبب حماسته التى تلغى العقل، وربما بسبب من سذاجته التى تلغى الخطر، وربما بسبب من سرعة تصديقه لمن يثق بهم من القادة والرموز، قاتل سعد زغلول فؤاد ضد من كانوا يصنّفون بين «الخونة» و«المنحرفين» و«أتباع الاستعمار»، فى كل أرض عربية.. وكانت النتيجة أنه استُضيف فى مختلف سجون الوطن العربى من «بغداد إلى تطوان» مروراً بلبنان الذى نادرا ما سجنت سلطته أحداً لأسباب بحت سياسية.

إن جسمه خريطة للآلام العربية، مشرقاً ومغربًا.

قاتل مع «فدائيى القناة» فى مصر، قبل الثورة، وقاتل ضد من اتُّهموا فى وطنيتهم من رجال العهد الملكى، وطلب مرة من صديق له طيار أن يحمله معه فى طائرة شراعية ومعه حقيبة ملأى بالقنابل كان ينوى إلقاءها على قصر فاروق.

وقاتل مع ثوار المغرب العربى الذين هبوا على امتداد الأوراس لإجلاء المستعمر - المستوطن الفرنسى واستعادة وحدة المغرب.. فلما تفككت الثورة الموحدة إلى ثورات قطرية قاتل فسُجن فى المغرب، ثم قاتل وسجن فى الجزائر، وقاتل وسجن فى تونس، ثم انتقل إلى المشرق فقاتل وسجن فى بغداد وفى دمشق وفى بيروت (١٩٥٨).

أما مع الفدائيين الفلسطينيين فقد قاتل في العديد من المواقع، وشارك في الكثير من العمليات الخارجية، وكان جزاؤه أن أرسل إليه بعض « المهرولين » المبكرين إلى الاستسلام من القادة الفلسطينيين، بعض « الأشاوس » فحطموا له جمجمته ورموه ليغادر الحياة بهدوء، في سجن « ثورى » في بعض أقبية عمان.

هذا غيض من فيض عن هذا الفارس الذى نال مكافأته ضربا واضطهادا وسجنا وطردا في مختلف أرجاء الأرض العربية.

وحين جاء زمن التقاعد الاضطرارى، عاد سعد زغلول فؤاد إلى الصحافة ليتفرغ لها، مفرغا في صفحات العديد من المجلات والصحف العربية الصادرة في « المهاجر » الأوروبية بعض تجاربه وأوجاعه ومعرفته بالقيادات وتاريخها وتحولاتها التى كثيرا ما استعصت على كل منهم.

من باريس، حيث تفرغ سعد زغلول فؤاد لرعاية أسرته في بيت ضيق وبرزق ضيق وبهامش للعمل ضيق جدا، وصلتنى « رسالة استغاثة » من هذا الفارس العجوز الذى أصبح الآن « فريسة تمزقه بقسوة وبلا رحمة الفاقة والحرمان والحاجة ».

سعد زغلول فؤاد وعائلته مهددان الآن «بإجراءات عقابية صارمة»، بعدما تزايدت عليه الديون، فعجز عن الوفاء بالتزاماته، خصوصا وقد استغنت إحدى المدارس العربية في باريس عن خدمات زوجته التي كانت تدرّس فيها.

كان كل ما تبقى لسعد زغلول فؤاد قطعة أرض زراعية ورثها عن والده، وقد ذهب إلى مصر فباعها، وعاد ليسد بثمنها ما أمكن من الديون المتراكمة، خصوصا أن ولديه يتابعان دراستهما الجامعية، ومرتبه الضئيل لا يكفيه لنفقات المعيشة.

«أدعو الله ألا أصاب نتيجة محنتى هذه بسكتة قلبية أو بانفجار في المخ من فرط ارتفاع ضغط الدم أو بسبب ما يغمرنى من اكتئاب».

أما مطلب سعد زغلول فؤاد فهو أن تتيسر له فرصة عمل، ولو مؤقتة، في بعض صحف الخليج، لعل ما قد يخصص له من بدل يساعده في سداد الديون والعودة نهائيا إلى مصر..

يقتل الحصان الجريح، حفاظا لكرامة الفروسية،

أما الفارس العجوز فهو يتحول – بتاريخه – إلى رمز، ويحفظ عادة في الوجدان.

ومن المعيب ألا يجد مثل هذا الفارس الذى فرض عليه التقاعد الإجبارى، وعزت عليه السبل لكى ينهى حياته بكرامة وهدوء، وفى أرضه وبين أهله، من يساعده على أن يبقى صفحة مضيئة فى النضال القومى بدلا من أن ينتهى فى قلب « الفضيحة ».

ليس الوقت مناسبا للعتاب أو اللوم أو للتساؤل: ولماذا يعيش سعد زغلول فؤاد فى باريس؟!

لقد جاء إليها مضطرا، أو بالأحرى هاربا (من رفيقه فى العمل السرى وشريكه القديم فى محاولات، الرئيس المؤمن محمد أنور السادات)، وعاش فيها مضطرا، وفى ظروف شديدة البؤس، برغم أنه كان يعمل بكل طاقته حيثما لاحت له فرصة عمل.

لقد سقط الحصان فطرح فارسه أرضا فى جليد الغربة ووحشة الإحساس بالوحدة.

فلننقذ الفارس، ثم نحاسبه بعد ذلك، إن تبقت فرصة للحساب.

الخاتمة

حسبى الله ونعم الوكيل!



وبعد.. هذه كلمة لابد منها فى ختام هذا الكتاب:

أشاهد فى فرنسا حيث أقيم، الذين حملوا السلاح فى مقاومة الاحتلال الألمانى النازى لفرنسا، إبان الحرب العالمية الثانية، موضع تكريم كبير من الدولة، وهم اليوم فى شيخوختهم، حيث يتقدمون الصفوف فى الأعياد والاحتفالات الوطنية، ويتقاضون مرتبات تقاعدية عالية، ويتمتعون بضمانات كاملة اجتماعية وصحية، حتى تنقلاتهم فى وسائط النقل العامة بالمجان، وقضاء شهور الصيف فى المصايف الفرنسية بالمجان تشمل السكن والوجبات الغذائية، ولهم أولوية الدخول والخروج إلى ومن المطارات فى تنقلاتهم الجوية.

على حين تجرى معاملتى من الدولة بالروتين الأمنى، فلكونى حملت السلاح يوما ضد قوات الاحتلال فى مصر، فى ظل حكومات كانت موالية، وبعضها كانت

متحالفة مع الاحتلال، فقد وضعت فى قائمة الخطرين على الأمن، وحتى اليوم وبعد انقضاء ٥٤ عاما على مقاومتى المسلحة للاحتلال البريطانى لمصر، أعامل من أجهزة الأمن معاملة الأعداء الخطرين، وتصدر التوصيات العليا بالتضييق عليّ فى الرزق، فحين سمح لى بمواصلة عملى الصحفي عام ١٩٦٥ بعد ممانعة شهور طويلة، اشترط سامى شرف لعملى أن أكون بالمرتب الأقل، وأصبح ذلك عرفا يطبق عليّ فى كافة الصحف التى عملت بها، ومن هنا وما يحل بى من عقوبات فى رزقى، أصبحت دائما فى أوضاع إعسار مزمن.

ومن هنا تجىء المساعدات المالية التى يقوم بها بانتظام الصديق المصرى الأصيل الدكتور على السمان الذى تتوزع إقامته بين القاهرة وباريس، وما إن أشكره حين يبادر بدفع نصيبى فى الضرائب الفرنسية، أو شراء تذاكر الطائرة لى حتى يقول: هذا حقك على مصر، ولا يسعنى إلا أن أقدم له تحية وتقديراً لشخصه بأوصافه المصرية الأصيلة.

● وفى هذا الصدد يبرز اسم الصديق الكاتب الصحفى العربى النقى الشريف اليد والقلم طلال سلمان صاحب ورئيس تحرير جريدة السفير، على نحو ما سبق وذكرت.

● كما أدين بالشكر لرجل الأعمال «محمد بشارة» المقيم فى باريس، والذى كان بين الفدائيين المتطوعين فى كتيبة خالد بن الوليد التى كنت أقودها فى معركة الكفاح الشعبى المسلح، الذى نشب عقب إلغاء المعاهدة المصرية الإنجليزية فى أكتوبر ١٩٥١ ضد قوات الاحتلال الإنجليزى فى منطقة قناة السويس.

● هذا وأخص بالشكر المناضل العربى التاريخى عمر الحامدى، الذى دأب على إعانتى حين كان يشتد بى الإعسار، وأعجز عن مواجهة ديون الجهات الرسمية الفرنسية، حيث تتراكم الرسوم المفروضة وتتضاعف غراماتها..



عمر الحامدي

● ونشكر أيضًا زميلى التاريخى الصحفى منصور القصبى الذى كان كلما حضرت إلى القاهرة ويكتشف ضيق أوضاعى يبادر بإعانتى دون أى إشارة أو نداء منى..

● شكراً للدكتور عرفان شافعى على معونته الفورية العاجلة التى أبرق بها إلىَّ من مقر عمله فى الكويت فور علمه بأوضاعى..

وبعد.. أصاب بحزن وأسى على ما أصبحت أوضاعى المعيشية عليه فى عمرى هذا اليوم ٧٧ سنة، قضيتها كلها فى كفاح وطنى فى بلدى الغالى مصر وفى الوطن العربى وبعض بلدان أفريقيا، وأقول إن حبات التراب وذرات الرمال فى مصر، تظل مبللة بقطرات من دمى وعرقى على مر الزمن..

وأود هنا أن أشير إلى أنى فى كل مرة أعود فيها، إلى وطنى وكل حبى لمصر، يحتجزنى رجال أمن المطار عدة ساعات، وفى أيديهم جواز سفرى يتفحصون صفحاته ويطيلون احتجازى، فاسمى بين قائمة ترقب الوصول..!

والغريب فى هذا الصدد، أن أحد أصدقائى لواء فى الجيش يعمل فى أمن رئاسة الجمهورية، حاول أن يكون فى استقبالى عند وصولى إلى القاهرة، وعندما أخطر رجال المباحث العامة بذلك حذروه بشدة بما جعله يعدل عن محاولته هذه كما ذكر لى، وقال إنه حين تساءل عن الكيفية التى يمكن أن يرفع بها اسمى من ترقب الوصول فى مطار القاهرة، أجابوا أن يموت سعد زغلول أو يقوم بصفة رسمية بتغيير اسمه باسم آخر، كما لم يفلح الدكتور أسامة الباز فى ذلك، وكان ذات مرة على نفس طائرتى من باريس إلى القاهرة، وصحبنى بمستقبليه من كبار ضباط الأمن إلى حيث أنجز احتجاز جواز سفرى سريعا.

وبعد، هذه أوضاعى البائسة والمحزنة، ألست «أخطر رجل فى مصر»، تلك المقولة التى رد بها عبد الناصر على أحد خاصته من الأطباء، كان وما زال صديقى، وكان قد حاول فى لحظة صفاء للرئيس، أن يناشده التوصية برفع محاصرتى بإجراءات أمنية، فالتقارير التى لديه عمن أُطلق عليهم «المناهضون للثورة» كانت تنعت أوصافى بالخطورة، ولا يزال هذا الوهم هو الذى أعامل أمنيا بموجبه، وأود هنا أن أشير إلى أن

السبب وراء استمرار إقامتي في باريس، هو العلاج المتقدم المجاني والذي يدفعه عني التأمين الصحي الفرنسي، ولي حرية اختيار المستشفى والطبيب والصيدلية..

كما أن أمراضي في شيخوختي عديدة وخطيرة، ولا قبل لي في القاهرة بمعالجتها فيما يطلقون عليه اسم المستشفيات الاستثمارية... أي للتربح... وياللعجب أصبح المرضى في زمننا الرديء سلعة للاستثمار والتكسب!

أقول للذين يحاربونني وفرضوا عليّ سياسة القهر المعيشي، عقابًا على كفاحي المتعدد الجبهات، من أجل حرية الشعوب وحقوق الإنسان: إنني في عمري هذا، على استعداد دائمًا لحمل السلاح دفاعًا عن الحرية والحقوق الديمقراطية للشعوب، خاصة الشعب الفلسطيني، الذي ضرب بكفاحه البطولي والأسطوري، أروع أمثلة الكفاح والتضحية، ومن المحتم أن ينتصر ويقيم دولته المستقلة على أرضه الوطنية وعاصمتها القدس، فالشعوب لا تفنى، وإرادتها لا تقهر..

وأقول للذين اجتمعت قلوبهم على محاصرتي بأوجه الفاقة للموت جوعًا: إنه قد فشل العديد من الطغاة وأبالسة الشر أعداء الحياة في إعدامي، فكم من مرة جرت محاولة تصفيتي واغتيالي...، وكم من مرة لفُقت لي الاتهامات وأعدوا حبل المشنقة لعنقي.. لكن الله سبحانه وحده أحبط شرهم ورد كيدهم في نحورهم، ويكفيني فخرًا وشرفًا، أن فضلاء الناس وشرفاء المواطنين يحيطونني بقلوبهم الطاهرة، وبكل مشاعرهم يساندونني، ولا أخشى غير الله

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

صدق الله العظيم

سعد زغلول فؤاد

يونيو ٢٠٠١

جيفـــارا ..مصري

كل من شارك فى الحركة الوطنية منذ النصف الثانى من الأربعينيـــات سمـــع اسمـــه فى المنتديات والمقاهى والاجتماعات العلنية والسرية .. وفى أوساط الطـــلاب والمثقفـــين والنقابيين .. سمعت باسمه قبل أن التقى به. وفى إحدى المرات همس الزعيم الطلابى عادل فهمى فى أذنى قائلاً : "إنه زميلى فى كلية الحقوق، ونحن نستذكر المحاضرات سوياً ".

ووعدنى بأن يرتب لقاء يجمعنا ، ولكن الأحداث كانت تتوالى بسرعة.

انفجارات ..قنابل ..مظاهرات ضد الملك، مصادمات فى الشوارع ومع كل حـــدث، كان يلمع اسم "سعد زغلول فؤاد".

ها هو يتظاهر بأنه صحفى إنجليزى ويلتقى بكاتب كبير ينطبق عليه القول الشائع :

" نهايته أنكرت بدايته" لكى يكشف القناع عن حقيقة موقفه الموالى للإنجليز.

اسم سعد زغلول يرمز للعمل الفدائى ، ولكل نشاط سياســي يقتحـــم المحظـــورات ويتحدى أكبر الرؤوس.

عرفته ساحات المعارك فى ميادين متعددة على امتداد العالم العربي.

فهو فى كل مكان ، تموج فيه تيارات العصيان والثورة .عرفته سجون كثيرة فى أكـــثر من عاصمة . إنه جيفارا مصرى صاحب قضية ورسالة .. وهب حياته للقضايا الكـــبرى التى تتعلق بالمصالح القومية العليا لأمتـــــه.

وإذا كانت حركة سعد زغلول فؤاد قد هدأت فى السنوات الأخيرة، فإن عقله لم يـهدأ و روحه الثائرة لم تخمد، فهو من معدن خاص ومن طينة غير عادية يفخر بها كل مصـــرى وعربى.واسمه كفيل بإعادة الثقة إلى النفوس بالقدرة على الانتصار ، وإلحاق الهزيمة بكـــل أعداء الحرية والعدل الاجتماعى.

نبيل زكى

رئيس تحرير الأهالى

الفهرس

رقم الإيداع بـدار الكتب المصرية

١٠٠٩٤ / ٢٠٠١

الترقيـم الدولـي I. S. B. N.

977 - 209 - 070 - 8



قال لى الرئيس
خليك معارض



مذكرات فدائي مصرى

الأستاذ سعد زغلول فؤاد من النماذج المضيئة فى حياة مصر التى تقدم قدوة للشباب .. عرفته شاباً متحمساً مستعداً للتضحية بالنفس في سبيل الله والوطن .. مستعداً لدخول كل المعتقلات .. مع كل في شتي القضايا الوطنية .. وكان الاستقلال الوطنى هو البود لجهاده .. وارتبط اسمه بالجهاد المسلح ضد جنود الإحتلال وشهدت أروقة المحاكم على هذا الجهاد الذى لم يستهدف

عرفت سعد زغلول فؤاد الذى تأثر بفكر مصر الفتاة وحر عنها وهو فى غيابات السجون .. وهو الذى حول كلمة أحمد حسي المكان الطبيعى لشاب حر فى أمة مضطهدة) إلى منهج لح بالسعى إلى السجن ، ولكن بعدم جعل السجن حائلاً أو الوطنى ضد المحتل البريطانى .. وضد الاستبداد .

ومازلت أحتفظ فى مكتبتى بكتابه (الظلم فى مصر) الذى كتب الأجانب فى أغسطس ١٩٤٦م .. وهو وثيقة مكتوبة تشهد بنضجه الفكرى المبكر .

ابراهيم شكرى